رواية جماعية

ثلاثة أجيال تحت جسر الرئيس

بإشراف الكاتب السوري: **جورج كدر**

ثلاثة أجيال
تحت جسر الرئيس

الطبعة الأولى - 2024

عدد النسخ 2000

عدد الصفحات 400

قياس الكتاب 21.5×14.5

الترقيم الدولي: 9-6030-0-9953-978

جميع الحقوق محفوظة©

مساحة لنا لنصور دولتنا
www.dawlaty.org

«دولتـي» مؤسسـة غـير ربحية تأسسـت عـام 2012، تؤمن باللاعنـف والمقاومـة السلميـة وتعمل على تحقيـق التحول الديمقراطـي والسلمـي في سوريا نحو دولـة تحترم حقوق الإنسان والمرأة.

تم انجاز هذا العمل بدعم من

«مؤسسة فورد Ford Foundation».

ثلاثة أجيال
تحت جسر الرئيس

رواية جماعية

بإشراف الكاتب السوري

جورج كدر

دولتي

كتّاب الرواية

فوز الفارس

رافي ميناس

ملاذ الزعبي

وائل ريحاني

راما الحاج علي

هدى الجوادي

جابر بكر

جورج كدر

كلمة دولتي

لكل سوري وسورية ذاكرتهم مع الحدث السوري، ذاكرة الحرب والفقد والموت ولكن أيضاً ذاكرة الثورة والتعاطف والصمود، هذه الذاكرة أصبحت اليوم جزء من هوية السوريين والسوريات وستطبع هوية الشعب السوري إلى الأبد.

يبرز العمل على الذاكرة كأمر حاسم لمساعدة المجتمعات على بناء نفسها والتعلم من تجارب الماضي والتعامل معه وفهمه، كما أنها تسمح بفهم تأثير الذاكرة الفردية والجماعية للنزاع المسلح على حياة المتضررين من الحرب، وتساهم بتبني نهج أكثر تشاركية في العدالة الانتقالية يتجاوز التوعية والمناصرة نحو إشراك المجتمعات في بناء تجربتها الخاصة حول شكل العدالة المنشودة، وأخذ دورها في فرصة تاريخية لإعادة تعريف العقد الاجتماعي في سوريا.

تأتي رواية «ثلاثة أجيال تحت جسر الرئيس» كعمل أدبي مكتوب من التاريخ الشفوي السوري في سياق استعادة حق السوريين والسوريات ببناء السردية السورية بأنفسهم، وإعادتهم إلى قلب المشهد السوري

حاضرين مرئيين تحت النور بصمودهم وتضحياتهم وخساراتهم وشجاعتهم ومشاعرهم بمواجهة سرديات القتلة والمجرمين.

نرجو أن يشكل هذا العمل استمرار لنضال السوريين والسوريات في إيصال الصورة والمشهد الحقيقي لما جرى في هذه الحقبة الحاسمة من تاريخ سوريا، ومساهمة في دعم المجتمع السوري في المضي قدماً في تطلعاته نحو السلام والوصول إلى مستقبل أكثر عدالة.

تتقدم دولتي بالشكر الجزيل لأولئك واللواتي شاركونا قصصهم وائتمنونا عليها، ولكل من ساهم ودعم وشارك في عمليات جمع وتوثيق وحفظ التاريخ الشفوي السوري.

كما تتقدم بالشكر إلى فريقها المثابر الذي عمل بجد على مدى سنوات كي يظهر هذا العمل إلى النور.

شكر وتقدير

كل الشكـر والتقدير للروائييـن والروائيـات السوريين والنقاد الذيـن تفضلـوا بقـراءة هـذه الروايـة وزودونـا بملاحظاتهم القيمـة، والشكر والتقدير للروائييـن والنقاد الذين شاركوا في ورشـة عمل حـول كتابة الروايـة وتحدثوا عـن تجربتهم الثرية وهم:

الروائي فواز حداد.

الروائية روزا ياسين حسن.

الروائي والناقد هيثم حسين.

الروائية والناقدة الدكتورة آراء جرماني.

الروائي نبيل الملحم.

هذه رواية واقعية، وأي تطابق لها مع الخيال محض صدفة

مسارات أبطالها حقيقية، التقت مع مسارات كُتّاب روايتهم، ليصبح الكاتب وبطله جزءا من الحدث الروائي. وإن كان لكل بطل مساره الخاص، إلا أنه سيشكل في النهاية قطعة في فسيفساء مشهد عام غلبت عليه روايات الفقد والاعتقال والشتات، وأمل بخلاص لا يبدو قريبا، لكنه ليس مستحيل المنال.

مقدمة لحرب ليست أهلية

جورج كدر

ذات صباح نهض الطفل السوري «إيلان» من نومه، خفيفا كدماء المرحين، واضحا كعلامة فارقة في رحلة موت شتاتنا الطويل، لم يعلم أحد أنه كان يمازح أمه بغرقه، يمازحنا، كعادة الأطفال الأشقياء عندما يريدون من أمهم أن تعطيهم قطعة حلوى ولا تفعل. يقولون إن الأطفال الأشقياء هم الأكثر ذكاء، وكذلك كان إيلان...

إيلان استيقظ صباحا، وهو يقلب الصحف العربية والعالمية والهاشتاغات التي نقلته من طفل بسيط يحب الحلوى والضحك، إلى نجم عالمي. ضحك ملء شفتيه الرقيقتين، ثم غرق في بكائه، صرخ خائفا: أمي لا أرى أخي! كان يلعب معي لعبة الموت كي نخيفك وتعطينا قطعة الحلوى، أين أجده يا حبيبتي؟

سأكشف لك سرا يا أمي! أخي غالب لم يُجِد لعبة الموت مثلي، أعتقدُ أني كنت أشطر منه.. رائع! سأحصل إذا على ملايين قطع الحلوى لأداءِ موتي المذهل. لا عليك يا أخي سأعطيك نصفها، فنحن شركاء في لعبة الموت التي تلهب مشاعر البشر، كبصيص عود ثقاب لا يلبث أن ينطفئ.

هل تعلم يا غالب، الموت صار صورة، وكلما كان أداء البشر فيها مؤلما وصادما، حاز على قطع حلوى أكثر، مخبوزة بدموع الخوف. سأخبر أصدقائي الأطفال بذلك كي يتقنوا موتهم. أتذكر الآن صورة صديقي محمد الذي كان يلفظ أنفاسه الأخيرة بعد أن قصفوا الغوطة بسلاح غريب يقتل مئات البشر في ثوان قليلة، أتذكره والزبد يخرج من فمه، تماما كالزبد الذي خرج من فمي وأنا أمثّل دور الموت غريقا، كان أداؤه رائعا، لكنه لم يكن كاف ليعره أحد اهتماما، تركوه وعشرات الأطفال على هامش صفحة الرواية وهم يتنازعون حول المجرم البارع الذي قتلهم جميعا...

أتذكر ياسمين التي دفنت حيّة تحت الانقاض منذ 4 سنوات، ولم يستطع أحد إخراجها إلى اليوم، كم أنتِ بارعة يا ياسمين في لعبة الاختفاء...

صور بلا دماء... توجع أكثر ... تحفر عميقا في قاع عجزنا... صور بلا دماء تعني أن الموتى نيام، ولا بد أن يستيقظوا يوما ليوقظوا فينا وجع رحليهم...

ماما ماما، أين محمد؟ أين ياسمين؟ سأخبرهما أني كنت أبرع منهما في موتي الاسطوري، أظن أن المتعاطفين معي أعجبهم موتي أكثر من موتهم، كان موتي دراميا أكثر، أدرت لهم مؤخرتي وجعلت حذائي في وجههم، فأحبوني لأني لم أظهر لهم ضعفي، مُتُّ غريقا وكفى.

لا عليكم يا أصدقائي، سأتقاسم معكما ومع أخي غالب قطع الحلوى، ستكفينا جميعا... نعم! ستكفينا، وستكفي آلاف الأطفال الذين

أدّوا دور موتهم، اداءاً رائعاً. العالم الأحمق لم يعلم أنهم هم من اختار الموت خنقا تحت الانقاض أو قنصا أو غرقا في البحر أو اختناقا في سارين السفاح وقبور شاحنات اللجوء في بلاد الحرية، ليصيروا صورة...

ماما ماما، لماذا يحتاج البشر إلى صورة طفل ميت، ليدركوا كم هم جبناء؟

هؤلاء البشر لم يحزنوا عليّ، هم فقط خافوا أن يلقى أطفالهم الموت المرعب الذي لاقاني، الموت موجع يا أمي، لكنه يوجع الأحياء فقط ...

أنا لم أمت، هم الموتى... نعم هم الموتى!

بسخرية مؤلمة كتب صحفي ألماني ساخر مناضل ضد النازية يدعى كورت توشولسكي Kurt Tucholsky مقالا في العام 1932 عنوانه «تعلم أن تضحك بدون بكاء» متسائلا فيه عن الحروب وضحاياها، ليأتي الجواب على لسان دبلوماسي من الخارجية الفرنسية بنكتة موجعة تقول: الحرب؟ لا أستطيع أن أجدها فظيعةً لهذه الدرجة! موت رجل واحد: كارثة. موت مائة ألف: إحصائية.

نسبت هذه النكتة إلى الزعيم الروسي ستالين على أنها رده على الكوارث التي تسببت بها المجاعة التي ضربت أوكرانيا مبررا حصدها أرواح البشر وتراخيه عن اتخاذ فعلٍ يوقفها، لكن صداها كان تردد، قبل توشولسكي وستالين، في قصيدة كتبها عام 1759 كاهن وشاعر بريطاني يدعى بيلبي بورتيوس Beilby Porteus، كرس حياته للنضال في سبيل منح الحرية للعبيد عنوانها: «الموت، عمل شاعري» قال فيها:

الأكثر فظاعة وعارا وفضيحة في طبيعتنا البشرية،
أنها ولإشباع شهوة السلطة تتفاخر بالجريمة
جريمة واحدة تصنع شريرا، ملايين الجرائم تجعل منك بطلا
للأمراء امتياز القتل، والأرقام تقدس الجريمة
آه! لماذا ينسى الملوك أنهم بشر؟

هذا العطب متأصل فينا إذا!

حاول علم النفس الخوض عميقا لفهم هذا العار الذي يعجن بارود الطغاة بملح دم ضحاياهم، كان الصادم بالنسبة لهم، وغير المفهوم، هو ميلنا للتعاطف مع الضحية فقط في وقت هم يحتاجون لفعل يخلصهم من ألمهم، والأكثر غموضا هو تطرف البعض بالتعاطف مع الجلاد على حساب الضحايا أنفسهم. كان الأمر معقدا جدا، فالخدر النفسي الذي يضرب جسد البشر أمام عنف الطاغية/ الكارثة يشلّهم تماما.

انتبه فرويد رائد التحليل النفسي إلى مأساتنا تلك في كتابه قلق الحضارة ص 41 وأخبرنا أنه و: بغض النظر عن مدى رعبنا من معاناة عَبدٍ في سَفينةٍ من العصور القديمة، أو فلاح خلال حرب الثلاثين عامًا -وهي الحرب الدينية والسياسية بين عامي 1618 و1648 التي كان من أسبابها الرئيسية الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت-، أو ضحية لمحاكم التفتيش المقدسة، أو يهودي ينتظر مذبحة، فإنه من المستحيل بالنسبة لنا أن نضع أنفسنا محل أولئك التعساء، وأن نتكهن بمقدار التشوه الذي أحدثته بلادة العقل لفعل التغيير.

لم يكن التعامل مع خدرنا النفسي سهلا على «روبرت ليفتون» أحد المطورين النفسيين لهذا المفهوم الذي يصيب إنسانيتنا في مقتل، حاول روبرت تأطير هذا العطب المؤلم في كتاب اختار له «حدود الطب النفسي للموت والعاطفة» كاسم، يقول: في قلب متلازمة الصدمة وفي الصراع البشري الشامل مع الألم تضعف القدرة على الشعور، هناك علاقة وثيقة بين التخدير النفسي بما في ذلك شكله الحاد الذي يتجلى بـ «الانغلاق النفسي» وصور الإنكار المرتبطة بالموت، وكأن لسان حالنا يقول: «إذا لم أشعر بشيء، فلن يحدث الموت»، غياب هوية الضحايا سيجعل لسان حالنا يقول: «أنا أراك تحتضر، لكنني لست مرتبطًا بك أو بموتك».

اعتدنا على رؤية العالم في عقولنا لا كما هي صورته في الواقع، لذلك نجد أنفسنا نعيش مشتتين بين عوالم نخترعها، ولا نعيش في عالم واحد، عوالم نختلف حولها كما نختلف على الحقائق. تجدنا نغرق في حب الدراما والسينما، نغرق في قراءة الروايات الخيالية وفي واقعنا قصص تفوق خيالها. نشكل قناعاتنا كانعكاس لداخلنا، كل منا يعيد إنتاج ما يراه على هوى تجاربه ومعارفه التي تعلمها أو خبرها وجربها، لذلك تغدو الصورة النمطية هي الأكثر إراحة للعقل، كل شيء فيها مؤطر وله تفسير جاهز وسهل ومريح، فلماذا نتعب عقولنا، تلك العقول التي تشكلها مادة رخوة هلامية كسولة في أقبية جماجمنا... منا من يلجأ للدين لتفسير العالم ومنا من يلجأ للمذاهب الفلسفية أو الفكرية أو السياسية الجاهزة لتشكيل وعيه، تلك المذاهب التي تلائم قناعته أصلا وتوافق تطلعاته، تصير حظيرة ونحن فيها قطيع أغنام. سنكون سعداء بالتفسيرات المقولبة والجاهزة لسقوط آلاف ضحايا الصراع مثلا تريحنا عبارة: قضاء وقدر، طاغية متجبر، صراع

طبقات، خسائر جانبية، جراثيم، حرب أهلية، البقاء للأقوى... عبارات جاهزة نستعين بها كجرعات مخدرة لتحريرنا من ألم عجزنا على استيعاب ما يجري، أو لنحتال بالوهم على حقيقة ما يجري. فإبعاد التفكير بأن الخطر الذي سفك دم الضحايا بعيد عنا، مخدر نستعين به.

في حالات كثيرة سيكون عدم التعاطف حالة عامة، ولكن الأمر سيبدو أصعب عندما تُعرّف الضحية ويكون لها اسم.

أظهرت أبحاث عالم النفس جاك سلوفيك «أن الشخص العادي توجّهه المشاعر بدلا من العقل»، وفي تفسيره لصورة تعاطف العالم مع صورة الطفل الغريق إيلان المرمي على الشواطئ التركية، يقول:

جلبت صورة شخص واحد محدد الهوية انتباه الناس وحفّزتهم على الاهتمام وتقديم المساعدة بطرق لم تدفعها إحصاءات مئات الآلاف من الموتى، وأطلق على ذلك «تأثير الضحية الأيقوني».

لكن مشهد حمام الدماء في موت الآلاف سيبقى هو الشكل الأكثر صدمة لتطرف مشاعرنا.. لتطرف ردة الفعل... لعجزنا وانهزمنا... عندما كان كورونا خطرا عالميا هب العالم كله لمحاربته لأن خطره يهدد حياة كل من على الكوكب، أما أخبار قتل الطغاة لشعوبهم فهو خبر في نشرة الأخبار بكل صوره المؤلمة لا حاجة لنا للتدخل إن أضر بمصالحنا فهو شأن داخلي... حرب أهلية... قتال أهل... فخار يكسر بعضه...

⋈

هي ليست حرب أهلية، هي حرب صوتنا الذي دفنتموه عندما صرخنا حرية... حرية... اخترعتم كل التسميات التي تحميكم من أن

تكونوا شركاء في جريمة قتل حريتنا، تلك الجريمة الشنيعة التي تقع بحق الإنسانية قبل أن تكون جريمة ضد مجموعة بشرية هنا وهناك.

✕✕

يكتب البشر عن آلامهم ليحفروا للأمل طريقا في دروبه الوعرة

ماذا يعني أن تروي ألمك؟

يعني أنك ستتحرر منه...

وما ستقرؤونه عبر هذه الصفحات سيكون رواية صنعتها روايات واقعية، بطلها أبطال محددي الهوية، ومبدعوها كتّاب هم جزء من واقعها لا كاتب واحد يصارع خياله... كل رواية فيها هي قطعة موزاييك في لوحة كبيرة، كبيرة جدا تحتاج إلينا كلنا كي نكمل صناعتها.

هي مغامرة؟ نعم، قد تكون غير مسبوقة؟ نعم!، ولكننا أردنا أن نفتح من خلال تجربة خوضها بابا جديدا في مشهدٍ عندما ترونه ترتبون تفاصيله على هوى راحة قناعاتكم لا على هوى حقيقة ما يجري...

هذه رواية تشبه حياتنا، مبنية على شهادات حقيقة، فيها واقعٌ يفوق الخيال، وخيال يضمحل أكثر فأكثر أمام واقع فَاقَهُ. أبطالها قد نصادفهم في طريقنا، في مخيم لجوئنا، على حدود النزوح، على أطلال بيوتنا المهدمة، في بلاد ضاقت عن احتمال وجودنا، نروي لهم في صدفة اللقاء، بطولاتنا في النجاة من حرب أكلت الأخضر واليابس، ويروون لنا بطولتهم.

هم البشر يحبون دائما أن يظهروا كأبطال لا لأنهم أبطال فعلا، بل لأنهم يحتاجون دائما لإضفاء معنى على حياتهم، يحتاجون إلى حكاية كي لا يكونوا أرقاما أو خسائر جانبية على قيد مجهول.

نحب أن نصغي لروايات الآخرين.. لمشاكلهم ولمعاناتهم، رغم كل معاناتنا ومصائبا، لنعزي أنفسنا.

نحب أن نستمع لنجاحاتهم لنعطي أنفسنا الأمل، وأن القادم أجمل.

نحب أن نستمع لروايات عن بلادنا الجميلة جدا، العنيفة جدا، لنحلي مرارة تاريخنا.

في روايات الحروب سنتعاطف مع الضعفاء، لأن جسدهم خانهم، لأن الزمن خانهم، لأن قاتلهم خانهم وخان إنسانيته، وارتد بها الى قاعها المظلم.

ألّا تكون رقما يعني أن عليك معرفة كيف تكتب روايتك، وعملنا هنا كان مساعدة أبطالنا في ذلك. ولأن الرواية هي الحياة وقصصنا فصول فيها، فإن أحداثاً مفصلية قد تعصف بنا، نظنها فصلا في روايتنا لكنها تغير خارطة حياتنا، تصيغ في أعماقنا تفاصيلها ليبقى أثرها ما حيّنا، كالمرض كالانفصال، كالحب، كالغدر، كالخيانة، وأخطرها هي تلك الحروب التي يشعلها الطغاة بيننا، وتلك الحروب التي نشعلها على ذواتنا في لحظات ضعفنا وانكسارنا، حروب لا تفعل شيئا إلا زيادة تشظّينا، عند هذا المفترق سيكون أقوى الناس هم من ينتصرون في حروبهم الصغيرة قبل أن يخوضوا حربهم الكبرى من أجل الحرية والكرامة حرب طويلة الأمد تتواصل عبر الأجيال وتحتاج لجيوش الأمل والصبر كي تنتصر.

نزعـت عن ابنهـا رداء الطفولة باكـراً، وأجبرته علـى تقمّص دور الرجـل الناضج، لتعلّـق على عنقه الغض طـوق مصيرهم المجهـول، هـو أملهم الوحيـد للنجاة من تلك الحـرب الكبرى التـي اشتعلت نارها طلباً للحريّة ودفئها، لكنها سامتهم صنوفا مـن القهـر والإذلال، وعندما فـرّوا منها إلى مـكان آخر بعيد، دسّـت الحرب في غفلة منهم بعضـ بذورها في حقائبهم، تلك البذور التي سرعان ما أنتجت شتولاً لحروب صغيرة باتت تقضّ مضجعهم أكثر من الحرب الأمّ التي ما تزال ناشبة في البلد.

سـ
عا
اتّخ

من

أبد

تلقّ
بزو
نفس
إلى
كثير
الس

حروب صغيرة

فوز الفارس

يعانقها بحرارة لم تعهدها منه منذ زمن طويل، ربّما لما يزيد عن ثلاث سنوات، حين كان حضن بيتهم في المعضميّة يضمّهم جميعًا ويرخي عليهم ظلال الأمن والسّكينة التي فارقتهم وآثرت التخلّي عنهم حين اتّخذوا قرارهم بمغادرة البلد:

«سامحيني يامو لأنّي لمتك بيوم من الأيام على إنّك السبب بطلعتنا من البلد!».

تنقل لينا تركيز نظرها من ابنها مؤيد إلى عينيّ زوجها:

«يمكن أنت يا مؤيد كان معك حقّ! بس غيرك ما كان عنده هالحق أبدا!».

حقدٌ رهيب عاد ليتّقد بين الأم والأب وكأنّه كومة هشيم يابسة تلقّت الشرارة المنتظرة، واشتعلت بتلك المساحة الصغيرة التي جمعتها بزوجها لتوديع ابنهما الذي بالكاد غادر عتبة الطفولة وحضن أمّه ليجد نفسه على عتبة البحر محمّلاً بأمل عائلته المنكوبة بالخلاص، سيعبر البحر إلى برّ الأمان، وهناك سيحظى بصفة اللاجئ التي باتت حلم عائلاتٍ كثيرة لم يعد لديها أدنى تمييز بين الحياة والموت، لفرط ما قاسته خلال السنوات الماضية.

قالت له أمّه حين استقرّ خيار العائلة عليه للسفر:

- «إنت هون ميّت بكل الأحوال! إذا نفدت ووصّلت لأوروبا رح تنقذ نفسك من هالقرف اللي عايشه ورح تنقذنا معك!».

حين استطاع مؤيّد أن يتحرّر قليلاً من ثقل تلك الخواطر التي انتزعته من اللحظة المتوتّرة لوالديه، وعاد إلى وعيه، تعلّقت نظراته بشفتيّ والده المنفرجتين، توقّع عباراتٍ مسمومة وشتائم ستفلت منه وتنهمر على أمّه كالسّياط. حفظ الشتائم والإهانات التي يفيض بها قاموس والده عن ظهر قلب، تؤكّدها في هذه اللحظة الأخاديد التي ازداد عمقها في جبينه المقطّب دوماً في حضورها، لكنّه على ما يبدو تراجع عنها في اللحظة الأخيرة وأمسك بها قبيل لحظاتٍ من مغادرتها حنجرته.

أخذت ذاكرة مؤيد تعود أدراجها، لتطالعه بصورةٍ قديمةٍ لوالده، ينفض عنها الغبار فيرى ملامح هادئة ووجهاً ملفّعاً بابتسامة ترخي ظلالها على قسماته، نعم! هذه القسمات ليست بالغريبة عنه، لطالما استكان إلى الحبّ المنهمر من ثناياها في مواقف كثيرة، يتذكّر اليوم الذي أتى فيه والده إلى البيت بملامح كهذه، وكان صوته قد سبقه منادياً إيّاه:

«مؤيّد! مؤيّد! تعال شوف البابا شو جبلك معه».

تكرّ الأحداث في ذاكرته مثل كبّة صوف. كان ذلك بعد أن أنهى المرحلة الابتدائيّة، وحصل على المرتبة الأولى في صفّه، كاد بيتهم ألّا يتسع لفرحة أبيه العارمة، لم تفصل سوى ساعة واحدة بين نجاحه وبين الدرّاجة الجميلة التي اشتراها له مكافأةً له على تفوّقه، يتذكر هذا اليوم

جيدا لدرجة أنه يشعر بطعم الحلويات الفاخرة التي وزعها والده على أهالي الحي المهنئين رغم مرارة ما عايشوه.

نعم! صاحب هذا الوجه العبوس المتحفّز في هذه اللحظة للعراك وإطلاق الشتائم، لم يكن كذلك! كان فيما مضى لطيفاً، ودوداً، يحبّ أبنائه، ويتشاجر مع أمّه، مثل كلّ الأزواج ومشاكلهم، فذلك ملح الحياة الذي زادت الحرب كمّيته المضافة إلى حياتهم، هكذا كانت جدّته تواسي أمّه في محاولاتٍ منها للتخفيف عن ابنتها لتهدئ النفوس التي ازداد ثورانها مع زحف الثورة إلى مدينتهم، لتبوء بعدها محاولات جدّته في ثني أمّه عن قرار الطلاق، بالفشل.

يبدو أنّ والده قد أدرك أن اللحظة ليست مناسبة للشجار، لذلك آثر، للمرّة الأولى، الصمت على استفزازاتها له. فربّما تكون هذه اللحظة آخر لقاء بينهم، منذ استقرّ قرارهما على المغامرة به وإلقائه في البلم في رحلة لجوء قد تحقّق آمالهم، وقد تخفق وتنتهي باستقرار جسده جثّة هامدة في قعر المحيط المظلم أو في بطن الأسماك، كما يستقر في قعر ذاكرته توبيخ جدّته لأمّه على قرارهم ذاك: «هذا ابنك! قطعة من روحك، كيف إجا من قلبك ترميه هالرمية السودا هاي؟ لك هذا بني آدم! مو خروف لتضحّي فيه!».

يتقدّم من والده ويعانقه وقد أفلتت دموعه دفعةً واحدةً، إنّها المرّة الأولى التي يراه يبكي! أهو حزينٌ على فراقه فعلاً ويخاف عليه من خطر الموت؟ أم أنّه يخاف من أن تخيب آماله فلا تقبل الحياة الجديدة التي يحلمون بها قربانهم المقدّس؟

تروق العبارة الأخيرة له، استوحاها من توبيخ جدّته لأمّه، يمدّه التوصيف الجديد الذي ابتكره في هذه اللحظة المتوتّرة بمزيدٍ من الإصرار على المضيّ قدماً في رحلته، لا بدّ أن يكون لكلّ إنسان غاية أو هدف في حياته، وهدفه الوحيد منذ اليوم هو الوصول بعائلته إلى برّ الأمان والخلاص من حياة فارغة في بلدٍ لم يعد يملك أصحابه الأصليين فيه شيئاً.

يبدو له، كما أصبح معظم السوريين يعتقدون، أن اكتساب صفة لاجئ في بلدٍ أوربيّ تحمل من الكرامة ما يفوق صفة السوريّ في بلدٍ عربيّ شقيق. لم يكن يرغب بأن يلقي اللوم على الأشقاء ويتهمهم بالتقصير وتبلّد مشاعرهم وانعدام تعاطفهم معنا، إذا كنّا نحن قد فقدنا التعاطف مع أقرب الناس إلينا وبتنا نكره وجوده –حال أهل هذا البلد مثلا، ولماذا التعميم؟ حالة والديه أمامه– هو ذاته يعجز في بعض الأحيان عن تحديد من منهما المسؤول عمّا آلت إليه علاقتهما، الفكرة الوحيدة لديه عن والده منذ فارقوا بلدهم هي تبلّد مشاعره تجاه عائلته وتجاه أمّهم تحديداً، وانعدام المسؤولية لديه التي دفعت بأمّه إلى اتّخاذ قرارها بسفر أحدهم لأنّ المبلغ الذي استدانته لهذا الغرض لا يكفي إلّا لشخصٍ واحد من العائلة، وحين طلبت من والده أن يفعل ذلك لم يستجب لها، لذلك عرض على أمّه أن تسمح له بالسفر، وتقنع أباه بالفكرة.

يعانق أمّه بحرارة أكثر! ربّما وصل وهجها إلى والده الذي يقف على بعد خطواتٍ قليلة منهم، لكنه بعيدٌ عنهم بروحه منذ زمن طويل، منذ اللحظة التي خرج فيها من بيته ومدينته. لا يريد مؤيد أن يخالج والده في

لحظة كهذه شعورٌ بأنّه يحمل له عاطفة أقلّ، ففي مواقف الوداع يجب أن يكون الإنسان سخياً في مشاعره؛ فقد تكون هذه اللحظة آخر عهده بمن يودّعهم لذا علينا أن نترك أثراً طيباً ومشاعر دافئة تكفي الطرف الآخر ليحتفظ بصورة جميلة ودافئة عنه، وهو يبذل ما بوسعه ليمنح والده قدراً مساوياً لأمّه.

تتعلّق أنظار والديه به حتى غاب عن مرمى بصريهما. تعود النظرات الحاقدة للاشتباك في تلك البقعة، وكأنّه كان بمنزلة المنطقة العازلة التي تفصل بين نقطتيّ اشتباك ساخنتين، أو أن حضورهما لوداعه كان مجرّد هدنة مؤقّتة تُنسف في اللحظة التي يغادر فيها المكان، تندلع النار في الهشيم الذي ازداد يباساً بانطلاقه إلى الغياب، نظرة واحدة تكاثف الحقد فيها من تلك الأمّ المكلومة بسفر فلذة كبدها، كانت كافية لانتزاع تلك الكلمات التي احتبسها والده في حنجرته:

«كان بنفسي لو الطلاق ما صار من قبل! يمكن كان رح يشفي غليلي إنّي طلقك بهاي اللحظة تحديداً!».

«عادي! هيّي طلقة وحدة، فيك تطلقني مرّة تانية وتالتة مشان يصير طلاق بالتلاتة!».

«ما شفت بحياتي مرا بوقاحتك! لك لا غياب إخوتك ولا سفر ابنك هدّ حيلك وقصّر لسانك، هلأ عرفت ليش ما قدرت كلّ هالسنين كسّرلك راسك، إنت مرا متمسحة! وما في شي بأثّر فيكي!».

- «معاك حقّ! أنا مرا متمسحة! بس الفضل إلك بهالشي.. على إيديك تمسحت.. اللّي بعاشر القوم أربعين يوم بصير منهم وفيهم!».

يهمّ بصفعها، يتذكّر ابنهم الذي غادرهما منذ لحظات قليلة إلى المجهول، يتراجع في اللحظة الأخيرة، إنّها أمّ أبنائه التي انتزع القدر منها للتوّ قطعة من روحها وقد لا يعيده إليها، ينكمش مثل قطعة قماش قطنية غمرها صاحبها سهواً بماء مغليّ، ثمّ يمضي في طريقه وقد كبح جماح غضبه ودموعه التي غارت في أعماقه وتلاشت.

تُتبعُ لينا عبارتها تلك بنظراتٍ وصل الحقد فيها مداه المجدي، لم تبصر دموعه التي حبسها في اللحظة الأخيرة، تبصق في وجهه وتتابع سيرها مبتعدة عنه، تلتفت إلى البحر البعيد قليلًا عن النقطة التي ودّعت ابنها فيها ودفنت فيها للأبد آخر احتمالٍ للصلح مع زوجها:

«لا تخذلنا يا بحر! عطفك علينا يا بحر!».

تمضي في سبيلها لا تنوي على شيء، وقد أطلقت العنان لدموعها.

حين وصلت «لينا» إلى البيت كانت ذكرى ذلك اليوم، الذي أضاعت فيه ابنها «مؤيّد» للمرّة الأولى في حياتها، تترصّدها. عاشت فيه أوقاتا رهيبة كتلك التي أمسكت البلد من تلابيبه حدّ الاختناق، زاد من وطأتها حالة الطوارئ التي عمّت المعضميّة بعد انطلاق المظاهرات فيها نصرةً لدرعا المنكوبة بفلذات أكبادها الذين انتُزعت أظفارهم، ليكون ذلك النزع مقدّمة لانتزاع الهدوء والاستقرار من بلدٍ طوّعه النظام بالمجازر الممتدة طوال فترة حكمه، مجازر علنيّة غايتها التأديب كما حدث في مدينة حماة في ثمانينيّات القرن الماضي، وأخرى مخفيّة تُمارس في أقبية السجون والمعتقلات.

تتردّد في وضع المفتاح في قفل الباب، تفكّر بالعودة للبحث عن ابنها الذي تأخّر في موافاتها إلى بيت أهلها، بقيت بحوزته بعض الأدوية

والمناشير، ربّاه! لقد اختلطت عليها الأمور! ابنها بأمان، لا! ليس تماماً، ابنها الآن تحت رحمة أمواج البحر، قد يصل إلى برّ الأمان، وقد يفجعهم خبر غرق البلم الذي استقلّه كما حصل مع سوريين كثر.

«أستغفر الله العظيم، ياربي دخيلك! ليه عم فأول عابني!».

تنتزع نفسها من تحت رحمة تلك الهواجس فتجد نفسها مجدداً تحت رحمة تلك الذكرى الرهيبة التي تكاثفت فيها أحداث كثيرة أسهمت في انتزاعها من بيتها ومن المعضميّة التي تحبّها أكثر من روحها، وترمي بها وراء الحدود لاجئة تحاول الهرب من الموت بالارتماء في حضن موتٍ آخر.

المعضميّة ربيع 2011

يومٌ آخر مثقلٌ بالمخاوف تنبئ به حركة الناس القلقة والمسكونة بالخوف، تتجوّل بين البيوت حاملةً في حقيبتها الضخمة بعض الأدوية والمنشورات التي سهرت طوال الليل على كتابتها بخطّ يدها، عليهم أن يكونوا مستعدين لمظاهرة يوم الجمعة، وفي الوقت نفسه يجب تزويد أكبر قدرٍ ممكن من البيوت بحقيبةٍ إسعافيه، تتيح لهم إسعاف المصابين في المنازل عندما تطلق قوات الأمن النار على المتظاهرين تجنبا لاعتقالهم إذا نقلوهم إلى المشافي. تعلم أن الأهالي يمكنهم القيام بهذه المهمّة، خصوصاً أنّها عملت مع ممرّضة قامت بتدريب أكبر عدد ممكن من النساء في الحيّ للتعامل مع الإصابات المحتملة، كان التدريب يبدأ بعد المغرب، حين يحلّ الظلام، تأتي نسوة الحيّ بشكل متفرّق إلى بيتها، يحرصن أن يبدو الأمر على أنّه زيارات نسائية من أجل القهوة والثرثرة.

كانت قد خرجت برفقة ابنها مؤيّد، الذي لم يتجاوز التاسعة من عمره حينها، لتوزيع الأدوية والمنشورات، حماسها للمشاركة في المظاهرات الذي استمدّته من إخوتها، انتقل إلى ابنها، بينما ووقف زوجها على الحياد ليحذّرها من خطورة ما هي مقدمة عليه، تجادلا كثيراً في جدوى ما تفعله، نبش لها حكايات كثيرة عن المجازر التي رافقت أحداث الثمانينيات، إلّا أنّ ذلك كله لم يثنيها عمّا كانت تقوم به.

يومها تأخر ابنها عن موعد وصوله المعتاد، دبّ الخوف والفزع في أوصالها، فخرجت إلى الشارع باحثةً عنه، لم تجد له أثراً، لكن امرأة تملك «سوبرماركت» صغير في الحيّ أخبرتها بأنها شاهدت عناصر يقودونه إلى سيارة خمريّة اللون كانت تقف على زاوية الطريق.

سارعت للاتّصال بأخيها، لأنها لم تجرؤ على الاستعانة بزوجها، فقد كان خوفها منه أكبر من خوفها من الجهة المجهولة التي أخذته، تخيّلت كمّ الاتّهامات التي سيوجّهها لها لأنها ورّطت ابنها في مغامراتها السخيفة، هكذا كان يصف ما تقوم به. حين سألت عنه في المخفر القريب وأعطتهم أوصاف السيارة أخبروها أنّ هذه السيارة ليست لهم وإنّما لقوّات الأمن، حين ارتطمت كلمة الأمن بغشاء السمع لديها؛ تبدّد شعورها بالأمان دفعة واحدة، امتصّ الخوف والرعب الذي دلف إلى قلبها وافترش كلّ حواسها، آخر قطرة من الأمان كما تمتصّ الرمال المتحرّكة كائناً تائهاً وسط الصحراء، خارت قواها دفعة واحدة وانهارت على الأرض، لم تعد تملك القوّة التي تساعدها على الوقوف والتماسك، أتراها فقدت ابنها للأبد؟ ما عساها تقول لزوجها؟ مجرّد التفكير بالأمر يفتح كوّة إلى حقلٍ واسعٍ من الهلع نبت وانتشر في أعماقها دفعةً واحدة على حين غرّة منها!

لا تستطيع أن تتذكّر تفاصيل ذلك اليوم بدقّة، وصفت لها عائلتها كيف جرت الأمور، كأنّها قد فقدت ذاكرتها بشكلٍ مؤقّت، أخبروها عن أشياء كثيرة فعلتها في ذلك اليوم، لكنّها لم تتذكّر أنّها قد قامت بها، تتذكّر فقط لحظة عودة ابنها التي لم تكن متأكّدةً منها، فقدت وعيها في الساعات القليلة قبيل إطلاق سراحه، بعد عراكٍ مؤلمٍ مع زوجها هدّدها فيه بالطلاق إن حصل مكروه لابنه، غيابها عن الوعي لم يسمح لها بحضور مشهد انهيار زوجها وبكائه وهلعه على ابنه من مصيرٍ مجهول، حين حدّثتها «سارة» أخت زوجها عن تفاصيل ذلك المشهد فيما بعد، لم تصدّقها ظنّتها محاولة منها لتبييض صفحته ورأب الصدع الذي طال علاقتها به، امتنانها الوحيد كان لأخيها الذي ساعدته علاقاته القائمة على المصالح مع عناصر الأمن في ذلك اليوم، قبل أن تتصاعد وتيرة الأحداث في المنطقة وتتعقّد وتصل إلى طريقٍ مسدود.

سيخبرها ابنها بعد وقتٍ طويل من خروجه حيّاً من ذلك المكان عن تفاصيل أخفاها عليهم، بكى كثيراً حين أخبرها بها أنكره يوم أفلت من قبضتهم، كانت قد توقّعت ذلك وسألته مراراً إذا اعترف بأيّ شيء عن نشاطهم، ظلّ متمسّكاً بأنّه لم يقل شيئاً. لاحقا ذهب أخوها إلى الأمن لاستلام جثّة ابن عمّه الضابط الذي حاول الانشقاق في إدلب، علم يومها أنّ أخته أصبحت مطلوبةً لدى الأفرع الأمنية التي تحيط بمدينة المعضمية من كلّ حدبٍ وصوب كما يحيط حبل المشنقة بعنق المحكوم بالإعدام لينتزع نفسه الأخير.

الخوف الذي رأته في عيني أخيها، جعل هيئته المتماسكة التي طالما

بثت القوة فيها، تنهار دفعة واحدة وبشكلٍ نهائيّ، لم يستطيع النظر في عينيها وهو يقول:

- «سألوني عنّك، الظاهر إنّك بالفعل صرت بقائمة المطلوبين، لازم تطلعي من بيتك، لازم نشوف لك مكان آمن!».

عبارة أخيها تلك نزعت الفتيل الواهي عن صمّام الأمان لديها، أسهم موقف زوجها اللائم لها منذ ذلك اليوم في بدء نزيف الكراهية لديها، الكره لنظام مجرم دمويّ تأتي قوته فقط من نزعة القتل لديه، قتل كلّ من تسوّل له نفسه أن يُطالب بالحريّة، والكره لزوجها الذي لا يريد أن يكون لديه موقفٌ بالأصل، كلّ ما يريده أن يعيش، وهي بعنادها وانجرارها وراء إخوتها الحمقى، كما يكرّر دوماً على مسمعها، نسفت كل احتمالٍ للبقاء واستمرار حياتهم الماضية الآمنة.

رمضان 2012 كان الأقسى على الإطلاق!

لا يتوقّف زوجها عن حملة لومها التي ترافقت مع حملة الاتّهامات الأمنية التي صدرت بحقّها، يرفض أن يقيموا في بيتٍ كان إخوتها قد أعدّوه لها في مكانٍ آمنٍ وبعيدٍ عن أنظار الأمن، يفضّل الإقامة مع أخته التي غاب زوجها في دهاليز وأقبيّة الجويّة، الفرع الأكثر وحشيّة بين أفرع الأمن الأخرى، اسمها وحده كفيلٌ بإثارة رعب السامع وأن يصل إلى يقينٍ راسخ: «الداخل فيها مفقود».

سألته في إحدى شجاراتها، التي تندلع لأتفه الأسباب، عن تصالحه مع وضع أخته التي ثار زوجها ضدّ النظام وتعرّض للاعتقال بسبب مواقفه الداعمة للثورة، ردّ عليها ببرود قاتلٍ:

«بنت الأصل المربّاية ببيت أهلها بتلحق زوجها ع الموت!».

يظنّ «محمّد» أنّ قسوته المفرطة في التعامل مع زوجته هي الطريقة الأنسب لجعلها تتراجع عمّا تفعله، لكن أخته «سارة» طلبت منه أن يخفف من لهجته الحادة معها، لأنّها تأتي بنتائج عكسيّة وتزيد عنادها: «لازم تلاقي طريقة للتفاهم معها، خذها على قدّ عقلها وسايرها، هي متأثرة بإخوتها وحماسها من حماسهم، حاول تبعدها عن هذا الجوّ، احكي معها بالمعروف، الكلام الحلو بليّن أكبر راس».

«إنت ما بتعرفيها للينا مليح، سأليني عنها، بس الواحد أخد وعطى معها بالكلام بتطمع وبتتمادى، إذا ناقشتها بتفكّر إنّي عم ساوي هيك لأنو موقفي ضعيف، المسايرة والنقاش بمسائل خطيرة ومصيريّة ما بينفع! فيه شغلات مالازم تفتحي مجال فيها للنقاش أصلاً!».

لم تكن «سارة» تملك أدنى تعاطف مع «لينا» التي شاركت في دعم الثورة بأعمالٍ بسيطة، مثلها مثل زوجها المعتقل. كانت تشعر بالنقمة على كلّ ما يحدث، يكفي أنّها بسبب ما يحدث الآن في المعضميّة، قد فقدت حياتها الآمنة المطمئنة، لكن الفرق بينها وبين أخيها «محمد» أنّها تضمر شعورها ذاك ولا تصرّح به، بينما لا يفوّت أخاها فرصة، للتذمّر ممّا يحصل، ولعن المتسببين بتشردّهم وفقدانهم بيوتهم والطمأنينة التي كانوا يرفلون بها. الشيء الوحيد الذي يهمّ «سارة» الآن أن تجد وسيلة تضع من خلالها حدّاً لعراك أخيها مع زوجته، تشفق على الأطفال فلا ذنب لهم أن يفقدوا الأمان في كنف والدين يختصمان لأتفه الأسباب، بعد أن فقدوا جميعهم الأمان الأكبر الذي كانوا يشعرون به في بيوتهم وفي مدينتهم.

تكاثفت الأحداث واشتدّت وطأتها في المعضميّة، بدأ الطيران المروحيّ يقصف أماكن تجمّع الشباب المناهضين له في البساتين المحيطة بالمدينة التي اعتصموا بها، رغبةً منهم في تحييد المدينة، ومنعها أن تتحوّل إلى ساحة اشتباكات بينهم وبين قطعان الأمن التي انطلقت من حظائرها ومن عِقال إنسانيّتها.

بدأ السلاح يتدفّق على جموع الشباب المنضمين للثورة من أجل الدفاع عن أنفسهم وأهاليهم، في الأيام العشرة الأولى من الشهر السابع من العام 2012 حصل اشتباك قويّ بين الشباب الثائرة وقوّات النظام، ترافق ذلك الاشتباك مع حملة مداهمات شرسة، لينسحب الجيش الحرّ من المدينة في وقتٍ متأخر. شهدت الفترة الممتدة من هزيع الليل الأخير حتّى مطلع الفجر مجازر تشيب لشدّة هولها الوِلدان. أحدهم أرسل لها فيديو تظهر فيه مجموعة من شباب البلد وقد أطلق المجرمون النار على أطرافهم، ثمّ جمّعوهم أحياء في أحدّ المحلّات الموجودة على الطريق العام بالقرب من الحديقة، لقد سكبوا مادّة مشتعلة على الأجساد الحيّة لخمسة عشر شابّ تقريباً ثم أضرموا النار فيهم بمنتهى البساطة، كانوا يتسلون بشيّ أجسادهم على مهل!

أثار ذلك الفيديو الرعب في قلوبهم، إضافةً إلى تواتر الأنباء عن اقتحامٍ وشيك لداريّا التي هربوا إليها من قبل قوات النظام بعد أن فرغ من المعضميّة، جعلهم هذا الخبر يهرعون إلى آخر الفلول المنسحبة من الجيش الحرّ ليخرجوا معهم من المدينة التي لم يدم وجودهم فيها طويلاً، رفض الشاب الذي أرادوا الصعود معه للهرب في سيارته طلبهم: «السيّارة مليانة سلاح! وين بدكم تطلعوا معنا؟».

تقترب منه فزعةً وتقبض على قدمه متوسّلةً:

«الله يخليك يا أخي! خدونا معكم! لا تتركونا وراكم!».

أمام توسّلاتها ورعب الأطفال وبكائهم الذي انطلق في حلقة عويل متواصلة، سمح لهم بصعود السيارة. الأمان الذي أمسكوا بقشّته الأخيرة حين سُمح لهم بصعود السيارة وتمترسوا به، تلاشى دفعة واحدة أمام منظر الأسلحة المفزع الذي رأوه، للمرّة الأولى، بشكلٍ حيّ ومباشر على أرض الواقع، وليس من وراء شاشات التلفاز، لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، في السيّارة انفجر زوجها غضباً وهمّ بضربها، لولا أنّ «سارة» منعته وبكاء أطفاله:

«لك ما بتخلّي فرصة للواحد يفتح تمّه! لك بتتصرف ولا كأنّي موجود، مو شايفة حدا قدامها، لسّا ما متت ياعالم! ما متت! بس موت اعملي اللي بدك إياه!».

تنظر «سارة» إلى «لينا» وقد انكمشت في زاوية السيّارة، ودفنت نظراتها بين الأسلحة، تعلم أنّ الموت عندها أهون من أن توبّخ وتعنّف أمام أحدٍ من عائلة زوجها، وخصوصاً أمامها، هي لا تكرهها، لكنّها تكره تصرّفاتها وحماسها الزائد، وتؤمن أن المرأة بحضور الرجل يجب أن تصمت، وأن تصغي لرأيه، إلّا أنّ «لينا» تتصرّف عكس ذلك، تطغى شخصيتها على شخصيّة أخيها «محمد»، ولطالما تلقّى من عائلته تعليقات كثيرة على انقياده لزوجته وخضوعه لها ولأهلها، وبينما كان يستميت في تفنيد تعليقاتهم تلك وإثبات العكس، تطوّرت الحال به إلى اغتنام كلّ فرصة أمامهم ليوبّخها ويهينها، وكانت طريقته تلك تحصد نتائج عكسيّة، هذا ما تراه «سارة» على الأقلّ، وحاولت أن تلفت انتباه أخيها

إليه، لكن يبدو أنّ الأمر قد خرج عن السيطرة لديه، شأنه شأن البلد التي لم يعد المرء يحزر لمن اليد العليا التي تدير زمام الأمور فيه، هذه البلاد فقدت هي وأهلها أعصابهم، وجميعهم الآن يسيرون بثباتٍ إلى الهاوية.

حاولت «لينا» وسط جحيم العنف الذي صبّ زوجها وابله عليها أن تتفادى الموقف، انصرفت إلى أطفالها لتحاول صرف أنظارهم عن التركيز في منظر الأسلحة، تشعر أنّ تلك الأسلحة الموجودة في السيّارة قد رُبطت إلى جسدها مثل قنبلةٍ موقوتة، وأنّ غضب زوجها هو الشرارة التي يجب عليها أن تتفادها وتطفئها لئلّا تصل فتيل جسدها فتشتعل، هي أيضاً على وشك الانفجار، متأهّبة له، لكن لا الزمان ولا المكان مناسبين للانفجار، في هذه البقعة أرواحٌ بريئة لا ذنب لها، يجب أن تصل بهم إلى برّ الأمان وبعدها ستنفجر على هواها، وستردّ لزوجها الصاع صاعين، لن تسامحه! لن تغفر له!

عادوا إلى المعضّمية التي كانت في حالة مزرية، للوهلة الأولى شعرت أنّهم قد ضلّوا الطريق إلى مدينتهم، وأنّهم قد أتوا مدينة أخرى لا يعرفونها، دمار كامل قد شمل المدينة وغيّر ملامحها التي حفظوها عن ظهر قلب، وحده الخوف يتجوّل في شوارعها حرّاً من كل قيد، تنكمش قلوب من تبقّوا أحياء فيخضعونها لما يشبه عمليّة إنعاشٍ أخيرة تتجلّى بالبحث عن منفذٍ في المدينة التي أسدل عليها شبح الموت أستاراً كثيفة. كغيرها من أهل المدينة تزيح ستار الموت، وتنقّب وراءه عن سبيلٍ للخلاص من الموت، توافقت مع سارة أخت زوجها على المغادرة صوب الأراضي الأردنيّة، في البداية انحاز زوجها إلى خيار السفر إلى لبنان بطريقةٍ غير شرعيّة، لم تستطع الركون إلى خياره ذاك، تصلهم أخبار مرعبة عمّا

تتعرّض له النساء السوريّات من عمليّات اغتصاب هناك، كانت قناة (الدنيا) السوريّة مصدر أخبارهم الوحيد في تلك الفترة، وبالرّغم من انطلاق حملة اتّهامات لتلك القناة بالكذب، ووسمها بأنّها غدت منبراً للتضليل الإعلاميّ والأخبار الكاذبة، إلّا أنّ ذلك لم يسهم في تبديد مخاوفها من الاغتصاب. كان خياراً بين موتين، لا تعلم إن كان للموت درجات، الموت واحد، ربّما هو الفرق فقط في طريقة الموت، موت رحيمٌ وآخر غير رحيم.

آخر عهدهم بالمدينة كانت جولةٌ استفزازية للجيش الحرّ في شوارع المدينة في محاولةٍ منهم لاستعادة جزء من ماء وجههم المفقود، مرّوا بأمّهات المعتقلين والشهداء محاولين دعمهنّ ووعدهن بالثأر لأبنائهنّ الأبطال، كما قاموا بواجب العزاء. وصل الخبر إلى الجهات الأمنية بلمح البصر، فعادت لتطويق المدينة وحصارها، وبالرغم من ذلك استطاعوا الهرب بالاتّفاق مع سائق من المدينة تخصّص في تهريب العوائل من المدينة المحاصرة.

معبر نصيب 22/ 8/ 2012

استطاعت لينا الوصول أخيراً إلى الحدود السوريّة الأردنيّة بصحبة زوجها وأبنائها وعائلة أخته، لكن المخاوف أطبقت مجدّداً على صدرها كما يُطبق الليل المظلم على الكون، عندما أدركت أنهم دخلوا إلى أجمةٍ تعجّ بالحيوانات المتوحّشة دون علمٍ منهم.

- «شو؟ مانك نسيانة مبرد أظافرك وكريماتك، شكلك بتهتمّي بحالك!».

كانت تلك العبارة التي قذفها بها عنصر الحاجز الذي يتولّى مهمّة تفتيش حقيبتها إعلاناً ببداية الحفلة. يبدو زوجها واجماً وقد جلّله صمتٌ موازٍ لصمت الموتى وشحوب هيئاتهم. لم يكتفوا بالتحرّش بها على مرأىً منه، فقد أمر عنصرٌ آخر أخته «سارة» أن ترافقه إلى مكان منزوٍ، لكنّه كان يستطيع أن يرى كلّ شيء، رمقته أخته بنظرة مستنجدة، إلا أنه أخفض رأسه ودفن نظراته في الأرض كما تدفن النعامة رأسها في التراب هارباً من مشهد مخيف لا يملك حياله فعل شيء، سمع عن أحداثٍ كهذه تقع، الغاية الوحيدة منها استفزاز الرجل ودفعه إلى تصرّف قد يكون مبرراً لقتله، تلقّى نصائح من كثيرين بضرورة ضبط أعصابه. يتعرّض معظم الراغبين بمغادرة البلد إلى استفزازاتٍ كهذه، عبر نسائهم تحديداً، وأيّة كلمة أو تصرّف يصدر عن الرجال يكون كفيلاً بإطلاق الرصاص عليهم. ينخرط في حالةٍ من الصّمت والترّقب، بينما يستمرّ العنصر باستفزاز زوجته بعبارات تحمل كماً لا يُستهان به من التحرّش. يوشك أن يتقدّم منه، ليبصق في وجهه، سيصفعه، سيخلع حذاءه ويمرّغ وجهه بالتراب المتراكم داخله، ألقى نظرة أخيرة على أطفاله مودّعاً لهم وللحياة وتشهّد على روحه، بعد أن أقسم أن ينهش بأسنانه عظم ذاك العنصر، طفرت دموع غزيرة من عينيه جعلت المشهد كلّه غائماً، لكنه لملمها وجفّفها بعجل حين لمح زوجته عائدةً إلى أطفالها، حمد الله في سرّه، التقاها بمشهد متماسك لا يتخلّى عنه في حضرتها، وفي أعماقه كان يردد: «دخيل كرمك يا رب! لا تتخلى عنّا! كون معنا يا ربّ وساعدنا ننفد من إيد هالعرصات ولادين الحرام».

حين وصلت «لينا» إلى المكان الذي يوجد فيه زوجها والأطفال قريباً من حاوية قمامة ضخمة تعجّ بالروائح القذرة وتزكم الأرواح قبل

الأنوف، صدمتها حالة التماسك لدى زوجها، تمنّت لو أنّ دمعة واحدة قد لاحت لها من إحدى عينيه، لو أنّ رجفةً خفيفة قد اعترت صوته وهو يقول لها: «الحمد لله ع سلامتك!». هذا الرجل جبل! حجر! هذا رجل لو أنّها قتلت أمامه لن تهتزّ فيه شعرة!

لم تنته عربدة الجنود بإطلاق سراحها، انهالوا بالضرب على زوجها حين سألوه عن الطريقة التي دفعتهم للمحاولة مجدداً بعد أن منعوهم أوّل مرّة، لم يصمد طويلاً، اعترف بأنّه قد دفع رشوة لأحد العناصر ادّعى أن بإمكانه مساعدتهم في استصدار إذنٍ يسمح لهم بالعبور، ضربوه بوحشية أكثر حين أنهى اعترافه، ثمّ اقتادوه وأخته وغابوا بهم عن الأنظار، دبّ الفزع مجدّداً في قلبها وقلوب الأطفال، يبدو أنّ الأمر أكثر خطراً ممّا ظنّته، ما عساهم يفعلون بهم؟

لم تستطع أن تنشغل بمصير زوجها وأخته وقتاً طويلاً، في البداية أشفقت عليه من الإذلال الذي يمارسه الجنود عليه أمامها وأمام أخته وأطفالها، لكنها تذكّرت هيئته المتماسكة حين عادت إليه من حفلة العربدة والتحرّش التي مارسها عليها عناصر الأمن، لتتلاشى تلك الشفقة التي أوشكت أنّ تتحوّل إلى دموعٍ مختلطة بالنشيج تتوسّل بها العناصر ليكّفوا عن إذلالهم ويسمحوا لهم بالعبور إلى الأراضي الأردنية، أو العودة إلى المعضمّية. المداهمات والقصف تحمل لك موتاً رحيماً شريفاً، أمّا محاولتك النجاة من الموت فمقرونة بألوان من العذاب وصنوفٍ من الإذلال تجعلك تتمنّى الموت. إنّهم عالقون في أبشع نقطةٍ يمكن أن توجد على سطح الأرض الفسيحة، مكان تهوي فيه احتمالات الموت والحياة على رأسك بسرعة ضوئيّة، لا تكاد تمنّي نفسك بالحياة حتّى يهوي احتمال

الموت على رأسك كمطرقةٍ ثقيلة، ويصبح همّك الوحيد وأملك أن تعرف فقط إلى أين سينتهي بك هذا الصراط الذي تمشي فوقه.

وجدت نفسها مرميّة وفي رقبتها تعلق مصير سبعة أطفالٍ هدّهم التعب ودهمهم النعاس بالقربِ من الحاوية، سارعت بإخراج بعض الألبسة من الحقائب وقامت بفرشها على الأرض ليناموا عليها ثم انصرفت مجدداً للتفكير بمآل زوجها وأخته، كم جبهةٍ قُدر لها أن تحارب عليها في هذه الليلة المشؤومة؟

عند الساعة الحادية عشرة من صبيحة اليوم التالي عاد زوجها وأخته من المكان الذي اصطحبوهم إليه، بدا لها زوجها مكسوراً للمرّة الأولى، كدمات كثيرة توجد على وجهه، وتنبئ عن أخرى تتوارى خلف ثيابه الممزّقة، توشك أن تنطق بسؤالٍ تغمره الشفقة:

«إنتا...».

تثنيها نظرته القاسية التي بدت لها زاخرة بالحقد عن إتمام سؤالها. اقتراب عناصر الأمن منهم مجدداً وهم يلتهمون من الهواء كل مشاعر الرأفة والإنسانية، سألوا «سارة» عن السبب الذي دفعها للخروج مع أخيها وليس مع زوجها، لم تدرِ بمَ تجيبهم، سألوها عن المكان الذي يوجد زوجها فيه، لكنّها أجابتهم بأنّها لا تعرف عنه شيئاً:

«ما بتعرفي شي قلتيلنا! قومي انقلعي! جوزك بجهنم الحمرا (الوصف الذي يطلقه الجميع على الأمن الجوّي).

في إحدى الاستراحات القريبة التي لاذوا بها ليتنفّسوا قليلاً ويتأكّدوا من نجاتهم وخروجهم سالمين من قبضة تلك الوحوش الآدميّة التي صبّت

على رؤوسهم وابل وحشيتها، كان بانتظارها حفلة أخرى، كلّ شيءٍ كان قد استكان فيهم وهدأت ثورته، إلّا روح زوجها المتوثّبة دوماً للعراك، عاد لاتّهامها مجدّداً بأنها السبب فيما آلت إليه حالهم، وأنّه لولا حمقها وعنادها لكانوا في البلد ينتظرون في مكان ما أن تنتهي الحملة الأخيرة على المعضميّة، ثمّ يعودون إلى بيتهم سالمين ليعيشوا حياتهم الطبيعيّة السابقة.

عاذت نغمة السفر إلى لبنان تعلو مجدّداً على حديثه، أبدى ندمه على إنصاته لها ولأخته:

«هاي آخرة اللي بيلحق شور النسوان، البهدلة!».

لكنّ أخته استطاعت أن تحسم ذاك الشجار والجدل القائم بينه وبين زوجته، أخبرته أنّه قد لا ينجو من الحواجز ومن خطر اعتقاله فيما لو فكّر بالعودة:

«لحقّت تنسى كيف طلعنا! اللّي بيخلص من الموت مرّة ما بيرجع إله برجليه، لبنان أو الأردن! شو الفرق؟ نحنا لاجئين بين ما تهدا الأوضاع شويّة، ونرجع لبيوتنا، ما رح نضلّ كتير لا هون ولا هنيك، هي فترة وبتعدّي».

«لك يا ريتهم ضربوني رصاصة على الحاجز وريّحوني من هالذلّ! حاجتي مرمطة، وتبقي إنتي ومرتي اعملوا اللي براسكم».

تدفن «لينا» نظراتها بالأرض هاربةً من نظراته التي تتوجّه إليها مثل كراتٍ من اللهب، تشعر بالشفقة عليه، لكنّها تخاف أن تنطق بكلمة تزيد من حدة غضبه، فتؤثر الصمت، وتلقي مهمّة مواساته والتخفيف عنه على عاتق أخته التي سارعت إلى احتضانه وانخرطت معه في موجة بكاء مريرة.

رضخ لرغبة أخته واتّفقوا أن يدخلوا إلى الأراضي الأردنيّة بطريقة غير شرعيّة عن طريق المهرّبين الذي ازداد نشاطهم بشكل كبير في الفترة الأخيرة.

يؤلمها أنّه لا يقيم وزناً لما تقوله هي، يضرب بكلّ ما تقوله عرض الحائط وإن كان صواباً لكنه يتلقّف ما يقوله سواها راضياً، حين جرّبت أن تعاتبه مرّة أخرى على الطريقة التي يتعامل بها معها، صرخ بصوتٍ ملؤه الغضب:

«إنتِ تحديداً إذا بتقولي لي الطريق على الجنّة من هون وكان حكيك صحيح، بفضّل روح عجهنم الحمرا على إني اسمع كلامك، اقصري الهرج وابلعي لسانك، وبطّلي تعلّمي عليّ، وحالة الزعامة اللي عمّ تعيشيها خلصت، زمن أوّل تحوّل!».

تبدّد الدموع التي كانت على وشك أن تطفر من محجريها، تتماسك في وجه كلماته الجارحة كما تفعل كلّ مرّة، تواسي نفسها بأنّه رضخ للأمر وإن كان رضوخه هذا أتى كنتيجة لكلام أخته، تقول في نفسها:

«بدّك العنب يا «لينا»، اتركك من مقاتلة الناطور!».

عن طريق مجموعة من الشباب السوريين استطاعوا الخروج من «نصيب» بسيارة حملتهم إلى أحد البيوت ليأخذوا قسطاً من الراحة ويهيّئوا أنفسهم لدخول الأراضي الأردنيّة عن طريق التهريب.

مخيّم الزعتري

وضعت المخابرات الأردنية الوافدين من الأراضي السورية في خيمةٍ كبيرةٍ، بدأ البرد ينخر عظامهم وتعالى بكاء الصغار. بالقرب من تلك الخيمة يوجد باصٌ ضخم، يهرعون إليه ويقفون في نقطةٍ قريبةٍ من محرّكه يلتمسون الدفء، وظلّوا متأهبين لأيّ يصوت ينادي باسم أحدهم ليستلم الخيمة الخاصّة بهم. انتهى التوزيع في تلك الليلة من دون أن يظفروا بخيمتهم المنتظرة. عادوا إلى الخيمة الكبيرة المشتركة مع أعدادٍ غفيرة، وحصلوا على (طرّاحتين فقط) يوزّعون رؤوسهم المتعبة على تلك المساحة المحدودة التي ظفروا بها وشعورٍ عارمٌ بالقهر والذل يسيطر عليهم، كأنهم فرّوا من سجنهم الكبير في البلد إلى سجنٍ أصغر يتمثّل في خيمة صغيرة ستلمّ شتاتهم وضيقهم وحقدهم وكرههم الذي يجاهدون في القبض عليه وإبقائه حبيساً في صدورهم.

رسائل كثيرة كانت قد وصلتهم عبر هواتفهم تحذّرهم من البقاء في مخيّم الزعتري، نصائح كثيرة وردتهم بأن يغادروا المخيّم في أقرب فرصةٍ تُتاح لهم، للمرّة الثانية على التوالي، يجتمعون على رأيٍ واحد. تواصلوا مع أحد معارفهم الذي تدبّر أمر خروجهم من المخيّم بكفالة ماليّة. تتولّى المخابرات الأردنية مهمّة حمل كلّ من يدخل الأراضي الأردنيّة إلى مخيّم الزعتري، تفكّر في تلك الرحلة الشّاقة لهم عبر الحدود الأردنيّة السوريّة، أتراهم تحمّلوا عناء المخاطرة بأرواحهم للظفر بسجنٍ كهذا؟

كلّما خرجت من مطبّ وظنّته الأقسى، تقع في مطبّ آخر يُظهر لها ضآلة ما قاسته من قبل. تفرّ من سجن الزعتريّ، لتجد نفسها في سجن من نوعٍ آخر، في شقة استأجرتها «سارة» خارج المخيم، لم تكن بالنسبة لها

سوى سجن ينتزع فيه الأقربون منها كرامتها وعزّة نفسها، ويجدّلون من حقدهم عليها سوطاً غليظاً يجلدونها به في كلّ مناسبة. القائمون على هذا السجن هما زوجها، وأخته «سارة» التي أصبحت وليّة نعمتهم بالفعل، بعد أن تلقّت الدعم والمساعدة من أطرافٍ كثيرة، بسبب مكانة زوجها المعتقل، وبدأت تشمّر عن السلطة الممنوحة لها من قِبل الثورة وتمارسها عليها هي وحدها، تفكّر كثيراً في الأسباب التي دفعت أخت زوجها لكرهها بهذا الشكل، لا تجد سبباً مقنعاً يفسّر تلك الكراهية، لكنّها حين تستحضر ما غيرته السلطة في نفس «سارة» التي ترى في لينا امرأة متمردة على زوجها، وتستذكر كرهه ومعاملته الفظّة وإهاناته المتكرّرة لها على الملأ، تدرك جيداً أنّ عدوى الكراهية قد انتقلت من أخيها إليها، وأنّ المُصاب بالعدوى قد تكون إصابته أشدّ وطأةً من صاحب الفيروس نفسه.

الحرب التي فررت منها لم تكف عن اللّحاق بك إلى هنا، الحرب التي لا تتوقّف عن عربدتها، حتّى لو أدرتَ لها ظهرك وقرّرتَ الفرار إلى مكانٍ آخر بعيد عن ميدانها، تحاصرك آثارها.

في كل مرة تظن أن نفسك نجت من الموت، تكتشف أنّ الموت يتحوّل ويتحلّل في صورٍ أخرى أشدّ وطأةً، الإذلال صورة من صوره المتحوّلة يمارس فيه القوي على الضعيف كل فنون التعذيب ليقتل روحه.

تشعر لينا في كثيرٍ من الأحيان أن تلك الحرب الكبيرة التي اشتعلت ضدّ النظام في سبيل الحرّية قد تضاءلت؛ وتشظّت إلى شراراتٍ تتكفّل بإشعال حروبٍ صغيرة فيما بينهم، حروب تبدو كأنّها امتدادٌ طبيعيّ ومنطقيّ لتلك الحرب المجنونة التي لم تتخيّل أن يمتدّ سعيرها إلى

الحصن الأخير الذي لاذت به وعوّلت على قدرته على حمايتها، أولادها التي تحلم بالنجاة بهم ومعهم، تفزع إلى جزءٍ ضئيلٍ من الصواب والمنطق تبقّى لديها، تسأل نفسها:

- «كيف لنا أن ننجح في حسم حروبنا الكبرى في سبيل قضايانا المحقّة ما دمنا لا نفلح في حسم حروبنا الصغيرة وخلافاتنا القائمة على قدمٍ وساق؟».

في نفق الذلّ الطويل تبدأ مسيرة من نوعٍ جديد، تتجلّى في أروقة المنظمات والجمعيات الخيريّة التي أُحدثت للتخفيف من معاناة المهجّرين، وكما ينتقل المتسوّل من باب إلى آخر ساكباً ماء وجهه على العتبات والأرصفة، كانت تنتقل من جمعية لأخرى تفرد صفحة جراحها وفهرس شقائها الذي تضخّم إلى درجةٍ أوشك فيها أن يطغى على متن حياتها في ظلّ الثورة. يصغون إليها بقسماتٍ جامدة لا أثر فيها للتعاطف، ثمّ يقلبون وجوههم ويمطّون شفاههم بتلك العبارة الوحيدة:

«لا نستطيع أن نقدّم لك شيئاً، التعليمات واضحة لدينا، المساعدات للنساء اللواتي ليس لديهنّ معيل، وأنت لم تفقدي زوجك ولم يُعتقل!».

تقابل عبارتهم تلك بإخفاء ضحكةٍ يذوب فيها الألم بالسخرية، كما تذوب كتلة ملح متحجّر في ماء مغلي. كيف لها أن تقنعهم بأنّ وجود زوجها وعدمه سواء؟ لا بل ترسخت في داخلها الآن قناعة مؤلمة أكثر بأن عدم وجوده أفضل من وجوده بكثير.

بكل الأحوال هي مقايضاتٌ تافهة تلك التي توصلت إليها تلك المنظمات، علقوا مصير عوائل كثيرة تحتاج المساعدة، بفقدان معيلها.

وكأن حجم الدعم الممنوح يتعلّق بقيمة الآلام الممنوحة، هناك فاتورةٌ باهظة يجب أن تُدفع أوّلاً، وبعد النظر والتدقيق في كمّ آلامك وماهيّتها وتمحيصها وتقليبها كما تقلّب الجيف النتنة، يُصرف لك شيك من الدعم الضئيل لا يكاد يسدّ رمق من تبقّى. ألا يعلم هؤلاء القوّادون أن أموال العالم كلّه لا تكفي ثمناً لحياة إنسانٍ بريء فقدها في سبيل كلمةٍ واحدةٍ قالها؟ لا تكفي ثمناً لكرامة إنسان نشد الحرية فأذاقوه الذّل زعافا؟

حين قرّرت العودة إلى المخيّم لتحضر هويّتها التي بقيت هناك، بسبب هروبها من المخيّم بطريقة غير شرعية، وجدت مكاناً آخر يختلف عمّا رأته قبل ما يزيد عن العام ونصف العام، وقتها لم تستطع تقبّل فكرة الحياة فيه، لم تكن متأكّدة من قدرتها على التكيّف مع الحياة في خيمة تُقام في العراء، خيمة لا تستطيع أن تجد في جوانبها الهشّة نقطة ثابتة تسند رأسها المضطرب بالأفكار عليها، خيمة لا تقيهم حرّ الصيف أو برد الشتاء، يفترشون التراب ويقطعون مسافة لا يُستهان بها إلى الحمّامات المشتركة في زاوية من المخيّم لقضاء حاجة لهم تحت أعين المترصّدين لكل لفظٍ أو حركة تصدر عنهم، تحكي قريبة لها كانت قد استقرّت في المخيّم في فترة سابقة تفاصيل حياتها هي وعائلتها فيه:

«بتعرفي أنا وبناتي صرنا نتجنّب شرب الميّ والسوائل رغم الشوب اللي بيقتل، بس مشان ما نضطر نروح بالنهارع الحمامات المشتركة اللي بيتجمع حواليها شباب زعران قليلين أدب ليسمعوكي كلام بسمّ البدن، لك هدول ألف حرب ما رح تقدر تربيهم، هدول ما بيفرقوا عن جورة الصرف الصحي بوساختهم».

«مستحيل! كيف بتقدروا تضلّوا كل النهار بدون ما تروحوا ع الحمام، حتّى لو ما شربتوا نقطة ميّ وحدة، إلّا ما تضطروا للحمام!».

«رح قلّك كيف! بس أمانة ما تضحكي علينا وتقرفي، تخيّلي بناتي تعلموا من صبايا هون وصلوا قبلنا، انو يقضوا حاجتهم بفوارغ بلاستيك، وبالليل وقت بروحوا ع الحمامات المشتركة بفرغوها، بنتي الكبيرة بتقرف تلجأ لهيك طريقة ورفضت تعمل متلهم، صارت تلبس خمار بالنهار مشان ماحدا يعرفها وهيّ رايحة ع الحمام، بعدين زادت عندها الحالة وما عادت شلحت الخمار، بتقلّي ما بدي حدا يعرفني، المخيمّ هوي السجن اللي تكرموا فيه علينا، والخمار هوي سجني الخاصّ ما بدي كون معروفة بهذا المكان، ما بدي كون موجودة بالأصل!».

حين عادت إلى المخيّم بمساعدة إحدى العاملات في مفوضيّة الأمم، قرّرت أن تزور قريبتها التي كانت حكايتها تلك سبباً في نفورها من حياة المخيّم ودفعتها للهرب منه، أُصيبت بالدهشة حين وصلت إليها، اختفت الخيمة وتحوّلت إلى بناء إسمنتيّ مسبق الصنع، لكن دهشتها أصبحت أكبر حين أصبحت في الداخل، كان المكان جميلاً وشبيهاً بشقّة ذات ديكورات حديثة، لفت نظرها ورق الجدران الأنيق والأثاث الحديث، وآنيات الزريعة الفاخرة التي تُكسب المكان روحاً وحياة، امتدّت أغصان اللبلاب في زوايا الصالون، حتّى الحبق الناعم، الذي لا يمكن تخيّل وجوده في مكانٍ جاف كهذا، نما بثقةٍ واطمئنان على أفاريز الشبابيك الداخليّة وتناثر عبقه في المكان مختلطاً برائحة معسّل التفاحتين الصادر عن أركيلةٍ جمعت قريبتها برجلٍ غريب.

تظهر قريبتها حفاوةً منقطعة النظير بها، تعانقها وتدعوها لمشاركتهم جلسة الكيف تلك، تشير إلى الغريب الذي رحّب بها بابتسامةٍ محبّبة:

«ما في حدا غريب! أبو عمر من السعودية! شيخ من عشيرة معروفة، وصهرنا الجديد».

لا تستطيع السيطرة على حالة المفاجأة التي تقمّصت ملامحها بعد أن أنهت قريبتها مهمّة التعريف بالرجل الغريب، تتذكّر أن عمر أكبر بناتها، قريب من عمر ابنها الذي لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ربّما تكبره بسنة كأقصى حدّ، تلتقط قريبتها حالة الدهشة التي اعترتها ولم تفلح في تمويهها:

«مصير البنت لبيت زوجها بالأخير، وابن الحلال ما بيجي بكل وقت!».

تلتفت إلى صهرها الذي أمّن على عبارتها الأخيرة بضحكةٍ مشبعةٍ بالرضا والفخر، ثمّ عقّب قائلاً:

«الفضل لله وحده! هذا من كرم ربنا ورضاه عنّا، وبفضل دعاء الطيبين أمثالكم، إنتم أهلنا يا «أم ريما»! والأهل لبعضهم، وعمره الظفر ما بيطلع من اللحم!».

تأتي ابنتها «ريما» حاملة صينيّة القهوة مرتبكة، توشك أن تتعثّر بذيل ثوبها الطويل الذي يضمّ جسداً نحيلاً لا يشي بأيّة ملامح للأنوثة، تنفرد بقريبتها بضع لحظات انشغل بها عريس الغفلة بعروسه:

«بس بنتك صغيرة، مو مبيّن عليها إنّها بحساب النسوان، إجتها...؟!».

«لسّا! بس ما راح يتزوجها قبل ما تبلغ. دخيلك! بدّك الصراحة متمناية من جواتي تتأخر لتبلغ، خليه عم يجخّ علينا وعليها، بتصدقي طاير عقله فيها، بس يقعد معها وحدهم وتكشّف عن شعرها ويشوف رقبتها البيضا بدوخ وبيفقد عقله، علّمتها بهيك لحظة تسحب منه مصاري على قدّ ما بتقدر!».

تشعر بالغثيان ممّا قالته قريبتها، لم تجرؤ أن تقول لها أنّ هذا بالضبط ما يُطلق عليه (الدعارة الشرعية) أمسكت نفسها عن قول ذلك، ربّما تحتاج مساعدةً ما من قريبتها التي ضحكت لها الحياة في المخيّم على يد رجلٍ خليجيّ غنيّ، علّمتها الحياة الجديدة المغموسة في الشقاء حتّى الثمالة أن تضبط نفسها، وألّا تقول كلّ ما تفكّر به.

لم تستطع الموظّفة التي أتت معها إلى المخيّم استعادة هويّتها، وهويّات أفراد عائلتها من إدارة المخيّم، فقد تبيّن أنّ الكفالة التي خرجوا بها من المخيّم مزوّرة، وأنّها قد تعرّضهم للمساءلة والسجن.

أثناء تجوّلها في الزعتري بصحبة الموظّفة، ريثما تنهي عملها، تتلمّس التغييرات التي طرأت على المخيّم وحسّنت حياة قاطنيه. لعلّ تحوّل الناس من الحياة في الخيم القماشية، إلى الحياة في كرفانات وشقق إسمنتية، كفيلة بأن تصفعك بحقيقةٍ مرعبة، أنّ ما يحيونه بوصفه مؤقّتاً يتحوّل يوماً بعد يوم إلى أسلوب حياة جديد يأخذ طريقه إلى الاستمرار والديمومة، تتذكّر المسلسل السوريّ عن التغريبة الفلسطينية، وكيف رفض فيه أهل فلسطين استبدال الخيم المؤقّتة ببيوتٍ إسمنتية لأنّهم يرغبون بالعودة إلى ديارهم، لم تتخيّل أن ذاك المشهد الذي أبكاها يوماً بوصفه مشهداً مأساويا، سيتحوّل إلى واقعٍ تحياه. لقد ظنّت كما ظنّ الفلسطينيون يومها

أنّها رحلة مؤقّتة يعودون بعدها إلى بيوتهم معزّزين، لكن ما تراه اليوم في الزعتري يشبه إلى حدّ كبير ما مرّ به الفلسطينيون، إنّ استبدال الخيم بجدرانٍ صلبة ينبئك أنّ الغياب ربّما يطول ويمتدّ إلى سنوات، ربّما لا يعودون إلى ديارهم أبداً.

تتساءل في سرها، هل استقرارهم هذا هو قدرة مذهلة يمتلكها هذا الشعب على التكيف والإعمار، إعمار يطال حتى الصحراء، فيما سلط الله عليهم نظاماً لا يتقن إلا الفوضى والدمار أينما حلّ؟ أم أن هذا الاستقرار لعنة تضاف إلى جملة اللعنات التي أحاطت بهم ليفقدوا الأمل بقادم أفضل؟

تترقّب الوجوه حولها باهتمام، ترى مجموعة عجائز أمام أحد البيوت يتبادلن الحديث، تركّز في قسمات وجوههنّ، تبدو لها بعض الوجوه طافحةً بالبِشر والرضا، وأخرى لا تنبئ عن أيّ شعور، تقترب منهنّ وتصغي للحديث، تخاطب إحدى العجائز جارتها:

«شو يا إمّ ممدوح ما بقى تفضّيها سيرة؟ لسا كل ما دقّ الكوز بالجرّة، بتقولي الشجرات مين عم يسقيهم؟ انسي يا بنت الحلال إيدينا اهترت ونحنا شايلين هالفاس وعم نحفر بهالأرض مشان هاللقمة وهالهدمة، ليكينا هلأ أكل ومرعى وقلّة صنعة وكل شي عم يجي لورات المنّا، وإنتي موعاجبك العجب!».

«والله إذا بيقلب المخيّم دهب مو بعيني يا إم محمد! القعدة العصر تحت فيّة الجوزة وع التراب بتسوى العالم وما فيه، التراب الأحمر بارد وفيه حنيّة مو متل أرض المخيّم، لك نحنا هون بصحرا مافيها غير الغبرا والعجاج اللي بتغمّ القلب وبتخلّي صدرك يطبق».

«ييييه! لسّا بتقول صحرا وغبرا، كنّا بجنّة خيتو وشقاينين وجوعانين، شو الفايدة من الجنّة إذا بدي جوع وأشقى فيها؟ خيتو لا تقعدي برا ما بتشوفي الصحرا ولا بتضايقك الغبرا، ليكي ابنك الله يحميه إيده طايله، وإله جماعتو، جيبي مكيّف صحراوي وتفرفدي ع البرودات اللي بجبلك إياها متل ما أنا بعمل. احمدي ربّك فيه عالم عم تحلم بسلّة إغاثة يسكّتوا فيها جوعهم، وإنتي خزات العين! ابنك هوي المسؤول عن الإغاثة من بابها لمحرابها، قاعدين على تلّتها ولسّا بتضلّي تشكي وتبكي».

لم تستطع لينا أن تبقى في المكان لتسمع تعليق أمّ ممدوح على كلام أمّ محمد الأخير، لكنّها توقّعت أن ينتهي الحديث بمشاجرة أفصحت عنها الملامح التي بدت لها متأهّبة للعراك وإطلاق الشتائم، انتزعها نداء الموظّفة التي أنهت عملها لمغادرة المكان.

حين أخبرت الموظّفة بدهشتها ممّا تراه في المخيّم أخبرتها أنّ الأمر طبيعيّ، كلّ المخيّمات تكون الخدمات فيها سيئة في البداية، لكن مع مرور الوقت تتحسّن، وتصبح الحياة فيها أكثر تنظيماً. حاجات الناس ورغبتهم في خلق حياة مقبولة هي السبب فيما طرأ على المخيّم من تغييرات، الإنسان الذي خرج قديماً من عمق الكهوف والمغاور وارتقى في سلّم الحضارة والمدنيّة لن يعجز عن ترويض الصحراء وتمهيد سبل الحياة الوعرة فيها، الأمر فقط يحتاج إلى إرادة ورغبة بالعمل.

خرجت من المخيّم تجرجر أذيال خيبتها بعد أن رفضت إدارة المخيّم إعطاءها هويّتها، بل كانت على وشك أن تُزجّ في السجن هي وعائلتها لخروجها من المخيّم بكفالةٍ مزوّرة، ماذا ستقول لزوجها حين يسألها عمّا حصل معها؟ هل تقرّ بخطئها في استعجالها الخروج من المخيّم، هل

تعترف له بأنّ المخيّم الذي أنفت سكناه قد أصبح اليوم جنّة مقارنة بالبؤس الذي ظلّ ملازماً لهم منذ هروبهم منه، هل تقول له أنّ تلك الكفالة التي أمّنها لها أحد معارف إخوتها مزوّرة؟ يدبّ الهلع في قلبها بمجرّد التفكير بالأمر، ترتجف ركبتاها، وتشعر بأنّها عاجزة، إن فعلت ذلك ستكون كمن يسلّم رقبته للسكّين التي تشحذ دوماً منتظرة اللحظة التي تحزّ بها رقبتها.

البقاع اللبنانية

خروجهم من الأردن كان شبيهاً بالمعجزة، كانت الوجهة الجديدة المقرّرة مصر، وبعد جولات كثيرة على مكاتب عدّة للسفر تبيّن لها أن الأمر مستحيل، لتبدأ جولة جديدة مع الجهات المعنيّة في الأردن، استطاعت، بعد إصرارٍ كبيرٍ من قِبلها، أن تصل إلى وزير الداخلية لتحصل منه على إذن بمغادرة الأراضي الأردنيّة إلى لبنان، الوجهة التي أرادها زوجها منذ البداية.

حال زوجها هنا كانت شبيهة بحال السمكة التي عادت إلى محيطها المائيّ، ودبّت الروح فيها من جديد، وجد ضالّته أخيراً حين أصبح بين إخوته، لم يعد صامتاً كما كان من قبل، الحفاوة التي قابلوه بها والشوق كان كافياً لتلين قسماته المتجهّمة- انفرجت أساريره بعد انقباضٍ طويل. ضمّوه وعائلته إلى البيت الذي يسكنونه، ليصبحوا خمس عوائل في بيتٍ لا يوجد فيه إلّا حمّاماً واحداً، لم تتغيّر طِباع زوجها بالرّغم من وصوله إلى برّ الأمان، الذي كان ينشده منذ كانوا في الشام. ولتهرب منه ومن مشاكلها المعتادة معه، قرّرت أن تخرج وتبحث عن عمل يعينهم في أن يستقلّوا في

بيت خاصّ بهم، خصوصاً أن منسوب الحفاوة أخذ يخفّ بمرور الوقت، ولم يعد الضيق والتذمّر من قبلهم يخفى عليه، يدور معظمه في فلك الشكوى من الازدحام، والمصاريف التي ازدادت في الآونة الأخيرة. حين أشارت إلى ذلك كنوعٍ من ردّ الاعتبار إلى نفسها، وطالبته بأن يجد حلاً هذه المرّة، باعتبار أن المجيء إلى هنا كان خياره بالأصل، واجهها بغضب، محملاً إياها المسؤولية حين انجرّت وراء إخوتها.

لم تشأ أن تمضي معه في الحديث أكثر، يبدو أن النقمة قد بلغت أوجها عنده، لم يعد الكلام في هذا الشأن يغيّر من الواقع شيئاً، الشيء الوحيد الذي يمكن له أن يغيّر حياتهم الآن إيجاد عمل والبحث عن منزلٍ مستقلّ.

تستيقظ في أوقات مختلفة من الليل، تخرج من الغرفة التي حشرت فيها مع زوجها وأبنائها في البيت الذي جمعه بأربعة من إخوته مع عوائلهم، تنتهز الوقت الذي ينام فيه الجميع لتدخل الحمام دون أن تشعر بأنّ هناك من يترقّب لحظة خروجها منه ليقضي حاجة ملحّة تستبدّ بجسده وحواسّه. حين تستسلم الأرواح المكتظّة بالإرهاق للنوم تطلق العنان لروحها الحبيسة في سجنين، سجن جسدها الذي تمارس عليه رقابة عالية وسط بقعة مزدحمة، وسجن البيت الذي يتوجّب عليها أن تمشي بمحاذاة تخومه المفخّخة بألغام المحاذير، أيّ حسبة غير مضبوطة المقادير قد تجعلها عرضة لألسنة الموجودين تلوكها دونما رحمة، وعلى رأس هرم المحاذير يتربّع زوجها كسجّانٍ عريق متمرّس يمارس رقابته والسلطة الوحيدة التي يجيدها في هذه الحياة والتي تتجلّى في إذلالها وتهشيم روحها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

تساءلت عمّا إذا كان هناك اختلاف بين حياتها وحياة شقيقها الغارق في آلامه في سجون النظام؟ فكّرت أنّ سجن النظام قد يكون أهون، فهو سجن عدوّ حقيرٍ ومتوحّش، أمّا سجن زوجها فسجنٌ أقامه من يُفترض أنّه أقرب الناس إليك، من امتزجت به روحا وجسدا وامتزج بها.

- «شو هل الجحيم يلي عايشة فيه.. يا ربي دخيلك!».

لطالما كانت تتعثّر بيقظة ابنها الباكية أثناء خروجها من غرفتها نحو الصالون الذي ينام فيه مع أبناء عمّه، تصغي إلى نشيجه بصمت وحياد، تخاف أن تتعاطف معه بالولوج إلى بركة أحزانه التي تمور على مقربة منها، تؤثر الحياد والبقاء متسمّرة على شاطئ التجاهل، ماذا تستطيع أن تفعل حيال حزنه على ما آلت إليه أحوالهم؟ تفكّر في المصير الذي توشك أن تعلّقه في رقبته الغضّة، كطوقٍ من حديد، يثقل روحها وينتزعها من جديد نحو مصيرٍ آخر مجهول تدفعه نحوه، هي مثله، ولكن حجم القيود التي شُدت إلى رقبتها تفوق في ثقلها ثقل القيد الذي رُبط إليه مصير ابنها. بمَ تواسيه؟ هل تطلب منه أن يتلمّس قيودها ويمعن في الأخاديد العميقة التي تركتها فوق جلدها وأوشكت أن تحزّ العظم منها؟ هل تقول له إن ألمه الغضّ نقطة في بحر آلامها المتلاطم؟ ما الذي ستضيفه معرفتها وإدراكها لألمه الصغير له؟ أتراه قادر على التقاط تعاطفها إن أشهرته أو أعلنته وأن يضعه في سياقه الصحيح؟ إنّه يلومها في كلّ فرصة، بلغة ما تزال مهذّبة يحرص من خلالها على الاحترام التقليديّ الذي يحمله الأبناء لأهليهم، تخاف إن جلست إليه لتتأمّل معه أسباب حزنه التي تعرفها تماماً، أن يدخلا في مواجهة جارحة لا يستطيع قلبها احتمالها، فينفجر على الملأ، ويزعزع احترامه لها بوصفها أمّه، إنّها بأمسّ الحاجة إلى جرعة

تماسكٍ أخيرة تواجه بها. وجدت نفسها في وضع جديد مزري، تخوض لجّته مجدداً وحدها، دون أن يمدّ أيّ كائن كان لها يد العون أو الشفقة على أقلّ تقدير.

تمشي على رؤوس أصابعها، بمحاذاة حزن ابنها المكوّم في زاوية ضيّقة من الصالون المشترك، الذي بالكاد يتسع لجسده الممدّد، لكنّها تشعر به وهو يمعن في شدّ وثاق الألم عليهما، يعذّب نفسه ويعذّبها بعذابه، تمضي بصمت إلى الحمام، تحكم إغلاق بابه، تلوذ بمرآةٍ مشوشّة تفشّى الغبش فيها، تشعر براحة عميقة حين تنظر فيها، إذ تضيع ملامحها المشوّشة وسط الغبش، فتحجب عن روحها إدراكاً آخر يُضاف إلى رضيد الآلام المرصوف في سجل الماضي والحاضر والمستقبل الحالك سلفاً.

✕

تتنقّل لينا بين المحاضرات والورش التعليمية التي تقيمها المنظّمات التي انبثقت فوق جراح السوريين وآلامهم، تنهي الواحدة تلو الأخرى، وكلّها أملٌ أن تحظى بفرصة عملٍ جيدة تأخذ بيدها، وتعينها على الاستقلال ببيت خاصّ بها وبعائلتها، حظيت بفرصة متواضعة في النهاية، أخبرتها بها إحدى المسؤولات، والخجل يطفح من كلماتها، عن حاجتهم في المركز إلى عاملة نظافة.

لم يتبادر إلى ذهنها في تلك اللحظة أيّ تردّد، بدت لها تلك الفرصة طوق نجاةٍ متواضع يُمَدُّ إليها، عليها أن تتشبّث به، علّه يسحبها إن صبرت وثابرت إلى برّ الأمان.

بذلك المبلغ البسيط الذي شكّل أجراً متواضعاً استطاعت أن تنتقل للعيش في بيتٍ آخر تشترك فيه مع امرأة أخرى وعائلتها، أعلنت لزوجها رغبتها بالانفصال عنه، تلقّاها ببرود ودون أيّ تعليقٍ منه، بدا وكأنّه ينتظر معها هذه اللحظة على أحرّ من الجمر، لقد وصلا إلى طريق مسدودٍ منذ زمنٍ طويل، لم تفكّر أن تذكر حقوقها عليه مجرّد ذكر، تعرف البئر وغطاءها، أرادت فقط أن يكون أبناءها معها.

يحزّ في نفسها ألّا تحظى العشرة الطويلة بينهما على (الحلوة والمرّة) بأيّة محاولة منه للتشبّث بها، وإن على سبيل المجاملة، تمنحها ردة فعله تلك شعوراً بأنها ذبابة تافهة قد سقطت في قعر حساء بارد، اكتفى هو بإزاحتها من الإناء وتابع ارتشاف حساءه ببرود قاتل، أمّا ردة فعلها على موقفه ذاك، فكانت شبيهة بموقف شخص من دمّلةٍ قد امتلأت قيحاً وتردّد بفقئها خوفاً من أيّة مضاعفاتٍ تنجم عن العبث بها، لذا آثرت أن تتركها لشأنها علّها تغادر جلدها من تلقاء نفسها. أهذا هو السند والزوج الذي أهدرت معه ردحاً من عمرها لا يُستهان به، وأنجبت منه ثلاثة أبناء، تحارب العالم من أجلهم، بينما يكتفي هو بتجاهلهم والإمعان في الصمت وكأنّهم لا يمتّون له بصلة؟ أو أن الدم الذي يجري في عروقهم ليس دمه؟ لم تعد ترى فيه سنداً، بل عبئاً يثقل كاهل روحها ويمتصّ كل نقطة صبر فيها، ويستنزف طاقتها، التي هي بأمسّ الحاجة إليها ولم يعد لديها متّسع أن تفرّط بقطرة صغيرة منها.

تشبّثت بعملها المتواضع الجديد بأسنانها وحواسّها كلّها، وانفصلت عن زوجها أخيراً، بعد أن تخلّت عن حقوقها كلّها. معظم النساء اللواتي يقرّرن الانفصال عن أزواجهنّ، يضحين بتلك الحقوق كثمنٍ لحريّتهنّ،

هي التي سارت يوماً في درب الحريّة الأكبر، حريّة بلدها من عصابة مجرمة تمسك بخناق البلد منذ أربعين عاماً، متأسيّة بإخوتها الذين دفع كلّ واحد منهم الثمن على طريقته.

ثلاث سنواتٍ من عمر الثورة قد مرّت، تجلس بصمتٍ تتأمّل خساراتها، تلوم نفسها لأنّها تطلق عليها وصفاً كهذا، لا يمكننا أن نصف التضحيات التي نقدّمها في سبيل حريّتنا وحريّة الآخرين بالخسارات، من يضع هدفا نصب عينيه، ويقرّر أن يضحّي لأجله سيصل إليه لا محالة. الحريّة على الضفّة الأخرى لن نصل إليها إلّا إذا خضنا بحر التضحيات، سنصل الضفّة الأخرى يوماً، لكننّا سنترك على الضفّة التي عبرناها حياةً قديمةً مليئةً بالتفاصيل التي نحبّها، وقد نخلّف هناك أحبّة وأشخاصاً تشابكت حياتنا مع حياتهم، إلى درجةٍ يصعب علينا فصم عراها وحلحلة خيوطها المتشابكة، إنّها أرواحٌ امتزجنا بها وترعرعنا وإيّاها وكأنّنا روح واحدة قد تفرّقت في جسومٍ متعدّدة.

لاحقا انضمت إليها أمّها، التي جرّدتها الحرب من العزّ القديم، الذي كانت ترفل به في كنف إخوتها، تقول في نفسها: «حظّي على حظّ إمّي مركّب، وحظّي سبق حظ إمّي بمركب!».

كان حظّهما جميلاً، حينما كان إخوتها بينهم، وبغيابهم بين ميت وسجين، آثر الحظّ السعيد أن يبقى في صفّهن.

توقظها أنّات أمّها ليلاً، يخدش بكاءها المكتوم نياط قلبها، تشعر بالحزن الشديد حيالها، لكن ما عساها تفعل؟ والمحزون أنّى ذهب يجد جنازةً أمامه، تحاول أن تقطع نشيج أمّها، تداهم عزلتها وقد أزاحت

حزنها جانباً، تتبادلان الحديث وحين تواجهها أمها بمصير ابنها الذي أسلمته للبحر يحمله أنّى شاء، تلومها قائلة:

«هذا ابنك! قطعة من روحك، كيف إجا من قلبك ترميه هالرمية السودا هاي؟ لك هذا بني آدم! مو خروف لتضحّي فيه!».

تنتشلها مقولة أمّها تلك من وصلة تعاطفها، تنخرط في نشيج أقرب للنواح، يمتزج نشيجها بنشيج أمّها ويصبح أقرب للعويل. تعذّبها تلميحات أمّها المتواصلة إلى أنّها جعلت حياة ابنها كبش الفداء لحياتهم، قرباناً مقدّساً بلا ريب تقدّمه على مذبح نجاتهم كعائلة، لقد نزعت عنه رداء الطفولة باكراً، وأجبرته على تقمّص دور الرجل الناضج، لتعلّق على عنقه الغض طوق مصيرهم المجهول، هو أملهم الوحيد للنجاة من تلك الحرب الكبرى التي اشتعلت نارها طلباً للحريّة ودفئها، لكنها سامتهم صنوفا من القهر والإذلال، وعندما فرّوا منها إلى مكان آخر بعيد، دسّت الحرب في غفلة منهم بعض بذورها في حقائبهم، تلك البذور التي سرعان ما أنتجت شتولاً لحروب صغيرة باتت تقضّ مضجعهم أكثر من الحرب الأمّ التي ما تزال ناشبة في البلد.

انطلق مؤيد إلى البحر ليحقق حلم عائلته بحياة آمنة، لم يكن يعلم أن البحر لا يملك القوة، ليحتمل ثقل أحلامنا الصغيرة، فصارت قوارب نجاتنا عليه نعوشا ... لا ذنب له إن كانت أحلامنا أكبر من طاقته على حملنا، نحن الذين نشدنا الأمان..

لطالما كان البحر والصحراء السبيل الوحيد لنجاة السوريين.

هناك من جهة الصحراء، قرر شاب اسمه مازن ترك كل شيء خلفه ليكون راعي مَعز، سيحول هذا الشاب خيمته في الصحراء إلى وطن بديل ومن قطيعه عزوة له عن تشتت عائلته بين أنانية والده وسجون النظام.

وكما فعلت لينا التي لجأت للبحر، بعد أن نأت صحراء الزعتري عن حمل أحلامها في الخلاص، لجأ مازن للصحراء بعد أن عجز عن ركوب البحر مع حبيبته زينة، حاول، كما فعل أهالي الزعتري، أن يجمل صحرائه بإرادة صلبة تقاوم الانكسار، كي لا تكون منفى، بل اختبارا للحياة علينا أن ننجح فيه، لكننا في رحلة النجاح تلك سنغرق في تفاصيل كثيرة، والتفاصيل صعبة الحمل، ثقيلة، ننساها لنرتاح ...

ننساها لأنها تتعب أدمغتنا، التي تحب الكسل والاسترخاء، تبتعد عن كل ما يقلقها ويثير فضولها، يحب البشر العيش كقطيع لا حبا بالعائلة، بل لتتوزع مسؤولية عجزهم على الجميع، كي لا يرى الآخرين

تراخيهم إذا اقتضى الموقف فعلا لا عطفا، عندها سيبدو تعاطفهم، مجـردَ تعاطفِهم فعلا إنسانيا عظيما، حتى ولو لم يَقُد لتغيير حقيقي في فصول المأساة. فالعواطف صكوك غفران لعجزنا.

التفاصيـل موجعـة... المشهد مريـح، عندما نستحضـره من دفاتر حروبنـا الصغيـرة التي نشعلهـا لنضفي معنـى على حياتنـا، نكثفه كصانـع للعطـور يقتلع ملايين الزهور ليستخلص مـن ألم اقتطاعها بضـع أونصـات مـن العطر المكثـف الطيـب العليل، كذلـك نختزل تفاصيل أيامنا لأقصى حد محتفظين بالمريح منها على قلّته، لنقول مـا أجمل أيـام زمان، كنا عايشين، لا أحد يسـأل كيف كنا عايشين؟ لأن كيـف، سؤال موجـع، مرهق يحتاج لثورة كي نجيـب عليه، يحتاج لإجابـات طويلة تُتعـب أدمغتنا الكسولة، لذلك نكتفـي بسؤال هل كنا عايشين؟ ونقول: إيييه سقى الله أيام زمان ما أجملها.

نتتصـر علـى التفاصيل في حياتنا بأن نصنـع حكايتنا، نحتال عليها بـأن نضـع لهـا بدايـة ونهاية ونرتـب أحداثها مـع قليل مـن بهارات التفـاؤل والأمـل أو بهارات الألـم والكآبة، كما لو أننـا نساعد كيمياء جسمنـا على التلاعـب بنا فرحا أو حزنا، لا أحـد يعرف تماما معنى هذا الكلام كمازن الذي خاض حروبه الصغيرة لينتهي به المطاف فـي عزلـة أتاحـت لـه فرصـة ليصنـع حكايته علـى هـوى يومياته الرتيبـة بعـد أن خسر دراستـه وأي فرصة للعمل ووجـد أن الثورة لم تغيـر معالـم الوطن فحسـب، بل معالم بيتـه، معالم أسرتـه، معالم كل شـيء. أصبحـت عائلتـه أكثر تفـككاً تماماً مثل المـدن والقرى.

راعي المَعز

رافي ميناس

- 1 -

خمدت آخر جمرةٍ في موقدها، وتناثر الرماد مع النسيم الصباحي الأول. خمد نور القمر وتلاشت انعكاساته الكُحلية مع بزوغ أولى همسات الشمس التي أخذت تزحف بين الغيوم كماء جدولٍ عرف طريقه خارج الأرض للتو.

قفزت الذبابة النائمة على حافة الدلو المعدني؛ متخدرة منتشية من رائحة الحليب العالقة بقعر الدلو. طارت وحطت على أنف الكلب، شريخان، لم يعبأ بها وبقي نائما.

انعكست أولى خصلات الشمس على حوض السمك الكبير المتسخ، راسمة مربعات ومعينات مائية شفافة على رمال الصحراء، صانعة بذلك لوحة سريالية تجمع البحر بالصحراء، تضع السمك في البادية، وتجعل الجِمال تسبح في البحر! أخذت الأسماك تهزّ بحراشفها الفضّية السوداء، فتُظهر ألواناً لم تكن مرئية. ما كان يجمعها كلها، هي أنها حبيسة ذاك الحوض الكبير وسط تلك البقعة الحارّة. لا يعرفن أنهنّ ينتمين إلى المحيط، إلى مكان أزرق واسع وسع هذا السراب. لا فكرة لديهنّ أن أجدادهنّ كانوا يوماً ما أحراراً في مكان جميل بعيد عن هنا.

استمرت الشمس في إيقاظ تلك البقعة المعزولة المنسية في الجنوب. اصطدمت بخزان الماء المربع الكبير، وأخذت تبعث الدفء في جسده البارد. كلمة «ما شاء الله» المكتوبة بطلاء أحمر وفرشاة مهترئة باتت واضحة وضوح الشمس التي أخذت ترتفع فوق الأفق بخجل. تلك العبارة التي لا يعرف أحد من كتبها، تجعلك تقرأها كلما وقعت عينك عليها. وعلى ذلك الخزان أيضاً، وفي الجهة الأخرى، كتبت كلمة «حرّية» ببخاخ أخضر غامق وكان حرف الراء مُنساباً مع حرف الحاء حتى تظن للنظرة الأولى بأنهما حرف واحد. تحت ذاك الخزان بقي الظل كما هو مهما اشتدت أشعة الشمس، مهما علت أو خبت، عظمت أو ضعفت، كأن الظلّ أقوى من أيّ نورٍ. بسبب الصنبور الرخيص، والتسريب شبه الدائم، تشكلت مستعمرة خضراء صغيرة بفعل قوة الحياة، ورغبة الأرض في أن تكون حيّة رغم الظلمات. مستعمرة من الأعشاب والطحالب التي نمت فوق تلك التربة القاسية مثل أهلها. وارتفعت بعض الأعشاب معانقة ساق قاعدة الخزان، وإن اقتربت أكثر، لوجدت زهرة صفراء بساق رفيعة حطّت رأسها على ساق القاعدة وغفت كشاعرٍ فقير!

زحفت الشمس على تلك البقعة المائية المتشكلة أسفل صنبور الخزان وراحت كأفعى صفراء تتلوى بين العلب المعدنية والبلاستيكية -الغالونات والتنكات- ذات الألوان والأشكال المضحكة. لا أعتقد أنه بإمكاننا رؤية مثل هذه الأشكال في كتب الرياضيات، أو في حياتنا اليومية الغريبة بغرابة هذه الأوعية والعلب.

ارتفعت الشمس أكثر لتمسح الخيمة الكبيرة المنتصبة المنصوبة المرفوعة وسط الصحراء المكسوة بسكون تام. بدأت خيوط القماش

الغليظة تسحب حرارة الشمس معانقةً أشعتها لتصبح بعد ساعات فرناً لا خيمة، بل جحيماً مصغراً. مع تلك الحرارة الخفية التي راحت تسبح فوق تلك الأرض، كانت ريحٌ خفيفة منخفضة تركض بتعب عابثة بالتراب الذي أخذ يرمي بنفسه فوق كل شيء كطفلٍ مدلل مزعج. راحت تلك الرياح الخفيفة تتسلل إلى الخيمة، ترفع ثوبها كبالون سميك ضخم، ثم تخرج منها لتعود جدران الخيمة لوضعها الطبيعي. بدأت الريح تشكّل موسيقاها الخاصة، فتحمل بعض العلب والأوعية البلاستيكية بيدها وترميها بعيداً مدحرجةً إياها حول الخيمة التي كانت تبعث هسيساً خافتاً حيناً وعنيفاً حيناً آخر جرّاء ارتفاع قماش الخيمة السميك وهبوطه. لكن أجمل من كل تلك الأصوات، كان جرس «الفرزدق» و«الخنساء» اللذان استيقظا وراحا يدوران ويُوقظان البقية النائمة في تلك الزريبة الصغيرة بجانب كومة التنكات والأوعية البلاستيكية.

راح الجرس يهتز ويرنّ بتوترات متباينة، وكأنها إشارة لبدأ المقطوعة الموسيقية وغناء الكورس نشيد الصباح. بدأت الماعز بالثغاء إفرادياً وكأنها عجوز تناجي، تبكي، تئن، ترتجف، تستجدي! استيقظ شريخان مع بدء كورس الثغاء بالغناء. هزّ ذيلهُ، نظر إلى نقطة في الفراغ دون سبب، نظر من حوله يتأكد أن كل شيء على ما يرام. مشى نحو زريبة الماعز، أطلق التحية عليهم، فردّ عليه «الفرزدق» بصوت عالٍ محركاً سكسوكته بشدّة. هرول شريخان بنشاط أكثر بقليل نحو الخيمة مطلقاً زفيره الشريخاني العميق محاولاً إيقاظ من في الخيمة. علا صوت تلك المقطوعة الغرائبية الصباحية من صوت الريح ورنين الأجراس وثغاء الماعز وعواء شريخان، وراحت رفرفة جدران الخيمة تتسارع مع نشوة

الريح التي نثرت تراباً أكثر على طبول الأوعية الفارغة التي هوت واحدة منها على جدار الخزان مصدرة صوتاً أشبه بالصنج الصيني الذي يُقرَع لإعلان البداية، بداية يوم جديد لا يختلف بشيء عن الذي سبقه سوى في الرقم. مع ذاك الصوت، خفت الإيقاعات وبقيت مناجاة خجولة من بضع الماعز كغناء منفرد.

أزاح مازن قطعة القماش التي تُعتبر باباً للخيمة، وخرج منها بعينين شبه مغلقتين. اتّجه نحو الخزّان بخطوات غير ثابتة، رفع عباءته البنّية الرقيقة بيده اليسرى وفتح الصنبور بيده اليمنى ليتدفق الماء بشكل فجّ. ضبط مازن اندفاع الماء، أخذ يتوضأ بهدوء مطلقاً أدعية وكلمات غير مفهومة من شفتين تكادان أن تكونا مطبقتين. أدار رأسهُ بانحناءة صغيرة نحو الماعز، أسقط نظره إلى الأرض وابتسم لرؤية الزهرة الصفراء الصغيرة. مسح ذقنه بيده ونهض بجسده النحيل، بينما تساقطت القطرات من ذقنه لتنضم إلى المستعمرة الخضراء تحت الصنبور الذي عاد لهدوئه العبثي.

بعد أن أنهى صلاته تحت السماء، سحب مازن الدلو المعدني فتطايرت ذبابات أخريات كنّ نائمات على حافة الفردوس. فتح باب الزريبة الذي هو ببساطة عبارة عن قطعة خشبية، أو بشكل أدق، قطعة من باب غرفة له قفل سحاب صغير. بالنسبة للماعز فقد كان أكثر بكثير، كان عبارة عن سورٍ عالٍ من المستحيل تخطيه أو كسره أو العبور من فوقه! بدأ مازن بإخراج الماعز مبتسماً فرحاً لرؤيتهم مجدداً:

دييي .. دييي .. دييي.. صباح الخير يا الفرزدق، صباحك خير يا الخنساء الجميلة، دييي.. صباح الخير يا درويش، يا الأخطل الصغير، اتبع أمّك... دييييي ...

سحب مازن الخنساء، وقام بحلبها قليلاً ليريحها من حليبها، ولكي يجمع الحليب لاحقاً لبيعه والقليل ليشربه مع الخبز اليابس. قام بحلب فضة أو «فظّة» كما يقولها بلهجته الدرعاوية. ملأ دلواً ونصف دلو آخر. حملهما إلى داخل الخيمة. ثم عاد ليفحص الماعز واحداً واحداً. كان يمسّد عليهم بيده التي أصبحت غليظة وجافة لكنها احتفظت بذاكرة الحنان والطيبة. أخذ يفتح أفواههم الصغيرة، ينظر إلى عيونهم الغريبة عديمة الملامح. يعيد الماعز المريض إلى داخل الزريبة، فهؤلاء غير قادرين على المشي لمسافات طويلة، يأتي ببعض الأعشاب عند عودته ليطعمهم، وغالباً ما يضع لهم بعض الخبز اليابس أو بقايا الأعشاب في أرض الزريبة. بعد أن أنهى فحصه توجّه نحو عنزة كبيرة حامل، كانت تنتظر اقتراب مازن منها. انحنى وجلس القرفصاء، بعكس باقي العنز الذي كان يفحصهم واقفاً. ابتسم للعنزة، راح يمسد على رأسها ورقبتها:

كيف حالتش يا زينة؟ ... كيف الحبل؟

كانت زينة هي العنزة الوحيدة التي يملكها مازن بشكل خاص. باقي القطيع كان ملك والده. اشترى «زينة» وهي ماتزال رضيعة. راح يحدّث زينة ويخبرها بأن عليها أن تلتزم الزريبة اليوم أيضاً حتّى يوم إنجابها. فالمشي يضرّ بصحتها وأن عليها أن تبقى قوية لتنجب له ماعزاً جديداً. همس لها:

ليكن في بطنك توأم يا زينة، حتى أعطي إحداهما لأخي مصعب، ويكون له ماعزه ليتحرز من أبينا.

قاد مازن عنزته المدللة إلى الزريبة بكل لطف، ثم رمى نظرة دائرية سريعة على المحيط الواسع ليتأكد من عدم وجود أي حيوان مفترس ينتظر غياب مازن لِيَنقضّ على الجماعة الباقية في الزريبة.

وقف قطيع الماعز بانتظار توجيهات مازن. البعض ابتعد قليلاً عن المساحة المأهولة ليفرّغ ما بجعبته، البعض راح يطلق الثغاء دون أي سبب واضح؛ بينما أعد مازن قُربة الماء، وضع في جيبه تُفاحة، ولفّ وشاحاً على رأسه ليقيه من أصابع الشمس الغليظة. تحركت شفتا مازن بسرعة تتلو بعض الآيات القرآنية أو الأدعية الصباحية التي كان يهمس بها لله سرّاً، ثم انفتحت شفتاه مطلقة إيعاز البدء بالمشي «ديييي». اتخذ كلٌّ من الفرزدق والخنساء دور القائد، أخذت أجراسهما تقرع بإيقاع غير متجانس كالأذيال واللحى التي كانت تتمايل مع خطى القطيع الصغير الذي راح بالفطرة والقليل من التدريب يسير خلف الفرزدق الذي لم يعد يثغو. في الخلف كان مازن يمشي بخطى هادئة مطلقاً بين الحين والأخرى صوتاً يدعم فيه قيادة الفرزدق «اششش» أو «أغغغغ» إذا ما شرد أحد المعز الصغير المشاكس عن القطيع، فيعيده بصوتٍ جاد إلى أمّه التي بدورها تقلّد مازن لكن على نوتة مختلفة، عادة ما تكون «صول ميييي»!

– 2 –

أعادت الشمس والطبيعة رسم دورتها في دوران بطيء شبه عبثي في تلك البقعة الصغيرة. أعاد مازن تكرار روتينه اليومي، ترك الشمس تلعب لعبتها الأزلية مع الأرض، وأخذ قطيعه الصغير من الماعز ليدعها تكتب حكايتها مع الأرض، أو... لتأكل صفحات تلك الحكاية!

بعد ربعِ ساعةٍ من المشي، توقف مازن آمراً الماعز بالتوقف «هاااي ... تااااع» نظر القطيع حوله وهدأت الأصوات وانبعاثات التراب الهاربة من حوافر الماعز القاسية. وجد مازن مساحة خضراء لا بأس بها حتى تنتشر الماعز فيها وتبدأ في اختيار أطباقها من هذا البوفيه المفتوح الشهي. كانت الماعز تختار أعشابها بعناية فائقة. فهي تعرف بغريزة عجيبة فائدة هذه العشبة ومضار تلك. تنتشر الماعز على شكل مجموعات صغيرة على الأغلب تكون الأم مع صغارها، والعنز الكبيرة في السن تتحاشى نشاط الصغار ومشاكساتهم، فتجد مجموعة من العجزة يروون حكاياتهم عن أيامٍ غابرة كان فيها العشب أكثر خضرةً وأكثر فائدة، وكانت تغطي السهول والمرتفعات، على عكس عشب هذه الأيام الذي له طعم البارود والدم، هذا إن وجد!

جلس مازن على صخرة مريحة نوعاً ما ومرتفعة يستطيع رؤية القطيع الصغير كله. مسح بنظره المكان ليتأكد من أمانه وخلوّه من أي مفترس جائع، وكذلك فعل شريخان لدقائق، ثم أنزل ذيله وأذناه بعد أن تأكد من أن كل شيء على ما يرام. راح يهرول بين القطيع، ثم جلس بعيداً، ضرب بذيله على الأرض ثلاث مرات، أخفض رأسه وتجمّد كأبي الهول وسط أهرامات من الماعز.

اقتربت العنزة «أم شهاب» من مازن تثغو بكسل. أطلق مازن عليها هذا الاسم لإنجابها معز شهباء. نظر إلى «أم شهاب» نظرة مجردة من أي مشاعر، كنظرات الماعز الغريبة. راح يفرك ظهرها بهدوء دون إزعاجها وهي تقضم الأعشاب النامية بجانب الصخرة. راحت الحشرات التي تكاد أن تكون غير مرئية تتطاير من غابات الفرو الكثيفة مرتفعة عبر

حزام النور غباراً مقدساً خارجاً من جسد آلهة قديمة. سألها مازن عن أحوالها، عن أولادها، عن حياتها...:

لماذا لا تأتي إليّ كسابقِ عهدكِ يا أم شهاب؟! الأولاد هم السبب! آه من الأولاد فهم السبب لأشياء لا يعرفونها، لأحداث لا علاقة لهم فيها. هل للأولاد لهم علاقة في اشتعال الحروب؟ أعرف بأنكِ ستجيبين بلا، لكن لماذا يتم تهجيرهم من بيوتهم ويصبحون لاجئين! لِمَ وجع الرأس من عند الصباح الباكر... إذن، فلا علاقة للشهب الصغار بعدم مجيئك إلي. حسناً، أعتقد أن زوجك أبا نواس هو السبب. أفهمكِ جيداً يا أم شهاب الطيبة...

أطلق مازن تنهيدة طويلة وأطلق عيناه إلى الأفق حيث الجرارات بدأت تتجه إلى الأراضي الزراعية التي لم تطلها أيدي الدمار القذرة:

صدّقي يا أم شهاب اشتقت لأمي وأعرف بأنها غير راضية عني كما يجب. لكن ما العمل! حاولت معها ومع أبي في أن نعيش كباقي البشر، بأيامٍ هادئة طبيعية، لكن دون فائدة. أبي يأتي كل فترة إلى الخيمة، يقيم فيها عدة أيام، يتأكد من أن كل أملاكه بخير ومازالت تعطي بوفرة، ثم يعود إلى زوجته الثانية، بنت عمّه. الحديث بيننا يا أم شهاب، فكرت في ترك الخيمة والحياة القاسية هنا والذهاب إلى المدينة للعيش مع أمي، لكنني لم أستطع. أبي رجل عجوز وأمي مازالت سيدة خمسينية بصحة جيدة تستطيع القيام بأعمالها اليومية إضافة إلى أن أخوتي بجانبها، أما أبي وأملاكه، من سيعمل بها! -تثغو أم شهاب- معكِ حق، أنا بالنسبة إليه عامل عادي، بل وأقل من ذلك. العمّال والرعاة يأخذون أجراً أكثر مني بكثير. أيه يا أم شهاب، لولاكم لكنت مجنوناً الآن.

أخرج مازن التفاحة من جعبته وراح يفركها كفانوس علاء الدين بعد أن ألقى بجسده النحيل أرضاً. راح يقضم من تفاحته ويقدّم بعض العشب لأم شهاب بيده وهي تصغي لمازن بكل اهتمام....

مرّت الأيام بسرعة يا أم شهاب بعكس حركتها الآن. كانت أياماً جميلة، صعبة، غريبة. منذ خمس سنوات كان لديّ أحلام كثيرة، أكبرها حلمي في «الحرّية» نعم، كنتُ أرى الأشياء بمنظور مختلف تماماً. كنت مؤمناً أن مظاهراتنا البسيطة العفوية ستغيّر الواقع وأننا سنعيش بشكل أفضل. لكن لم يبق من ذلك الحلم إلّا كلمة «حرّية» تلك التي كتبتها على خزان الماء، لا لشيء، فقط كي لا أنسَ حلمي ذاك.

آه يا أم شهاب أكثر ما أفتقده هو أصدقائي وجيراني. دفعوا حياتهم ثمناً لأحلامهم، لا أعرف كيف يكون ثمن الحلم هو الحياة بأكملها! هل يرتفع الثمن بارتفاع مستوى الحلم، وهل لأحلامنا أثمان! «الحرية حلم!» كيف هذا يا الله! في كل بلدان العالم الحرية حقّ من حقوق المواطنين إلا في زريبتنا يا أم شهاب، الحرية حلم، ثمنه باهظ جداً، وعقوبته الإعدام!

كنتُ طالباً في الثانوية حين اندلعت الثورة، أقول اندلعت بدلاً من بدأت لأنها كانت حريقاً، أشعلت الدنيا، أشعلت بيوتنا وأراضينا، أحرقت الأخضر واليابس، ومازالت. كنت أشارك في المظاهرات أيام الثانوية، وعندما بدأت أستعد لامتحان الشهادة الثانوية، بدأت التحديات وأخذت حياتي تنحدر ولم أكن أعلم بأنها ليست سوى البداية. تخيلي معي، كنتُ أرى وجوه أصدقائي في الحارة بين صفحات الكتب، وجوههم الصغيرة أيام كنّا نلعب سويةً في الشارع. أقلب الصفحة، أرى وجوههم بيضاء، عيونهم مغلقة وأفواههم مفتوحة، والورود محيطة حول

رؤوسهم. مسحت صور تشييعهم تلك الصور البريئة الجميلة. أعاد الموت صور الطفولة لحالتها السلبية -النيغاتيف- وأبقت على الصور الجديدة القاسية.

رمى مازن نصف التفاحة بعيداً فلم يعد لديه أي شهيّة بعد أن فتح دفتر الذاكرة. تمدد على العشب بينما كانت أم شهاب تبحث عن نوع آخر في تلك المائدة المفتوحة. أكمل مازن حديثه شارداً في الغيوم التي أخذت ترسم شريطاً سينمائياً للأحداث التي كان يسردها لأم شهاب...

في ذاك اليوم من شهر تموز، وبعد أن أنهيت امتحانات الثانوية بشهر تقريباً، جاءني صديقي سالم بخبر إصابة أخي الكبير، ناصر، في إحدى المعارك ونقله إلى المشفى. انطلقنا أنا وأخي وأبي إلى المشفى، أخبرنا الطبيب أن ناصر بحاجة إلى عملية جراحية فوراً. تمت العملية بنجاح واستقرت أموره. بعد يومين كنت في صدد زيارته في المشفى، لكن أخي الأكبر طلب مني أن أسافر إلى دمشق للتسجيل في الجامعة، وهو سيقوم في زيارته. تخيلي ما حدث يا أم شهاب؛ داهم الأمن المشفى يومها وأعتقل كلّ من فيه، المرضى والزوّار والأطباء. بعد يومين خرج أخي الكبير، الزائر، وبقي أخي الذي كان مصاباً، بقي أخي المصاب هناك حتى هذه اللحظة! أين هو الآن؟ هل هو بخير؟ هل ما زال حيّاً؟

تغيرت معاملة أبي معنا لتصبح أكثر قسوة رغم قساوتها. غدا أكثر تشديداً على حركتنا، خاصة في أيامي الأولى في الجامعة. خاف أن يعتقلوني بسبب أسمي، لأن أخي معتقل ومن المحتمل جداً أن يتم اعتقالي لهذا السبب فقط، تخيلي! تخيلي لو تم اعتقالك، فإنهم سيعتقلون الشهب الصغيرة أيضاً. نعم، لا فرق إن كانت صغيرة أو كبيرة، حتى لو

كان عمرها يوما واحدا، سيتم اعتقالها لأنهم أبناؤكِ. تعالي لا تخافي، إنه مجرد مثال لا أكثر. أصلاً لا أسمح لأحد باعتقالكِ.

زادت تلك الهوّة بيني وبين أبي. كنت متمرّداً في مرحلة المراهقة، ونار الثورة امتدّت لتشعِل روحي فأردت أن أشكّل منها طينة متينة لشخصيتي. لكن تلك الطينة كانت بين أيادٍ قاسية، شوّهوا الطينة وهي تدور وتتشكل لا أقصد أبي وحسب؛ بل أمّي أيضاً. فقد عارضت الاختصاص الذي قمت باختياره؛ واحزري ما السبب! ببساطة لأن هذا المجال موجود بكثرة في العائلة؛ وأن معظم أولاد وبنات أخوتها وأخواتها يدرسون هذا المجال. يا إلهي يا أم شهاب؛ هل مستقبلي قطعة أثاث أو زينة جديدة! ما شي بيقهر ولو!

نهض مازن فانسدلت عباءته (الكَلابية) كستار مسرح على حديثه مع أم شهاب. أخذ يمشي بخطى بطيئة كسلحفاة تتحدى الزمن، يقطف إحدى الزهور الصفراء، يدحرجها بين سبابته والإبهام، ثم يرمها إلى إحدى المعز المنهمكة في الأكل متابعاً المشي دون هدف أو سبب. في رأسه مازالت دوائر التفكير بأمه، بأخيه ناصر، بأبيه، وأصدقاء طفولته تتوسع، كأن ذاك الحديث مع أم شهاب لم يكن سوى بحصة صغيرة تم رميها في مياه أفكاره الراكدة.

أصبحت أشعة الشمس أكثر قساوة، وعطشت المعز التي انتفخت بطونها وراحت تستلقي لتجتر وترتاح. كانت تلك إشارة من القطيع إلى راعيهم بأن يعيدهم إلى بيتهم ليرتاحوا من سياط الشمس، ويشربوا ماءاً يساعد على هضم هذا العشب اللذيذ. أطلق مازن إيعاز العودة قبل أن تستوي الشمس في وسط السماء وتنهار زوايا الظلّ أمام

عمودها. «ديييي... هااااااي... ديييي... يلا» مع هذه الكلمات عادت المجموعات الصغيرة بالانضمام إلى القطيع الواحد خلف الفرزدق. بينما ركض شريخان نحو المعز البعيدة ليوبخهم بنباحه الذي يشبه توبيخ الأخ الكبير أكثر من أن يكون مجرد نباح ضابط مساعد في فرع أمني!

كان مازن يراقب القطيع وهو في طريق عودته. لم تكن المعز تراه في هذا الوقت فهي تتبع قائدها -الفرزدق- تتبع ذاك الماعز الذي هو أيضاً من القطيع، والذي لا يختلف عنهم بشيء. يشرب معهم ويأكل من نفس العشب، وينام في نفس الزريبة. مع مراقبته تلك كانت الأسئلة تقفز في رأسه مثل المعز الصغيرة، هل سيأتي يوم ويطغى الفرزدق على قطيعه؟ هل سينطح من يعصى أمره؟ يضرب من يشرد؟ ويقتل من يواجهه أو ينافسه على القيادة؟

بالنسبة لمازن، فإن الفرزدق لا يشكل له أي تهديد، بل العكس. يعرف القطيع بأن أية حركة خارج الطريق ستقابلها ردة فعل غير حميدة من الفرزدق. وكذلك الأمر مع الفرزدق، فإن أية حركة أو مرض فإن السكين سيكون في انتظار عنقه.

وصلت المعز إلى أرضها وعلت أصوات الثغاء من داخل الزريبة، فارتفعت الأصوات من خارجها مع صوت الأجراس وازدادت حماسة القطيع ليخبر من بقي في الزريبة بأخبار الخارج التي تكاد تكون خالية من أي شيء مهم. قام مازن بتشغيل المولدة الكهربائية، لتشغّل بدورها محرك العنفة لجر المياه من البئر وتعبئة الحوض المعدني الصغير. تدافعت المعز على الحوض، تدخل مازن لتنظيمها «اششش ... اششششش ...» أغلق مازن باب الزريبة، أمراً شريخان في أن يكون حذراً، غير أن شريخان

كان بحاجة إلى قيلولة في الظل يحلم بها بأنه يطارد ثعلباً ماكراً ويفوز بقطعة لحم كبيرة.

– 3 –

وضعت الأسماك بيوضها في قاع الحوض لتفقس قريباً أسماكاً جديدة بدون أسماء. أسماك جديدة ستولد غير مدركة بأنها تنتمي إلى بحيرة؛ إلى جدول؛ إلى نهر؛ أو إلى بحر. ما أشقى تلك الأسماك التي تم اعتقالها وحجز حرية زعانفها في حوضٍ زجاجي توهمها بأنها ترى الخارج، تستطيع أن تشاهد ماذا يحدث من حولها من تطورات وأحداث، وكيف أن العالم ينمو ويتغيّر. لكن في الحقيقة، ما هي إلّا أسماك في عالم صغير جداً. وكل ما يحدث في الخارج ما هو إلا انعكاس على زجاج زنزانتها. لكن الأخطر هو أن تلك الأسماك التي ما تزال في قشرة بيوضها، تلك التي ستولد وتظن أن الحوض هو عالمها الطبيعي!

عاد مازن من جولة الرعي الصباحية، وأعاد القطيع إلى ظلّ الزريبة. أنهى فطوره البسيط، وشكر راعيه السماوي وتلك الكائنات الصغيرة لمنحه الحليب والجبن. بعد استراحة شاي قصيرة، أخرج مازن عنزته الخاصة «زينة» من الزريبة. أخذ يتفحصها ويحدّثها بلطف ويمسّد شعرها ويبللها بالماء حتى تنتعش وترتاح...

كيف حالك اليوم يا زينة، يا زينة المعزات! ما أجمل اسمكِ، زينة. يا ترى كيف حال زينة، ماذا تفعل في غربتها، هل ما زالت تتذكرني؟

كانت زينة الوحيدة التي تنسيني أسرتي ومشاكلها، تزيح شبح الخوف من الحواجز الذي يلازمني كل يوم أثناء ذهابي وإيابي من

الجامعة. أتعلمين! كان شعوري كل صباح لا يوصف. أذهب إلى جامعتي لأحقق ما كنت أحلم به، وأيضاً لألتقي بزينة. كان أبي يستيقظ في الخامسة صباحاً ليتأكد بأني ما زلت في البيت ولم أذهب إلى الجامعة. انتظر عودته إلى الداخل، ثم أحمل كتبي وحذائي، أنتعله خارجاً وأطلق قدماي للريح راكباً حافلة صغيرة -سيرفيس- تقطع الحواجز لتنضم إلى جوقة الحافلات الصغيرة التي كانت تسبح في شوارع دمشق المكتظة الخانقة.

قد أكذب لو قلت لكِ بأني كنت سعيداً في الجامعة. أبدا، فالطائفية التي اندست بيننا كالأفعى لسنين طويلة وظلت نارا تتلوى تحت الرماد سرعان ما استيقظت ونفثت سموم حممها الحارقة على كل شيء. قد لا يعنيكِ هذا بشيء، وأحسدكِ لأنه لا يوجد في عالمكم سني، أو علوي، أو شيعي، أو مسيحي، أو درزي. كلكم ماعز وكلكم تأكلون العشب. أما عندنا، كلنا بشر، وكلنا نأكل نفس الأكل، لكن عندنا أديان وطوائف تفرقنا أكثر مما تجمعنا! كانت معاملة الأساتذة قاسية وعنصرية للغاية، وهذا ما صدمني في البداية. منذ طفولتي كبرتُ على مبدأ أن الأستاذ هو بمرتبة الأب في المؤسسة التعليمية. مُعلّم، مُربّي، ومصطلحات كثيرة ترقى بهذا المنصب. لكن النظام ثابر على تشويه هذه الأسماء. ففي العسكرية، كلمة «أستاذ» تعني «حمار» وبالتالي، في لا وعينا، ستسقط هيبة الأستاذ في عيوننا، وتنهار مهمّته النبيلة ويصبح المثقف والمربي والباني، عبارة عن حمار! غريب.. أعرف ذلك يا زينة، لكن تحت البسطار العسكري ينسحق كل شيء.. كل شيء، لذلك، أعتقد أن أولئك الأساتذة لم يكونوا أساتذة، بل كانوا حميرا من نوع خاص مع كامل احترامي لحميركم يا زنزونتي.

لا تظني أنني لا أعرف أن الحمار معروف في عالمكم بدهائه في رسم وتخطيط الطرقات، هو الذي يجد الطريق الأسهل والمختصر ويتحمل العمل الشاق، هو صبور ودؤوب وصادق ولطيف يتقدم قطيعكم باحثا عن أيسر الطرق للحظيرة، نحن كبشر نعرف ذلك جيدا ونقدره.

ولكن جرى لحميرنا، تعديل جيني خطير وتم قمع ذكائهم وحنكتهم تلك في بلدنا المسكين ثم دفعوا بهم للمقدمة ليرسموا الطريق الوحيد الذي سيسير عليه كل أطفالنا وشبابنا، هل لك أن تتخيلي ذلك!؟ شتان يا زنزونتي بين حميركم وحميرنا، صدقيني ليس كل حمار حمار..

كانت معاملة أساتذتنا قاسية للغاية، كانت زنزونتي تعاني من الأمر نفسهُ في كلّيتها، لكنها لم تكن تتحدث بالموضوع. كانت تحاول أن تخلق أحاديث عادية تنسينا همومنا التي كنّا نجرها أينما ذهبنا، همومنا التي كانت عالقة بنا، على أسمائنا، وعلى هوياتنا.

في إحدى الأيام، سأل الأستاذ أحد الطلاب سؤالاً يتعلق بما ندرسه، لكنه لم يأخذ منه جواباً. فانتهز الأستاذ الفرصة قائلاً: «طلّاب درعا يلي هنن طلّاب درعا بيعرفوا يجاوبوا ع هيك سؤال».

كانت هذه العبارة أشبه بخنجر في قلبي، والمشكلة أن الكثير من هذه الخناجر كانت تنغرس فينا مع كل محاضرة. أعتقد اليوم بأن الأساتذة كانوا بهذه الوحشية معنا ليثبتوا ولاءهم للنظام، لكي يكتب الطلاب أصحاب الخطوط الجميلة تقارير دسمة تشهد لولاء و«وطنية» الأساتذة لا أكثر. بعد تلك المحاضرات، كنت أخرج مع زينة وبعض الأصدقاء، نحتسي الشاي في كافتيريا الكلّية. أتأمل وجهها وابتسامتها.

أحفظ أطباعها وحركاتها. حفظتُ كل تفاصيلها كما حفظت أسماءكم وعاداتكم وأمراضكم.

نهض مازن مبتعداً عن زينة، نفض عنه الغبار وتغيّرت ملامح وجهه لتصبح أقسى، أو بالأحرى، دون معالم، تماماً كوجه الأرض التي يقف عليها.

أنهيت السنة الأولى بصعوبة وقررت الانتقال إلى جامعة دمشق فرع درعا بسبب إهانات الأساتذة التي لا تنتهي، بل أخذت تصبح أكثر قساوة وقذارة. إضافة لإهانات العساكر على الحواجز، وضغط أبي عليّ لأترك الجامعة. تحسنت الأمور عندما انتقلت إلى درعا.

بقي أبي على قراره في أن أترك الجامعة خوفاً من الحواجز، وخوفاً من القصف هذه المرة. صحيح أني تخلصت من العنصرية والذلّ سواء من العساكر أو من الأساتذة، لكنّي فقدتُ شيئاً كبيراً، فقدتُ المُتعة في الذهاب إلى الجامعة. تلك المغامرة التي كنت أعيشها كل يوم، الشوق لرؤية زينة، قضاء وقت مع الأصدقاء «الدرعاوية» لم تعد تلك اللحظات موجودة، وإن وجدت، فهي أشبه بالطعام بلا ملح!

بعد فترة سمعتُ أن عائلة زينة قررت الخروج من البلد، لا الانتقال إلى محافظة أخرى، لا.. بل السفر وترك هذه المزرعة. انشطر قلبي، شعرت بنفس الشعور يوم أُعتقِل أخي، يوم استشهد يزن ومُضر وأديب. شعرت بالخسارة مرة جديدة، بالفقدان، نعم الفقدان تعبيرٌ أنسب لحالتي، لحالتنا. أن تخسري شيئاً أو شخصاً ما، فهذا يعني أنكِ كنتِ تخوضين حرباً، مقايضةً، رهاناً. قد تستطيعين تعويض الخسارة، قد تعيدي الشيء الذي

خسرتيهِ، أما الفقدان، فهو كالحلم، يكون المرء معكِ، وفجأة يضيع، يزول، تفقدينه. تفقدين حضوره وتفقدين كل المشاعر التي كان ينشرها بحضوره ذاك. الفقد، هو الشيء الذي يذهب ولا يعود، يزول ولا يتم ملئه مجدداً، بل يترك فراغاً أو ندبا على روحك، ومع تكرار الفقدان، تصبح الحياة عبارة عن فجوات، مشوّهة، متآكلة، كشكل بيوتنا، ثيابنا، أسناننا، وأرواحنا...

بعد شهرين من سفر زينة، انتهت السنة الأولى بصعوبة وكأنها خمس سنين. مع نهايتها اشتدت المعارك من حولنا. أبى أبي أن يترك البيت خوفاً من السرقة أو كما نسميها «التشويل» أصرّت أمي وحتى زوجة أبي على الخروج، حتى نزلت علينا تلك القذيفة راجية إيانا بالرحيل، ورحلنا كالقطيع الهائج، رحلنا وتركنا أبي وحيداً في داره يحرسها من اللصوص ويحميها من الصواريخ! اتجهنا إلى أم الميادن وهناك كانت البداية، بداية التحولات، هناك حيث أخذت حياتي تتغير وتدور كما عقارب الساعة التي لا تدور للخلف أبداً، هكذا راحت حياتي تنحدر إلى غير رجعة...

– 4 –

عاد مازن إلى وحدته وسكونه بعد أن غادره أخوه الكبير محسن ومصعب الصغير. ساعدا مازن في حلب الماعز وتغيير الماء في حوض السمك، وتناولا طعام الغداء الذي أعدّه مازن. سرد محسن أحداث المدينة بتفاصيلها. عن حواجز الجبهات الإسلامية ومعاملتها مع السكان. عن المعارك، عن التوقعات التي لا تصيب إطلاقاً. عن الحارة وشكلها الذي تغير مثلما تغيرت الوجوه؛ مثل التعليق الذي يطلقه مصعب كلما

رأى مازن «ولو شو متغير يا أخي! كبران كثير» يروي محسن أخبار أمّهِ وأخواته لمازن، عن سلوكها الذي صار صعباً ومتقلباً بعد غياب مازن وأبيه.

حمل مازن غالونات الحليب وأوعية الجبن التي أعدّها مسبقاً. كما قام محسن بجمع الخضراوات التي أينعت وحان وقت قطافها. وضعوها في سيارة البيك آب البيضاء، أو التي كانت بيضاء بعد أن غطاها الطين والأوساخ. من الأفضل أن تكون بهذا الشكل، فهذا يحميها من عيون المروحيات وغيرها من العيون والفوهات التي لا تغمض ولا تشبع.

صنع مازن لنفسه برّاد شاي ثقيل جديد. لفّ لنفسهِ سيجارة من التبغ الذي أحضره له محسن. أبعد أوراق التبغ الناعمة عن بعضها بيديه الغليظتين على مهلٍ وبإيقاعٍ متكرر، لحس الورقة الرقيقة ولفّها بخفّة لتجمع وتضم تلك الشعيرات المبعثرة. دبب رأس السيجارة ووضعها في فمه لكن سرعان ما تفّ بعض أوراق التبغ الهاربة من كفنها. أشعل السيجارة وسحب شهيقاً عميقاً فظهرت بعض الخطوط حول عينيه مؤكدةً عبارة مصعب الصغير. أقترب شريخان من مازن بخطوات كسولة، وجلس بجانبهِ معبّراً عن امتعاضه لذهاب مصعب ومحسن وعودته إلى وحدته ومهمته العبثية في حماية القطيع. ابتسم مازن ليعود شاباً في العشرينات. ما حالك يا شريخان متعب دائماً والملل في لهاثك ونباحك. حتى أنك لم تعد تنبح مثل ذي قبل. أحياناً أضحك من قلبي عندما تنبح بملل، تذكّرني بمدير المدرسة التي كنت أعمل بها، أستاذ ياسر، ههههه كان فعلياً ينبح. ينبح على الطلّاب كأي مدير مدرسي بعثي. بكرشه الكبير وعنقه اللامرئي المدفون بين كتفيه الصغيرين. كان يعكس

صورة الضابط، مدير السجن، أكثر من أن يكون مديراً لمدرسة ابتدائية-إعدادية.

أتعلم يا سيد شريخان أن الراعي الذي أمامك كان مُدرّساً يوماً ما! نعم يا سيدي، عملتُ لشهرٍ واحد مُعلّم لغة عربية وكان أجمل شهر في حياتي. صحيح أني خسرت جامعتي ولم يعد باستطاعتي العودة إليها، لكن كان هناك شعور رائع، أن أعمل في المجال الذي أحبّه، الذي كنت أدرسه لأتخرج منه معلّماً بشهادة جامعية. «وصل الأستاذ مازن» كم كانت جميلة هذه الكلمات. كنتُ أقول لهم «أقعد يا ابني» وهم في عمر مصعب الصغير!

يرمي مازن بالسيجارة بعيداً، يقف رأسه مرفوع للأعلى. ينظر إليه شريخان بنظرة لا مبالاة غبية. يبدأ مازن بالتحرّك بشكل مسرحي مبالغ فيه تماماً كالصورة النمطية التي زُرعت في أذهاننا عن المسرح والتمثيل المسرحي...

كنتُ أدخل الصف بهندام أنيق، بنطال قماشي وقميص ذا جيب على الطرف الأيسر، يطّل منه رأس القلم الفضي الذي لم استخدمه إطلاقاً. يقف الطّلاب احتراماً لدخولي مثل دخول قائد على كتيبة عسكرية. كنتُ أمشي إلى الطرف الآخر للصف حيث الطاولة الحجرية التي كانت أشبه بأداة للتعذيب أكثر من أن تكون طاولة!

أقف لثواني، أمشّط بنظري رؤوس الطلاب الصغيرة، ثم بجدّية تامة وبكلمة واحدة «جلوس» يجلس الجميع. أفتح حقيبتي التي اشتريتها من البسطة، أخرج منها الكتاب وبعض الأوراق، أستكمل قائمة الحضور

لأتأكد أن ما من أحد قد هرب من هذه الزنزانة. ثم أبدأ حصتي، وفي حصصي تلك كان من الممنوع التحدث إلا باللغة العربية الفصحى.

ينظر إلى شريخان الذي ملّ من هذا العرض:

أتعرف يا شريخان، عندما أستذكر تلك اللحظات أشعر بتعاسة طفولتنا، كم كانت صفوفنا بائسة وكئيبة. الجدران رمادية قذرة، النوافذ مغطاة بشباكٍ حديدي وبعضها مغطى بزجاج إطاره حديدي أسود. سور المدرسة العالي مدهون بالكلس الرخيص وعليه عبارات مخططة بحروف عملاقة؛ كلّها عبارات سطحية تافهة قالها «القائد الخالد» منذ عقود، لكنها لم تعد خالدة اليوم. تم مسحها بالقطران والدهان الأسود، فازداد تشوه المكان تماماً كما تشوهت أيامنا عندما حاولنا أن نمسح تلك العبارات من على أرواحنا.

آه يا شريخان! عندما استحضر تلك الصور الآن أشعر بالخوف؛ عندما أقارن كمية الباطون والحديد مع جدران هذه الخيمة. لم يكن المكان هو المخيف فقط، بل حتى المناهج وطريقة تدريسها. مثلاً القصائد الموجودة في الكتب، لم تكن قصائد جميلة عذبة تلمس المشاعر وتدغدغها، بل كانت تخيفنا من العدو، على أننا نحن العرب محاطون بالعدو كجزيرة وسط المحيط. كنّا مثلك يا شريخان؛ نخاف من العدو ومن هجماته المباغتة، لكننا لم نرَ العدو يوماً يهاجمنا ويقصف بيوتنا ويعتقلنا. بل علّمونا أن نخاف منه وحسب، كما أنت والماعز تخافون الذئب الذي لا وجود له هنا.

كل شيء كان يدعونا للعنف بدلاً من التفكير، يحمّسنا على الانتقام والمحاربة والكره أكثر من أن نفكر بالحرية. حتى الحرية يا شريخان، حتى

الحرية كانت مغشوشة مثل حليب أبو بسّام الحرامي. الحرية في أذهاننا هي التخلّص من العدو الغاشم، أن نتحرر من الاستعمار والاحتلال. كانت الحرية محصورة فقط في «وحدة ... حرّية ... اشتراكية» التي كنّا نرددها كل صباح على مدار اثني عشر عاماً؛ ولم نتعلم عن «الحرّية» تلك الحرية التي كانت مسجونة في كتب أخرى، مسجونة مع مؤلفيها تحت الأرض، مع ناصر!

لفّ مازن لنفسهِ سيجارة جديدة بعد أن ارتفع الدم لرأسه، علّ لفافة التبغ تلك تهدأ من أفكاره. ظهرت كل تلك الأفكار والتحليلات والإسقاطات بعد أن جلس مازن في هذه الخيمة، بعد أن شرد مع الماعز وصار لديه حيّزاً للتفكير. كانت تلك المعرفة تؤلمه، تلك الحقائق التي كان يصل إليها تضيف خطّاً جديداً على وجهه وآلاف الخطوط المتشابكة في أعماقه.

هل تعلم لِمَ تركت مهنة التعليم في تلك المدرسة يا صديقي؟! تركتها لا لأني سئمت المكان أو المنهاج الدراسي، لم أكن حينها قد وصلت لكل هذه الاستنتاجات، بل العكس، كانت المدرسة أجمل مكان عندي، كنت معلّماً بعد أن أنهيت سنتي الدراسية الأولى، وكنت أقول لنفسي، بعد سنة قد حصلت على هذا العمل، فماذا سيحدث لو تخرجت! شهر واحد عملت في تلك المدرسة، وفي هذا الشهر أحبني الطلاب وأحببتهم. كان أسلوبي ترغيبي وترهيبي في الوقت نفسهِ. إلى أن جاء ذلك اليوم عندما دعاني الأستاذ ياسر إلى مكتبه ليخبرني بأن هذا اليوم هو الأخير لي في هذه المدرسة. كان الخبر صادماً جداً. سألته عن السبب لكنه أبى أن يشرح وأخذ يلف ويدور حتى فهمت أنه عليّ أن أبلع القرار دون نقاش.

خرجنا من المكتب نتحدث بأمور عادية وقبل خروجنا من باحة المدرسة تذكرت أني نسيت حقيبتي في المكتب، عدّت لأحضرها. لفتتني ورقة على الطاولة. لم تكن من عادتي أن أتلصص، لكن الصورة التي كانت على الورقة دفعتني لأقرأها.

كانت صورة لصبية صغيرة بحجاب أزرق أنيق ووجه طفولي جميل بعيون كبيرة كحيلة. قرأت الورقة وإذ بها الإجابة عن السؤال الكبير «ما السبب!» كانت تلك الصبية هي السبب. تم تعيينها لتكون مكاني علّماً أنها لا تحمل الشهادة الثانوية حتى. لكن كان لديها شيئان مهمان لم أكن أملكهم. الجمال والنسب! والله يا شريحاااان الكلب نحن نحتاج إلى مئة ثورة كي نصحح هذا الخراب الذي ابتلينا به..

حتى بعد سنوات الثورة، لم تتغير عقليتنا وأفكارنا البالية. إن كنت من عائلة معروفة غنية فإن لك المكانة والأبواب المفتوحة والمقاعد الوسيعة في صدر المجلس. إن كنت مثلي، فلن تنفعك الشهادات والقدرات، وسيكون قرار إزالتك بسيطا للغاية، كما تزيل حجر الشطرنج من على الرقعة.

خرجتُ من المدرسة بسرعة غاضباً حانقاً على الثورة وعلى النظام وعلى كل شيء. أخرجت الكتاب من الحقيبة. تركت فيها أوراق الحضور وغيرها، ثم رميت بالحقيبة في أقرب حاوية. أمسكت الكتاب وأتذكر أني كنت أعصره بعد أن لففته كسندويشة فلافل. فكّرت بأن أعطيه لبائع الفلافل ليستخدم صفحاته في لفّ السندويش، لكنّي خجلت من نفسي، عدت إلى البيت وبكيت. وضعت الكتاب على الطاولة مؤمناً أنني سأعود إليه قريباً لأقوم باستخدامه وتعليمه لطلّاب جدد في مدرسة جديدة.

بعد أيام جاءنا طالب من مدرسة مصعب وسلّمني ملفّاً كبيراً وأخبرني بأن الملف من المدرسة. طار عقلي، ظننت أنها دعوة أو طلب من المدرسة لأذهب وأعمل هناك كمدرّس. لكن سرعان ما عاد عقلي إلى عشّه وتساقطت أجنحة الأحلام والفرحة بعد أن قرأت الأوراق. لم يكن ذلك الملف سوى ملف مصعب المدرسي، حيث تم فصله من المدرسة لغيابه الطويل غير المبرر. أعطيت الملف لوالدتي، وبدلاً من أن تفتحه سألتني «ما هذا؟» وعندما أخبرتها ردّت ببساطة «أي وبالناقص» نعم بهذه البساطة، كبساطة إقالتي من المدرسة من أجل عيون أم العيون الكحيلة ذات الوجه الطفولي!

دخل مازن إلى خيمته باكراً تلك الليلة بعد أن قدّم عرضاً قاسياً من عروض حياته التراجيدية. استلقى في فراشه وانتظر ساعة حتى ينام شريحان مطمئنا وينسى أمر وجود الراعي، وبين الحين والآخر كان مازن يمارس لعبة السلطة في عالمه، لعبة الخوف. كان يخيف كلبه بأن يرمي له حجراً على الزريبة أو على الأوعية البلاستيكية موهماً إياه بأن عدواً خفياً يحوم حول القطيع. وفي الوقت نفسه، كان يقنع القطيع بأن الخروج من تلك الزريبة دون أمرٍ من الراعي ما هو إلّا ضرباً من الجنون، فنباح شريحان غير العادي في هذا الوقت هو بالتأكيد علامة خطرة بأن الوحش قريب ومصير الأعناق واللحم الطري تحت رحمة قبضته وقوته.

بهذه الطريقة البسيطة كان يحافظ على «ولاء» و«خوف» قطيعه من كلبه الذي يحميهم ويسهر على أمنهم وأمانهم. لا يدركِ المَعز أن لهذا الكلب أنياب ومخالب أيضاً، وبأنه من فصيلة الذئاب، وأن أجداده لم يكونوا سوى ذئاباً وحشية تنازلوا عن وحشيتهم مقابل وجبة دائمة

مضمونة في عصر الصيد. لم يكن القطيع يدرك بأن أي محاولة للهروب أو «التحرر» من هذه الزريبة سيقابلها هجوم شرس لا من الضباع والذئاب -العدو- بل من الحارس وحامي الحمى نفسه!

في الوقت الذي كان فيه قطيعه قابعا في حظيرته مرتجفا من الخوف، وشريخان يدور حول نفسه وحول الزريبة ككوكب صغير، كانت الأسماك أيضاً تروح وتجيء في خطوط مستقيمة أفقية في محيطها المجهري. في تلك اللحظات، كانت المستعمرة الصغيرة النامية تحت خزان الماء تغزل وتتكاثر وتتوسع بصمت رهيب كحديث الخرسان الصامت والصاخب في الوقت ذاته. تمددت المساحة الخضراء أكثر لتغطي المساحة الصغيرة تحت الخزان، وتصبح بيئة مثالية لأنواع محددة من الحشرات. في الوقت الذي كانت المستعمرة الخضراء تتوسع وتتطور، كانت الكائنات الحية الكبيرة الأخرى تعيش في أحواض وغرف صغيرة جداً، تدور وترتجف خوفاً ولا تفكر بشيء سوى بأن يكون الصباح الآتي أكثر سلاماً، حاملاً معه الخبز اليومي، لا شيء آخر...

- 5 -

كانت السماء صافية تماماً في تلك الليلة، لكن ذهن مازن لم يكن كذلك. لم يكن هناك شيء جديد في يومه ذاك، بل كان القطيع أكثر طاعة، وشريخان أكثر حذراً وأقلّ مللاً. كان يوماً يشبه الذي سبقه. في حضرة تلك الرتابة باغتت روح مازن رؤيا كسرت بتجلي فيضها وحدته ونقلته إلى عالم طالما أحبه ومنحه السكينة والسلام، فمع ظهور النجوم على خدّ السماء بشكل كثيف، تذكر مازن النمش الناعم على خدّ زينة.

تلك النقاط الصغيرة البرتقالية التي كانت تنبت على وجهها كأزهار الربيع. تذكر كيف كانت تتجمع تلك النقاط أعلى خدّيها وتتساقط تحت جفنيها عندما كانت تضحك بحياء جميل لكلمات مازن وأشعاره التي كان يكتبها لها. في منتصف الصيف، حيث كان النمش في أوجه. يومها دسّ الورقة في كتابها، وعندما التقيا في كافتيريا كلّية الطبّ بعد أن أنهيا جدول محاضراتهم، فتحت زينة كتابها دون أن تزيل عينيها عنه. أعطته الورقة دون أي تعابير، ففهم مازن أنه أثقل العيار وأنه تخطّى حدوده مع زينة. إلّا أن نجوم النمش ارتفعت وتمددت عندما رسمت ابتسامة ساحرة قائلة بصوت خجول حنون «أعتقد أن هذه الكلمات ستكون أجمل بصوتك».

خرجت الكلمات بانسيابية وبلهجة درعاوية أعطت الكلمات نغماً مميزاً، راح مازن يردد كلمات القصيدة لكن هذه المرة للنجوم التي أخذت تتلألأ بشدة مع كل كلمة....

النمش،
هو حين تغتسلُ بشعرٍ
كُتِب بماء الشمس!
هو ذوبان جسدِ القرفة
حين ترقصُ على أنغام الناي الحزين
هو آثار أقدام الجنيّات
اللواتي يسرقن الكحل ليلاً!
هو انعكاس المجرة..

هو سرب حمام في غروبٍ ريفي!

هو صلاة النجوم في كونٍ أبيض!

هو النمش،

وما أدراك حين يتلون بالخجل...

وبالُقبل...!

تنهّد مازن وكأنه كان يقرأ الفاتحة على قبر ذكرياته. أشعل سيجارة من تبغ أخيه محسن، وراح يمشي في العراء بعيداً عن خيمته. عاد وعلّق نظره على كتف السماء. وراح يفكّر بغرابتها، فهي السقف المشترك في هذا العالم. أي شخص على سطح هذه الأرض ينظر إلى السماء، فإنه ينظر إلى نفس السماء أينما كان موقعه! زينة مثلاً تنظر إلى السماء الآن، نفس السماء، لكن هناك تدعى «سماء برلين» كما قسّمنا وحددنا الأرض؛ هكذا نقسّم ونسمّي السماء أيضاً. سماء برلين فيها العصافير، الطائرات الورقية، المناطيد، طائرات السفر، وأحياناً بعض الأبنية التي تنطح السحب. أما هنا، فالسماء مخيفة؛ طيور جارحة تحوم فوق الجثث، شمسٌ حارقة، مروحيات ترتعش النوافذ والقلوب لأزيزها وتزول الرعشة ببراميلها. طائرات تخترق جدار الصوت، تحطم الزمن بسرعتها التي تفوق سرعة ابعاد الطفل عن مخالب الموت وتفوق سرعة الاختباء وسرعة الوداع.

مرّت سيارة سوداء على الطريق الرئيسي البعيد عن عالم مازن. مشت السيارة بخطٍ مستقيم على الطريق ومعها سحبت عيني مازن ورأسه الذي راح يلفّ كالرادار متتبعاً السيارة التي غاصت في ظلمة الليل وكأنها اختفت في اللاشيء فجأة. سحبته تلك السيارة إلى الماضي،

إلى سنتين ونصف السنة حين كان عاملاً في الجاروشة، في جرش وطحن الحبوب.

إيه على أيام الجاروشة... على أيام التعب، هه وكأن الآن هي أيام رخاء وعزّ! كل الأيام تعب، ولكل تعب طعم مرّ وطعم أمرّ. والله يا زينة لو تعرفين كم تعبت خلال السنوات الماضية. لو عرف أبوكِ كم عانيت في شبابي الذي لم أرَ منه شيئاً، لأعطاني أياكِ دون مهر.

بدأ مازن بالمشي وكأن زينة تمشي بجانبه، ينظر بين الحين والآخر إلى جانبه الأيمن مبتسماً وكأن خيالها موجودٌ فعلاً؛ كنتُ أستيقظ من السادسة صباحاً، أركب إحدى السيارات على الطريق، كتلك السيارة السوداء التي مرّت منذ قليل. كانت تلك أجمل اللحظات لدي وأسوئها. أسمع قصص غريبة عجيبة عن أناس جاؤوا من محافظات بعيدة ليعبروا الحدود إلى الأردن. أو العكس، يتجهون شمالاً ليهربوا إلى تركيا. منهم من فقد عزيزاً، أطفالاً، بيوتاً، أراضٍ، أو حتى أعضاء من جسدهم. منهم من نجا من الاعتقال وخاف أن يعود إلى الجحيم مرة أخرى. الشي المشترك بينهم جميعاً كان الفقدان يا زينة. الكل فقد شيئاً ما، ويريد النجاة بما تبقى لديه. لكن النجاة لا تعيد ما فقدناه. الهروب أو السفر لا يعيدان ما فقدناه. كما لا شيء يعوض افتقادي لكِ يا زينتي الحلوة...

كانت الجاروشة مليئة بالشباب والرجال، برائحة القمح الممزوجة برائحة السجائر والعرق والتراب. كنّا نعمل حتى المغرب. أي ما يقارب الثلاث عشر ساعة، دون أي استراحة. حبيبكِ كان يخلق لنفسهِ استراحات؛ كيف؟ سأخبركِ، أوقات الصلاة، مثلاً، كانت بمثابة

استراحات رائعة. مع كل ركعة كان ظهري يسترخي ويتمدد. كانت الصلاة راحة جسدية ونفسية أيضاً. كانت تذكرني بالصبر، بالفرج، بأن الله رحيم، ليس مثل أبو أسامة صاحب الجاروشة، إن أخطأ أحدهم خطأ بسيطاً، كان يطلق عليه عبارته الشهيرة كرصاصة في الصدر «روح الله معك». قد تستغربين من هذا، لكن الأيدي العاملة كثيرة يا زينة وراغبة في العمل. للأسف، أسمع أحياناً من محسن أن هؤلاء الراغبين في العمل، يفقدون هذه الرغبة عندما تطأ أقدامهم أوروبا. لا أعلم إن كان هذا صحيحاً، لكن لا ألومهم، إن كانوا عمّالاً عند أبو أسامة فهم يريدون بعض الراحة. وإن كان غير ذلك، فدعيني أسمع منكِ إذن...

أخذ يلفّ سيجارة على مهل بعد أن جلس على صخرة نابتة بين العشب، وبات شعوره بزينة أكثر واقعية:

أيام كثيرة عملت لأكثر من عشر ساعات دون طعام، فاستراحة الغداء أشبه بالعقوبة. كان عليّ أن أستقل سيارة عابرة متجهة نحو شمال الجاروشة، أشتري لنفسي سندويشة فلافل، ثم أعود إلى الجاروشة بسيارة عابرة أخرى. في الأشهر الثلاث الأولى، كان أهلي معي وبالتالي حين أعود في المساء، كان الطعام بانتظاري، البيت مرتب ونظيف، وحوض المغسلة فارغ من الصحون. بعد تلك الأشهر الثلاث، عادت أمي وأخواتي إلى بيتنا في درعا. تمنيت أن تكوني معي، أن تساعديني. كنت في الصباح ألعب دور الرجل، وفي المساء حين أعود منهكاً كان يبدأ دور المرأة. أجلي، أطبخ، أنظف، حتى أزحف إلى الفراش لاستيقظ في اليوم التالي وأعيد دورة الشقاء تلك بلا نهاية.

بتعرفي يا زينتي! تلك الأشهر الثلاث، أضيفي عليها سنواتي هنا في هذا المكان. قد علّمتني الكثير منها احترام المرأة، احترام تعبها وشقائها، تقدير الجهد الرهيب الذي تبذله كل يوم. والله يا زينتي لو عشنا تحت سقف واحد لدللتك أحلى دلال.

صمت مازن لدقائق وراح يشرد في النجوم ... ذكرتني بقصة أحد الركّاب الذي نجا من الاعتقال. عندما خرج، وجد أن زوجته وأهلها سافروا إلى تركيا ظنا منهم أنه لن يعود. ليس هذا وحسب، بل العمّ، أبا الزوجة، طلّق ابنته من زوجها عند الشيخ غيابياً وكانت على وشك الزواج من رجل آخر يعيش معهم في المخيمات على الحدود التركية لأن العمّ لم يعد يحتمل مسؤولية أحفاده. كان الرجل يروي قصّته كالمجنون، أما السائق فكان هادئاً بشكل غير طبيعي، كأنه أعتاد أو تخدّر من سماع مثل هذه القصص كل يوم. بعض الركّاب مثلي، ينظرون إلى الطريق ويشردون بأفكارهم دون البوح بها. البعض خائف، بل معظمهم.

في أيام كثيرة كنت أستحضر لحظات السيرفيس والسفر صباحاً إلى دمشق من أجل الجامعة، وكم كان يخفق قلبي لأني سأراكِ، سأجلس معكِ في كافتيريا الكلّية ونهرب من واقعنا. أجمل تلك الأيام حين كنتُ أكتب لكِ قصيدة، أضعها في إحدى الكتب الجامعية البائسة. أشعر أني أحمل سلاحاً، سبيكة ذهب، أو شيء ثمين وثقيل. سأخبركِ بهذه الحادثة، لم أروها لكِ من قبل...

يومها كنتُ أحمل قصيدة لك. توقف السيرفيس عند الحاجز كالعادة. فتح الباب ليطلّ علينا عسكري ضخم. طلب هوياتنا ودفاتر العسكرية. قام بتفتيش حقائب النساء، أخرج من إحداها فوطة نسائية وصار

يضحك بشكل مقرف. نظر إلى الفتاة التي أرادت أن تبلعها الأرض في تلك اللحظة. رمى الفوطة بعيداً، وأعطاها الحقيبة مضيفاً عبارات قذرة كضحكته. طلب تفتيش كتبي، وعندما وجد القصيدة، ظنّ أنها منشور ثوري أو ما شابه. أنهال عليّ بالشتائم، حتى طلبتُ منه أن يفتح الورقة ليتأكد بأنها ليست سوى قصيدة.

فتح الورقة مبتسماً لأنه وجد مادة دسمة جديدة ليتمزمز بها. راح يقرأ القصيدة وكأنه طفل في الصف الأول، يحاول تهجئة الحروف مستهزئاً بالصور التي لم يفهمها أساساً. نظر إليّ بعد السطر الرابع؛ «ولا كرّ، طيزي بتكتب أحلى من هالقصيدة! شو هالخرا هاد! بربي أنها كرّة متلك لحبتك».

رمى الكتب في حضني مع الورقة بعد أن أصبحت ركاماً في يده. ما زلت أحتفظ بتلك الورقة، لم أقرأها لكِ، لأني شعرت بأن القصيدة اغتصبت، أعتدى عليها ذاك الوحش ولم تعد صالحة لتكون لكِ... آسف يا حبيبتي... آسف!

– 6 –

ضغط مازن على اسم محسن في هاتفه المحمول الذي نادراً ما كان يستعمله. لم يرد محسن لا في المرة الأولى ولا في المرة الخامسة. رمى الهاتف جانباً، ثم أعاد الغطاء الصوفي السميك ليغطي رأسه وجسده الذي كان يرتجف ويتعرّق بشكل مخيف. لم يستطع مازن أخذ الماعز بعيداً، لم يسق الأرض الصغيرة، لم يستطع حتى إعداد وجبة الفطور بسبب الحمّى التي غزت جسمه بالكامل.

في ذلك اليوم، كانت الطبيعة في حالة فوضى. شريخان ينبح حيناً على ذبابة وأحياناً يخرّ نائماً، بينما الماعز يثغو باحتجاج وامتعاض لعدم خروجهم اليوم إلى البراري للرعي، حتى الريح كانت تهوج من كل الاتجاهات، تبعث الفوضى في الأوعية البلاستيكية وتقرع على الخزان شبه الفارغ المكتوب عليه «حرّية» فيصدر صوتاً أشبه بصوت وحشٍ غاضب في عمق كهف مخيف ويزمجر هاي الحرية يلي بدكين ياها يا عرصات! الخضراوات تتحدث فيما بينها عن عدم شرب الماء اليوم، والثمار الطازجة توقعت أن يتم قطفها وخروجها من هنا. لكن مازن، كانت يعاني من ألمٍ شديد في كل عظام جسمه، في كل عضلة من جسده النحيل.

حين عاد مازن إلى بيت أهله قبل سنتين، أصبحت الظروف أفضل بكثير. أنتهى من العمل الشاق في الجاروشة ومن لعب أدوار عديدة في عرضٍ قاسٍ لا يصلح فيه لأي دور. لكن في المقابل، خسر مازن الدخل المالي، وخسر دراسته وأي فرصة للعمل كمدرّس لغة عربية. رجع مازن ليجد أن الثورة لم تغير معالم الوطن فحسب، بل معالم بيته، معالم أسرته، معالم كل شيء. أصبحت عائلته أكثر تفككاً تماماً مثل المدن والقرى. ازدادت الخلافات بين أمّه وأبيه، وراح أبوه يميل نحو زوجته الثانية -ابنة العمّ- أكثر من ذي قبل. تزوج محسن، ومصعب الصغير لم يعد إلى المدرسة الجديدة بعد أن أُصيبت باحتها بصاروخ أرض-أرض راح ضحيته أصدقاء مصعب أمام عينيه. سأل عن ناصر، توقع عودته، توقع أخبار جديدة عنه، لكن خمسة عشر خطّاً في وجه والدِه وسوادٌ عميق تحت عيني زوجة الأب كانت كفيلة لتقول إن ناصر ما زال في المجهول...

اقترحت أمّه أن يتزوج، لكن زينة مازالت تتربع على عرش قلبهِ. ثم كيف له أن يتزوج إن كان والده يشتري الأراضي الواحدة تلوى الأخرى لمجرد كسبه بعض الآلاف من المحاصيل أو منتجات الماعز. مع خسارة الناس لبيوتها وأراضيها وممتلكاتها سواء بالتدمير أو النهب، كانت شراهة أبا مازن تزداد للامتلاك. لم يكن أبا مازن يفكر بأولاده ومستقبلهم، في منحهم بعض النقود أو بعض الحصص من أراضيه الزراعية ومواشيه كي يشقّوا طريقهم في طرق الوطن الوعرة ليبنوا لأنفسهم بيتاً وعائلةً. على العكس، كان ينظر إلى أولاده على أنهم عمّال بأسعار بخسة تزيد من عجلة الإيرادات دون وجع راس. عرف الأب كيف يستغل ضغط الأم على مازن في موضوع الزواج، عارفاً أن مازن لا يستطيع الزواج دون دعم مادي من الأب نفسه. اقترح على مازن العمل في الخيمة مشرفاً على الأرض الصغيرة وقطيع الماعز وحوض أسماك الصهر الذي وقع هو الآخر في شِباك الرجل العجوز.

يا ريت موت وارتاح... استغفر الله العظيم! آآآآه يا أمي...

أريد أمّي، أريد زينة، لا بدّ أنكِ تخرجتِ من كلية الطب الآن. تعالِ، تعالِ وداويني، داوي حمّتي وداوي آلام قلبي، داوي وحدتي، داوي ضعف إيماني يا زينة. لا حول ولا قوة إلّا بالله!

ما من أحدٍ يأتي ليسأل عني! آه يا ناصر، أشعر بحالِك في سجنك المرعب أشعر بمخالب سجّانيك وأنيابهم وهي تفكك عظامك وتنهش لحمك، أشعر بحال من معك. لا زيارة ولا سؤال، العالم يتابع حياته وكأن لا وجود لكم؛ لا وجود لي. من يدري بي! لستُ لاجئاً في مخيم، أو على

الحدود أو في أراضٍ بعيدة. ولستُ بخير، أنا لستُ بخير يا عالم... أنا هنا، كالمنفي على جزيرة. حتى الجيش لا يبحث عني لسوقي إلى العسكرية. ولا أعني شيئاً لأحرار الشام وقوانينهم وفتواهم.

هل أنا نكرة إلى هذا الحدّ! أين أنتَ يا محسن، أين أنت يا أبو ناصر! اعتبرني عنزة من عنزاتك وتعال واطمئن عني. كم أحسد العنزات، يدفئون بعضهم البعض، لا يشعرون بالوحدة، وإن خافوا؛ فأمهم بجانبهم، الفرزدق يحميهم. وإن جاعوا، فأم شهاب والخنساء موجدتان. أما أنا، فمن لي غير ربّ العالمين... صبرك يا رب. فصبركَ هو المعين، يا معين يا رب...

استغرق صنع ابريق الشاي حوالي نصف الساعة بسبب حركة مازن الثقيلة، وكأن الحمّى قيّدت يديه بسلاسل حديدية مربوطة بكرة حجرية ضخمة. سحب شهيقاً من الكأس ثم أخذ رشفتين سريعتين لتشعل حرارة الشاي الحلوة حلقه وجسده...

شو عملت فينا الثورة يا الله! وين صرنا والله يستر وين رح نصير... قسّمتنا ولعنت أبو شرفنا. أكيد الدكتور الشبّيح الآن قد أصبح عميد كلية أو رئيس قسم. الطالب المدعوم إن كان مخيفاً في السابق، الآن قد صار بعبعاً. نحن الذين كنّا في الأساس مسحوقين، أردنا أن نرتفع عن وجه الأرض، تم مسحنا وإزالتنا كلّياً. ماذا فعلتِ بنا يا ثورة! أين الهتافات، أين أنت يا جاسم وحسام ورضوان، أين أنتِ يا عبير وليلى. راحوا... الكل ترك الساحة ورحل، الكل نفد بريشو هاجر أو مات، والساحة صارت فارغة لتشغلها الدبابات والعسكر. حتى أنا رحلت. هأنذا، في خيمة أبي، لا أختلف شيء عن شريخان. على الأقل شريخان كلب وعايش

ككلب. أما أنا فكنتُ طالباً، مشروع أستاذ لغة عربية، شاب، مثقف، عاشق، عامل، مواطن... لكن عايش متل الكلب!

كانت حرارة جسد مازن العالية تشعل أفكاره التي بردت وخمدت خلال السنوات السابقة. راح يتحدث مع نفسهِ دون توقف وكأنه كان ينتظر نفسه، ينتظر مازن الذي غاب، الذي ضاع في زحمة العمل ومحاولات النجاة والبقاء. أعاد ذكرياته مع ناصر، أخيه الذي كان يكرهه ويغار منه، لكنه أعاد تلوين الذكريات بألوانٍ مختلفة لا ندري أكانت بسبب الحمّى وحرارة جسده المرتفعة؟ أم لأنه ملّ وضاق من ذكريات مليئة بألوان قاتمة باهتة. أستحضر طلابه والقصائد التي كان يدرّسها، يشرح مفرداتها ومعاني أبياتها. أعاد رسم المدرسة في خياله، على أنها مدرسة في عهد نجاح الثورة. والطلاّب هم «طلّاب الثورة» بدلاً من «طلائع البعث» وأن كتاب اللغة العربية يحوي قصائداً أجمل، والنحو والإملاء أصبحا أكثر متعة، والقصص أكثر تشويقاً وأقل كارثية. تخيّل أن الشوارع والمرافق العامة والمؤسسات والمكتبات والمسارح لم تعد باسم «الأسد» أو «الباسل» أو أسماء الشهداء الذين لا نعرفهم ولا نعرف كيف ولماذا استشهدوا. بل هي بأسماء الرجال والنساء الذين قدموا شيئاً مهماً وحقيقياً لسوريا.

مع انخفاض قرص الشمس وغرقها في حوض الأفق، ارتفعت حرارة جسد مازن أكثر، ولم تظهر النجوم، كأن وجه زينة أبى أن يظهر مع نمشه على صفحة السماء ليرى مازن على هذه الحال. بل أخذت الغيوم تتلبد وتتكاثف بشكلٍ غريب لتزيد الليل عتمةً وتصبح تلك البقعة الجنوبية عبارة عن عفن متراكم في زجاجة صغيرة. الغريب أن

القطيع لم ينم، بل كانت أصوات غير عادية تخرج من تلك الزريبة. هل هي نداءات لمازن، أم مجرد فوضى ناتجة عن غياب الراعي! في لحظة من الصمت وصل إلى مسامع مازن صرخة مميزة، عرفها، عرف أنها من زينة، وعرف أنها تخبره بأن موعد الطلق قد حان.

وضع مازن عباءة سميكة سوداء على كتفيه، وخرج بخطوات ثقيلة وكأنه مصاب برصاصة في قدمِهِ. استنفر شريخان بمجرد خروج مازن من الخيمة وراح يحرّك ذيله ويدور في حلقات صغيرة حول نفسه مؤكّداً لمازن بأنه مستيقظ ويقوم بعمله على أكمل وجه. لم يعره مازن أي اهتمام، بل اتجه إلى باب الزريبة، فتحها وأخذت الماعز تطلق ثغاءها بشكل مجنون. أبعد الماعز من أمامه حتى وصل لزينة فأمسكها من قرنيها وسحبها إلى الخارج بصعوبة بالغة. جلس أرضاً وراح يمسّد خدّها ببطء وحنان لم يظهره مازن من قبل.

صار وقتك يا أميرة! رح تعطيني توأم! واحد لمصعب الصغير الذي يحبّكِ كثيراً -يريد أن يسميه ناصر... هيّا، فرّحي قلبي وقلب أخي الصغير. دعيني ارتاح قليلاً، دعيني أشعر أن الحياة مازالت جميلة وتستحق. دعيني ابتسم حقّاً، ابتسم من قلبي لا لأن وجهي تعوّد على الابتسامة. هيّا يا زينة، يا زينة الزينات...

أخذت السماء ترمي ببعض قطرات المطر استجابة لصلوات الخضراوات العطشة. أخذت تنقر على الأوعية البلاستيكية والخزان المعدني شبه الفارغ. نظر مازن إلى الخزان وكالعادة وباللاوعي قرأ كلمة «ما شاء الله» نزلت قطرة كبيرة على زهرة صفراء بجانب ساق الخزان فأمالتها وغيّرت شكلها. ازداد إيقاع المطر ليصدر الخزّان صوت طبل

السيرك الذي ينبيء بخروج شخص ما، شيء ما، نتيجة ما ينتظرها الجميع بأنفاسٍ محبوسة. تصاعدت وتواترت وعلت وعلت موسيقى المطر حتى تبلل مازن بالكامل، شعر أن المطر يغسله، يغسل دموعه التي ذرفها طوال اليوم، يغسل غضبه وحزنه، فها هو المطر الأول لهذا الموسم.

أخذ مازن يضحك من قلبه وبصوتٍ عالٍ، راحت شفتاه تطلقان عبارات المدح والأدعية غير المفهومة. استعاد نشاطه، استعاد حيويته، كان أشبه بخيمة سوداء صغيرة تحتضن زينة والعباءة تغطي رأسه وكتفيه. بات صوف زينة مغسولاً ممَّشطاً للأسفل بينما كان ثغاؤها يرتفع للأعلى نحو آلهة الماعز. ظهر رأس صغير أسفل زينة، لم يكنّ واضح المعالم، كان مازن ينتظر معرفة جنس المولود، فلو كانت أنثى، فهذا يعني أن النسل سيستمر وأن ماعز كثيرة ستملأ الأرض، وستكون ماعز مازن.

أنتظر مازن لكن الظلمة كانت شديدة، والمطر كان شديداً، وعواء شريخان وثغاء القطيع من تحت سقف الزريبة كان عالياً. جاء ضوء من بعيد، ضوء أصفر خرج عن الطريق الرئيسي متّجهاً نحو مازن. لم يستطع النظر إلى ضوء السيارة القادمة، فاستغل النور المنبعث منها، انبطح أرضاً ليرى إن كان المولود قد خرج، إن كان هناك ماعز آخر. كلّما اقتربت السيارة، كلّما أصبحت الرؤية أكثر وضوحاً. أشتد الضوء أكثر وأكثر حتى أطلقت زينة صرخة قوية لتقف السيارة وتطفأ أضواءها فيرفع مازن رأسه من تحت زينة مبتسماً... مبتسماً من أعماق قلبه، وينظر إلى هناك حيث تسكن.. زينة!

ليس ببعيد عن مازن وعالم عزلته التي اختارها لينقذ نفسه من جحيم كان يشتعل ويأكل الأخضر واليابس يأكل أحلامنا الصغيرة والكبيرة، كان معركة الغنائم تشتعل في قرية نصيب الحدودية. ... هناك كان الشيخ غسان أبو زريق يقود جموعاً كانت تبحث عمّن يقودها في مجتمع تصحّر منذ عقود، مَلَأَ فيه الدّين فراغ السياسة. أمَّ الشيخ صلوات في ساحات التّظاهر، خَطَبَ بالمحتجّين. اُعتقل كغيره وعُذّب أكثر من الآخرين، نتف الجلّادون لحيته وهم يضحكون ويشتمون ربّه، وضعوا عصاً في مؤخرته للتسلية وكسر رتابة التّعذيب، خرج من أقبية الأمن متعهداً لنفسه أن تستعيد لحيته شعرها الكثيف، هذه المرّة باتت أطول حتى كادت أن تلامس أعلى صدره.

لها.

الشيخ دولار

ملاذ الزعبي

لم يتردّد قاسم الرّفاعي كثيراً عندما انتهى اجتياح المكان، إيمانه راسخٌ أن الجميع ذهبوا إلى هناك بحثاً عن مغنم قد يكبر أو يصغر بحسب أسبقيّة الوصول ومعرفة أماكن توزّع البضائع والمكاتب والمصادرات والعربات وصالات العرض والمخازن، وكذا، وهو الأهمّ، بحسب حجم الفصيل وقوّته والجهة الدّاعمة له وتوجّهه، وطبعا وفق التراتبيّة في هذا الفصيل، فالقيادي المحاط بعناصر تأتمر بإشارة منه لن يرضى بقليل قد يحصل عليه عنصر ما.

تابع قاسم باهتمام معركة «يا لثارات المعتقلين»، هكذا أسمتها الفصائل العسكريّة والنّاشطون الدّائرون في فلكها، الغالب الأعم من الناس دعوها بمعركة «الجمرك» (وهو الاسم الذي سيخلد في الأذهان بالطّبع)، تتّبع أخبارها وشائعاتها منذ أن سمع بأن الثّوار يحضّرون لها للسّيطرة على المنفذ الحدوديّ الأخير الذي ما زال بقبضة النّظام جنوبيّ البلاد. البلدة كلّها كانت تعرف بأنّ موعد الهجوم قد اقترب وأنّ التّجهيز له يسير على ساق وقدم. الأسرار العسكريّة على لسان الجميع، ساسة وعسكريّين، قادة ومقاتلين، جواسيس ومدنيّين، مناصرين للثّورة أو موالين للنّظام أبقتهم الظّروف في البلدة أو لاعني الطّرفين أوّلاً ثمّ كلّ

الأطراف لاحقاً، ناشطين وإعلاميّين، رجالاً ونساء، شيباً وشبيبة وحتى أطفالاً. ليس على الألسنة فقط، بل تداولت المعلوماتِ العسكريةَ رسائلُ واتسابيّة ومنشوراتٌ فيسبوكيّة وتغريداتٌ تويتريّة ضمن مشاع ثوريّ متاح لكلّ من وما دبّ وهب. أهل المنطقة ترقّبوا بدورهم بدء العمليّة، راداراتهم وقرون استشعاراهم على أقصى درجات اليقظة. ثلاثة حواجز رئيسة باتت تباعاً في أيدي الثّوار على مدى الأسابيع الأخيرة، حاجز بلدة أمّ المياذن، وحاجز الكازيّة، وحاجز المعصرة. سقط ما كان بمثابة خطوط دفاع متقدّمة عن الجمرك، وأصبح المعبر محاصراً لا تصله أيّ من خطوط الإمداد، أمّا الطّريق الدّوليّ الذي يصل بين دمشق وعمّان مروراً بريف درعا فما عاد طريقاً ولا دوليّاً.

لم يبق فصيل يعمل في سهل حوران إلّا ووضع يده في طبخة هذا الهجوم العسكريّ، بعضها يدرك أهميّة الموقع الاستراتيجيّة والسّياسيّة، وبعضها له غاياته الاقتصاديّة، الآنيّة منها كالخروج بما ثقل حمله وغلا ثمنه، أو بعيدة المدى لما قد يدرّه المعبر من دخل مباشر في حال استأنف نشاطه وتمّ فرض رسوم على حركة الدّخول والخروج للمسافرين والمتاع والآليات، وكذلك للحصول على عوائد من التّهريب المنظّم والعشوائيّ الذي لا يتوقّف عبره للمدنيّين والبضائع والأغنام والمازوت والأدوية والحشيش وحبوب الكبتاغون والهيروين والرّقيق الأبيض والأسلحة والعملات الصّحيحة والمزوّرة. كتائب أخرى شاركت في العمليّة لأهداف ثوريّة تتعلّق بمحاولة تحقيق مكاسب معنويّة وميدانيّة وزيادة الضّغط على النّظام وتضييق الخناق عليه، وعلى أمل أسر ضبّاط وعناصر يمكن مبادلتهم بالمعتقلين الذين أُطلقت العملية للثّأر لهم،

اسميّاً على الأقل، أو ربّما على أمل التّحرير الفوريّ لمعتقلين محتجزين داخل مباني المعبر نفسه الذي تحوّل بعيد بدء الثّورة إلى مقرّ مخابراتيّ عسكريّ ضخم بأقبية للاعتقال ومنصّات لإطلاق القذائف ومرائب تنطلق منها الدّبابات، حاله كحال مئات مؤسّسات الدّولة ومبانيها الرسميّة على امتداد البلاد. ألوية وفصائل خاضت هذه المعركة ضمن تنافسها فيما بينها على النّفوذ والشّرعيّة الشّعبيّة وللوقوف في وجه تمدّد كتائب منافسة، تنافسٌ لطالما كان أشرس وأدهى من مزاحمتها للنظام. وعلى العموم خيضت المعركة لأهداف مركّبة سياسيّة، واقتصاديّة، وعسكريّة، وأيديولوجيّة. أما شعبيّاً فسكّان المناطق القريبة من المعبر أيّدوا المعركة على أمل الخلاص من الشّرّ المستطير القادم منه، أما أولئك البعيدون نسبيّاً فخشوا انتقام نظامٍ هو أساساً نظام انتقام، بينما رأى فريق الما بين بين أن كلّ ما يحصل هو أكلُ خراءٍ بأكل خراء.

إذاً، ما إن راجت أخبار انتهاء الاقتحام وهزيمة النّظام، وكي لا يفوته الأوان، سارع قاسم إلى ارتداء بنطاله الجينز على عجل، ولاتّقاء بردٍ محتمل في ليالي الرّبيع هذه، وضع على كتفيه سترته الوحيدة السّميكة المصنوعة من الجلد غير الطبيعيّ والتي تشقّقت من أطراف أكمامها وعند الكوعين وحوّاف الكتفين، حيث حلّ اللون الرماديّ القبيح للبطانة الداخليّة محلّ لونها الأسود في أكثر من بقعة، وانطلق باتّجاه المعبر.

ظلام موحش غدّار، نباح كلاب شاردة يخترق هدأة الليل، أصوات مبعثرة لرصاصات تنطلق هناك وهنا بين فينة وفينة ثانية، إلّا أنّها تسمع بوضوح ولا تلبث أن تنعكس رعشةً في جسد قاسم الذي لم يعتد عليها بعد أكثر من سنوات أربع على تحوّلها لشيء من يوميّات الحياة. عبر في

ذهنه أن يمرّ أوّلاً على جاره وصديق طفولته القديم وشريك عمله السّابق أحمد الشّريف لأجل أن يذهبا سويّاً، لكنّ أفكاراً ثلاثة طافت وتضاربت في رأسه في تلك اللّحظات، أوّلها أنّه يحتاج شريكاً في رحلة لا تخلو من مكاسب ومخاطر في الوقت ذاته، ووجود هذا الشّريك مهمّ للمساعدة في حمل ما قد يحمل أو مواجهة خصم ما أو لتبادل المشورة في ظل وضع غير عاديّ وغير مسبوق، لكنّ لأحمد، وهذه الفكرة الثّانية التي عبرت رأس قاسم، اعتداداً أحمقاً بالنّفس قد يجعله يرفض المشاركة في ما قد يعتبره فعلاً رخيصاً بلا كرامة وبلا مبدأ، وهي طريقة التّفكير التي باعدت قليلاً وكثيراً بين الجارين منذ أن اندلعت الثّورة وعمّت أرجاء سوريا بالتّزامن مع تجاوز الشّابين ليفاعتهما وبلوغهما سنّ الشّباب، فقاسم يعتقد أنّه كي يستريح عليه مهما رأى أن يقول مليح، أما أحمد فيؤمن أن صاحب الحقّ سلطان، ولمقاربتي الحياة هاتين تفاصيل كثيرة تمتدّ إلى السّلوك اليوميّ والتّفكير التّجاريّ والهوى ووجهة النّظر السّياسيّة، والآن ليس الوقت الأنسب لنقاش يجلب وجع الرّأس لا غير. وثالث الخواطر التي عبرت ذهن قاسم بسرعة أبطأ من البرق بعض الشيء هي أنّ أحمد قد يكون شريكاً كويّساً فعلاً لكنه كذلك منافسٌ محتمل، فهو لا يعرف بعد إذا كان ما في المعبر، أو بالأحرى ما بقي فيه، سيكفي الجميع، وإن كان سيكون من السهل الاتّفاق على اقتسام ما قد يحصلان عليه. حسم الخوف من المنافسةِ المنافسةَ بين تلك الأفكار وارتأى قاسم الذهاب وحيداً. «ريته يلحس طيزي»، قال في نفسه شاتماً أحمد، وخرج من منزله بالقرب من جامع بلدة «نصيب» القديم، البلدة غارقة في ظلام لا يخفّف من وطأته سوى قمر منير في سماء صافية تتخلّلها سحيبات متباعدة وبضع أضواء خافتة

تنبثق من منازل مبعثرة لمقتدرين قادرين أن يشتروا مولّدات كهربائيّة ووقوداً عزّ وجوده لتشغيل تلك المولّدات، أمّا إنارة الشّوارع فأصبحت تبدو شيئاً من ذكريات زمن غابر منذ أن قرّر النّظام معاقبة سكّان المنطقة بعد أن خرجت عن سيطرته عبر قطع كل الخدمات الأساسيّة عنها، ومن ثمّ عبر قذائف هاون تسقط بتواتر يوميّ ودونما أيّ هدف واضح على البلدة والبلدات والقرى المجاورة منطلقة من المعبر المجاور حاصدة في طريقها بشراً وشجراً وحجراً، أو براميل متفجرة كانت تلقيها مروحيّات الجيش على المكان كيفما اتّفق وكأنها براز طير سقط دون أن يكلف الطّير نفسه عناء النّظر إلى أسفل، لكن النّتيجة لم تكن اشمئزازاً ورغبة بالإقياء ولا عودة سريعة للمنزل للاغتسال ولا شماتة عابرين صدف أن شهدوا على الحادثة ولا شتائم بحق السماء والطيور وكلّ ما له جناحين على وجه البسيطة، بل دماراً هائلاً وخراباً عميماً طال الكثير من بنى البلدة التحتيّة المتواضعة وبساتينها وبيوتها وذهب بأرواح بعض من ساكنيها.

المحلّات والمخازن التجاريّة مغلقة في ذلك الوقت، باستثناء محلّ صغير للأجهزة الخليويّة وبطاقات الاشتراك بمخدّمات الاتّصال تحمل يافطته عبارة «الأنيق للاتصالات» إلّا أن سكانّ البلدة يعرفونه باسم «إم تي إن حسّون الممحون»، ذاك أنّ حسن الرّجل الأربعينيّ الذي يملك المتجر ويديره ما استطاع أن يتخلّص من لقب التصق به منذ أن ضبطه أصدقاؤه خلال المراهقة يمارس العادة السريّة في بستان قريب وقد أمسك بنسخة مهترئة لمجلّة الشّبكة تضمّ صور عارضات يرتدين أزياء السّباحة. عندما مرّ قاسم قرب المحلّ المضاء بنور شحيح متراقص، حاول حسن أن يستوقفه لمعرفة آخر أخبار المعبر وإن كان يتوقّع أن يردّ

النّظام بغارات انتقاميّة على البلدة وكأنّ قاسم هو أحد أولئك المحلّلين العسكريّين الذّين ما فتئوا يظهرون على القنوات التلفزيونية الفضائيّة لبيع الأوهام والهرف بأيّ كلام قد يملأ ساعات بثّ لا تتوقّف.

– عم يقولوا النّظام انسحب قبل ما تبلش

– عتبك على اللي بيعرف. صاح قاسم من الطّرف المقابل من الشّارع وهو يهرول مسرعاً كي يضمن لنفسه ولو قليلاً من حمّص المولد.

مرّ قاسم قرب معرض الخال للأدوات المنزليّة، وهو عبارة عن محل مغلق بات أصحابه لاجئين في الأردن لا تتعدى مساحته ستّة أمتار مربّعة تراكمت في كلّ أركانه يوماً ما مكانس قش ومناشف وممَاسح وفوط وأدوات للمطبخ وأغراض الحمام وغيرها من أشياء للاستخدام البيتيّ اليوميّ وتبدو خلال النهار عبارة عن جبل من البلاستيك الملوّن. وبعد أن تجاوز بقّاليّة أبو علي زريقات التي تحمل اسم سوبر ماركت البهاء، عَبَرَ قبالة ملحمة النعيمي بإدارة أبو عدنان النعيمي وأولاده، والتي ما زالت تحمل هذه الإشارة على الرغم من أن عدنان هو من يشرف على عمل الملحمة الصّغيرة منذ استشهاد والده خلال استهداف النّظام بالرصاص لموج بشريّ من قرى شرقيّ حوران حاول أن يفكّ الحصار المضروب على مدينة درعا أواخر شهر نيسان من العام 2011 بعد نحو خمسين يوماً على اندلاع الاحتجاجات فيها. تذكّر قاسم أنّه لم يتذوق اللّحم منذ أسابيع وتعهّد لنفسه بوجبة مشاوي عرمريّة من الشّقف والكباب والأضلاع أو بمنسف يتوسّطه كتف خروف من غنم العواس في حال أتت مكاسبه جديرة كما منّى النّفس. وإلى جوار هذه المحلّات، أو بينها وفي محيطها، وكيفما يمّم قاسم بصره في هذا العتم، ثمّة خرابٌ وأنقاض وحطام.

عندما بلغ قاسم أطراف البلدة حثّ الخطى باتجاه المعبر مفضلاً الذّهاب عبر الطّريق الدّوليّ المعبّد لا عبر الحقول المفتوحة التي كانت مسالكها الترابيّة التي يحفظها عن ظهر قلب ستوفّر عليه دقائق خمساً لكنّها قد لا تكون آمنة في تلك الأوقات المضطّربة، خاصّة أن أصوات رصاصات مبعثرة وقذائف مجهولة المصدر ما زالت تسمع كل حين ومين. وعلى هذا الطّريق بدأ قاسم يميّز ذاهبين آخرين إلى الوجهة نفسها، بعضهم مستقلّين سياراتهم التي يأملون بتحميلها غنائم من المعبر، أو من على ظهر درّاجاتهم النّاريّة، أو مثله مشياً على الأقدام، لكنّه بدأ يميّز أكثر وأكثر ومن خلال أضواء السيّارات، عائدين عبر الطّريق نفسها في عربات نقل، جميعهم يرتدون أزياء تدّل على أنهم مقاتلون، فيما لم تعد بنادقهم ظاهرة خلف أكوام ما كدّس في هذه الآليات، وكلّما اقترب الذّاهبون من وجهتهم تزايدت أعدادهم، وكذا أعداد الآيبين، بينما تعلو أصوات الضّوضاء المنبعثة من كل مكان.

بدت جحافل البشر والآليّات الواصلة من كل بلدات الرّيف الشرقيّ لدرعا مثل يوم قيامة حلّ باكراً قبل موعده، أو كأنّه النّظام وقد سقط وها هم النّاس سكارى وما هم بسكارى.

***

لم يتردّد أحمد الشّريف، كثيراً في قراره بخصوص المشاركة في الاحتجاجات التي بدأت تندلع في القرية، هو الذي لم يشارك في أولى مظاهرات البلدة الجمعة الفائتة، ليس لقرار مسبّق، ولكن ببساطة لأنّه لم يعرف بأنّها ستحدث، وهو في الواقع يقرّ إلى اليوم بجهله إن كان سيشارك فيها لو علم بالتّخطيط لها، على عكس آلاف مؤلّفة في مختلف

مدن وأحياء ونواحي وقرى البلاد ممن راحوا يزعمون أنهم فجّروا المظاهرات في مناطق سكناهم رغم أن بعضهم لم ينخرط بها إلّا في وقت متأخر.

أدّى أحمد صلاة الجمعة في ذلك اليوم في مسجد خبيب بن عدي على أطراف نصيب، بينما خرجت المظاهرة التي لم تكن مفاجئة كثيراً في المسجد القديم، وشارك بها فقط بضعة عشرات من الشّبّان والرّجال الذين تراوحت أعمارهم بين أوائل العشرينيّات وأواخر الثلاثينياّت، لكنّ أغلبيّة غالبة من المصلّين حينها بدت أنها متفهّمة ومتعاطفة مع هذه الأقليّة.

كانت البلدة تغلي لأسباب تطول وتطول، منها ما يرجع تاريخه لسنوات طويلة خلت، ومنها ما هو حديث العهد، لكن مفاعيلها وتداعياتها جميعاً مستمرة وما زالت تؤثر على حياة أهل البلدة، بل تخنقهم بالأحرى، كما تخنق ملايين السوريين من أقصى الجنوب، حيث تقع نصيب تحديداً، إلى أقاصي الشمال في القامشلي، ومن الباغوز على الحدود العراقيّة شرقاً إلى القرى التّركمانيّة في أرياف السّاحل السوريّ على البحر المتوسط غرباً.

تراكمت صنوف من القهر واحدة تلو أخرى، تشكّلت جبالٌ من مشاعر غاضبة وناقمة لا سبيل للتّنفيس عنها، فلا المظالم انزاحت، ولا الحقوق عادت، ولا الآفاق حملت أملاً بمصائر مختلفة.

تغيرت البلدة، أو هكذا تأمّل أهلوها، منذ أواخر ثمانينيّات القرن العشرين. اتّفاق بين السّلطات الأردنيّة والسّوريّة على بناء معبر حدوديّ

جديد يحلّ محلّ المعبر المستخدم حينها بين بلدة الرّمثا الأردنيّة ومنطقة درعا البلد، أو ما بات يعرف لاحقاً باسم الجمرك القديم. أقيم المعبر الجديد على مدى أعوام، احتل مساحة قاربت ثلاثة آلاف دونم بين بلدتي جابر من الطّرف الأردنيّ ونصيب من الجانب السّوريّ من الحدود، صودر جزء من الأراضي من العائلات التي توارثتها جيلاً عن جيل، وصودرت دفعة أخرى من الأراضي مع إنشاء الطّريق الدّوليّ العابر بمحاذاة البلدتين. حاز الأردنيّون على تعويضات معقولة من سلطات بلادهم المركزيّة، لم يحصل السّوريّون إلّا على وعود بتعويضات استحالت لاحقاً إلى كلام عن ضرورة نسيانها في سبيل مصلحة البلد والدّولة، كلام يُهزل ويُفقر بدلاً من أن يُسمن ويُغني.

هكذا، أصبح في كلّ حمولة بالبلدة عائلة على الأقل لديها نقمة تجاه نظام سطا على شيء لها، لا فرق في هذه الناحية بين كنية وأخرى، فسواء كان اسمك الثاني الرّاضي، أو الشّريف، أو زريقات، أو الرّفاعي، أو النّعيمي، أو الرّحيل، أو البلخي، أو الزّعبي، أو أبو زريق، أو المفعلاني وغيرها، فلا بدّ أن لك من أقارب خسروا قطعة أرض كاملة هنا، أو جزءاً من حقل هناك.

لم تكن وعود التّعويض وحدها هي الكاذبة فيما يتعلق بجمرك نصيب وإنشائه، بل الآمال بازدهار يجلبه المعبر إلى أهالي البلدة والبلدات المجاورة. اعتقد قاطنو المنطقة أنّ المعبر سيخلق فرص عمل ويجلب حركة مسافرين ستنعكس إيجاباً على رخاء السّكّان ورفاههم. صبر النّصيبيون سنوات حتى اكتمل بناء المعبر في أواسط التسعينيّات، وسنة أخرى حتى افتتح وانطلقت حركة المسافرين القادمين والذّاهبين عبره، لكن لا

الوظائف فيه ذهبت لـ«نصيبهم»، ولا أتاحت لهم الاستراحات والمطاعم المقامة داخله والمملوكة لمتنفّذين أن يزداد نصيبهم من استراحات تقام على الطّريق الدوليّ وتنعكس ازدهاراً على اقتصاد بلدتهم، وبدلاً من أن يستفيد النصيبيون استفاد النصيريون، كما ردّد مسنّ من أهالي القرية، في إشارة إلى الطائفة التي انتمى إليهم جزء وازن من جنرالات الأمن والجيش والمسؤولين الرّفيعين وشريحة جديدة من رجال الأعمال. أمّا العمل بالتّهريب الذي امتهنه جزء من شبّان المنطقة، فما كان إلّا فتات الفتات المتساقط من مائدة هائلة يلتهم أطباقها الرّئيسيّة ضبّاط كبار من المخابرات الجويّة والعسكريّة، يشرفون بأنفسهم على صفقات التّهريب الكبرى ومسالكها وبضائعها، بينما يسيطر على مقبّلاتها ضباط حرس الحدود الذين يعمل معظمهم أساساً بالتنسيق مع ضبّاط المخابرات، فيما يجمع الفتات المتبقي على الطّاولة عناصر المخابرات ورؤساء الدّوريّات الأقل مرتبة، فلا يبقى أمام المدنيين العاملين بتهريب الدّخان والأشياء البسيطة سوى ما يتساقط بين أقدام الجالسين على المائدة وتحت كراسيهم، الّلهم إلّا في حالات نادرة لقلّة قليلة من تجّار انتهازيّين عرفوا كيف ينسجون علاقات مع بعض حماة الديار والسّاهرين على أمن الوطن، فضمنوا لأنفسهم جزءاً من منسف التّهريب الشّهيّ والدّسِم الذي يُسيل الّلعاب وينمّي الكروش والجيوب في آن معاً.

للنّصيبيين نصيبهم الخاص من الاستياء، ولعموم السّوريين استياؤهم العام. جهنّم نصيب الخاص مجرد جزء من جحيم معمّم اسمه سوريا. عاش الجميع تحت نير أحد أسوأ الأنظمة السياسيّة في المنطقة وعلى مستوى العالم كذلك. نظام حارَ في تصنيفه منظّرو السّياسة وعلم

الاجتماع، منهم من اعتبره نظام احتلال داخلي يعامل رعاياه كخاضعين للاحتلال الذين لا يمكن أن يحوز في نظرهم الشرعيّة فلا يبقى أمام هذا المحتلّ الدّاخليّ إلّا العنف العاري لحكمهم والسّيطرة عليهم، ومنهم من رأى فيه نظاماً سلطانيّاً محدثاً معتمداً على العصبيّة الطائفيّة العائليّة ويتّخذ من العنف العاري وسيلة لإخضاع الرّعايا والمحكومين، وفريقٌ ثالث وصفه بنظام استعباد لا يرى في السّوريّين إلا عبيداً لا يمكن ضبطهم سوى بالعنف العاري. أيّاً يكن تعريف وتوصيف هذا النظام نظريّاً، فإنّ ما عناه الواقع العمليّ هو استشراء فساد مذهل مصحوب بنهب هائل لموارد البلد، مرفقين بانعدام مطلق لحريّات التّعبير والتّجمع والسّياسة ودرجات من القمع والتّرهيب والتّعذيب والتّنكيل لم تعرفها حتى أشرس الأنظمة المجاورة، عدا عن سحق كامل للمجتمع المدنيّ والنّقابات المهنيّة وتحكّم الأجهزة الأمنيّة بأتفه تفاصيل الحياة اليوميّة للعباد. تراكَبَ فوق كل هذا تراجع حادّ في خدمات الدّولة التي تقاسم مؤسساتها المترهّلةَ جيلٌ جديدُ من أبناء الضّباط والمسؤولين الكبار الذين سارعوا إلى توازع غنيمة هائلة واستثمار ثرواتهم الموروثة من سرقة آبائهم العلنية والوقحة لثروات بلد بأكمله، وتدهور زراعي وبيئيّ زاد من حدته سنوات جفاف ضربت المنطقة وتزاوجت مع آثار التغير المناخي والاحتباس الحراري المتصاعدين في مختلف أرجاء الكوكب.

التّرجمة المباشرة للفقرات المملّة السّابقة بالنّسبة لأحمد الشريف: خسارته فرصة لإكمال دراسته الجامعيّة في فرع الهندسة الميكانيكيّة بعد تفوّقه في امتحانات الثانويّة الصّناعيّة على مستوى القطر نتيجة لما يؤمن أنّه غياب للنّزاهة في وضع الدّرجات ودخول الوساطات والمحسوبيّات على

خطّ انتقاء المتفوقين، وتحوّله بدلاً من ذلك إلى الدّراسة في المعهد الصّناعيّ الذي يستمر لعامين فقط ولا يضمن مستقبلاً مماثلاً للمهندسين، عدا أن خرّيجيه يواجهون مباشرة معضلة الذّهاب إلى الخدمة العسكريّة الإلزاميّة التي تستهلك من أرواحهم وأعمارهم ومسيرتهم المهنيّة والحياتيّة سنتين كاملتين مشبعتين بصنوف من الاستغلال وسوء المعاملة في جيش البلاد الذي بات جيش كبار الضباط العاطلين الفاسدين. كما تحمّل النّظام المسؤوليّة في نظر أحمد عن شظف عيش تعانيه أسرته الكبيرة المعتمدة على دخل والده الذي يشتغل على تاكسي لنقل المسافرين على خطّ الأردن، باع كي يشتريها قطعة أرض صغيرة، واكتفى بنقل البشر رافضاً بشدّة الانخراط في مهمّة نقل حقائب صغيرة مقفلة بإحكام إلى الجانب الآخر من الحدود رغم تعهّدات أحد التّجار له بأنّ أحداً لن يسأله عن محتواها وأن مدير الجمرك بنفسه يعلم بشأنها وسيصدر تعليماته بغض النظر عنها، وأبى أبو أحمد أن يرضخ لإلحاح التّاجر لإحساسه الغريزيّ أنّه سيكون كبش الفداء في حال تعثّرت عمليات نقل الحقائب أو تغيّرت ترتيباتها لأسباب غامضة لا يعلمها إلا الله وثلّة ضيّقة جدّاً من المعنيين.

لكلّ هذه الأسباب، وللأخبار المتواترة من مدينة درعا القريبة في الأيّام السّابقة حيث لم تتوقّف الاحتجاجات ولم يتوقّف معها سقوط الضّحايا بشكل شبه يوميّ وحيث خرجت نداءات تدعو للفزعة والغوث، وللأحاديث التي تحوّلت من تبادل للهمسات إلى نقاشات علنيّة في أرجاء القرية حول تلبية النداء وضرورة عدم ترك درعا وحيدة في مواجهة طغيان ليس لديه أدنى مشكلة في تكرار مجزرة حماة سيّئة الصّيت، لم يستغرق أحمد في عميق تفكيرٍ قبل أن يقرّر أداء صلاة الجمعة

في المسجد القديم حيث ستخرج مظاهرة لم يحل دونها وجود سيّارة تابعة للأمن العسكريّ تحوي عناصر مدجّجة بالسلاح أمام الجامع. فبعد خطبة للشيخ غسان أبو زريق كرّسها للحديث عن انتشار الفساد والظّلم في الأرض أتبعها باسترجاع نتف من سيرة الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز وحكايا عدله وأمانته، أدّى المصلّون ركعتين سريعتين وسط أجواء من التّرقّب الذي انتهى مع صرخة: «تكبير» أطلقها مصلٍّ متظاهرٌ شاب كصافرة انطلاقٍ وسرعان ما رجع صداها صرخات: «الله أكبر» خرجت من حناجر متعدّدة قبل أن تتجمّع الأصوات في هتاف موحّد مشبع بالأدرينالين: «يا درعا حنّا معاكي للموت»، بينما تجمّع المصلّون المحتجّون، ومن بينهم الشّاب أحمد الشّريف الذي بالكاد بلغ العشرين حينها، على باب المسجد للانطلاق في مظاهرة ستجوب شوارع البلدة التي غادرتها سيّارة الأمن العسكريّ قبل أن تعود مساء برفقة سيّارات أخرى لتنفيذ حملة اعتقالات.

لم يتردّد غسّان أبو زريق كثيراً قبل أن يدعو الشّخصَ الغريبَ الواقفَ على باب منزله إلى الدّخول، كان طفله الصّغير البالغ من العمر خمس سنوات قد هرولَ مسرعاً بعد أن فَتَحَ البابَ الذي طُرق من دون انتظار زائرٍ في ظهر ذلك اليوم ليخبرَ أباه أن شخصاً ما سأل عنه. بمجرّد أن رأى غسّان الرّجلَ الثّلاثينيّ أدرك أنه رجلُ أمن، وهو ما لم يتأخّر الزّائر غير المنتظر في تأكيده لتعريف نفسه.

يميّز السّوريّون بشكل غريب رجال الأمن من أبناء جلدتهم عن المدنيّين العاديين، وربّما بمستطاع أيّ سوريّ أن يعرف رجل الأمن عبر

نظرة سريعة على ملامحه وتسريحة شعره وأزيائه الرّخيصة أو حتّى على وقفته، ولاحقاً مع توسّع نطاق الاحتجاجات سيلحظ السّوريّون في المدن الرّئيسة حضور الأمن الكثيف الذي يستبق خروج المظاهرات في منطقة ما، رغم أن عناصر المخابرات لم يعتادوا ارتداء ملابس عسكريّة أو زيّاً ما يميّزهم.

تبدو سوريا أشبه بكذبة كبيرة، كأنّها تجسيد وتعميم للمثل الشعبيّ «حاميها حراميها». يظهر كلّ شيء فيها يحمل اسماً يدلّ على المعنى المضادّ تماماً، فحماة الدّيار هم صانعو خرابها وهادموها على رؤوس ساكنيها، والأب القائد قاتل أطفال جماعيّ، ووزير دفاع الهزيمة هو بطل الحرب والسلام، وملائكة الرحمة غولات قد يتحوّلن في لحظة إلى قاتلات متسلسلات علنيّات لا يكترثن بإبقاء جرائمهن سريّة وغامضة، والفسيفساءُ الوطنيّةُ طوائف تستبطنُ جميعُها إبادةَ جميعها، وقلب العروبة النّابض منصّة متقدّمة لمشروع إمبراطوريّ فارسيّ للسّيطرة على المشرق العربيّ وما هو أبعد، والفنّان العالميّ مؤدٍّ لأدوار ثانويّة قليلة ومتباعدة، أمّا الأمن في هذه البلاد فهو التّمثيل الأقصى لأقصى درجات الخوف والتّعذيب والتّرويع والفزع والرّعب والعراء والانكشاف والكذب وانعدام الطمأنينة والغرق في المجهول.

لم يشعر غسّان بكلّ ذلك بالطّبع لمجرّد وجود رجل أمن على بابه، لكنّ قلقاً وتوتّراً متصاعدين أخذا يتملّكانه في المضافة بعد أن عرف أنّه هو شخصيّاً، لا شيء ولا أحد آخر، موضوع زيارة هذا الضّيف الثّقيل. لم يفكّر صاحب الدّار في يوم من الأيام بالسّياسة بمعناها المباشر. وهو إن كان، كغيره، يشاهد قناة الجزيرة بشكل مقصود أو غير مقصود،

ويصعد ضغطه من فترة إلى أخرى خلال بعض برامج القناة الحواريّة، كما حصل في تلك الحلقة لبرنامج الاتجاه المعاكس التي تجادل فيها مؤيّد لاحتلال العراق مع معارض له، فإنّه عموماً كان من روّاد قناة «اقرأ»، أما السّياسة في رأسه فعنت شيئاً ملتبساً وغير واضح المعالم له علاقة بفلسطين والعراق وأمريكا وإسرائيل والأخبار العربيّة والدّوليّة، ولم يخطر له يوماً أن يفكّر أن السّياسة شيء متعلّق بشؤون بلده وحياته وحياة أسرته. وكذا فإنّه عندما بدأ، في الأسابيع الأخيرة السّابقة لهذه الزيارة، يرتاد الجامع بشكل منتظم لتأدية الصّلاة، فإنّما فعل ذلك لنفسه ولنفسه فقط، دون أن يفكّر في شيء آخر، وهو عندما بدأ يحضر صلاة الفجر في المسجد، إنّما رأى في ذلك دليلاً منه على إصراره وقوّة إرادته ونجاحاً في اختبار التزامه بتعاليم الدّين. وهو لم يشعر إلّا بأنّه يؤدّي واجباً بسيطاً يجمعُ بين الشّهامة والإيمان في الحالتين اللتين أمّ بهما المصلين خلال صلاة الصّبح بعد غياب مفاجئ للإمام، مرّة لأنّ نومة راحت عليه، ومرّة لألمٍ ألمّ به، لذا بدت أسئلة عنصر الأمن حول صلاة الفجر حاضراً وإمامتها غريبة وصادمة وملغزة لغسّان، الذي ما اعتقد يوماً أن تأدية العبادات، وحسبه ما وجد عليه أباءه وأجداده، سيكون مصدراً لسين وجيم وشبهة واستفسارات أشبه بتحقيق وتحذير.

الأسئلة التي دارت في رأس غسّان خلال الزّيارة - التّحقيق، كبرت بعد انتهاء الزّيارة - التّحقيق. أغلبها لم يجد له إجابة حاسمة، ومنها سؤال: من أخبر الأمن يا ترى بإمامته لصلاة الفجر مرّتين، خاصة أن عدد المصلّين لم يكد يتجاوز ثمانية في كل صلاة على حدة، ولم يبد أن أيّاً منهم قد يكون مخبراً للأمن، وهو الذي يعرفهم فرداً فرداً

بما فيهم جاره وابن خالته. هل يكون أحدهم قد كتب تقريراً مباشراً للأمن، أم أنّ الموضوع ذُكر عرضياً في جلسة أمام مخبر ما تكفّل الأخير بنقلها إلى الأمن. أمّا السّؤال الرّئيسيّ والكبير الذي شغل ذهنه لأيام بعد هذه الزّيارة- التّحقيق فكان: لماذا تُعدّ صلاة الفجر في نظر الأمن مصدراً للشّبهة، وما هو الجرم في أن تؤمّ المصلّين؟ لم يعثر على جواب شافٍ فوراً، لكن أجوبة متناقضة ومتقاطعة ومتماثلة ستمرّ في حياته وتتراكب فوق بعضها البعض. بداية فكر غسّان أن حكومة ظالمة وفاسدة ما كانت تحبّذ أن ترى بين رعاياها مزيداً من المصلّين، فالصّلاة من وجهة نظره تنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وسوء الأمانة وانعدام الأخلاق، ولاحقاً سيربط غسّان بين الالتزام الدّينيّ عموماً وأعداء الحزب والدّولة من الإخوان المسلمين وهو لم يقابل أحداً منهم في حياته وإن كان سمع عنهم نتفاً غامضة من هنا وهناك، وبعد نقاشات خاضها مع أقارب بعضهم يعملون في الخارج، اعتقد أن هذا ما كان ليحدث لو لم يكن النّظام طائفياً، وسيتحول هذا الاعتقاد مع مرور الأيّام إلى قناعة متجذّرة في ذهنه لم تحل دونها أحداث متضاربة الدلالات والإشارات وبعضها يفترض به أن ينقض قناعته المتجذّرة التي بدأت اعتقاداً.

مواظبة غسان على ارتياد المسجد لم تتوقف بعد الزّيارة – التّحقيق، ولا هو توقف عن التوجّه إليه وقت الفجر، لكنّه عموماً بات متيقّظاً خلال أداء الصّلاة، عين باتجاه القبلة وأخرى باتجاه المصلّين القلائل الواقفين ذات يمينه وذات شماله. تديّنٌ متزايدٌ وَسَمَه بعد ذلك اليوم الفارق، ودفعه لاحقاً إلى خوض غمار امتحانات الثّانويّة العامّة للمرّة

الثّانية عائداً إلى الكتّاب بعدما شاب، ومن ثم الالتحاق بكلّية الشّريعة، مقتحماً بعد تخرّجه منها عالم الخطابة.

بعد صلاة يوم جمعة كان يودّع الشتاء ويستعدّ للرّبيع، وصلت البلدةَ أخبارٌ شحيحة بداية، ووافرة لاحقاً، عن مظاهرة خرجت في درعا البلد. اتصل غسّان فوراً بأحد معارفه المقيمين هناك للاستفسار والاستيضاح، سمع على الطّرف المقابل صوتاً مهتاجاً متوتراً خرياناً على الفهم وغير مكترث بأي جهة ثالثة قد تستمع لما يدور. تحدّث صديقه عن دماء سالت وأخرى ستسيل، وعن سيل غضب عارم يجتاح عائلات غُيب أطفالها خلف القضبان، وعن إهانات تعرض لها وجهاءٌ لا تغسلها مياه بحيرة المزيريب وشلّالات زيزون وتل شهاب ووادي اليرموك مجتمعة في موسم مطير. كان قِدْر السخط والغضب والاستياء والقهر يمور ويغلي منذ زمن، وها هي مكوناته جعلت تفيض وتندلق منذرة بحريق لا يبقي ولا يذر.

أتت لحظة إخراج النّقمة العتيقة المخزونة في صدر غسّان منذ سنوات كنقش أثريّ نفيس محفوظ في صندوق أنتيكة. ساعات طويلة من تقليب الأفكار فيما يمكن فعله. تشوّشٌ ما بعده تشوّش. تأمّلاتٌ تتلاطم وتتصارع في ذهنه فيما هو يذرع المضافة التي جلس بها ضيفٌ أمنيٌّ ثقيل الحضور بعد ضيف أمنيٍّ ثقيل الحضور. أما اليوم فباتت المضافة نفسها كعبة يحجُّ إليها من كلّ فجٍّ قريب شبّان من القرية لاستمزاج رأي الشّيخ غسّان فيما يحصل مع أهلنا بدرعا. وبينما لم يدلِ الشّيخ برأي صريح خشية عواقب يحدس جيّداً مداها فإن آراءه الضّمنيّة وقصصه الرّمزيّة أُستلهمت من صفحات كتاب تاريخٍ مجيدٍ أبطالُه رافضو طغيانٍ وناصرو

مظلومٍ ومغيثو ملهوفٍ ومؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، بانتظار أن يقضي الله أمراً كان مفعولا.

حين بلغ قاسم مدخل المعبر الحدوديّ، انتهى كلّ شيء تقريباً، وأدرك أنّه لم يعد بوسعه أن يفعل الكثير. من ضرب ضرب، ومن هرب هرب، ومن جدّ وَجَدَ، ومن سار على الدّرب وصل. كانت حركة المغادرين الغانمين بغنائمهم أعلى بما لا يقاس من حركة الواصلين توّاً بأيدٍ خاليةٍ بحثاً عن مغنم.

تجاوز المدخل الذي اعتلى غرفةَ حرَسِهِ مقاتلان انشغلا بتمزيق صورة هائلة مستطيلة يتجاوز طولها امتداد الغرفة نفسها ويتطاول عرضها لأمتار حتى تبلغ قبّة حديديّة شبكيّة زرقاء تظلل جانباً من شارعي الإياب والذهاب المارّين تحتها. تنتصُّ الإطارَ صورةٌ لرأس النظام تحتلّ نحو ثمانين بالمئة من المساحة على خلفيّة باهتة وشبه ممحوّة لعلم البلاد، بينما تتذيّلها عبارة اخترقت رقبة الرّئيس خُطّت بلون أحمر عريض: معك.. نعبر نحو المستقبل بأعين مقفلة، بينما يتذيّل العبارة نفسها توقيع صغير بالكاد يُرى: العاملون في مركز نصيب الحدودي يجدّدون عهد الولاء والوفاء لقائد مسيرة التّطوير والتّحديث.

فيما تلا المدخل، مشهد عجائبيٌّ بالكاد تميّز قاسم ملامحَه في هذه اللّيلة التي فيها ضوء قمر: رصاصات تلعلع فجأة لمسلّح منتشٍ بالانتصار. مقاتلون مشغولون بملء ما تبقى من فراغات ضئيلة في شاحنات تكدّست فيها المكاتب والبضائع وقطع الأثاث والأجهزة الكهربائية. ناشط إعلامي يوثّق المعركة يتجوّل بحركة كاميرا بانوراميه تدور لمئة

وثمانين درجة وتتوقف بشكل أبتر قبل بلوغ مشهد الشّاحنات. مدنيّون يتجولون على غير هدى. صخب دراجات ناريّة لا يتوقف. مراهقون أتوا لإشباع فضول لا يُشبع. شبّانٌ يفرمون مزيداً من صور رأس النظام وشقيقه ووالده التي تتناثر على الجدران كالجدري. صيحات غير واضحة المعالم. قائد فصيل يقف قبالة عدسة محاطاً بمجموعة من فصيله يلقي بيان انتصار تختلط فيه العاميّة الحورانيّة بعربيّة فصحى تستقي مفرداتها من خطب الجمعة وامتحانات مواضيع التّعبير في المرحلة الإعداديّة.

شتم قاسم الجميع وتابع طريقه إلى الدّاخل، بالنّسبة له هو الأعرف والأحقّ بهذا المعبر، أين كان كلّ هؤلاء الأوغاد عندما بدأ قبل سنوات طويلة العمل في تهريب الدّخان الأجنبيّ، يافعاً لا يكاد يعرف حتى أنواع السّجائر نفسها، فما بالك بمعرفة من أين تؤكل الكتف أو من أين تورد الإبل والدّخان في هذه الغابة المصغّرة. «مهرّب على الطّراز الخفيف»، هكذا اعتاد أن يصف عمله عندما بدأ وهو لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، الدّخول إلى المعبر بعدما زبّطه قريبه الحزبيّ بالتّنسيق مع أحد الضّبّاط للعمل على تهريب عدّة كروزات مالبورو (مارلبورو) أبيض أو أحمر أو بولمان (بال مال) أو لوكي (لاكي سترايك) أو غلواز لا أكثر. من منهم أحسّ يوماً به وبوجعه عندما يقرّر، فجأة ولسبب يجهله قاسم، الضّابط نفسه المفترض أنّه شريكه وراعيه وحاميه أن يضبطه أمام معلّمه سالخاً إياه صفعاتٍ حارقةً ومصادراً منه غلّة اليوم الشّحيحة. لم يكن أمامه من خيار إلا أن يداوم على العمل بالتّهريب، فإما أن يأكل الخبز أو يأكله هو وعائلته الجوع، وقاسم يفضّل، طبعاً، أن يلتهم الطّعام على أن يكون وجبة للخواء.

قرب صالة السّوق الحرّة، شاف قاسم، وليته ما شاف، بعينيه اللّتين أكلتهما البراغيث، مقاتلين ملثّمين أدرك أنّهم من جبهة النّصرة، بعضهم يبدو من لهجتهم أنّهم أردنيّون، منهمكين بمهمّة مصيريّة بدا، من شدة انهماكهم وجدّيتهم وحماسهم خلال تنفيذها، أنّ مستقبل المعبر والبلدات المجاورة والمدن الأبعد والنّظام والمهجّرين واللّاجئين والمفقودين والمعتقلين والدّولتين على جانبي الحدود يتوقّف عليها. أحاطت مجموعة من الملثّمين بنارٍ وقودها كراتين وعلب الدّخان المعروضة في الصّالة، بينما انشغل آخرون بجلب ما تبقّى منها وإلقائها في النّار التي كلّما استقبلت سجائر جديدة نفثت دخانها أعلى فأعلى كأفعىً رمادية تتلوّى في السّماء، وتفرّغ فريق ثالث منهم لكسر زجاجات المشروبات الكحوليّة ودلق محتوياتها على الأرض التي ارتوت من ويسكي بلاك ليبل وجاك دانيلز المستوردين ونبيذ فرنسيّ أحمر رخيص وعرقي الرّيّان والميماس المحليّين حتى سَكِرَتْ.

عرف قاسم لاحقاً أن مقاتلي الجبهة تفرّغوا لهذه المهمّة بعيد الاقتحام، بينما استولى مقاتلو فصيل آخر على القليل المتبقي أصلاً من عطورات وأنواع شوكولا مستوردة ومشروب للطاقة يصيب مستهلكه بالنعاس بدلاً من أن يمدّه بعزيمة إضافية وغيرها من بضائع في صالة السوق الحرّة. أما هو فواصل البحث عن أي شيء يحمله في طريق عودته ولو خفّي حنين فاتجه إلى صالة ختم الجوازات التي كانت قد خُلعت عنها كلّ محتوياتها، فلم يبق أمامه إلا أن يحمل قطعة من حاجز حديديّ ليرمّم سور بيته الخارجي، بعد أن تعرّض لدمار جزئيّ في قصف طال بلدته قبل أسابيع وأودى بسبعة منازل وعمارات صغيرة. قبض على الحديد كمن

وجد قشّة في كومة هائلة من الإبر، وقفل آيباً. زعم لاحقاً في حديث مع أحمد الشّريف أنه لم يقصد المعبر إلّا لهذا الهدف المشروع الحلال الزّلال وأنه ما نوى أن يرجع بشيء آخر أساساً. يصرّ أنه ليس من عبدة الدولار ولا من مخزّني «الأموال البهيظة» كما اعتاد أن يصف ثروات أمراء الحرب المستجدّين معتقداً أنه يتحدّث لغة فصحى سليمة.

حين بدأت السّماء تمطر رصاصاً في ذاك الصّباح الصّيفيّ الجاف، أدرك أحمد الشّريف أنّه لم يعد بوسعه أن يفعل الكثير، وما عليه سوى أن يقفل عائداً، سعره بسعر الآخرين الذين بدؤوا يهرولون خلفاً بالفعل. النّصر المبين الذي أملوا بتحقيقه استحال هزيمة نكراء والمعركة لم تكد تبدأ بعد.

التّلّ الاستراتيجيّ الصّامد في جعبة النّظام محاصر تقريباً من كلّ الجهات، طريق ترابيّ متعرّج وطويل كدودة شريطيّة مفرودة ومكشوف ناريّاً ما زال يربطه بأقرب مواقع الجيش الأخرى. إن لم تجد المؤن الغذائيّة طريقها عبر حبل الحياة المهترئ هذا فعبر صناديق كانت تتغوّطها المروحيّات فوقه من فترة لأخرى، قبل أن تتابع الأخيرة طريقها لتلقي برميلاً متفجّراً عشوائيّاً هنا أو هناك. التّلّ بالنّسبة لأهالي القرى الأربع المحيطة به بركان نَشِطٌ يقذفهم بحمم قذائف الهاون وصواريخ المدفعيّة، وبالنّسبة لسائقي العربات على الطّريق المعبّد المار بمحاذاته مصدر موت مفاجئ لا يمكن تفاديه، إذ لا يعرف أحد متى قد يخوض قنّاص رابض أعلى أحد أبنيته رهاناً مع قنّاص مجاور على إصابة أحد السّائقين أو فيما إذا كانت السّيّارة ستنقلب رأساً على عقب بمن فيها حال إصابة السّائق.

بدت المعركة سهلة وفي متناول اليد في الليلة السّابقة، خطّة بسيطة وذكيّة، قَطْع الطريق الترابيّ لضمان عدم قدوم أيّة تعزيزات، الوصول بعيد الفجر لمباغتة المدافعين، إحراق الأعشاب الجافّة في الحقول المحيطة بالتّل كي يشوّش الدّخان على الكاميرات الحراريّة، والتّوكّل على ربّ العباد وأدعية الأمّهات وصلوات المكلومين.

ثمّة تفصيل جديد صغير لم يكن في الحسبان، ما كان يفترض أن يكون حقول أعشاب يابسة بات سبخات طينيّة بعد أن رويت الأرض بمياه لم يُعرف مصدرها، خسر المقاتلون ورقة الدّخان الذي سيبطل الرّؤية، حركتهم في الوحل لم تعد سهلة كذلك. وعندما انهمرت صوبهم رصاصات الكلاشينكوفات والشيلكا ورشاشات مضادّات الطّائرات والأفراد من عيار 23، أدرك المهاجمون أنهم استدرجوا إلى مصيدة كالفئران، وأن هناك من سرّب الخطّة بتفاصيلها للجهة المقابلة. دبّت الفوضى وانتشر الرّعب والهلع، تساقط المقاتلون مثل الذّباب، رأى أحمد رؤي العين شابّاً يزأر من الألم وذراعه ملقاة إلى جانبه وقد فصلت عن جسده تماماً. للمرّة الأولى في حياته شاهد الأمعاء الغليظة والدّقيقة كما هي في الحقيقة، وليس في الرّسومات التّوضيحيّة لكتب العلوم المدرسيّة، بعد أن خرجت أحشاء شابٍّ آخر مزّقته رصاصات.

قبيل خروجه من مدى النّيران، أحسّ بألم فظيع أطاح به أرضاً، لم يدرك ما الذي حدث تماماً، لكنّه لم يتمكّن من التّحرك مجدّداً، شللٌ سرى في نصفه الأيسر، يده اليمنى تفتّت عضدها وباتت ذراعه أشبه برقّاص السّاعة. أرخى رأسه على التّراب وأخذ يستمع لصوت أنفاسه التي طغت في أذنيه على لغلعة الرّصاص. استعدّ لاستقبال لحظاته الأخيرة، لم

يمر شريط حياته في رأسه ولا يحزنون، فكّر قليلاً في أسرته، شعر بأسىً شفيف وتعب كبير وراح يتجهّز لنوم عميق ومديد. صوت خبطات أقدام على الأرض أبقته مستيقظاً، مقاتلان من المنسحبين، يركضان محتمين بين شجرة زيتون وأخرى، نظر أحمد إلى أقربهما إليه، ورجاه أن يساعده على الاتكّاء والوقوف، أكّد له بصوت متهدّج أن هذا فقط ما يحتاجه وأنه قادر على الجري، «خال.. سايق عليك النّبي بس مش قادر أستند عإيدي لأنها مكسورة، بس وقّفني إنت واتكل عألله».

لم يساعده، قدّم له المقاتل بدلاً من ذلك درساً مزيجاً من علم الاجتماع والرياضيات، مختصره معادلة رياضيّة مفادها أنّ الهريبة تشكّل نحو ستّة وستّين فاصلة ستّة وستّين بالمئة من المرجلة بينما لم يوضح ما تحتويه الثلاثة وثلاثين فاصلة ثلاثة وثلاثين بالمئة المتبقية من مكوّنات المرجلة ذاتها، ظلّت بلا حلٍّ كمسألة وردت في امتحانات البكالوريا من خارج المنهاج وضربوا بها الطّلبة. واصل المقاتلان طريقهما، وأيقن أحمد أن ساعته قد أتت لا ريب فيها، لكنّ درساً آخر قدّمته مجموعة صغيرة أخرى من المقاتلين انتشل أحمد وعدّة مصابين آخرين من براثن هذا الموت المحقّق. عصت المجموعة أوامر الانسحاب، اقتحمت سيّارة مجهّزة بمدفع رشّاش خطوط الاشتباك وشاغلت مصادر إطلاق النّيران، بينما سارع بضعة أفراد إلى سحب من استطاعوا من الجرحى. أغمض عينيه في صندوق السّيّارة الخلفيّ المكشوف، احتضن المدفع الرّشاش وغطّ في نومٍ لم يكن أبدياً كما ظنّ قبل لحظات.

عندما استيقظ، وجد نفسه في مشفى متواضع في قرية مجاورة، أخبره طبيبٌ شابٌّ يرتدي مريولاً متّسخاً أنّه أصيب بعدة شظايا من طلقات

مضادات الطّيران، شظيّة منها اخترقت يده اليمنى فوق الكوع، وأخرى استؤصلت من ربلة الساق، واثنتان ما زالتا في الظّهر، وأن موقعهما حسّاس بالقرب من العمود الفقريّ ولا يملك الفريق الطبيّ المعدّات اللازمةَ والخبرةَ لاستخراجهما.

أسهب الطّبيب في تقديم الشّرح لحالته الطّبيّة ووضعه الصحيّ والبدنيّ وما يجب عمله وما يجب تفاديه، أخذ أحمد يحدّق بالدكتور الشّاب ويهزّ برأسه دون أن يصغي لشيء، جعل يفكّر كيف وصل إلى هنا. ليس كيف وصل إلى هذه الغرفة من أرض المعركة، وإنّما كيف انتهى به المطاف جريحاً شاف الموت ونجا منه بأعجوبة وسيحتاج إلى أشهر كي يتعافى. تذكّر الأسابيع الأولى من المظاهرات في بلدته، الاحتجاجات الأسبوعيّة بداية، عقب كل صلاة جمعة، ثم المسائيات اليومية عقب صلاة العشاء، المداهمات الأمنية لمنازل المتظاهرين، الإهانات على الحواجز، اعتقالات بالجملة لأقارب ورفاق، شهداء وجرحى، نازحون إلى السهول المجاورة وبلاد الله الواسعة، تفتيش منزله واعتداء قائد الدوريّة على شقيقه الفتى لأنّ صورة بشّار الأسد كانت ممزقّة من كتاب التربية الوطنيّة الذي حلّ محل كتاب التربية القوميّة، اعتقال أبيه وتعذيبه، اقتحامات شاملة للبلدة، إحراق منازل وتعفيش ممتلكات، شهداء وجرحى، رشوة هائلة لمعرفة مصير الوالد، إساءات متعمّدة للنساء عند كل تفتيش، بيع تاكسي الوالد لتحصيل مبلغ رشوة أخرى لنقله من زنازين فرع أمنّي إلى سجن مدنيّ، ساعات انتظار جدّته أمام عتبة الباب من الصّباح حتى المساء بانتظار عودة ابنها، شهداء وجرحى، وضع أخيه النفسيّ المتدهور منذ الاعتداء عليه، شحاذة مبلغ رشوة ثالثة من أقرباء لإطلاق سراح ربّ

الأسرة ومعيلها السّابق، نزوحه شخصياً إلى الأردن هرباً من الاعتقال، شهداء وجرحى، يوميات البطالة في مخيّم الزعتري، أخبار القصف والغارات، البحث عن كفيل للخروج من المخيّم بلا طائل، مجازر، روايات غامضة عن اغتصاب معتقلين ومعتقلات، الهرب من المخيم والعمل بالحدادة في عمّان، شهداء وجرحى، السّلطات الأردنيّة تقبض عليه وتقذفه داخل الحدود السّوريّة مع مجموعة أخرى من اللاجئين غير المرغوب فيهم ولا الضّالين، الانضمام إلى الجيش الحر بلا أية خبرة سابقة في القتال أو التّدريب العسكريّ، المعركة الأولى كإسناد ميدانيّ خلفيّ، شهداء وجرحى، اقتحام حاجز للمخابرات الجويّة أذاق المنطقة الويلات، بطالة، خبرة قتاليّة متراكمة، تحرير قطعة عسكريّة، شهداء وجرحى، شهداء وجرحى، شهداء وجرحى..

قضى أحمد وقتاً طويلاً في رحلة تعاف وعلاج، بلا مصدر دخل ولا قدرة جسديّة على العمل، فصيله لم يسأل عنه ولم يتعرّف عليه. عاودته الكوابيس بشكل منتظم، أو بالأحرى تناوب على لياليه كابوسان، في الأوّل يرى نفسه يتلوّى من الألم على سرير معدنيّ، طبيب هادئ على شفتيه ابتسامة سافلة ومستهزئة يحدّق فيه، يمد أحمد يده برجاء، الطّبيب يواصل التّحديق فيه ويحضّر حقنة على مهل، رداء الطّبيب الأبيض يتحول فجأة إلى مريول بألوان عسكرية مبرقعة وتستحيل الحقنة بارودة صيد، يضحك الطبيب الذي انمسخ مسلّحاً ويبدأ بإطلاق النار عليه. ثيمة ليست مختلفة كثيراً في كابوسه الثاني، أحمد يتمركز مع مقاتل مألوف الملامح في خندق خلال هجوم عسكريّ، مقاتلو العدو يقتربون، يتصدى لهم بلا جدوى، زميله يمسك ببندقيته ويداعبها كقضيب ذكريّ، يبدأ بتحريكها وكأنه

يمارس العادة السرية، يصرخ فيه أحمد بينما هو يبلغ ذروته مستهزئاً وجنود النظام يطبقون عليهم.

✕✕

كيف بات غسّان أبو زريق معروفاً باسم الشّيخ دولار؟

جزء من أهل البلدة نسي فعلاً اسمه الأصلي، من تعرّف عليه من خارجها حديثاً لم يعرفه إلّا بهذا الاسم. ثمة روايتان تقودان إلى نتيجة واحدة، خسر الشّيخ اسمه، وبات اللّقب أشهر من الأصل. يقال إن هبات وتبرعات ودعماً غير محدودين اعتادت أن تصل إلى كتيبته بعيد تشكيلها في وقت شحذت كتائب محلية صغيرة لقمتها وبالكاد عثرت على ما يسد رمق البنادق من فشك. مبالغ هائلة أغلبها بالدولار تجد طريقها من أثرياء خليجيين إلى يد الشّيخ، تمرّ عبر وسطاء من أقاربه ومعارفه. مصدر المال يريد أيد أمينة تقيّة ورعة تنفق زكاتها وصدقاتها وحسناتها في سبيل الله، الوسطاء يوصلون الأموال لوجه الله، لا يريدون جزاءً ولا شكورا، بعضهم أَلِفَ اقتطاع مبالغ كبدلٍ لمتاعب تكبّدها في التّوصيل، والمتلقي يدافع عن الإسلام وأهل السّنّة والجماعة ويسعى لإقامة حكم الله. شيئاً فشيئاً، وبينما جفّت عروق الموارد الشّحيحة عن الفصائل الصّغيرة المبعثرة، هجر مقاتلون كتائبهم التي لا تطعمهم خبزاً باتجاه فصيل يقوده شيخ ويمنحهم رواتب بالدولار، وهكذا صار الاسم متداولاً بين المقاتلين بداية، قبل أن يتوسّع نطاق استخدامه ليعمّ الجميع، وصار غسّاننا شيخاً دولاريّاً.

حكاية أخرى يقول أصحابها إنها وراء شيوع هذا الاسم الغريب، حين أسّس الشّيخ غسّان كتيبة مقاتلة لمحاربة نظام الطّاغوت وللجهاد

ضده، وخشية أن يفوته قطار النّفوذ والسّلطة، كانت أسماء بعض كبار الصحابة قد حُجزت. لم يبق فيهم لا أبو بكر ولا عثمان. استلّ من متحف الزّمان صحابيّاً غير معروف على نطاق واسع، أبو الدّرداء. وعندما تناهى إلى كهل ثقيل السّمع في البلدة، خلال جلسة في إحدى مضافاتها، اسم المجموعة المسلحة الجديدة للمرّة الأولى: «كتيبة أبو الدّرداء»، لم يدرك ما الذي سمعه، أو ربّما لم يفهم تماماً، أعاد السؤال على المتحدث: «شو؟ كتيبة أبو الدّولار؟». جلجلت المضافة. ضحك الجالسون ملء أشداقهم. وذهبت القصّة مثلاً قبل أن يذهب الاسم رسميّاً في الوعي الشعبيّ.

حين أبصر الشّيخ غسّان أبو زريق من موقعه أعلى التّل عموداً هائلاً من نارٍ وقودها النّاس والحجارة، أدرك أنّه لم يعد بوسعه أن يفعل الكثير. لم يقِ أنفسه وأهليه ذاك اللهب، مقاتلوه الغلاظ الشّداد استحالوا قطعاً من فحم، اعتادوا ألا يعصوا الشّيخ ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون. ألسنة النّيران أتت كذلك على عشرات شجرات الزّيتون، عمر بعضها من عمر أبنائه اليافعين أو أكبر.

لم يعرف أحد ما الذي جال في ذهن الشّيخ دولار عندما قرر استهداف خطّ الغاز القادم من الأردن. هل فكّر بعقبات ما هو مقدم عليه؟ هل وضع بحسبانه كيف سينتقم النّظام؟ أيّ فوائد سيجنيها من الهجوم؟ طيش شيوخ؟ هل هو شو إعلاميّ؟ تقليد أعمى لهجمات اعتاد أن يتابع مثيلاتها في سيناء المصريّة على شاشات الفضائيّات؟ محاولة للوصول إلى هذه الشّاشات؟ فالقادة الآخرون ليسوا أحسن منه بشيء؟ بالمتناول إجابة واضحة مؤكّدة لا شكَّ فيها لسؤال واحد فقط: هل كان

وفصيله يملكان من الخبرة والمعدات ما يلزم لاستهداف من هذا القبيل؟ لا نافيةٌ جازمةٌ قاطعةٌ ناهيةٌ تفيد معنى الأمر بالكفّ عن القيام بفعل معيّن. لكن لا حياة لمن تنادي، ولو نار نفخت بها أضاءت، ولكن أنت تنفخ في رمادِ.

لم يحرك غسّان ساكناً عندما رأى النار تنبعث عالياً لعشرات الأمتار، أخذته الصّدمة، ربطت لجام لسانه. بدت النيران وحشاً برتقالياً مرعباً بالإمكان رؤيته من على بعد كيلومترات، شمس كاوية مستطيلة متطاولة هنا على الأرض وليست في كبد السماء. جعل يتمتم: «يا نار كوني برداً وسلاماً»، لكنها لم تكن لا هذه ولا تلك. أحرقت لحماً بشرياً وأتت على حقول مجاورة، وسرعان ما أرسل النظام مروحيّاته تقصف البلدة بالبراميل رداً وانتقاماً، تنزل على المنازل خبط عشواء، لا فرق بين ناجٍ وضحية إلا بمقدار هائل من سوء الحظ.

لاحقاً، نالت عائلة كل «شهيد» من المقاتلين ضحايا التّفجير الأخرق مئتي دولار كتعويض لمرة واحدة، بعدها لم يتعرّف عليهم. بعض الأرامل من زوجات هؤلاء تلقّين اقتراحات بالزّواج منه أو من بعض عناصر كتيبته، السّترة تعويضهنّ عن الفقد والمعيل والشّريك وأب الأولاد.

وضع الهجوم العبثيّ على خطّ الغاز حدّاً بين ما قبله وما بعده في سيرة الشّيخ المقاتل. انحدار بطيء، ولكن دؤوب في سمعة الكتيبة وعدّتها، وعدادها، وقوّتها، وتمويلها. غضب الأهالي كان مهولاً. بعضهم خسر غراساً وثماراً ومحصولاً ومصادر رزق، وآخرون فقدوا ما لا يعوّض، جاءت الضّربة في أبنائهم البشر لا في الحجر ولا في الشّجر. زاد انتقام النظام الهمجيّ من نقمة سكّان نصيب، حمّلوا غسّان وجماعته مسؤوليّة

سلسلة غارات وحشيّة. انفضّ المقاتلون بشكل متزايد عن الفصيل بعد هذا الحدث الفظّ الغليظ على القلب.

نكسة في مسار غسّان وهو يتربّع على قمة مجد محليّ لم يحلم به قبل سنوات قلائل، هبط من عليائه المؤقّتة التي وصل إليها بتضافر سمعة حسنة واحترام متوارث لرجال الدّين ومشاركة في الثّورة منذ أيّامها الأولى. حوّل منبر المسجد إلى ساحة للحثّ على التّظاهر والفزعة لأهل قربى وإخوة في الله، بادر لقول كلمة حقٍّ في وقت تردّد فيه مشايخ آخرون، لم يتأخّر عن تنظيم الجهود لإغاثة ملهوفين، لجأ إليه النّاس للاستفسار والاستئناس، قاد جموعاً كانت تبحث عمّن يقودها في مجتمع تصحّر منذ عقود، مَلَأَ الدّين فراغ السياسة والمجتمع المدنيّ، أمَّ صلوات في ساحات التّظاهر، خَطَبَ بالمحتجّين. أُعتقل كغيره وعُذّب أكثر من الآخرين، نتف الجلّادون لحيته وهم يضحكون ويشتمون ربّه، وضعوا عصاً في مؤخرته للتسلية وكسر رتابة التّعذيب، خرج من أقبية الأمن عازماً على الجهاد ومتعهداً لنفسه أن تستعيد لحيته شعرها الكثيف، هذه المرّة باتت أطول حتى كادت أن تلامس أعلى صدره.

الأموال التي اعتادت أن تأتيه عبر أقارب منتشرين خارج البلاد، كانوا يوصلونها بدورهم من متبرّعين مقتدرين، ما عادت تجد طريقها لعائلات فقدت معيلها أو هُدمت مساكنها أو نزحت من مدنها وقراها، أصبحت قبلتها ووجهتها أسلحة وذخائر في مجموعة صغيرة ضمّت بضعة أفراد بداية، ثم توسّعت واستطالت. كبرت المجموعة وزاد سلاحها ومعه مصروفها، واصلت الأموال تدفقها، انتصارات صغيرة على حواجز ونقاط تفتيش مبعثرة قوامها بضعة عناصر في جيش كان

يتلقّى الضّربات على امتداد البلاد. معنويّات المهاجمين في أرضهم كانت دائماً أعلى من معنويات العساكر الغرباء المعتدين. صدّق غسّان نفسه، كَبُرَ رأسه، أصبح يرتدي بنطالاً حربيّاً، لم يدرك الفرق بين إدارة أمور جامع وتولّي مسؤوليّة كتيبة، نبذ التّعاون مع ضبّاط منشقّين، عدّهم من أبناء النّظام، من عرف العلم الشرعيّ لا حاجة له للعلوم العسكريّة، من أحاط بشؤون الدّين أحاط بشؤون الدّنيا، من قال إنّهما مجالان مختلفان، أليس الإسلام صالحاً لكلّ بقعة جغرافيّة وفترة تاريخيّة؟

تضخّم الفصيل، شارك في معارك أكبر حجماً بالتّعاون مع فصائل أخرى، طالت لحية الشّيخ، تسلفن، خطٌّ ثابت من التّبرعات امتدّ بين نصيب ومدن الخليج، تواصل مع شيخ سوريّ مؤثّرٍ يظهر على الفضائيّات من مقرّ إقامته في الرّياض، يخوض الأخير معركته الخاصّة مع التمددّ الإيرانيّ في المنطقة، لا يرى في كلّ ما يحصل إلّا حرباً سنيّة شيعيّة، المذابح الطّائفيّة برهانه الفاقع.

إذاً، وصل غسّان قمّة ما، وسرعان ما باشر نزوله عنها، هبّت رياح إقليميّة ودوليّة مغايرة، مصادر الكرم الحاتميّ بدأت تتناقص وتخضع لرقابة أكبر، شيخ الدّولار أصبح شيخ اللّيرة على أكثر تقدير، انشغل الغربيّون ببعبع دولة خلافة نبتت من تحت الأرض، نظرات ملؤها الشّك والرّيبة صارت تُلقى على الفصائل والكتائب المتكاثرة كالفطر، من تسلفن يُخشى أن يتدعشن، ومن لم يتدعشن، قد يتقعدن أو يتنصرن أو يتجبهن. امتدادات غسّان العشائريّة لم تساعده كذلك، نصيب بلدة صغيرة، وعائلته ليست من حمولات حوران الكبرى، سقّف، لن يبلغ ما هو أعلى ولو نطح الحيط، ثم جاء خطؤه الرّهيب، ما له وخطّ

الغاز؟! سال حبرٌ وتردّدت روايات تبحث عن إجابة تشفي الغليل، لاكت الألسنة شائعات عن مصالح دول كبرى، غازٌ كان سينتقل من مصر عبر الأردن وسوريا إلى تركيا ومنها إلى أوروبا، مشروع يربط قارّات ثلاثة وينير دولاً بحالها حاول نسفه فصيل محليٌّ متواضعٌ بأدوات بدائيّة. خَطَّ الهجوم على الخطِّ إشاراتِ استفهامٍ تليها علاماتُ تعجّب. هل كان غسّاننا مخترقاً؟! أداةً لعاصمة ما، من حيث يعلم أو لا يعلم؟! ذراعاً لجهاز مخابرات متعطّشٍ لتوسعة نفوذه في جنوبيّ البلاد؟! مؤدّ خدمات لنظام يريد أن يقول للعالم إنّ مَنْ وما سيحلّ محلّه هو الإرهاب والعبث والفوضى؟! مجرّد حاقد مشغول بانتقام غير مدروس؟! رجلَ دينٍ مكتف برؤيته ورؤاه؟! قائداً أوصلته الصدف العمياء والمبصرة والفراغ إلى القيادة فما عمل بمؤسسات وديمقراطية وشورى، باستثناء شورى رأسه بالطّبع؟! هل الإجابة بنعم على سؤال واحد مما سبق تكفي؟! أم أنّ الردّ بالإيجاب على أكثر من سؤال قد يشرح ما الذي حصل ولماذا ولأيّة غاية وبأيّة وسائل؟! أم أنّ الإجابة هي: غير كل ما سبق، أو حتى: كلّ ما سبق؟! قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ.

أخذ الشّيخ غسّان يبحث عن وسائل تمويل بديلة، البحث عن اللّقايا والكنوز المدفونة، لكنّ تخصّصه في التّراث الدّيني خذله مجدداً، سير الصّحابة لا تسبر أعماق التّاريخ، الأحافير ليست كالأحاديث، فشلت بعثاته الأثريّة وحملات التّنقيب، مضت كتيبة أبو الدّرداء في ضمورها، ثمّ شاركت مع المشاركين في غزوة جمرك نصيب.

متخبّطاً في الظّلام، مثبطَ الأمل، بالمشرمحي: مبعوصاً، مضى قاسم في طريق عودته من المعبر إلى البلدة وهو يجرّ أذيال الخيبة وقدميه وقطعة الحاجز الحديديّ جميعاً، حتى خفّا حنين بديا صفقة مربحة بالمقارنة مع المعدن الصدئ الذي عاد به من الجمرك، هو من ذهب إلى هناك ممنيّاً النّفس بغنيمة مجزية على المستريح وبلا قتال.

جرّه الإحباط إلى طريق الرّجعة التّرابيّ المختصر الديجوري، تمايل في مشيته بين أثلام الحقول، تعثّر بحجارتها، صاتت كلاب شاردة بالجوار لم يكترث لعويلها، أمواج الخواطر المتلاطمة فاق ضجيجها في رأسه أيّ صوت. راوده لو أنّه انضمّ إلى فصيل مسلّح لربّما اختلف وضعه، على الأقل كان عاد بكرسيّ مكتب مزخرف أو شاشة حاسوب أو علبة بسكويت تويكس. دائماً ما كان يحسبها، نشاطه الأمثل: الدّعاء للرّبّ بالسّترة وهو يمشي منتقّلاً من محاذاة حائط إلى محاذاة حائط آخر، لطالما قبّل أيدٍ لا يقدر عليها ودعا في سرّه على أصحابها بالكسر. تجاهل صرخات الثّورة الأولى، اعتبر نفسه غير معنيٍّ بهتافات «يا حيف» التي عيّبت عليه وعلى أمثاله من الواقفين جانباً على الرّصيف فيما تكتظّ الشّوارع بالمتظاهرين. لم يغيّر رأيه بعد أن اقتحمت قوّات النّظام بلدته غير مرة، شاهد بأخت العين فظائع ترتكب بحقّ أبرياء، لم يسلم هو نفسه، طالته شظايا الإهانات وبلغت أطراف منزله شظايا القنابل. خسر أقارب ومعارف، صار عاطلاً عن العمل، انقطع رزقه وبقيت عنقه في مكانها. ظلّ ثابتاً، يمسك العصا من منتصفها بالضبط، لا هو من جماعة هؤلاء ولا هو من جماعة أولئك.

وصل قاسم أطراف نصيب دون أن يشغل نفسه بتفاصيل الطريق، عَبَرَ معالمَ البلدة من جديد، في درب عودته هذه المرّة، ملحمة النّعيمي

التي ما عاد يعد نفسه بوجبة مشاوي عرمريّة منها، فسوبر ماركت البهاء الشّهير ببقاليّة أبو علي زريقات، ثم معرض الخال للأدوات المنزليّة، مروراً بمتجر إم تي إن حسّون المحمون أو محلّ الأنيق للاتصالات المغلق بعد مغادرة مالكه حسن مع اقتراب ساعات منتصف الليل، وصولاً إلى سور بيته الخارجيّ المهشّم كفكٍّ سفليٍّ تعرّض للكمة عنيفة.

على مبعدة أمتار قلائل، تميّز في الظلام جارَه وصديقَه أحمد الشّريف يقف على ناصية الشّارع متسقّطاً آخر الأنباء والتداعيات، دافع فوراً عن تهمة لم يوجّهها إليه أحد:

- رحت بس أجيب قطعة هالحديد مشان أصلّح سور الدّار.

- طيّب!، عقّبَ أحمد بإيجاز وقد نزّت عن ثغره ابتسامة هازئة صفراء (في الواقع كانت ابتسامة باهتة لا لون لها، وخاصة أنهما يقفان في العتمة ويصعب تمييز الألوان).

نرفز قاسم بعد الإجابة الموجزة وغير العابئة، «لا يكون مش عاجبك»، قال بعصبيّة.

- كلّك عجب، أتاه الرّدّ على الفور، وقد حافظ على نبرته المستخفّة غير المكترثة نفسها...

كان أحمد يعرف أن قاسم قصد الجمرك بهدف النّهب والتّعفيش، وكان قاسم يعرف أن أحمد يعرف غايته من الذّهاب إلى المعبر الحدوديّ. الجيرة وصداقة عتيقة جعلتهما يحفظان بعضهما عن بطن قلب، ليس ذلك فقط، تجربة نزوح مؤقت لعائلتيهما إلى البراري بعد حملة قصف عنيفة، تشاركت الأسرتان لأيّامٍ كِسَرَ خبز وفتاتَ مساعداتٍ وماءً عكراً،

تقاسموا مع عوائل أخرى أرضاً بوراً، تحمّلوا جميعاً برداً لاسعاً ليلاً وأوار شمس جافّة لاذعة نهاراً وقلقاً من لدغات الثعابين والعقارب طيلة اليوم.

شغلٌ في بسطة بسيطة لبيع المحروقات جمعها معاً أيضاً، تجاهلا حكمة شائعة تنذر من الدّخول في العمل مع الأصدقاء أو الأقارب. إصابة أحمد التي أقعدته شهوراً عن القتال لم تمنعه عن طلب الرّزق، ولو مع شريك رماديٍّ مضارب. أمّا قاسم فوجد بأحمد ظهراً يقيه من زعرنات بعض المقاتلين، انتماؤه للجيش الحر يوفر لهما بعض الحماية المعنويّة. عبوات بلاستيكيّة صغيرة متسخة معبّأة بالمازوت أو البنزين، يفردانها على طاولة أكثر اتّساخاً، ويبيعانها بأسعار متقلّبة لمتطي الدّرّاجات النّاريّة أو لأرباب أسرٍ يستخدمونها للتّدفئة والطّبخ ومآرب أخرى. هجرا هذه الشّغلانة مع صعوبة الحصول على البضاعة حيناً وانقطاع الطّرق أحياناً، ركود تجارة البلدة زاد من أزمتهما الاقتصاديّة فأدركا أن المسألة لا تجيب همّها.

- خلّيك راكب راسك، حاول قاسم مجابهة الاستفزاز باستفزاز مقابل، الهجوم خير وسيلة للدّفاع. لو حصلت على شيءٍ ما من الجمرك كان أحسن لك من البقاء متفرّجاً، أضاف. أردف محاولاً إثبات صحّة وجهة نظره بالانتساب إلى أكثريّة مفترضة: «نص حوران كانت غاد».

- أني من النّصّ الثّاني، مضى أحمد بسلسلة ردوده الهازئة الهادئة.

يتقن جيداً من أين يأكل كتف شريكه اللّدوذ في مثل هذه المناكفات التي شكلت خبزهما اليومي خلال مغامرتهما التّجاريّة الثّانية، حلَّ الدّجاج

والبيض محلَّ الدّيزل والسّولار. تعلّما درسهما من كيسيهما، تجنّبا أيَّ انقطاع محتمل في سلاسل التّوريد، مصدر البضاعة الأساسيّ في متناول أيديهما، وإن لم يتوافر العلف فالأرض مليئة بالخشاش، لم يشغلهما سؤال البيولوجيا والفلسفة: من أتى أولاً، الدجاجة أم البيضة؟ باعوا من السّلعتين بشكل متزامن، تضع الدجاجات بيضاً، وما لا يباع من هذا البيض يفرخ دجاجات جديدة، فوج طيور يلي فوج طيور، ازدهر بيعهما وإن كان على قدّهما، وزّعوا من الفائض أحياناً على الجيران والمعوزين، ثم أتى صاروخ طاشَ هدفَه (أو ربما أصابَه) على القنِّ المتضخّمِ وبيضه ودجاجاته عن بكرة دِيوكها.

قَطعَ ضجيجٌ خافتٌ آتٍ من مكان قريب سجالَهما السّخيف ولمّا يزل في مطالعه، همهمات بشريّة وأصوات محركات وصلت مسامعهما، توقّفا عن الكلام المباح، وقادتهما أقدامُهما تلقائيّاً صوب مصدر الصّوت، ليس مألوفاً أن تشهد البلدة صخباً ونشاطاً ما بعد مرور وقت على صلاة العشاء، اللّهم إلّا في حالات نادرة من القصف الليليّ وغارات تحيّة المساء وما قد يرافقها من حراك لسيّارات الإسعاف والدّفاع المدنيّ والبحث عن ناجين بين الأنقاض وتجمهر الأهالي ونطوطة النّاشطين الإعلاميّين.

وجدا منظراً غير مألوف نوعاً ما، شاحنتان صغيرتان نصف نقل من طراز هيونداي، وأخرى أصغر من نوع سوزوكي، وسيارة تويوتا لها صندوق خلفيّ مفتوح، وأربع إلى خمس درّاجات ناريّة، جميعها ترجّل منها ركّابها، وانشغل كلّ واحد منهم بتأدية مهمّة ما بدأب. الأضواء المنبعثة من المركبات والأجهزة الخليويّة ونور القمر الشّاحب هي ما أتاحت التقاط أشياء مبعثرةٍ من تفاصيل المشهد. الشّاحنات شبه ممتلئة

بقطع أثاث ومعدن وكراتين أوتي بها من الجمرك ودُحشت فوق بعضها كيفما اتفق، ويجري تفريغها، ينتصّ صندوقَ التويوتا رشّاش بي كي سي مثبّتٌ على مرجل ثلاثيّ القوائم وتُرك وحيداً كي يؤنس السّيّارة.

ليس بعيداً عن قاسم وأحمد، وقف رجلان في أواسط العمر قادهما الفضول أيضاً إلى هذه الجلبة، شقيقان من بلدة العتيبة في ريف الشّام، نزحا مع أسرتيهما من قريتهم بعد أن أحرق أخضرها ويابسها حزب الله اللبنانيّ وقوات النّظام لإحكام حصار غوطة دمشق وقطع آخر طريق إمداد لها، سَعَيَا بلوغ الأردن، ثمّ بدّلا رأيهما وتنقّلا بين بلدات حدوديّة في ريف درعا على أمل عودةٍ لم تأتِ. على مقربة منهما، انتصب حسّون المحوون الذي أغلق محلّه الأنيق للاتصالات وجافاه النوم في منزله القريب، هجرَ فراشه البارد وجرّه السّأم والملل وعشق الاستطلاع للاستكشاف هو الآخر.

كمثل نملاتٍ نشيطات، ذرع المقاتلون القلّة المسافة القصيرة بين الشّاحنات المتوقّفة وقلب مقرّ فصيلهم ذهاباً وجيئةً. البناء الصّغير ذو الطّابقين بدا أشبه بعشّهم والبضاعة والغنائم المكدّسة بصناديق العربات من غزوة مركز نصيب الحدودي، وكأنّها قطعة حلوى ضخمة أو حشرة ميتة يجري تفتيتها وتخزينها في دهاليز العشّ وجوفه تأهّباً لقادم الأيام. وحده الشّيخ غسّان أبو زريق دولار انشغل جانباً بحديثٍ عبر الهاتف بينما واصل أفراد من فصيله نقل الأغراض إلى داخل المبنى الذي كان فيما مضى قبل اندلاع الثّورة مركزاً للمخابرات الجويّة. بقي البنيان صامداً رغم ما مرّ على البلدة من أهوال. طُمست أقوال الأب القائد الخالد ومقولات ابنه السّيد الرّئيس على جدرانه الخارجيّة، كتابات ثوريّة عفويّة

بخطٍّ بسيط حلّت محلها أولاً، شعارات بُخَّت على عجل: حريّة، ثورة، الشّعب يريد إسقاط النّظام، إجاك الدّور يا دكتور، يا درعا حنّا معاكي للموت. وَجَدَت ألوان العلم البديل طريقها للحائط فيما بعد برسمٍ متقن، وفي فترة لاحقة أُستبدل الذي هو خير بالذي هو أدنى، آيات الجهاد وأحاديثه باتت شعارات المرحلة: انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون، من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا، تعلوها بنحو متر واحد لوحةٌ بدت إعلان مِلكيةٍ وتأكيد سطوةٍ ونفوذ في ذات الوقت: كتيبة أبو الدّرداء.

توقّف مقاتلٌ عن تحميل الأغراض بشكل مفاجئ ونظر باتجاه الحشد المتطفّل، خاطبهم بلهجة آمرةٍ ملؤها استعلاء:

- يالله من هون إنت وياه!

استجاب الشّقيقان المهجّران على الفور وعادا أدراجهما، سارع قاسم للالتفاف كي يتّجه إلى منزله وسوره المحطّم هو الآخر، لم يكمل نصف استدارة بمقدار مئة وثمانين درجة، تجمّد في أرضه بعد أن صدر عن أحمد ردٌّ وقحٌ ملؤه التّحدي:

- شو لا يكون شارع اللي خلّفك وأني ما بعرف.

وكأنّ الأوضاع تنقصها هذه الإفرازات التّستوسيرونيّة، توتّرت الأجواء، ترك المقاتل العتّال كلّ شيءٍ من يديه وسارع إلى الإمساك ببندقيّته الكلاشينكوف لخرطشها ووجّه فوّهتها صوب أحمد...

وصرخ في وجهه:

- شو رأيك تروح من قدّامي أحسن ما يلمّوك أهلك شقف.

بقي أحمد في مكانه، الضّوء الشّحيح زاد في تعقيد الموقف، أيّ حركة طائشة أو سوء فهم بسيط قد يودي بحياة بشريّة بالمجان، رقم تافه يضاف إلى مئات الآلاف الذين فقدوا أرواحهم أو اختفوا (قد يجادل البعض أنّهم قضوا مجّاناً كذلك)، حسّون المحجون بدا مراقباً محايداً من بُعد، يلتقط التّفاصيل ويخزّنها في ذاكرته ليعيد سردها على زبائنه في تالي الأيّام مضيفاً إليها ما يلزم من بهارات.

- صلّي عالنّبي أبو الشباب، تدخّل قاسم بصوت جهوريٍّ معتدل النّبرة وودّي ساعياً لترطيب الموقف، لم ينفذ بجلده هذه المرّة، ولم يعمل بمبدأ: اللّهم نفسي، دعوته للصّلاة على المصطفى العدنان لم تلق مجيباً ولو تمتمة أو همساً، لن يترك صديقه وسط هذه المعمعة الخطيرة والعبثيّة في آن. مقاتلٌ عتّال ثانٍ انضم إلى رفيقه دون أن يحمل سلاحه، أتى داعماً ومستوضحاً أكثر منه كرّاراً. عاود زميله في السّلاح إصدار الأمر: «اسحبوا حالكم وامشوا من هون وبلاها كثرة الغلبة»، طنّش أحمد وبقي راسخاً في وقفته كعامود أثريّ، يداه معقودتان بثبات، قَبَضَ قاسم على عضده محاولاً زحزحته بلا جدوى، يعي جيداً كم هو تيس، رأسه أيبس من حجر صلد.

لفتت الجلبة الثانوية انتباه الشّيخ دولار، شتّتته عن حديثه الهاتفي، اقترب من موقع المواجهة الوشيكة.

- «السلام عليكم.. شو في يا أخوة»، أطلق سؤالاً عامّاً ساعياً فهم ما يحدث.

- ضب زلمك يا شيخ، أجاب أحمد بعد أن أدرك هويّة السّائل.
- شو قصدك، استنكر المقاتل المسلّح بعصبيّة العبارة الأخيرة وقد بلغ منه الاستفزاز مبلغاً.
- استهدوا بالله يا جماعة، كرّر قاسم محاولاته لتخفيض منسوب التوتر وبثِّ التّهدئة، وتقدم خطوة للأمام جاعلاً من نفسه حائطاً بشرياً يفصل بين سبطانة البندقيّة المرفوعة وجسد أحمد المتجمّد.

اقترب الشيخ من مقاتليه مستفسراً عمّا يحصل. أوضح المسلّح أنه سعى لصرف جمهرة مشبوهة غير مرغوب فيها كانت في طور التشكّل. استدار غسّان نحو قاسم وأحمد، تميّز ملامحهما بسهولة، القرية صغيرة والجميع يعرف الجميع، هذا قاسم ابن الخياط أبو سامر الرفاعي وهذا أحمد ابن أبو أحمد صاحب التاكسي على خطِّ الأردن. أخبرهما باقتضاب أن طلب المغادرة كان لمصلحتهما خشية أيّ استهداف محتمل لمقرِّ الكتيبة. اصطنع أحمد ضحكة ساخرة مشفوعة بتعليقٍ منيك: «عأساس قاعدين تبنوا مفاعل نووي وتخزّنوا يورانيوم مخّصب والدّول العظمى صافّة بالدّور منشان تستهدف كتيبة أبو الدّرداء.. ما بدّي حدا يدير باله على مصلحتي».

وضعت العبارة الأخيرة حدّاً لتبادل الحديث. طغى صمتٌ مطبقٌ للحظات، أدرك قاسم أنّ أحمد دفعهما إلى هوّة المحظور وأنّهما أكلا خرى. هزّ الشيخ رأسه وداعب لحيته الكثّة، التفّ وتوارى داخل البناء دون أن ينبس بحرفٍ إضافي. بعد لحظات، خرج ثلاثة مقاتلين يلوّحون بكلاشينكوفاتهم وانهالوا، بمشاركة رفيقهم الغاضب، ركلاً ورفساً

وصفعاً ولكماً وضرباً بأعقاب البنادق على الصديقين الجارين، فقَدَ أحمد وعيه على الفور، جسده الضّعيف لم يُشفَ تماماً من إصابات معركة التّل رغم مضيّ أشهر طوال، استسلم قاسم للضّربات، رفع يديه يائساً يتّقي منها ما استطاع، تشتد وطأة العلقة السّاخنة على أحمد...

لا يعلم أحد ما هو المصير الذي رسمته له الأوامر السرية الصادرة عن الشيخ دولار لعناصره، ولكن كلاشينكوف أحدهم كان مستعدا بأي إشارة ليرد لشيخه هيبته التي استباحها أحمد واستباحها قبله دولار خط الغاز.

فتحت النهايات أبوابها على كل الاحتمالات لتكون مسك ختام مثاليّ ليوم حافلٍ بالخيبات.

الخيبات.. سامر الحمصي خبير بها أيضاً..

كان سامــر وأخيه، وبعد أن استقــر بهما المقام في درعا هربا مــن الحــرب والحصار والموت في مدينتهــم حمص من ضمن المتفرجين على مصير أحمد الشريف، لكنه وكعادته لم يتردد بالنــأي بنفسه بعيدا عن المعركـة التستيرونية التي كانت تدور مع عناصــر الشيخ دولار. انفض سريعا عن فخار يكسر بعضه، فــي اللحظة التي لاح فيها كلاشينكوف المقاتل عاليا طالبا من الجموع الابتعاد وإلا..

لــم يكن يعنيه من كل ما جرى له في حياته وكل ما يجري إلا أن ينجــو مع عائلته لكنه بات يمضــي أغلب وقته غارقا في الحنين لمدينتــه حمصــ محــاولا دون جـدوى أن ينبش فــي صفحات ذاكرته عن قبر أمه...

واجــه سامر تجربة الاعتقال والنزوح والفقـد بكل استسلام أو لنكـون أكثر دقـة بنكران لا يعادلــه ألم، إلا ألم مــن فقأ عينيه كــي لا يرى مــا يجري أمامه. لــم تكن خيارات النجــاة المؤقتة التــي أتيحت له بأكثر مــن وسائل اعتاد علــى الاستعانة بها كي

يستطيـع العيش والصمود وسط كل هذا الخراء الذي يحيط به ولا يعـرف ما الذي جعله في وسطه. كان عليه أن يعتاده وأحياناً أن ينكـره وهو موجود. منذ أيام الضـرب والقصف في حصار الوعر الذي عاشـه بتفاصيله كان يتمنى أن يسقط صاروخ فوق رأسه لينتهـي كل شيء، لينتهي هذا النكـران المعيب الذي رآه مـن كل الناس عندما كانوا يعتقـدون أنهم تحرروا من النظام، وهم في الحقيقة ينكـرون أنهم هزموا، وأنهم محاصرون، وهو يمطرهم كل يوم بصواريخه.

صلاة لم تكتمل

وائل ريحاني

الزمن يطول ويقصر كيفما شاء، النهار يمضي بطيئاً وعابقاً برائحة السجائر التي يدخنها أخي بشراهة، يطفئ واحدة ليشعل الأخرى، دائماً ما يكون متكوراً على الكنبة التي يجلس عليها ليقضي يومه بالتدخين، لا يكلم أحداً ولا ينظر إلى أي أحد، وإذا ما كلمته زوجته بأي كلمة، ينظر إليها ببرود ثم يزيح نظره عنها نحو سيجارته، كان يخشى أن يبكي أمامها فيذكرها بما لم تنسه. تحاول هدى مراراً أن تكلمه، كل يوم تجرب الأمر ويتكرر ذات الشيء، لا أعرف إن كان حزيناً عليها أم منها، أو حزيناً علي أم مني، هي التي تحمل وجه ابنته وتذكره بها، وأنا أحمل قسمات وجه أمي، عيونها المائلة وأنفها المدبب، كنا أنا وهدى نذكره بالفاجعة التي وقعت لنا، نذكره بالفاجعة التي لم يصلِّ عليها، ربما لو فعل لكان الآن أكثر اتزاناً وأكثر قدرة على الحزن، أن تكون حزيناً يعني أن تكون واعياً للمشكلة وقادراً على التعامل معها وتجاوزها دون أن تنساها، وهو غير واعٍ، ما حصل أفقده اتزانه وقدرته على التعامل مع وضعنا الصعب، يوشك أن يفقد عقله دون أن نستطيع مساعدته، حتى أني بدأت أشك أحياناً أنه حزين، هو فقط يريد أن ينسى ما حصل لكنه لا يستطيع.

أما الليل فهو لي، أجول في الصباح أرجاء «الطيبة» على غير هدى حتى ينقضي النهار وأتخلص من الكآبة التي نعيشها، لكنها ترافقني في تجوالي النهاري، وأعود لألقاها ليلاً في البيت الصغير، البيت المقسم إلى ثلاث غرف، غرفة جلوس وغرفة نوم لأخي وزوجته، وغرفة صغيرة ليس فيها إلا فراش مرمي على الأرض، أقضي عليه معظم الليل جالساً ساهماً فيما حصل، وكيف حصل، أتحمل ذنباً ينهش جسدي ويثقله، أشعر به يمشي في مجرى دمي، يتوقف عند صدري ليخزني بضع وخزات حادة كلما نمت، فأستيقظ.

ضاقت علينا هذه البلدة الصغيرة كما ضاقت على أهلها، أصوات الرصاص اليومي في أطرافها تذكرني بكل شيء، كنت أظن أنني أعتدت على أصوات الرصاص، وأنها أصبحت مألوفة لأذني حتى أنني لم أعد أخشاها عندما كنت في الحصار، لكني اشعر أن هذه الأصوات مختلفة، أشعر بأنها تعود من جديد لتخرق رأس أمي وصدر ابنة أخي، يتوقف الرصاص أحياناً لكن لا يتوقف صوته على الطنين في أذني، أضع راحة كفي على أذنيّ وأضغط عليهما كي يتوقف، أرتاح ثوان معدودة من الطنين، أحاول النوم لكن الطنين يعود ليسبقني، أمضي الليالي هكذا لا أهتدي إلى النوم، أحاول أن أتمتم ببضع آيات كما كانت تفعل أمي، أتذكر شفاهها تتحرك إلى الأعلى والأسفل وهي تتلو القرآن، أغفو قليلاً، ترافقني إلى منامي، أراها تنظر إلى عيني نظرة محيّرة، نظرة لوم ونظرة رضا، أستيقظ من جديد لأعيد الكرّة.

لم يكن خروج أمي من المنزل هيناً، تركته مرغمة بعد أن أمضت فيه أغلب سنيَّ عمرها، فيه تزوجت وفيه أنجبتنا أنا وأخي ورأتنا نكبر، طاوعتنا على الهروب لتضمن سلامتنا وتضمن مستقبلنا، مستقبلنا الذي كان يضيع منا يوما بعد يوم إلى أن وقعت مصيبة اعتقالنا على رأسها كالصاعقة وظنت وهي في أواخر العمر بأنها لن تراني بعد اليوم، كانت مستعدة لأن تفعل أي شيء كي نكون بأمان. التزمت المنزل عاما بأكمله كانت خائفة كالكثيرين ولم تخرج في أي مظاهرة من تلك التي كانت نساء الحي تخرج فيها بشكل شبه يومي وبعد أشهر قليلة من خروجي من السجن شاركتنا على مضض قرار الخروج من الحي، في البداية كان من الصعب عليها الخروج، كانت تطلب مني ومن أخي الهروب وتركها وحدها في المنزل الذي سكنها قبل أن تسكنه، كانت تقول: «والله يا أمي حاسة إذا طلعت ما عاد شوفو».

لكن لم يكن هينا علينا تركها في حي حوصر بالدبابات والمدرعات وشهد قصفاً مبكراً عن بقية الحارات الأخرى، هذا الحي الذي أبقى الشرارة مشتعلة في هذه المدينة وحافظ عليها من الانطفاء، طاوعتنا أمي في النهاية وجهزت حقائبنا للرحيل قلنا لها نريد القليل من الثياب لأننا سنعود عندما تهدأ الأمور، لكنها كانت تكرر أبدا على مسامعنا: قلبي قابضني يا ابني، حاسة إذا طلعت ما عاد شوفوا.

جهزت الحقائب ووضعت فيها ما يلزم لكنها لم تنس المصحف، المصحف الذي تحمل ورقته الأولى، والتي عادة تكون ما تكون فارغة، تاريخ يوم زواجها، المصحفِ الذي أهداه لها والدها ليلة عرسها ليكون معها في منزلها الجديد من أول ليلة، «اجعليه نوراً تستظلّين به فتنجي يا

ابنتي»، هكذا قال لها جدي يوم ودعها من بيت أهلها إلى بيتها الجديد، رافقها هذا المصحف على مدى ثلاثين عاماً، ليكون رفيقها في هذا المنزل، كبرا سوياً، وكم كانت تتمنى أن تعيده إلى مكانه عند عودتها لكنه بقي معها وأخذته معها في رحلتها الأخيرة، الرحلة التي تركت آثارها السوداء على أرواحنا إلى الآن، ولم ينتهي هذا السواد بعد.

كان القرار صعباً، والعبء يحمل وزنه كاملاً فوق جسدي، كان عليّ أن اتخذ هذا القرار. أمي موقفها معروف مسبقاً، أعرف في قرارة نفسي أنها بالتأكيد لا تريد المغادرة وترك منزلها، وأنا بعد الاعتقال والتضييق الكبير على الحركة وتوقف عملي في النجارة كان خياري واضحاً، لا مجال للبقاء في بلدٍ لا يسعني، ولا يتسع لأحلامي البسيطة، والثورة التي بدأت في غفلة مني ومن حلمي البسيط بأن أتزوج وأصبح أباً لن تسدّ رمق بطني، رغم أن لا شيء كان يسده سابقاً، تعلمت النجارة في صغري، وبعد أن تخرجت من الجامعة لم أجد عملاً مناسباً، فقررت أن أعود إلى عمل النجارة كأجير، أجمع بعض النقود ثم أفتتح عملي الخاص لاحقاً أو أسافر إلى الخليج لأعمل في شهادتي، بكل الأحوال يجب أن أجمع بعض المال لأبدأ أي خطوة تنقذني من وضعي، لكن الثورة التي بدأت في غفلة مني سبقتني.

كان قرار الخروج من الحي أصعب لأن أخي الأكبر رامي لا يريد أن يحمل هذا العبء، قالها لي صراحةً:

- لا أتحمل اتخاذ مثل هكذا قرار، لديّ عائلة وسقف يحمي رأسي، قرر أنت.

الجملة الأخيرة زادتني حيرة وزادت موقفي صعوبة، والسقف الذي يحمي رأسه ورأسنا قد تخترقه رصاصة أو تهده قذيفة، رغم ذلك أفهمه، يخاف المصير المجهول، لكن المجهول هنا أكبر، لا نعرف ماذا يحدث وماذا سيحدث، لكني أؤكد بأنني أفهمه، لا يريد المغامرة باتخاذ أي قرار، لا يريد هذا العبء الثقيل، لذا كان عليّ أن أتخذه وحدي.

قررت أنه يجب أن نخرج من باب السباع، الحي لم يعد آمناً، كل يوم هناك اشتباكات وقذائف تمر من فوق رؤوسنا، ويجب أن نحميها، علينا الخروج، أخبرت أمي بذلك، لم تعترض على قراري، ولم توافق أيضاً، قالت شيئاً لم أفهمه، أخبرت أخي بأننا سنتوجه إلى بيت خالتي في الوعر، البيت فارغ ونستطيع العيش فيه مؤقتاً، زوجته تدخلت وقالت إن بيت أهلها في الغوطة فارغ أيضاً، أباها تاجر كبير، والتاجر عادة يغامر في ماله لكنه لا يقامر به، وانتظار هدوء الأمور في المدينة التي أصبح فيها كل شيء ميت مقامرة لا يحتملها، لذلك قرر والدها منذ البداية المغادرة إلى الأردن، رحل إلى هناك وسرعان ما افتتح مطعماً في العاصمة عمّان.

كان تلميح هدى واضحاً، تريد أن تعيش مع زوجها وابنتها في منزل مستقل، هذا حقها قلت في نفسي، فهي تزوجت في منزل العائلة وتريد أن تحظى ببعض الاستقلالية والخصوصية كأي زوجة، هززت رأسي بأنني موافق رغم أن زوجها – أخي هو من يجب أن يفعل أو على الأقل أن يبدي موافقته لو تلميحاً كما فعلت أمي.

✕

لم أخرج في مظاهرة ولا أعرف كيف كانوا ينسقون فيما بينهم ويخرجون، وللحقيقة لم يعنيني ذلك لا في بدايته ولا في نهايته، ما كان

يعنيني هو أن ينتهي كل ذلك، ويعود الأمر لوضعه الطبيعي، كان التوتر على وجوه الناس ملحوظاً، كل من يمشي في الشارع يستطيع ملاحظة ذلك، كل العيون جاحظة باتجاه الآخر، تراقبه وتنظر إليه كما لم تنظر من قبل، نظرة توتر وترقب، حتى تكاد أن تشمّ هذا الترقب مع الهواء الذي نتنفسه. لم ينته الأمر وازداد سوء مع الوقت، فالشرارة التي انطلقت في نيسان أشعلت معها المدينة وجعلتها تنتظر مصيرها الذي لم يدرك أحد أنه سيكون أسوداً.

خرجت من عملي قرابة السادسة والنصف، قبيل المغرب بقليل، رأيت بعض الشباب يتظاهرون في أول شارع باب السباع الرئيسي بالقرب القلعة، مرت خمس دقائق لم أفهم فيها ما يحصل، فلم أكن قد سمعت سوى ما حدث في درعا ولم أكن متأكداً من حدوث ذلك في حينا، قالوا إنهم حاصروها ومنعوا حليب الأطفال عنها، لكن من غير المعقول أن يمنع أحد حليب الأطفال عن أطفاله، هكذا فكرت عندما سمعت الخبر عبر الجزيرة منذ شهر، هذه القناة التي تحدثت بعد أسبوع من ذلك عن مظاهرة خرجت قرب الساعة الجديدة في حمص، هذه كنت متأكدا منها، أعرف المكان جيداً، وأعرف بعض وجوه الناس التي ظهرت في الفيديو التي بثته، ولم تكن مفبركة كما قالوا، لكنها بالتأكيد مؤامرة على البلد، مؤامرة ندفع ثمنها لموقفنا من إسرائيل، هكذا أخبرتنا الفضائية السوريّة.

كانت هتافات المتظاهرين تملأ سماء الحي، بعض من في الشارع انضم إلى المظاهرة والآخرون ممن كانوا يقفون على باب محلهم دخلوها مسرعين ليختبئوا، لكن ما حدث شتت ذهني؛ رأيت سيارة بيضاء من

غير نمرة مرورية تمر مسرعة من طرف القلعة باتجاه شارع الوادي ومن شباكها يظهر رشاش صب كل رصاصه على الشباب المتظاهرين وجعلنا نحن الذين نسير في الشارع متجنبين كل شيء حتى نظرات الناس نرتمي على وجوهنا محتمين بالأرض، لنرفعها بعد ثوان على مشهد مخيف فالأرض كانت تصطبغ باللون الأحمر، سبعة شباب قتلوا في غمضة عين، قالوا إنهم شهداء، ازدادت الجموع في الشارع ومن احتمى من محله خرج راكضاً باتجاه بركة الدم تلك، كانوا يهتفون ويكبرون وفي وجوههم مزيج من التحدي والفزع، بينما كانت قدماي تلامس ظهري وأنا أركض في الجهة المعاكسة هرباً من الرصاص ومن الدم ومن الشهداء.

وصلت إلى المنزل لاهثاً ورأيت الباب مفتوحاً وأمي واقفة تنتظرني لتأخري عن موعدي عن المعتاد، وجهها المصفر من سماع أصوات الرصاص والنداءات من الجوامع من أجل التبرع بالدم يراقب تفاصيل وجهي الذي غاب عنه أي لون، سألتني: فيك شي يا أمي؟ لم أجبها بشيء، هرعت إلى غرفتي مسرعاً مغلقاً الباب خلفي ووجهي على الفراش كما كان على الأرض منذ دقائق منتظراً ان تنتهي أصوات الرصاص التي علقت في أذني ولم تذهب أصواتها عني حتى اللحظة.

✕✕

أتذكر تلك الليلة جيداً، كانت الساعة الرابعة فجراً عندما طُرق الباب بكعوب البنادق، كنت قد انتهيت للتو من صلاة الفجر، كان الجميع نائمين باستثناء أمي، استيقظوا على أصوات الطرق الشديد على باب المنزل، لم أكن أعرف ما الذي يحدث، وصلت قرب الباب لأجدهم قد سبقوني وأجسادهم مشدودة من الفزع، تمالكت نفسي

حتى أفتح الباب لكن البنادق سبقتنا ورصاصة واحدة على القفل كانت كافية لاقتحام المنزل، دخل علينا ستة أشخاص، وجهوا بنادقهم نحو رؤوسنا، لم يسألوا عن أحد، كنت أنا وأمي وأخي رامي وزوجته وابنته متسمرين كأننا بكمٌ من هول الوجوه التي رأيناها أمامنا، وجوه كالحة كالأشهر الأخيرة التي قضيناها في هذا الحي، والذقون التي تناسلت من وجوههم ليس فيها لمعة الإيمان التي اعتدنا عليها في هذه المدينة، ذقون متيبسة كالقش تنذر بالحريق القادم إلينا، لكنه لم يتأخر كثيرا، جاء الحريق بعد ثوان معدودات فقط، قاموا بركلي أنا وأخي رامي بكعوب البنادق على ظهرنا وخلف أرجلنا حتى التصق وجهنا بالأرض، ارتمى اثنين فوق ظهورنا ليضعوا الكلبشات على أيدنا، جرونا على درج المنزل كأننا أكياس قمامة نحو السيارات التي تنتظرنا أمام باب البناء، وسط بكاء واستغاثة من هدى وابنتها الصغيرة، خرجت أمي إلى «البرندا» لترى شكل السيارة التي سيضعوننا فيها، كان فعلاً لا إراديا منها لشعورها أن معرفة السيارة يعني سهولة الوصول إلينا، لكنها لم تكن واحدة، كانوا أربع سيارات والكثير الكثير من العناصر الواقفين منتظرين ببواريدهم المحمولة بتأهب كأن الحرب ستقوم هذه اللحظة، لم تعرف أمي عدد العناصر، ولم ترى من السيارات إلا لونها الأسود القاتم.

⋈

الحارة مليئة بالمطلوبين وقد أخطئوا، إلا أن إصرارهم على الطرق بعنف رهيب أعقبها صوت الرصاصة جعلني أدرك وأنا أقف أمامهم بأنهم لم يخطئوا العنوان، لكن ماذا فعلت؟ لم أهتف بأي هتاف ولم أخرج بأي مظاهرة ولست معهم ولا ضدهم أيضاً، حتى بيني وبين نفسي لم

أفكر إلا بهذه الطريقة، ولا أتذكر من الأمر الآن إلا الركلة التي جاءت خلف قدمي وأوقعتني أرضاً، أوقفني اثنان منهم، والثالث أرجع يدي للخلف، غطى عيني واقتادني نحو الدرج ثم ركلوني حتى تدحرجت، تدحرجت طابقين كاملين. عند باب السيارة أزالوا قطعة القماش عن عيني وسط استغرابي من وضعها في المنزل وإزالتها على باب البناء، ربما كان السبب هو ألا يراني أحد من الجيران، لكنهم يعرفونني وأعرفهم. هذا التساؤل أنساني لون السيارة التي قالت لي أمي لاحقاً أنها كانت سوداء.

رموني في السيارة من الخلف مستلقياً على بطني بين المقاعد الأمامية والخلفية، وعنصران جلسا على المقاعد ووضعا قدميهما فوق رأسي وظهري. أدار السائق السيارة فاشتغلت المسجلة، كان عازار حبيب يغني بصوته الرقيق:

نحن خلقنا حتى نعيش مش هم نكون دراويش

ما بدنا مخدة من ريش

بدنا من الدنيي نشبع

سألني من كان يدعس على رأسي بلهجته الساحلية وصوته الأجش الذي عكر صوت عازار الرقيق:

– شو بدك تسمع ولك كرّ؟

– عكرّ عليّ السؤال الغريب سماع الأغنية التي أنستني للحظة وضعي الذليل.

– أي شي سيدي.

- قول شو بدك تسمع ولك ابن الشرموطة.

لم أرد، ولم ألحق، السائق صار يضحك عالياً وغير الأغنية فوراً، فانطلق صوت جهوري صافٍ من المسجلة، كان فؤاد غازي يغني تعب المشوار، هو يقول «تعب المشوار من خطواتي وخطواتك»، وعقلي يقول إن مسار هذا المشوار أصبح واضحاً من هذه الأغنية، ومن الأحاديث والشتائم التي كانوا يلوكونها بألسنتهم كيفما اتفق، لم يكن الطريق طويلاً، حاولت مراراً أن أرفع عيوني لأعرف إلى أين سيقودونني، نجحت مرة واحدة بأن أرى أين أنا، من خلال انعكاس زجاج السيارة رأيت المعهد الفندقي فعرفت أنني على «الجسر» الآن، وعرفت وجهتي فوراً، وليتني لم أتلصص ولم أعرف، انتظرت أن تنتهي هذه الأغنية وينتهي هذا المشوار وأنا أفكر بالذنب الذي اقترفته في غفلة عني.

⋈

أنزلوني من السيارة لأجد نفسي في ساحة صغيرة، أمامي مبنى ليس له باب، وعلى اليسار غرفة صغيرة مسبقة الصنع، كان بابها مفتوحاً ويأتي انعكاس الضوء الأصفر على الرصيف المقابل للغرفة حاملاً معه ظلّ سرير معدني ينام فوقه شخص على ظهره، ويديه على صدره كأنه بوضعية الاستعداد، لم أتبين ملامحه لأن صوت العسكري جاء من خلفي صارخاً:

- أبو جوني تعا في واحد جديد.

- يلعن دينكن كل مرة بتفيقوني.

كان الصوت لذلك الشخص الهامد الذي ترك سريره وجاء نحوي بوجهه البيضوي، حليق الرأس والذقن، عضلات يديه تضخمت لدرجة

أنها كادت تغطي باقي تفاصيل جسده، ولهجته القادمة بالشتائم والكفر أربكتني، كيف يكون اسمه أبو جوني ولهجته هكذا؟

الظلّ الذي رأيته منذ قليل بدأ يتحرك نحوي رويداً رويداً وهو يرغي ويزبد شتائما وكفراً، استقبلني بلكمة على الوجه وقعت فيها أرضاً، ثم خبطاً عشوائياً على كل أعضاء جسدي كأنني كيس ملاكمة بين يديه وقدميه، طلب مني الوقوف لكنني لم أستطع، حملني العساكر من على الأرض كما يحملون زجاجة، طلب مني أن أخلع ثيابي، خلعتها وأبقيت على السروال الداخلي، فعاد إلى ضربي من جديد:

- اشلح الكلسون ولك منيك.

شلحته لأقف عارياً أمامهم وأمام نفسي وكرامتي، شعرت بأن أعينهم تخترق تفاصيلي حتى أنها وصلت لأعضائي الداخلية، عاد إلى ضربي من جديد بأنبوب تمديدات صحية، أطلقوا عليه لاحقاً «الأخضر الإبراهيمي» نسبة للمبعوث الأممي الذي جاء لسوريا من أجل إيجاد حلّ للمعضلة التي لم تنته، المعضلة التي وضعتني عارياً أمام هؤلاء.

كاد جلدي ينفلع من كثرة الضرب، لكنّ عربي ساعدني قليلاً أن أتحمل الألم هذه المرة، لم أشعر بالألم ولم أقع، كنت عارياً وما بعد هذا العري من ذلّ آخر حتى الوجع. وقفت هامداً كما كان أبو جوني في سريره أتلقى الضربات يمنة ويسرة، تكفل هو بالضرب والعساكر بالتدخين ونظرات الاستمتاع البادية على ملامحهم. تلقيت الضربة الأخيرة من عصا أبو جوني، سحب السيجارة من فم أحد العساكر ثم أمرني أن أقوم

بالقرفصاء والوقوف وتكرار الأمر عدّة مرات ليعرفوا إن كنت مخبئاً أي شيء بمؤخرتي، ثم ناولني حذائي وطلب مني تمزيقه.

- وين حاطط المخدرات يا عرصا.

حاولت أن أمزق الحذاء لكنني لم أستطع، زاد ذلك من حدة خوفي وارتباكي، متوقعاً حفلة جديدة من الضرب، لكنه خطفه من يدي ووضعه بين أسنانه كمفترس حتى أصبح عدة قطع ليتأكد من خلوه من المخدرات، ثم رماه على الأرض واستدار عائداً إلى غرفته المصطنعة وهو يصرخ:

- أبقا تفيقوني تاني مرة مشان هدول العرصات ... خدوه.

طلبوا مني ارتداء السروال الداخلي ثم أدخلوني إلى مدخل البناء الذي يشبه المدرسة لكنه أضخم وبلا نوافذ، في أعلى المدخل صورة لبشار الأسد بلباس عسكري، دخلنا المبنى الذي يفضي على بعد خمسة أمتار إلى جهتين، اليسرى كانت إلى مهجع العساكر، واليمنى التي استدرنا نحوها كانت تفضي إلى مهجع المدنيين، مشينا في الممر واللكمات تتالى عليّ، في منتصف الممر كان هناك عشرات من ربطات الخبز مرمية على الأرض، حاولت تجنبها بأن أمر محاذياً للحائط، لكن العساكر دعسوا فوقها ولكماتهم جعلتني أمر فوقها حتى وصلنا إلى مهجع المدنيين.

فتحوا الباب الأسود ورموني على أرض الزنزانة بين أقدام المساجين، لكن أحداً لم يتحرك بداية الأمر، لم يبدو أي استغراب فقد اعتادوا الأمر، كل يوم يدخل إلى هذا المكان العشرات ويخرج منه العشرات، وكل ردة فعلهم الوحيدة أنهم حاولوا أن يفسحوا لي مساحة غير موجودة كي

أستلقي على ظهري، لم ألبث على ظهري إلا دقائق رفعت بعدها رأسي قاعداً فرأيت رؤوساً كثيراً مصطفة كأحجار الدومينو في زنزانة صغيرة لا تصل مساحتها إلى مئة متر مربع، وفيها كما علمت لاحقاً أكثر من مئة وخمسين شخصاً، قام بعض المساجين القريبين مني بفحص جسدي وقدم لي أحدهم ربع رغيف خبز كان أخضر اللون كالأنبوب الذي تلقيت ضرباته.

مرّ اليوم عليّ ثقيلاً داخل المهجع، نجلس متربعين على أرجلنا ولا نستطيع التحرك، فلا مساحة تكفي كل هؤلاء الناس، كان منهم من يسألني «شو عم يصير برا»، أرد عليه بسؤال آخر «شقد صرلك هون ليه»، لم أكن أجيب على اسئلتهم مخافة أن يكون بينهم عميل ما، لا أريد أن أتهم بما لم أفعله، فلم أكن أعرف احداً منهم ولم اكن مرتاحاً للحديث عن أي شيء، حتى رأيت شخصاً ضئيل الجسم يمشي متجاوزاً رؤوس الناس نحوي، كانت ذقنه كثيفة وخشنة وعيونه غائرة حتى تكاد لا ترى، عرفته رغم ذلك، كان ابن جيراننا عصام الذي انقطعت أخباره منذ أن اعتقلوه من حاجز القلعة. جلس بجانبي ولم يسألني شيئاً، لأنه كان يعرف فعلاً أنني لم أفعل أي شيء.

كنت أعرف أين أنا لكني أردت أن أتأكد، سألت عصام عن ذلك فهمس في أذني أننا في الأمن العسكري. اعتقل عصام من إحدى المظاهرات بعد أن داهموها ولم يعرف أهله عنه أي شيء لغاية معرفتي أنا، ونقلي لهم الخبر بعد خروجي، كان جوابي لأمه مقتضباً وبوجه جامد خالٍ من المعالم:

-أخر وجود لابنكم كان في فرع الأمن العسكري ثم نقلوه إلى مكان أخر لا أعرفه.

لكنني أعرفه ولا أستطيع أن أخبره لأمه، فالخروج من فرع الأمن العسكري يعني شيئين لا ثالث لهما، إما الخروج إلى البيت أو الذهاب إلى «البالونة»، ذلك المكان الجحيمي الذي نسمع عنه ولا نعرف مكانه، كانوا يقولون انه معتقل يجمع الأفرع الأمنية الأربعة في مكان واحد، وهذا يعني شيئا واحدا فقط، أن من يدخله لن يرى النور أبدا.

كان المهجع مربع الشكل، في أوله تواليت وعلى يساره الباب الأسود، الجميع يدخل عارياً ويقضي حاجته ويخرج أمام الجميع. شعرت برغبة ملحة للدخول، الغازات تملأ بطني بسبب الخوف، تشجعت بعد وقت طويل فدخلت، التواليت كان قذراً وأرضيته من الحجر البازلتي الأسود مليئة بالنتوءات وكافية لتنغرز أسفل القدمين، ربما يخشون علينا من التزحلق بها، خرجت مرتاحاً قليلاً من عبء الغازات، وتوجهت نحو نهاية المهجع حتى أرى الجميع ولا يراني إلا القليل منهم.

بقينا جالسين لساعات حسبتها طويلة جداً كان توتري يزداد كل دقيقة، لا أعرف لماذا أنا هنا ولا أعرف مصيري ولا مصير أخي الذي وضعوه في سيارة أخرى ولا أعرف لأي فرع اقتادوه، كما أنني لم ألتق به عند المدخل، كنت وحيداً أمام أبو جوني وأنبوبه.

بقيت على صمتي وسط همهمات الجميع حتى فتح الباب وجاءت وجبة الغذاء، عرفت عندها أن الوقت كان عصراً، هنا الوقت يقاس

من موعد الأكل، وهي الوجبة الوحيدة التي يوزعونها، كانت عبارة عن أرز من المفترض أنه يكون أبيض اللون لكنه كان مائلاً للأسود، وفوقه البازلاء التي من المفترض أيضاً أنها خضراء اللون لكنها كانت تميل إلى لون العفن الغامق، موضوعة على رغيف خبز واحد لكل عشرة أشخاص، لم أكل تلك الليلة وبقيت على صمتي، حتى فتحت الطاقة التي تعلو باب المهجع والتي لا يظهر منها سوى فم السجان ليخبرنا بموعد النوم:

- صار وقت النوم لك منيك إنت وياه.

انتفض أحدهم واقفاً عرفت بعدها أنه رئيس المهجع وعادة ما يكون أقدم معتقل بيننا، سار قافزاً من فوق الناس حتى وصل إلى بداية المهجع عند التواليت، وبدأ بصف المساجين تجهيزاً للنوم، كان النوم بطريقة «التسييف»، يجب أن ينام الشخص على كتف واحد بأن يضع يده تحت رأسه وينام على جانبه، الصف الأول كانت وجوههم للتواليت وأقدامهم نحو الباب، والصف الثاني كانت وجوههم أيضاً نحو التواليت لكن أرجلهم في الجهة المعاكسة، استمر رئيس المهجع برص الصفوف حتى وصل للحائط نهاية المهجع، بقينا عشرة أشخاص واقفين، لم افهم في تلك اللحظة ماذا يحدث، كان ظني أننا سننام واقفين والحائط يتكفل بسند ظهرنا عليه، رئيس المهجع طلب منا المساعدة:

- أجروا يا شباب رص.

لم أفهم ما يقصد، لكن البقية مع رئيس المهجع بدأوا برص الصفوف نحو الجهة الأخرى، كأنهم يرصفون كراتين في مستودع، بقيت مساحة

تكفي لصفين، كنت في الصف الأخير، ظهري للحائط ووجهي نحو مؤخرة سجين آخر.

⋈

بقيت في المهجع حتى جاء مساء اليوم الثاني، فتحت الطاقة من جديد، قلت في نفسي حان وقت النوم ولست نعساً، لكن العسكري نادى على عشرة أسماء بأن يجهزوا أنفسهم ومن بينهم اسمي، وقفت واتجهت نحو الباب، اصطففنا وراء بعضنا البعض ثم أخرجونا من الباب وطمشوا أعيننا وقيدوا أيدينا، مشينا بعدها عدة دقائق نصعد ونهبط، اعتقدت أننا نصعد ونهبط نفس الدرج، لكننا خرجنا في النهاية من المبنى، عرفت ذلك لأني شعرت بأثر الزفت على قدمي بعد دقيقة من المشي، كانوا يتقصدون عدم معرفتنا لجغرافيا المكان، هكذا فكرت، وصلنا إلى المكان المقصود، فكوا وثاق أيدينا وأرجلنا وأعيننا، كنا في بداية ممر طويل على سقفه طاقة مسيجة، كان الممر بطول عشرة أمتار تقريباً، خمسة عشر خطوة عددتها بوقت لاحق، رأيت أربع منفردات على اليمين يليها تواليت وثم خمس منفردات على اليسارَ وفي صدر المكان مكتب صغير فيه عساكر، فتح أحد العساكر المنفردة الثانية على اليسار فدخلت، تفاجئت أن بها ستة عشر شخصاً وأنا السابع عشر، ومساحتها وأبعادها متر واحد بمترين اثنين، حشرني العسكري داخل الزنزانة التي يفترض أنها منفردة وأغلق الباب ورائي، بقيت واقفاً داخل المنفردة كالجميع، في الظلام سألوني ما اسمك، قلت سامر، تشجعت قليلاً وكسرت صمتي وسألتهم عن الفترة التي قضوها هنا، كانت إجابتهم مختلفة، منهم يوم ومنهم شهر.

بعد ساعة قرر أحدهم النوم، سحب جسده للأسفل محتكاً بالأجساد المتلاصقة كأنه ورقة تنسّل من كتاب حتى وصل رأسه إلى الأرض بين أقدامنا، فرد قدميه قليلا ثم أحنى بقية جسده فوق أقدامنا، ليضم يديه على صدره وركبتيه على بطنه، ثم غرق في النوم سريعاً، صدمني الأمر، صدمني ما حدث ثم صدمني كيف نام بهذه السرعة فوق أقدامنا، لم أحرك قدمي خشية إيقاظه، لكن شخصاً آخر فعل ذلك وبدأ ينسل للأسفل، حشر نفسه مع الرجل الثاني سريعاً وكأن احداً سيلاحقه، أحدهم صرخ فيه بصوت عالٍ:

- شو عم تعمل يا عرصاااا، ما هيك اتفقنا.

استمر بالصراخ عليه وشتمه والثاني يبادله الصراخ والشتيمة، والبقية صامتين وكأنهم اعتادوا الأمر، الصدمة تعلو وجهي الذي لا يراه أحد، لا أفهم ماذا يحدث وكيف سننام هنا، فهمت من صراخهم المتعالي أن الاتفاق يقضي بأن ينام كل واحد فيهم لفترة معينة، ثم يستيقظ لتأتي فترة الآخر، تجرأت أخيرا بأن سألت عن مدة هذه الفترة، أجابني واحد منهم:

- ساعة.

- كيف بتعرف الساعة هون؟

- بتحس فيها، رجليك بتتخدر من هالحيوان النائم فوقك!

صمت، وانتظرت دوري في النوم الذي جاء بعد سبع عشرة ساعة!

✕

أصابني إمساك في الأيام الخمسة الأولى، لم أخرج للتواليت ولا لمرة واحدة، كان مسموحاً لنا الخروج إليه مرة واحدة في اليوم فقط، لم

أستخدم هذه الميزة المسموحة هنا حتى الآن، فلا ميزات غيرها، رفاقي في المنفردة اعتبروني جاحداً لمكرمات القائد، لم أرد عليهم فلم أكن أقوى لا على الكلام ولا على الرد، فأنا لم آكل أبداً طيلة هذه الأيام، وبطني تكورت ومعدتي انتفخت بشكل جنوني، لم أصمد طويلاً، ازداد الوجع حتى بدأت في الليلة الخامسة أصرخ متألماً وأطلب إخراجي إلى الحمام. انزعجوا من صوتي وأنا أصرخ لدقائق طويلة ربما طالت لساعات. جاء السجان وأخرجني من المنفردة وبدأ بضربي طوال العشرة أمتار حتى أحسست أنها دهراً، كنت أسقط على بطني المتكور فأشعر أنه يضغط على أحشائي الممتلئة فازداد وجعاً، كنت كلما أقف أعود لأقع من فرط الركل والضرب.

وصلت إلى التواليت أخيراً، قال لي السجان أن أمامي دقيقة واحدة فقط، أمامي دقيقة واحدة لأنجز مهمة ظلت الطبيعة تحضر لها خمسة أيام في محاولة منها لتكيفي على هذا الوضع الجديد، دخلت وأغلقت الباب ورائي بطرف يدي، لم أجد قفلاً لكن الباب كان كريماً وبقي مغلقاً على نحو جيد يمنحني الخصوصية المطلوبة عكس ما كان في الزنزانة الكبيرة، كان المكان وسخاً على نحو غريب، وسخاً ورائحته خراء، المكان بأكمله رائحته هكذا، حتى أجسادنا التي تقيحت ونحن محشورون في الزنزانات بدأت تصدر هذه الرائحة.

جلست القرفصاء متجهزاً للمهمة الصعبة التي أمامي نظرت إلى صنبور المياه لكنني لم أجد الأنبوب حتى أشغله، وجدت بدلاً عنه وعاء لأقوم بتعبئته بالمياه وأنظف نفسي، وأنا أفتح صنبور المياه حدث شيء ما جعل الباب يرتد نحو وجهي ليوقعني في حفرة التواليت، بدأت حفلة

الضرب إذن وعلي أن أنجز ما عليّ إنجازه سريعاً، بقي لي في ذمة السيد الرئيس خمسين ثانية، وضعت يدي على الأرض لأجلس من جديد، لم أخجل هذه المرة أفرغت كل ما استطيع إفراغه وأصدرت أصواتاً مريعة، كان عليّ أن أتخلص من هذا الوجع القاتل، لن يمنعني الضرب عن ذلك فليس أمامي وقت، حتى وأنا أقع في الجورة التي جعلتني امتلئ بولاً وخراءً أحاول أن أفرغ ما استطيع إفراغه، لم أعد أهتم للأمر فأمامي عشرون ثانية، بدأت أفرغ وعاء المياه على جسدي محاولاً تنظيف نفسي من القذارة، حتى جاءت الركلة الأخيرة التي أوقعتني من جديد فوق قذارتي، فتح الباب وشدني السجان من شعري خارج التواليت، بدأ بضربي بكرباج وأنا على الأرض، حاولت الوقوف مجدداً لكنني لم أستطع، زحفت على بطني حتى وصلت أمام باب الزنزانة كان هناك ضوء أزرق خفيف ينبعث من الطاقة في بداية الممر، عرفت منه أن الوقت فجراً وأن الشمس ستشرق بعد قليل، فتح لي السجان باب المنفردة وأنا ما زلت على الأرض، نظرت لداخلها ورأيت وجوه المساجين لأول مرة، لم تكن واضحة تماماً فالضوء القادم من الخارج لم يكن قوياً بعد، رأيت وجوههم شاحبة وقد انكمش فيها الجلد على عظام الوجه، كان أحدهم على الأرض يبدو أنه كان يحاول أن ينام رغم هذا الصراخ الذي صدر مني، مد يده وسحبني إلى الداخل حتى أصبح وجهي عند قدميه، بقيت مسجى على بطني فوق أرجل المساجين، رائحتي قذرة جداً، لكنني لم أعد أهتم، لقد ارتحت أخيراً، زال وجع الأيام الخمسة، وكان عليّ أن أنام.

مرت عشرة أيام وأنا في المنفردة واقفاً على قدمي، أسال دائماً عن سبب وجودي هنا، أنا الذي لم أتخذ موقفاً مما يجري كي أدفع هذا الثمن، أثقلني ذلك وأثقلني التفكير بالأمر، وأثقلني الانتظار أكثر من الضرب والخدر والجوع الذي أعيشه بين هذه الأجساد الملتصقة بي، وأثقلني جَلَد بعضهم وهم يشدون من أزرنا، ويقولون إن الله يرى كل شيء فمم نخاف؟ خجلت أن أقول لهم أنني أخاف الموت، لم أفكر به سابقاً، حتى عندما توفي والدي وكنت حينها على تماس مباشر مع الموت لم أخف، كنت صغيراً جداً ولم أعِ ما هو الموت كما الآن، أحدهم قال إننا يجب أن نعيش هذه الأيام ونحتسب أنفسنا أمواتاً، فمصيرنا الموت في النهاية هنا أو في مكان آخر والحياة بصفتنا أمواتاً في هذا القبر المسمى منفردة ستكون أسهل علينا، فلا أحد يتذكرنا هنا، وعلينا ألا نتذكر أحد فنحن أموات.

في اليوم التالي، أو ربما في نفس اليوم، لم يعد للوقت أهمية، فُتح باب الزنزانة مصدرا صريراً مريعاً، نادى السجان باسمي، خرجت من المنفردة إلى الممر، قام السجان بتطميش عيني ثم قام بربط القدمين واليدين، نكزني من الخلف فمشيت زاحفاً، لأني لا أستطيع المشي بشكل طبيعي، صفعني على رقبتي حتى كاد رأسي يطير:

- أمشي بسرعة ولك كر.

فبدأت أقفز مسرعاً كي أتحاشى غضبه وضرباته، مشينا لدقيقتين تقريباً، تعثرت بالكثير من الناس، وقعت فوق الكثير منهم، وفي كل مرة كان يسحبني من شعري ليعيدني واقفاً ثم يصفعني من جديد كي أقفز وأتقدم للأمام، لم أعرف إن كان هؤلاء أحياء أو أمواتا.

- طلاع عالدرج على يمينك ولك ابن المنيوكة.

استدرت يميناً، زحفت خطوة واحدة لأتأكد أن هناك درجة، اصطدمت رؤوس أصابعي بالدرجة الأولى، فبدأت أقفز من جديد، كادت قواي تخور، تحاملت على نفسي وأنا أقفز وأعد الدرجات تحسباً أنني سأعود من نفس المكان كي لا أقع في طريق العودة، وصلت إلى الدرجة الحادية عشرة، قفزت من جديد لكن لم تكن هناك درجة أخرى فوقعت على رأسي، شعرت بالدم يسيل من بين عيوني نحو فمي، سمعت السجان يفتح باباً عن يميني، سحبني من شعري إلى داخلها، فك ربطة القدمين ثم خرج.

وقفت لدقائق مكاني، وسط الصمت ورفعت رأسي قليلا، كان يجلس وراء المكتب، رأيته من طرف الطميشة التي انزاحت قليلاً نحو الأعلى، كان يلبس شورت بيج فاتح اللون وكنزة خضراء، ولم أعرف حتى الآن ما سرّ كل هذا اللون الأخضر الذي رأيته منذ أن دخلت إلى هنا، أصبح اللون مثار شؤم لي. كان أشقراً كما تشي سحنته، بدأ يتكلم فجأة بصوت هادئ موجهاً لي الاتهامات، عددها وكأنه يقرأها من ورقة أمامه: اتجار بالمخدرات، تمويل منظمات إرهابية، حمل سلاح ... ثم قال لي بهدوء:

- شو بترد.

- ما عملت شي سيدي.

تحول هدوءه إلى قنبلة انفجرت في وجهي:

- شو يا أخو الشرموطة، شو مفكرنا أبنعرف.

لم ينتظر إجابتي ولم تكن لدي إجابة أصلاً، وقف على قدميه وبدأ يدور حولي ويعيد نفس الاتهامات وأنا لا أجيب، ركبتاي بدأت ترتجفان خوفاً، ضربني بلكمة على وجهي، جاءت اللكمة مفاجئة وغير محسوبة، ظننت أنه لن يقوم بضربي الآن، وسيكمل التحقيق الذي بدأه وأن صراخه كان لترهيبي، كما أننا في مكتب والمكان لا يشي بأنه مكان التعذيب، لهذا شعرت بأن اللكمة كانت غدرا منه، خاصة أنها كانت قوية كفاية سال لها دمي مع لعابي. استمر بضربي بعد كل سؤال، هذه المرة لم ينتظر أي إجابة مني،

- شو علاقتك بالإرهابيين؟

- والله ... ...

استمر الضرب يأتيني من كل جهة، كان يدور حولي يلقي شتائمه واتهاماته ثم يضربني، توقف بعدها قليلاً، سمعت خطواته وهو يمشي خلفي لجهة الحائط، كان يسحب شيئاً من الخلف، ضربه على الأرض عدة مرات، عرفت أنه أنبوب، وعرفت أنه يشبه ذلك الأنبوب الأخضر الذي استقبلوني به، أول ضربة كانت على ظهري، انفلع جلدي، شعرت بأن ظهري انشق إلى نصفين وما بينهما شيء حار ينهمر، عاود الضرب بكل الجهات، بقيت واقفاً رغم الألم الكبير الذي لم أر مثله للآن، خشيت إن تهاويت على الأرض أن يضربني على رأسي، رمى الأنبوب إلى الخلف بقوة، أخذت شهيقاً قوياً لم ألحق أن أخرجه من جوفي، فاجئني بضربة قوية بيديه على أذني الاثنتين، تشوشتا حتى لم أعد أسمع شيئاً سوى الصدى، رأيته أمامي وهو يقول شيء ما، لم أسمعه، كان ينادي للسجان، الذي دخل فجأة، قلت في نفسي انتهينا.

فك السجان وثاقي، أرجع يدي لظهري ثم وثقني من جديد، جلب كرسياً صغيراً من الخلف وأصعدني عليه، رفع يدي قليلاً ليعلق الوثاق برافعة، بدء الرفع قليلاً، جسدي بدأ يميل للأمام ويدي تعلو ومعصم يدي يتشقق، يسأل المحقق من جديد واجيبه بجواب واحد: «ما دخلني مشان الله يا سيدي»، لم أكن أسمعه جيداً لكني توقعت أن يتلو عليّ الاتهامات من جديد وينتظر اعترافي.

كانت لا تعجبه إجاباتي فيزيد الرفع، كرر الأمر لدقائق طويلة، ثم رفس الكرسي من تحت قدمي حتى وقفت على رؤوس أصابعي ويدي مشدودتان كلياً للأعلى

يسأل وأجيب بنفس الجواب، ثم يرفع قليلاً حتى وقفت على أظفار أصابع قدمي، يسأل وأجيب حتى رفعني على الأرض كلياً وشعرت أن كتفي أنخلع وتخدر جسدي بالكامل، عاد ليسأل فلم أجب، لم أعد أشعر بالألم فلمَ أجيب؟

✕

تسير الأيام ببطء شديد هنا، تسير إلى مكان مجهول، نهايتها غير معروفة، ومع مرور الوقت بدأت أشعر أن لا نهاية لها، هي مجرد قصة بدأت ويبدو أنه من غير المقدر لأحد أن ينهيها، وإن تحركت أحداثها قليلاً فإنها تتحرك كمن يحرك قدميه بالتناوب في بقعة واحدة. قد يبدو ذلك لغواً لا معنى له، لكن لا معنى لما يحدث أيضاً، أنا نفسي لا أجد معنى لأي شيء، لا معنى للمظاهرات، ولا معنى لهذا العنف الذي يمارسونه ضد من يتظاهر ولا معنى لأن أخرج من بيتي مهرولاً من أجل

كل ذلك لأدخل حياً آخر لا أعرف متى أخرج منه، ما الفرق إن كان هؤلاء من يحكموننا أو غيرهم، طالما سأبقى كما أنا، لن أخطو خطوة للأمام في هذه المدينة الباردة الهادئة التي تمشي على مهلها كما كانت، ولن أخطو أي خطوة في هذه المدينة المشتعلة الآن، ولا قدرة لي على فعل غير ذلك.

أتينا إلى هنا مرغمين، هكذا ظننت بالبداية، حملنا حقائبنا مثل كل أهالي المدينة قاصدين الوجهة الآمنة، أو الوجهة التي سمح لنا بالمرور إليها، فلا حي آخر في حمص قد يأوينا بعد أن تقسمت المدينة إلى أربعة أقسام؛ مكان نزح إليه جميع أهالي المدينة وسندخله بعد قليل وآخر هو أحياء حمص القديمة التي حوصرت ولا يستطيع أحد أن يدخلها، ومكان موالي من غير المرغوب وجودنا فيه أصلا، فنحن الطرف الآخر، الطرف الذي تمرد عليهم بعد سيطرة دامت أربعين عاماً على سلطة كانت لنا في السابق كما يقولون. لا أعرف من قال لهم أنني تمردت ولا أعرف عن أي سلطة يتحدثون، عن سلطة لم يعرف منها أبي سوى أنه كان فيها عاملاً بسيطا مثلي وأورثني فقره وعمله لكنه لم يورثني هذه السلطة، أو عن سلطة كانت لي ويجب أن أستعيدها، وأنا شخصيا لا أريدها حقاً، أريد أن أعيش فقط، وهذه ليست عيشة.

القسم الرابع من المدينة كان خاضعاً لسيطرة الدولة، التي عملت جاهدة على تقسيمه بالحواجز بداية الأمر، وبالجدران في مرحلة لاحقة، فصلوا الأحياء التي يسيطرون عليها، رفعوا جدراناً بين الأحياء، كجدران المدارس عالية وجلفة، لم أصدق الأمر حتى رأيت الصور المنشورة على صفحات الفيس بوك، كانوا يريدون إجبار كل من يتنقل في المدينة أن يمر

من خلالهم فقط، من خلال حواجزهم، وأنا أخشى الحواجز بعد اعتقالي، أخشاها حتى كاد أن يغمى عليّ خلال مرورنا من الحاجز الفاصل بين حي الغوطة الذي يقع ضمن هذا القسم والوعر، أمي تقرأ المعوذات وأنا انتظر أن نقترب من الحاجز أمام طابور طويل من السيارات التي تريد الدخول هاربة من جحيم أحياءها، أنتظر الوصول إليه لأنتهي من هذا الأرق، من هذا الخوف الذي يسيطر علي فجعلني أجلس في مقعد السيارة كالخشبة، غير قادر على الحراك أو حتى النظر باتجاهه، لكن وصلنا إليه، ولم يسألنا العسكري شيئاً، فتش السيارة سريعاً وقال لنا أن نمضي لوجهتنا. وكانت الوجهة هي الوعر التي أصبحت مكاناً لنزوحي ونزوح عشرات الآلاف في غمضة عين، قبل أن تتحول لمكان محاصر بعد أشهر قليلة، كما حوصرت حمص القديمة ومازال حصارها مستمراً.

لا أعرف ما الذي دار برأس أمي يوم خرجنا من المنزل، لم تذرف دموعاً ولم تتكلم، لكن الهواء الأخير الذي تنفسته في المنزل كان مليئاً بألمها، شعرت به وهو يلفح جلدي ووجهي حرقة ما جعل دموعي تختنق بمحجري ولا تخرج، وتقصدت ألا أنظر إلى عيونها مباشرة لئلا تخرج دموعها فيختنق قلبي لا دموعي، حملت الحقائب القليلة وخرجت من الباب، كانت أمي ورائي، صعدنا إلى السيارة مع جيراننا، وجه أمي كان باتجاه الشباك تنظر إلى الحي، لم أدرك وقتها أنها قد تكون النظرة الأخيرة، لم تلتفت إلي طوال الطريق لكنها قالت:

- إن شاء الله ما منطول.

– إن شاء الله . . . . . .

اختنقت بالرد، كنت أشعر أن العودة للبيت ليست قريبة، هي سنة واحدة مرت علينا لكنها تلوثت بما يكفي من الدماء، كانت سنة ثقيلة، لم تعد الأيام كما كانت سابقاً، كنا نراها بطيئة ومملة، هذه السنة لم نشهد لا مللاً ولا بطئاً، فالأيام أصبحت بقعاً من الدم غسلت أرض الحي كله، اختنقنا بها واكتفينا، المساء كان للمظاهرات والقتل، والصباح للجنائز والدفن، لم يكن لدينا متسع من الوقت كي نفكر بأي شيء، لكنها مع ذلك كانت أيام بطيئة، بطيئة جداً، هتكت فيها حرمة الموت، حتى أصبح سهلاً ويسراً، سابقاً كان الناس يموتون دون أن يكونوا على دراية بأنهم سيموتون، يموتون فجأة في عملهم أو بيتهم أو في حادث سيارة كان متجهة إلى رحلة ما، أما الآن فإنك ترى من يذهب للموت بقدميه، يهرول مسرعاً وصارخاً بأعلى صوته «الموت ولا المذلة».

يختلف الحي هنا عن بقية أحياء حمص، كنت أعرفه سابقاً بزيارتي لبيت خالتي كل فترة، فالوعر كان بعيداً بعرف مدينتنا، من يسكن في الوعر يسكن في آخر الدنيا، أو «بالهفا» هكذا كانوا يقولون، مكان الوعر المنفصل جغرافياً وعمرانياً عن بقية أحياء حمص فرض هذا علينا، وكنت أفكر بها دائماً كلما كنا نزور خالتي، كانت منطقية بالنسبة لي، منطقية جداً، أن تذهب إلى حي منفصل عن بقية مدينتك يعني أنك في مدينة جديدة، أو على الأقل في مكان جديد لا أعرف ماذا اسميه، لكنه الآن الحي الوحيد الذي يستقبلنا جميعاً، الذي فتح لنا أبواب بيوته الكثيرة، بيوته الكبيرة الفارهة الجديدة المختلفة عن بيوتنا، هو

الآن حينا، الحي الذي لم نكن نعرف كل شوارعه، ولأكن صريحاً لم أكن أحفظه كاملاً، كنت أعرف طريق ذهابي وإيابي فقط، أما الآن بعد مرور سنتين صرت أحفظه ويحفظني، منطلقي منه هو بيت خالتي التي هربت إلى خارج البلاد، ليصبح منزلها منزلنا المؤقت بعد أن كان لنا منزل دائم، لكن الدائم صار بعيد المنال، وليس لنا إلا أن نعيش المؤقت في كل خطواتنا منذ تلك اللحظة، المؤقت الذي يرافقنا في كل خطوة، يمشي معنا في الحي كلما مشينا، نمشي هذه اللحظة ولا نعرف إذا ما كنا سنعود سالمين إن سقطت قذيفة هاون عشوائية، لا نعرف إذا ما أكلنا اليوم هل سنجد ما نأكله في الغد، وإن نمنا هذه الليلة فهل سيتيح لنا موعد القصف في الغد أن ننام، أو ربما أن نحصل على فنجان القهوة هذا الصباح، ربما نكون في الملجأ أساساً حيث لا مكان لهذا الترف الصباحي.

هذا المؤقت كان يعني لي شيئاً واحداً؛ أن تعيش المؤقت يعني أن تعيش الأرق الدائم، الصداع الذي لا يتوقف جراء سؤال واحد، ماذا بعد؟ ولا أعرف الجواب، فقط كان عليّ أن أعتاد هذا المؤقت حتى أستطيع العيش والصمود وسط كل هذا الخراء الذي أعيشه ولا أعرف ما الذي جعلني في وسطه، كان عليَّ أن أعتاده، وأحياناً أن أنكره وهو موجود. عندما تكون جالساً وحفلة القصف شغالة -كنا نسميها حفلة بالمناسبة- وتبقى أنت في مكانك فهذا يعني أنك أنكرت أن هناك صاروخ قد ينزل فوق رأسك بأي لحظة، لكنك تبقى متكئاً على أريكتك رغم ذلك، وأحياناً تتمنى أن يسقط فوقك لينتهي كل شيء، لينتهي هذا النكران المعيب الذي أراه هنا من كل الناس، نكران أنهم هزموا، أنهم محاصرون، إنهم يعبثون بعقولهم

عندما يعتقدون غير هذا، عندما يعتقدون أنهم تحرروا من النظام، وهو يمطرهم كل يوم بصواريخه.

بيتنا في منتصف الحي، وبشكل أدق في المنتصف بين جزأي الوعر القديم والوعر الجديد، وأكثر دقة مقابل مدينة المعارض ضمن القسم الجديد منه، وهي ذات مساحة صغيرة ولا أعرف لما أسموها مدينة، وهيكلها المعدني الهش الذي أصبح جزءً غير بسيط منه ركاماً بعد أول صاروخ، كان يشي بأن الحي مختلف عن بقية أحياء حمص، فهنا كل شيء منظم، لا بيوت متجاورة متلاصقة كبيوتنا، ولا شوارع ضيقة ومتعرجة، ثلاثة شوارع فقط، الأول عند الغابة وهذا لم نعد نستطيع المرور منه إلا ليلاً لتقطيع الأشجار حتى نتدفأ بها، والثاني هو شارع المعارض والثالث هو الشارع الموازي للبساتين، البساتين التي تفصلنا بشكل طبيعي عن بقية أحياء حمص. وهذه الدقة أتعبت عقلي وأنا أعمل على تشكيل خريطتها في ذهني، فهنا لا مكان للخطأ، يجب أن تحفظ الشوارع ومفارق الطرق لكي تعرف من أين تمر وأين تسرع، فالقناصة المتربصة بالحي وأهله لن تتردد إن أبطأت قليلاً.

⋊⋉

جلست في غرفة الجلوس مفكرا بالخيارات المتاحة أمامي محاولاً قتل الوقت الذي لا ينتهي، فثلاث سنوات مرت علينا ونحن في هذا الحي الذي أغلق جميع أبوابه أمامنا يوم دخلنا إليه، وفتح هذه الأبواب كان محكوماً بالاتفاقيات والمعاهدات فقط، ولن تفتح من جديد إلا بها، وإن فتحت ستكون بعد أيام عسيرة على كل من يسكنها، فلا القصف سيتوقف ولا الطيران الحربي سيهدأ إلا بفرض هدنة وقرار ترحيل

عدد من الأهالي بالباصات الخضراء نحو الشمال، حدث لمرة خلال السنة الماضية قبل أن يعود الوضع إلى ما هو عليه الآن، قصف مستمر وطائرات تخترق جدار الصوت لتزيد ليالينا عتمة وطولاً بما يكفي لأن تسأل نفسك فيه عن جدوى كل شيء ولا تجد إجابة.

كانت الساعة العاشرة ليلاً عندما شعرت أن البيت اهتز، زاد معه صوت طنين أذني الذي ما فتئ يهدأ بعد اعتقالي، جاءت أمي مهرولة من المطبخ وهي بيضاء بالكامل، وقفت مذعوراً من المشهد، أحد الصواريخ كان في بيتنا إذن والبقية في البناء المجاور، سمعت صراخاً وعويلاً من الخارج. وقفت أمي أمامي تحاول أن تتلو الشهادة وتتلعثم بها، سألتها:

- أمي مشان الله فيكي شي.

حاولت نفض الغبار عنها وتفحص جسدها، كان عليّ خلع ثيابها لأتأكد من أنها لم تصب بأي شظية، شعرت بخجل ليس هو وقته، كيف سأخلع ثوب أمي، لكنني فعلت، خلعت عنها ثوبها بسرعة، تفحصت جسدها كاملاً، ولم أجد شيئاً، رجعت خطوة للخلف ثم ارتميت على الأرض فزعاً ويدي على وجهي وأنا أقول «الحمد الله الحمد الله يا رب» الأصوات الآتية من الخارج نافست طنين أذني الذي لم يهدأ من أثر الصدى الذي تركه الانفجار، كنت خجلاً من أمي العارية أمامي لا أعرف ماذا أفعل، لكني استجمعت نفسي ووقفت تاركا أمي لصدمتها وهرولت مسرعاً إلى مدخل البناء المجاور لأرى ما يحدث، كان الظلام دامساً وأصوات البكاء تترك فزعها في المكان، سمعت صوت فتاة آتياً من الطابق الأول:

– مشان الله مشان الله يا سامر البابا.

لا أعرف حتى الآن كيف عرفت اسمي، لكن الحي صغير بما يكفي لنعرف بعضنا جميعاً بعد سنتين، سألتها عن مكانه فقالت أنه في الطابق الثاني، صعدت مسرعاً للأعلى كان باب البيت مقسوما لقسمين، وأجبرني الركام المنتشر أمام الباب وفي أرجاء المنزل على القفز في العتمة، أتلمس أي شيء حتى أستند عليه، دخلت المنزل أتحسس خطواتي بين كتل الحجر المنثورة في أرجاء البيت، وأنا لا أرى إلا ضوء القمر الآتي من الجدار الذي لم يعد موجوداً، ضوء تتخلله خيوط غبار كثيفة تمنعني من رؤية خطواتي، سرت من باب المنزل باتجاه الضوء، ارتطمت قدمي بشخص ما في الأرض، كان يصدر صوت حشرجة عميقة ومكتومة، كأنها صادرة من جوفه لا من فمه، بدأت أتلمس جسده حتى عرفت جهة رأسه، وقفت خلفه وركعت على قدمي، وضعت يدي خلف كتفه لسحبه لكنني لم أستطع، كان ثقيلاً وضخماً، لكن ليس ذلك ما كان يمنعني، ولا أعرف ما هو العائق لأن لغبار الذي يملأ المكان زاد من حدة الظلام، ظننت أن السبب هو بقية جسده المغطى بالركام، حاولت مسرعاً أن أزيل ما استطيع لأعود وأجره من كتفيه، رفعته من جديد، لم أستطع أيضاً، لكنني أحسست بيدي اليمنى تغلي، كانت غائرة في جسده المفتت في هذه المنطقة، وصلت إلى أحشاءه لكنني لم أتردد، حاولت سحبه مرة أخرى فلامس وجهي حبل متدلٍ من السقف، كان شريط كهرباء يحمل رأس الرجل –وكأنه على ناصية الإعدام– يمنعني من تحريكه من مكانه، أزلته وسحبته من جديد باتجاه الباب، أنزلته طابقين كاملين بهذه الطريقة، وجدت أحدهم منتظراً في الخارج أمام سيارته حتى يسعفه إلى

المستشفى، رفعناه لنحمله إلى السيارة، لكن الحشرجة كانت قد توقفت، الرجل همد ورحل. ونحن قررنا الرحيل أيضاً من هذا المكان بأي طريقة.

✱

وقفت أمام البناء الذي نسكن فيه محاولاً تشتيت ذهني عما حصل خلال الشهر الماضي. لم أكن قد تحركت منذ ما يقارب الساعة، تفكيري مشلول لا أعرف كيف أجد حلاً لهذه المعضلة التي وقعنا فيها، وعيوني كانت غائمة، أرى ولا أرى، لكنها كانت واقفة أمامي، لم أعرف منذ متى وهي واقفة هكذا، ربما منذ دقيقة أو دقيقتين، ظننت بداية الأمر أنها تنتظر أحداً ما، لكنها كانت تبكي ووجهها مختنق ومليء بالدموع، فركت عيوني لأتأكد إن كان صحيحاً ما أشاهده أمامي، لكنها موجودة وتبكي، حركت قدميها ومشت ثلاث خطوات ثم توقفت ونظرت نحوي وبادرتني بالكلام:

- كيف ما أنقذتوا؟

- مين؟

- أبي.

- مين؟

- كيف هيك ما أنقذتوا؟

تذكرتها الآن، تذكرت تلك الليلة بالتفصيل، وأنا كنت قد قررت أن أنساها، أنساها بما فيها، حتى أنني يومها عدت للمنزل وكأن شيئاً لم يكن، سألتني أمي:

- طمني أمي، إن شاء الله ما في شي عند الجيران؟

- إن شاء الله خير، إصابة بسيطة ...

وانتهى الحديث عند ذلك الأمر، أخبرت أمي أن ترتاح بعد الفزع الذي أصابها في تلك الليلة وأنا حملت نفسي على النوم وفي اليوم التالي استيقظت وكأن شيئاً لم يكن، مارست روتيني المعتاد، الجلوس في المنزل وانتظار الفرج، الفرج الذي يقولون إن الله قد تكفل به، لكن الأيام هنا تضيق وتضيق ولا بوادر فرج قد يغير الأحوال.

أصرت الفتاة التي لا أعرف اسمها أن تعرف لماذا لم أنقذ والدها، رأتني عدة مرات قبل ذلك، في مواقف عديدة ضمن الحي، كانت تضع رأسها في الأرض وتغير طريقها كي لا تراني، هكذا قالت لي، كنت مصدر خوف لها إذن، الخوف الذي رافقها منذ ذلك اليوم. قلت في نفسي أنه الفقد، عندما ترى وجهي ترى وجه أبيها الميت، فأنا آخر من رآه يتنفس، آخر من رأى عيونه وهي تهيم في الغرفة المدمرة لا تعرف أين هي ولا من هي. صرت أجد أعذاراً لكل مرة أراها فيها بعد ذلك وأبتعد.

- كان ميت وقت شلته؟

- شو الفائدة أنك تعرفي؟

- لازم أعرف، بدي أعرف إذا حاسس باللي صار.

- بس هذا ما بغير شي... مات وصار عند ربه... الله يرحمه.

- بدي أعرف إذا حكى أي شي... بدي أعرف إذا كان شايفك... بده أعرف إذا كان عايش كان عرفان أنه رح يموت.

- ....

- احكيلي.

لكن ماذا باستطاعتي أن أحكي لها، كيف سأقول لها أنه ربما بقي حياً لو أن أحداً غيري قام بإسعافه، لأنني لم أعرف كيف أتصرف في تلك اللحظات، قررت أن أكتفي بكلمة اختصرت بها هذا الحديث المؤلم لها ولي، قلت لها أنه «ارتاح» كما كانوا يقولون في هذا الحي كل يوم، عند كل موت يشهده، وما أكثره. أصبح للهواء الذي نتنفسه رائحة الدم وحدها، الدم الذي أغرقنا لكننا ما زلنا أحياء، قلت في نفسي قبل أن أعود للمنزل واتركها لبكاءها أنه على الأقل استطاع الخروج من هذا الحي ولو من باب الموت، لقد أنقذ نفسه بهذا الموت من الوهم الذي نعيشه ويعتبرونه حلماً، وهو يرى الآن الحقيقة الوحيدة، أننا أصبحنا في الخراب.

طلبت مني أمي أن أقطف بعض النعنع والبقدونس من حديقة الجيران الصغيرة في الطابق الأرضي، ريثما تنتهي من طبخ الأرز على مدفأة الحطب. نزلت إلى الطابق الأرضي وطرقت على الباب، خرج عمر كما كل يوم بوجه ضاحك وأسنان بيضاء لامعة بيده بعض الوريقات من النعنع والبقدونس.

- تفضل هذه حصتكم.

شكرته وصعدت للمنزل، سلمت هذه الأوراق الخضراء لأمي المنهمكة بإبقاء المدفأة مشتعلة عند مستوى معين كي لا يحترق الأرز، وهو أمر عسير غالباً، فالحفاظ على توازن حرارة المدفأة مرهون بنوع الحطب الموجود وقدرته على البقاء مشتعلاً لفترة طويلة، وكي يكون

كذلك يجب أن يكون ناشفاً تماما، ومعرضاً للشمس خلال الصيف كي يتخلص من مائه.

قلت لأمي أنني مللت من هذا الأخضر الذي يزين طبقنا كل يوم، حتى أنني فقدت لذة تناوله، لم أعد أشعر بطعمهم في فمي، حتى أنهم ربما قد فقدوا قيمتهم الغذائية، ولم يعودوا قادرين على إضافة أي شيء لنا، أمي ردت باقتضاب «نعمة من الله»، أجبتها بانها نعمة فعلاً، لكن الله لديه نعم أخرى، في مثل هذه الحالات كان لأمي جملة سحرية دائماً ما تقولها تنهي فيه أي تذمر وأي حديث «من يرضى يعيش يا ابني».

لم أعلق لكنني دائما ما استغرب من أمي هذا التسليم بالواقع، كيف لصحن أرز جاف، وبضع وريقات أن ترضيها؟ أمي لم تكن وحدها في هذا التسليم، كل سكان الحي الآن يسلمون أمرهم لله، يسلمون أمرهم للواقع المعاش، اعتادوا الحصار، وقلة الطعام وانعدام الكهرباء، ولم يبق لهم إلا أسفلت هذا الحي الذي كلما مشوا خطوة فيه ازدادوا نحولا وشحوباً ورضى.

تحولت حديقة الجيران مثل كل حدائق الأبنية في الحي إلى خزان أخضر اللون يستفيد منه كل من في البناء، لكن هذه التربة لا تنتج إلا ثلاثة أشياء فقط، نعنع وبقدونس وقرع. أعرف أن حجم هذه الحدائق صغير لكنني لم أعرف لماذا لم يجربوا أشياء أخرى، لها ألوان مختلفة، ألوان نفتقدها ونفتقد طعمها، بتنا نفتقد اللون في هذا الحي، ونفتقد التفاعل معه فلكل لون معنى كما يقولون، لكن حتى اللونين المتوفرين هنا، الأحمر والأخضر، فقدا معناهما واكتسبا معنى مختلفاً.

لا أفهم بالزراعة لكن جارنا أخبرني أن تربة الحي غير قابلة للزراعة، لن تنتج أكثر من هذه الأنواع، فالتربة هنا مثل هذا الحي، وعرة وصعبة، هي نتاج بركان ما، حصل في الماضي فأنتج صخوراً بازلتية سوداء، وهذه التربة من هذه الصخور، واسم الحي «الوعر» جاء نتيجة كل ذلك. لم أتلق من هذه المعادلة إلا أننا فوق بركان، قال لي أنه انطفئ منذ زمن طويل لم يحدده رددت أنه لم ينطفئ بعد، كل ما يحدث لنا هنا يعني أنه لم ينطفئ، إنما هو في حالة ركون، مثلنا، لا نفعل شيئاً إلا ما تفعله أمي، التسليم.

⋈

كنت أقول لأمي بأننا يجب أن نخرج من الحي وبأنني وجدت طريقة، ردت: «كيف؟»، أخبرتها أنه يجب أن أشتري سلاحاً ما، يجب أن يكون بارودة آلية، وأتفق مع حاجز الجيش عبر وسيط، نعبر قبل الفجر بقليل نحو حاجز أمن الدولة، أسلم سلاحي وأُقوم بتسوية وضعي في فرع الأمن ثم أخرج ومن بعدها نجد طريقة للهروب من هذه البلاد.

فرغت أمي فاهها مندهشة من كلامي:

- بدك تعمل تسوية؟

- أي شو يعني؟ ليش قاعدين هون؟ ما بكفي؟

- يا أمي هدول ما بخافوا الله، لسا ما نسينا وقت اعتقلوك.

- أمي اعتقلوني بالغلط، ما عليي شي، وبيعرفوا أنه ما عليي شي.

وقفت أدور في الغرفة كمن لم يعد يعرف الصحيح من الخطأ، أجهز نفسي للخروج، الغضب تلبسني ولا أريد أن أخوض هذه المحادثة مع أمي:

- بس بدك تعمل تسوية، كأنك عامل جريمة

- ما عاد كتير فارقة، وجودنا هون هو الجريمة

كانت أمي جالسة أمام المدفأة وأمامها صندوق يحوي بعض البلاستيك والخشب وحطب الأشجار، اختارت قطعة من الحطب وضعتها أسفل المدفأة، سألتني:

- عم تحملني مسؤولية أنه ما بقينا مع أخوك بالغوطة؟

- ما عم حملك شي، بس الوضع هون ما عاد ينطاق

أنزلت رأسها باتجاه الصندوق من جديد، اختارت قطعتي خشب نجارة سريعي الاشتعال، ثم أضافت فوقهم قطعة بلاستيك حتى يذوب فوق الأخشاب كلها ويستمر لأطول فترة ممكنة

- أخرتها تشيل سلاح؟

- مارح شيل سلاح، بدي أشتري سلاح حتى نطلع من ....

لم أكمل جملتي تلك، شعرت بضغط شديد في الهواء، وكأنه ينسحب هو الآخر من الحي كما كل شيء، ينسحب كالزوبعة التي تسحب كل ما يمر في طريقها كما تفعل في الصحراء أو في البحر، ثم أتبع هذا الضغط انفجار كبير، وقفت أمي مرتعبة من صوته، وأنا ركضت إلى الفرندة مسرعاً لأرى أين وقع، كان الطيران منذ الصباح يخترق جدار الصوت، جيئة وذهاباً، لكننا اعتدنا على الطيران وعلى ما يفعله بطبلة الأذن، وكانت المرة الأولى التي يقصف بها الحي منذ أشهر طويلة.

اخترقت طيارة أخرى جدار الصوت، لكنها هذه المرة كانت قريبة جداً، انخفضت حتى كدت أن أرى الطيار الذي بداخلها، رمى شيء ما

في الهواء، كان هذا الشيء يشبه «البرغي» لكن بحجم صاروخ، لم أر مثله في حياتي، نزل عدة أمتار حتى انفتحت أعلاه مظلة بيضاء، لم أتحرك من مكاني، ظننت في النهاية أن المظلة ستهبط على الأرض حاملة منشورات كالتي يرميها الطيارون عادة، تدعونا للعودة إلى حضن الوطن وإلا فإن عقابا شديدا ينتظرنا، كنت استهزأ بهذه المنشورات، فأنا ما زلت في حضن الوطن وأدعو الله كل ليلة أن أخرج من هذا الحضن وهذا الوطن وهذا الحصار.

مرت ثواني معدودة والمظلة تطير في سماء الحي، حتى انفلت هذا الشيء مسرعاً نحو الأرض على بعد مئة متر مني، كنت أشاهده ذاهلا، نزل في أرض فارغة ترابية، كنا نعبرها بطريقنا إلى الجزيرة الثانية في الحي كيلا ننكشف على القناص الرابض أعلى المستشفى إذا ما مررنا من الطريق الأسفلتي، وصل الصاروخ إلى الأرض وبدء الحفر لعدة أمتار، عاد الهواء لينسحب من جديد وازداد الضغط، عرفت أن الانفجار قادم، فكرت بأن أدخل المنزل، لكنني وجدت نفسي مستلقياً على الأرض يديّ فوق رأسي منتظراً الانفجار الذي وقع، تطايرت الشظايا التي كنت اسمعها ترتطم بكل شيء يأتي في طريقها، ثم انفجر زجاج المنزل بأكمله نتيجة الضغط الحاصل وانفجر معه كل زجاج موجود في هذا الحي.

استمرت الطائرات بإلقاء هذه الصواريخ طيلة هذا اليوم الجحيمي، نزلت وأمي إلى ملجأ قريب، بقينا فيه حتى المساء، علمنا أنهم عقدوا خلال القصف هدنة بعد اجتماع بين لجنة ممثلة للحي وضابط روسي، وأنها ستكون سارية من الغد، سيفتح خلالها معبر للمدنيين الراغبين

بالنزول إلى المدينة مقابل خروج المسلحين نحو الشمال بالباصات الخضراء، وهذه فرصة لن أفوتها مهما كان الثمن...

⋈

كنت الشاب الوحيد الذي يمشي عكس التيار، منظري كان شاذاً، الطرف المقابل كله نساء وبضع رجال كبار السن يتكئون على أيديهن، يمشون تحت شمس قررت أنها ستكون حارقة هذا اليوم.

قررت المغامرة رغم قلق أمي من أن يحصل لي شيء ما، كأن أعتقل مرة ثانية على ما اسموه معبر المدنيين الذي سأذهب له بقدمي. تحملت خلال الأيام الماضية وزر ما قلته لها مع أنه خرج رغماً عني، اعتبرت أنها سبب وجودي هنا، لكنني بالتأكيد لم أقصد ذلك، لا أريد أن أحملها ما لا طاقة لها به، مع هذا لم أتكلم أو أهدأ من روعها، فالفرصة جاءت على قدميها للخروج، وأردت أن أكون أنانياً بأن أبقيها على قلقها هذا حتى نخرج، الخوف يكاد ينفجر في عينيها وهي صامتة، وأنا استغليت هذا الصمت حتى لا تبدي مخاوفها من هذا الخروج.

صارحت عمر بالأمر، باعتبار أنه صديقي الوحيد هنا، أو لنقل إنه كان من الممكن أن يكون صديقي، وأن يكون صديقي يعني أن أبوح له بكل شيء، بكل هواجسي ومخاوفي، لكننا في طريقين مختلفين، بينهما مفارق قد نلتقي بها وقد لا نلتقي.

قال لي يوماً إن الحياة هنا كمن يضع يديه بالنار، ستتوجع بداية الأمر لكن عندما نصل إلى عتبة الألم سنعتاد على ذلك، الحياة القاسية هذه نعرفها جيدا وخبرناها، لكن المرء لا يصل إلى مراده إلا بالألم وحده. أجبته:

- لكن الاعتياد يعني الاستسلام للأمر الواقع.

- أن تعتاد الألم لا يعني أن تستكين، لنا حلم يجب أن ندافع عنه

عدلت من جلستي على درج البناء، المكان الذي نلتقي فيه أحياناً لنقضي بضع ساعات من الليل الذي يدارينا من القناص ومن القصف، ونستعين فيه بدل الكهرباء بضوء القمر الذي يتسلل إلينا من فجوات الحائط التي تتخذ أشكال هندسية متعددة تتخذ تارة شكل النجوم وأخرى شكل قضبان السجن وصارت مع رتابة الأيام تسجننا داخل هذا البناء بدل كونها زينة لمكان يحمينا من الخارج، قلت هذه الفكرة لعمر، فقال لي:

- السجن قد يحرر الانسان أحياناً، نحن هنا في معتقل بالهواء الطلق، أنت جربت المعتقل الحقيقي وتعرف الفرق أكثر مني، على الأقل هنا تستطيع أن تتكلم أو تتظاهر، تستطيع ممارسة الكلام الذي فقدناه منذ خمسين سنة.

فقأ عمر عين الحقيقة، معه حق أنا جربت الاثنين، جربتهم ولم يكن الأمر بيدي، الاثنان يشتركان بأنهما سجن، الفرق أنه في الحصار تستطيع أن تمشي متى شئت وأين شئت ضمن هذه البقعة الجغرافية تحت طائلة موت طائش قد يأتيك عبر قذيفة أو رصاصة قناصة، أما في المعتقل فأنت محاصر لا تستطيع أن تمشي ولا مساحة كافية لك لتفعل هذا وإن فعلت يعني أن تتلقى ضربة فورية توقعك أرضاً، الحصار يعني أن تكون معتقلاً، والاعتقال يعني أن تكون محاصراً، وفي الحالتين لم أكن أريد أن أجرب، ولا أريد أن أتكلم بشيء، ولا أريد أن أمشي هكذا، هذا ليس

خياراً بالنسبة لي، كل ما أريده هو الخلاص. لكن لعمر دائماً آراء أخرى، آراء طوباوية لا يجود بها معي إلا في الأيام التي لا يكون فيها على الجبهة، حين كان يمشي إليها حاملاً بندقيته على كتفه بلباسه العسكري.

«لا أحب أن أقتل أحداً»، قلت له مرة، فرد عليّ بضحكته المعتادة: «ولا أنا، كل ما أفعله أنني أدافع عن حلمي».

وأنا حلمي أن أخرج من هنا، كان لعمر الكثير من المعارف في الحي، أردت أن أستفسر منه عمن يسمح له الخروج وعن الضمانات التي أعطوها كي لا يعتقل أحد على المعبر الذي افتتحوه للمدنيين، سألني إن كنت أفكر بالخروج، أجبته: «بنعم».

قال: «كيف ستعود لمناطق يسيطر عليها النظام؟»، لم أرد لأنني أعرف تماماً أين سيؤدي هذا الحديث، لكن كان همّي أن أعرف الضمانات، لم يعطني جواباً واضحاً، وكل ما كان يقال يفيد بأنه وضمن الاتفاقية يمكن لأي شخص الخروج إلى الحاجز وسيتم «التفييش» على اسمه، إذا كان مطلوباً لأي فرع أمن فبإمكانه العودة إلى الحي ولن يعتقل. وهذا ما فعلته.

في اليوم الثالث للهدنة قررت الخروج بعد مراقبة الوضع في أول يومين، أبلغت أمي قبلها بليلة، لم تعترض، قلت لها أن علينا أن نخرج بحقيبة صغيرة فقط، سنقول إنك يجب أن تراجعي طبيباً من أجل العلاج، لم تسألني ما هو المرض المفترض وأنا أيضاً لم أستفض في الشرح.

كان الحي يعج بالزائرين، كلهم نساء جاؤوا لزيارة أبناءهن كمن يزور سجيناً في سجن، حاملات أكياس كثيرة، مترنحات في مشتيهن من

ثقلها ومن حرارة الشمس والمسافة الطويلة التي قطعوها حتى دخولهن إلى الحي، أكياس مليئة بالطعام فقط، وكأن مهمة الأم الأولى والوحيدة في الحياة هي أن تطعم أطفالها.

وقفت في اليوم الأول للهدنة عند «الكواكبي»، المقهى المغلق منذ تلك السنة التي بدأ فيها كل شيء، والذي يستقبل من يدخل الوعر من جهة طريق الغاردينيا الواصل بينه وبين حي الغوطة. سياج كبير يفصل نهاية الشارع وبجانبه خيمة صغيرة فيها عناصر من القوى الموجودة داخل الحي، ترحب بالداخلين، وتطلب الهويات من الخارجين، الخارجون أيضاً كانوا من النساء وبعض كبار السن، اقتربت من السياج لأجد عمر الذي كلف بمهمة التواجد هنا طيلة الهدنة للتأكد بأن الأمور على ما يرام. لم تكن ضحكته كما اعتدتها عندما يراني كل مرة، سألني بتردد أن كنت أنتظر أحداً، أجبته بأني جئت لأرى الوضع فقط، أشاح بوجهه عني ليلتفت إلى امرأتين أرادتا الخروج.

أعرف جيداً أن عمر يعرف أنني سأخرج، وبأنه غير راض عن ذلك، برأيه يجب ألا يخرج الشباب من الحي فهم عماد قوته، وهم من سيدافعون عنه إذا ما هاجم النظام الحي بقوات برية، عدا عن صدور قرار من الهيئة الشرعية والقيادات العسكرية تمنع خروج الشباب، لكن موقف عمر لم يكن نابعاً من ذلك القرار، إنما وفق قناعة شخصية يتبناها وكأنها مسلّمة، قالها لي سابقاً خلال نقاشنا المعتاد على درج البناء في حماسة واندفاع:

- نحن وقود ينتظر أن يشتعل، نحن الآن الحي الوحيد الخارج عن سيطرة النظام بعد أن سيطر على حمص القديمة وهجر شبابها

بالباصات الخضراء، والوعر الآن خزان شباب حمص، لم يبق شباب في بقية الأحياء، كل شباب حمص هنا، وننتظر لحظة أن نعود إلى أحيائنا.

كانت فكرتي أن الحصار مقصود منذ البداية، من الأسهل عليك إذا ما كنت ستقضي على مجموعة من الناس أن تجمعهم في مكان واحد، لذلك جعلوا النزوح نحو الوعر سهلاً، لو أرادوا منع تجمع الناس هنا لكانوا منعوه ببساطة، عمر كان يرى ذلك أيضاً، تحسس يده على شعره الطويل المنسدل حتى رقبته وقال بنفس الحماس:

- ربما يكون ذلك صحيحاً، لكن كل ذلك سينقلب عليهم، بقينا في مدينتنا رغم كل ما حدث، لم يكن خيارنا أن نتجمع في مكان واحد إنما فرض علينا ذلك نتيجة القصف والاعتقالات والمجازر، وما فرض علينا سابقاً يجب ألا يفرض علينا من جديد، دورنا هنا أن نقاوم ونصمد وندافع عن الحي وعن وجودنا.

حملنا الحقيبة وخرجنا من البيت، سرنا باتجاه شارع الميتم حتى وصلنا إلى كنيسة القديسين بطرس وبولس بواجهتها غير المكسية ثم انعطفنا يميناً باتجاه «نزلة» المسبح المؤدية للسياج، كان علينا أن نقطع النقطة الأولى، وصلنا إلى السياج ودخلنا الخيمة التي سنخرج منها إلى الجانب الآخر والأصعب.

كان فيها عنصران أحدهما عمر الذي تجاهلنا وكأنه لا يعرفنا أمام زميله، اتجه لأمي بسؤاله التي تجاهلته بدورها كما قلت لها:

- لوين خالة؟

- لازم راجع دكتور بمشفى الأمين يا ابني

- طيب عطيني هويتك وبعدا اتفضلي ...

أخرجنا الهويتين، لكنه سرعان ما قال لأمي:

- الشباب ممنوع يطلعوا يا أمي

- يا ابني ما بقدر امشي لحالي هالمسافة الطويلة يلي كلها طلوع، وابني مالي غيره اتعكز عليه

لم ينظر إليها، تواطئ معنا كما لم أتوقع وأنا الذي أعرفه، سجل الهويتين سريعاً على ورقة أمامه، ثم قطعنا السياج.

⋈

كان الطريق طويلاً على أن نمشيه، طويلاً ومزدحماً، لم يكن هكذا قبل تلك السنة البائسة، لم يكن يسير به أحد سابقا، كانت السيارة هي وسيلة عبورنا لهذا الشارع الطويل والموحش، لكن لم يكن لدينا سيارة بطبيعة الحال، كنا عندما نريد أن نزور خالتي نذهب إلى جورة الشياح لنركب السرفيس الذاهب إلى الوعر من بداية انطلاق الخط، بدل أن نمشي نصف ساعة سيراً على الأقدام تحت الشمس التي تأبى أن ترأف بنا قليلاً.

البساتين تحيط بنا يمينا ويسارا، والسياج يرتفع على جانبيها ليحميها، كان من المفترض أن تكون هناك أشجار عند السياج، لكنها حُطّبَت من أجل التدفئة في شتاءات الوعر القاسية، والأرض التي فقدت لونها كانت واضحة لنا، تتحسر أمي عليها، كانت «جنة المدينة» تقول لي، الجنة التي تقلصت مع الوقت لتقطعها شوارع ومطاعم وعاصي يمشي

في منتصفها بالعرض، وكل ذلك نراه الآن ركاماً فهذا الشارع كانت صلة الوصل بالمدينة، وهذه الصلة قطعت منذ ثلاثة سنوات، كان فيها الشارع ميتاً والآن تدب فيه الحياة من جديد.

برج الغاردينيا يقف منتصباً أمامنا وسط أحد البساتين بلونه الرمادي، لم يكتس أي لون طيلة هذه السنين، قالوا يوم بدأوا ببنائه أنهم سيقيمون مجمعاً تجارياً وفندقاً للسياح، أي لن يكون لنا منه أي نصيب سوى رصاصاته التي اخترقت أجساد الكثيرين بعد أن صار معقلاً للقناصة، في الحقيقة كنت خائفاً منه، كلما مشيت خطوة أراه يقترب، وكلما اقتربت أشعر أن جسدي يرتجف، أحاول أن أسيطر عليه لأنني أجر في يدي اليسرى الحقيبة الوحيدة التي أخرجناها معنا، وفي يدي اليمنى أمسك يد أمي كي أخفف عنها وطأة التعب وأخفف بها عن نفسي وقع سكاكين الخوف على أحشائي، كان علي ألا أفسح المجال لأي تردد يخالجني، كنت أشاهد أفواج الناس في الطرف المقابل للطريق، سيدات وفتيات يمشين بالطريق المعاكس، سيدخلن الحي، ونحن وحدنا من نمشي عكس هذا التيار الجارف من النساء، اللواتي كدت أنسى وجوههن في الحي الذي لا تعرف طرقاته إلا الرجال. عائلات كثيرة بأكملها سكنت الحي، لكن شوارعه الفارغة من كل شيء كانت للرجال فقط معظم الوقت، والنساء والأطفال مكانهم الملاجئ. أتخيل لو كان الوعر هكذا طوال الوقت، مزيج من النساء والرجال لكنت الحياة ألين وأسهل، وجه أنثوي واحد يمشي في الطريق كافٍ لأن يؤنسه ويزيل وعورته ويخفف من الضغط الذي كنا نعيشه.

اقتربنا من العاصي، أمامنا مطعم التنور، الذي يبدو لمن يسير فيه من هذه الجهة كطريق مسدود ينتهي به هذا المطعم لكنه يقودنا عندما نصل

إليه إلى انعطافة نحو اليمين نرى بعدها مطعم دوار المهندسين والحاجز الذي يتربص بنا، هذا المطعم الغريب الذي يرتفع فوق العاصي عبر عواميد زرعت أسفل النهر. ليس هناك الكثير على هذا الحاجز، عكس الجهة المقابلة من الشارع الذي كان مليئاً بالناس الذين ينتظرون ختم الدخول إلى الحي، الحي الذي كان حلماً لجميع من سكنه، لكنه أيضاً كان مقبرة كبيرة، وأنا نجوت منها، ربما أنا الناجي الوحيد هنا، ومن يمشي في الجهة المقابلة جاء ليزور القبور أو من يجهز نفسه من أجلها.

ازدادت خفقات قلبي مع كل خطوة نقترب فيها من الحاجز، لم يكن هناك «دشم» هذه المرة، ثلاث طاولات متجاورة وراءها خيمة مصنوعة من الشوادر التي توزعها الأمم المتحدة، يجلس أمام كل طاولة شخصان، الأول أسمر والثاني أشقر، اقتربت أمي خطوة باتجاه الطاولة الأولى، رمت عليهم السلام، رد الشاب الأسمر السلام، لكن الأشقر لم يفعل باعتباره روسيا لا يفهم العربية، بالنسبة لي لم يكن من المهم أن يفهم ولا لرجلي ما يفهم، المهم أنه في هذه اللحظة هو الضامن لهذه الهدنة أن تستمر، وأن لا تخرق، وأن لا تخرق يعني أنهم لن يعتقلوا أحدا إذا كان مطلوباً، سيعود أدراجه إلى الحصار، هكذا ببساطة!

- تفضلي خالة

- يا ابني بدنا نفوت عالبلد

- الهواوي

أمسكت الهويتين وأعطيتهما للجندي، لم ينظر في هوية أمي كثيراً، أمسك هويتي وتشبث بها وباشر ينظر إليها ثم يقلبها ليقرأها من الخلف

ثم يعيد قلبها من جديد ويقرأ، وددت للحظة لو أن عمر لم يتجاهلنا ومنعني من الخروج.

- هنت من باب السباع

خرجت مني «نعم» سريعة وجبانة، باب السباع تهمة، أن تكون من باب السباع فهي تهمة وأن يكون قيد نفوسك على الهوية باب السباع يعني أن التهمة مؤكدة، لكنني لم أفعل شيء، قلت في نفسي وهو يمسك الهوية عالياً مصوباً إياها نحو الشمس، يرى الصورة التي فيها ويقارنها بوجهي، أمي أدركت خوفي:

- يا ابني الشمس هلكتنا اليوم مشينا الله يرضى عليك.

- الشمس هلكت الكل، وأنتوا هلكتونا أكثر.

أمي بوجهها الخال من أي تعبير، لم ترد على المجند الأسمر، أما الأشقر فكأن في عالم أخر لا يعرف ما الذي يجري حوله، أخذ المجند الهويتين وسار نحو الخيمة للتأكد من أن أحداً منا ليس مطلوباً، ثم عاد بعد دقيقتين، أمسك ورقة أمامه وسجل عليها الأسماء وباقي التفاصيل، وسلمها لنا:

- بتقدروا تمشوا.

مرة ثانية لم ترد عليه أمي، أمسكت يدها وجررت الحقيبة ومشينا باتجاه البرج العالي، البرج الذي كان يفصل الحياة عن الموت، مشينا وحدنا باتجاه الحياة، هكذا كنت أعتقد، وأفواج النساء على الطرف الآخر، مشين باتجاه الموت ليقابلن أبنائهن.

⋈

لم تكن الأيام القليلة التي قضيناها مع أخي وعائلته في بيت الغوطة سهلة، ثقل الأيام الماضية لم ينته، أمي متعبة جداً والحصار أرهقها، وأنا تخلصت من وزن لم يكن زائداً عن حاجة جسدي، زاد نحولي، وزاد معه طنين أذني الذي رافقني من المعتقل إلى الوعر وحتى وصولنا إلى هنا، وأيضاً زاد إصراري بأننا يجب أن نخرج من هذه البلاد، وكان العبء عليّ من جديد لاتخاذ هذا القرار، كنت أرغب بالمغادرة لأجد مكاناً جديداً أبدأ فيه حياة آدمية كما كانت سابقاً، أريد أن أتخلص من هذه المدينة التي أصبحت مقبرة واسعة، تدفنك في مكانك، في أي شارع كنت أو ستكون، فلا فرق عندها، ستقوم بواجبها اتجاهك وتقضي عليك حتى لو بقيت حيّاً، لم يعد للموت هيبة في هذا المكان، ويجب علينا أن نخرج. أخبرت أخي بذلك، لكنه كعادته لا يريد أن يحمل وزر أي قرار، زوجته هدى أيدت الفكرة فأهلها في الأردن وسيكون من الجيد أن تلتقي بهم بعد هذه السنوات، وهو أيد فكرتها على مضض وترك الأمر لي.

اتفقت مع المهرب وكان اسمه خالد على المبلغ المطلوب لإيصالنا إلى عمّان، لكن الدخول إلى دمشق بسبب الاشتباكات على الطرقات كان يؤرقني، سألت السائق عن الموضوع أجابني أنه سيعبر من طريق آخر بين الجبال قرب النبك، ولن ندخل دمشق إطلاقاً، طريقنا من جبال القلمون نحو البادية ثم إلى درعا.

جارنا أبو رائد، الرجل الستيني صاحب القسمات الحادة والذي قضينا عنده عدة أيام في بيتهم المستأجر في الغوطة بعد نزوحنا من باب السباع يقول لي:

- تأكد منه عمي منيح، أعرف منين بده يروح بالتفصيل وإيمت ممكن توصلوا

- تأكدت منه عمو

- لكنني في الواقع لم أتأكد، اعتمدت على كلام المهرب المختصر، كنت سلبياً في التعاطي مع أي شيء منذ أن كنت في الحصار، عمر كان يقول لي دائماً «بكفي سلبية»، ردت عليه مرة: أن تكون سلبيا يعني أن تكون لديك فرصة أكبر لكي تنجو، فمعرفة تفاصيل كل ما يجري حولنا والتفاعل معها يعني أنني سأهلك إما همّا أو موتا، كان يضحك لفلسفتي التي عادة ما يصفها بالزائدة عن الحد، لكنه أجابني بفلسفة مضادة، بأن الحياة هنا أشبه بأن تترك أطفالاً صغاراً في جزيرة معزولة عن العالم لسنين طويلة، لكي ترى كيف يتدبرون أمورهم وهم لا يعرفون أي شيء عن أي شيء، ونحن أيضاً اكتشفنا هنا أننا لا نعرف شيئاً، لانعرف كيف سنزرع ولا نعرف كيف سنستخرج المياه من الآبار ولا نعرف كيف سنجري انتخابات لتشكيل لجنة تمثلنا في المفاوضات مع النظام، ويجب علينا جميعاً أن ننخرط في هذا المجتمع المصغر الذي وضعنا فيه لكي نتعلم، بهذا وحده ننجو جميعاً. لم أكن أتعجب من كلامه، كنت أعرفه وأعرف حماسه وحماقته التي تجعله يؤمن هذا الإيمان الراسخ بأنه يسلك طريقاً يعرف نهايته. لا أعرف كيف ظن في النهاية أني قد أتحمس من كلامه وأكون فاعلاً في هذا المجتمع، هو أصلا لا يعرفني في حقيقة الأمر، ولا يعرف أنني لا أريد هذا المجتمع ولا أريد البقاء فيه.

أبو رائد يعود للتحدث عن الصعوبات من جديد دون كلل، يكرر ما قاله سابقاً، لكنني ما زلت عند قراري، ما همي أو همّ الجميع تفاصيل الطريق، وما أدراني بها أنا الذي لم أخرج من حمص سوى عدة مرات إلى طرطوس، المهم أن نصل في نهاية الأمر وأرفع عاتق هذه البلاد عن كتفي.

كانت السابعة ليلاً، بعد المغرب مباشرة، وقف المهرب أسفل البناء ينتظرنا، أمي تودع جارتنا من جديد بعد أن ودعتها قبل خروجنا من البيت ولم تكن تتوقع أن تودعها مرة ثانية، ودعت أبو رائد على عجل ومضينا مع عائلة أخي التي انتظرتنا أسفل البناء نحو السرفيس الذي ستكون مهمته ايصالنا إلى الحدود الأردنية، ومنها سنقطعها عبر مهرب آخر كان قد اتفق معه. أخبرني عندما صعدنا بأن طريق العبور من الحدود قد يكون صعباً قليلاً وربما ننتظر أياماً في قرية الطيبة التي تبعد كيلومترات قليلة عن الحدود قبل أن نعبرها مشياً على الأقدام حتى نصل الحدود الأردنية ثم سنجد هناك سيارة بانتظارنا لتقلنا إلى عمّان، لم أبالي بهذا التغيّر المفاجئ بكلامه، كان الاتفاق أن نعبر فوراً، لكن المهرب لم يترك لي مجالا الاعتراض وأكمل حديثه عن الحدود وكيف كانت مفتوحة على مصراعيها سابقاً لمن يريد أن يعبر، لكنها الآن مغلقة لحسابات سياسية لم يقل ما هي، كان رأسي مثقلاً، وكل دقيقة أنظر إلى ساعتي لأجد عقاربها تتحرك ببطء شديد.

كانت أمي قد سألتني عن المدة التي سنقضيها على الطريق، قلت لها أن المسافة قرابة الخمسمائة كيلومتر، سألتني: «يعني كم ساعة؟»، أخبرتها بأنها بضع ساعات لم أحدد عددها، فأمي كانت تقيس المسافة بالزمن

لا بالأطوال، وهنا الزمن غير معلوم، سابقاً كان من يذهب إلى الأردن يحتاج إلى أربع أو خمس ساعات فقط، أما الآن فلا يوجد نقطة حدود نظامية تستطيع أن تعبر من خلالها بشكل نظامي، وحتى المدن التي ستمر منها لن نستطيع أن ندخلها من الطرق الدولية، فالوقت إذن غير معلوم، لكنني قررت أن لا أقلقها وأنا أعرف تماماً أن الأمر قد يطول لأيام.

مشينا من الغوطة باتجاه طريق الشام، أكد علينا السائق بأن نقول للحواجز أننا نريد الذهاب إلى دمشق لإجراء عملية جراحية. قطعنا دوار تدمر بعد أن توقفنا لأكثر من ساعة في طابور السيارات أمام حاجز دوار الرئيس قرب الجامعة، أسماه أهل حمص دوار «أبو موزة» لقصة لا يسمح لي مزاجي السيء الآن بروايتها. هذا الدوار كان هو المنطقة الوحيدة المحايدة في المدينة التي تستطيع أن تأتي إليها جميع الأطراف المتصارعة في المدينة سواء كان من الطرف الموال أو الرمادي أو المعارض، بسبب وجود جامعة البعث، وأنا الذي لم أصنف نفسي ضمن أي طرف أمر بالقرب منها الآن لكن ليلاً وهرباً، فلا شيء يجمعني مع هذه المدينة.

كلما تحركت سيارة أمامنا بضع خطوات في طابور الانتظار تحركنا خلفها إلى أن وصلنا للحاجز، جاءنا عسكري وبيده ضوء كشاف وجهه نحو السائق، سأله إلى أين سنذهب ولماذا، أخبره أننا ذاهبين لدمشق وأنا تكفلت بأن أقول له ما طلبه منا سابقاً، سنذهب لإجراء عملية جراحية لوالدتي في مشفى المجتهد، أخذ الهويات لإجراء «التفييش» المعتاد وأعادها بعد خمس دقائق، سلمنا إياها، ثم أشار لنا بالكشاف بأن ننطلق، وبدأت رحلتنا الفعلية بأن أصبحنا على الأوتوستراد الدولي بين حمص ودمشق، أفلتت مني كلمة «المدللة» وكنت أقصد أن أقولها في

نفسي، فهذا ثاني حاجز أمر منه بعد خروجي من الوعر، السائق يرد علي بنفس الجملة «أي والله المدللة» وكان واضحاً بأنه يقصد أن مرورنا من الحاجز كان يسيراً رغم مرور ساعتين على انتظارنا، لكنه لم يعرف أني كنت أقصد شيئاً آخر، كنت أحمد الله على الخروج من هذه المدينة التي جربت أن تقتلني مرتين، في المعتقل والحصار.

بعد أن قطعنا دوار تدمر شعرت بأنني أحيا من جديد، قلق الانتظار الطويل على الحاجز زال سريعاً، والهواء المنعش الذي يدخل من نوافذ السرفيس كان رائقاً كأنه يبشرنا بأن الأمور ستعود كما كانت، الطريق كان يسيراً في بدايته رغم أنه معتم بالكامل وليس أمامنا سوى ضوء السيارة التي نركبها تكشف لنا طريقنا وسيارات قليلة أخرى تعبر مسرعة في الاتجاه المعاكس، رأيت لافتة على يمين الطريق تقول أننا اقتربنا من مدينة القصير عاد إلي الكرب قليلاً لأنني تذكرت صلاة الجمعة في أحد جمع الوعر التي كانت فيها الأيادي تلهج بالدعاء لثوارها أمام هجوم حزب الله عليهم، وكيف اكتست وجوه أهل الحي بالسواد يوم سيطر الحزب على المنطقة. أنظر لأمي بجانبي لأراها تلهج بالدعاء أيضاً ولا تتوقف، أضع راحة يدي فوق يدها وأنظر إلى ساعتي، كانت الساعة التاسعة ليلاً، كنا قد وصلنا إلى منطقة البريج، وبعدها بكيلومترات قليلة انعطف السائق يميناً ليدخل شارعاً فرعياً على طرفيه بساتين فيها أشجار لوز، بعد دقيقتين شاهدت على يمين الطريق نصباً مربع الشكل أشبه بجدار بيت، فيه ثلاث فتحات نوافذ وأعلاها كتب «الحميرة»، سألت خالد:

- ليه فتنا لهون؟

- رح نبقى ساعتين تلاته وبعدها ننطلق بين الجبال، ما رح نضل نمشي على الأوتوستراد الرئيسي ما بدي نمر على حاجز القطيفة ... أنت بتعرف.

- شو بعرف؟

- بيسألوا كتير وبيتشددوا والوقت متأخر أساساً، بعدين الأسلم نمر من القلمون وما نفوت الشام نهائياً متل ما قلتلك من قبل، لا تقلق أنت، المهم نوصل على الطيبة بخير وسلامة.

لم أقلق هذه المرة، هي ساعتان فقط ثم نمضي، المهم أن نصل في نهاية الأمر. توقفنا في الحميرة في أحد البيوت لأقرباء السائق خالد، كانوا مهجرين أيضاً من حمص واختاروا الحميرة لأنها لهم فيها أقرباء آخرين، لم يسألوننا عن وجهتنا لأنهم اعتادوا زيارته للاستراحة عندهم مع المسافرين كل فترة لساعتين وأحياناً لأيام، معظمهم كانت وجهته لبنان، ومن هناك إلى تركيا ثم أوروبا كانت الطريق لأوروبا مفتوحة ويذهبون إليها بالأقدام، تفاجئوا عندما عرفوا أن وجهتنا هي الأردن، بداية لم أجد نفسي مضطرا لأن أُقدم لهم تبريراً ليس موجوداً لدي لأبدد تفاجئهم. لكني كنت أبحث في قرارة نفسي عن بلد عربي غير لبنان لا يعيش فيه الناس تحت رحمة الميليشيات، لذلك أخبرتهم أن لنا في الأردن أقارب ينتظروننا هناك.

«خلونا نمشي»، قال خالد وسبقنا إلى السيارة، سبقت عائلتي ووقفت أمام شباك السائق لأعرف منه الخطوة التالية، قال لي أننا يجب

أن نقطع جبال القلمون، نصعد جبلاً لكي نلتف حوله حتى نبتعد أكثر ما يمكن عن الطريق الدولي، ستقابلنا عدة قرى قبل أن نلتف من جديدة داخل القلمون، خلف جيرود ثم الضمير ثم نكمل طريقنا نحو البادية. سألته عن الخطر الموجود، لم يكذب عليّ، قال بأنه موجود طبعاً، لكن الليل يستر ويجب أن نصل قبل طلوع الفجر إلى قرية الطيبة في درعا، فالضوء فاضح.

ركبنا السيارة جميعنا، أخي وزوجته وابنته جلسوا في المقعد الأخير، الطفلة كانت نائمة بجانب الشباك ورأسها محني في حضن أمها، وأمي جلست خلف السائق وأنا بجانبها، وعلى المقعد الفاصل بيننا وضعنا الحقيبتين الصغيرتين. مشى السائق قاطعاً القرية نحو الشمال بمحاذاة الطريق الدولي، عبر طرق ترابية تتخللها بعض الأشجار على طرفيها، حتى وصلنا قرب دير عطية، لاحت لنا بعض الأضواء القليلة من بيوتها المتناثرة على أطرافها، لم ندخل البلدة، أكملنا طريقنا عبر الطريق الترابي مدة نصف ساعة، لم تكن الطريق مهيأة للسيارات، كانت وعرة بما يكفي ليقل تفاءلي الذي بدأ منذ خروجنا من حمص، سألت السائق إن كنا سنكمل هذا الطريق، أخبرني أننا سنصل إلى طريق اسفلتي سنراه أمامنا بعد قليل. وصلنا إلى هذا الطريق أخيراً فعادت السيارة إلى اتزانها وخف الاهتزاز الذي كنا فيه على الطريق الترابي، لاحت أخيرا أمامي جبال القلمون، كانت واضحة رغم أننا نبعد عنها كيلومترات قليلة، ضوء القمر كان ينعكس على لونها الأجرد فيمنحها لوناً رمادياً داكناً.

مع اقترابنا من الجبل الذي لم يكن عالياً كما توقعت، بدأت السيارة رحلة الصعود عبر طريق يلتف حول أحد قممه، فظهرت على يسار

الطريق دير عطية كاملة أمامنا، كانت بيوتها معتمة بمعظمها يتخللها بعض الضوء توقعت أنه بسبب وجود مولدات الكهرباء لدى أصحابها، كان من المفترض ونحن ننزل بالسيارة من الجبل أن نجد طريقاً اسفلتياً آخر، لكننا لن نسلكه، سنمشي بالقرب منه بطريق وعرة جداً، وهذا الطريق سيطول حتى نصل بالقرب من جيرود.

وصلنا إلى الطريق الذي وصفه خالد بالوعر وكان كذلك، كانت الجبال على يميننا، وأشجار قليلة متناثرة على يسارنا لكنها لم تكن كافية لتحجب عنّا الرؤية، لمحنا من تلك الجهة من بعيد ضوء خافت يتسرب من بعيد بين تلك الأشجار، أبطأ السائق عندما رآه ثم أطفأ أضواء السيارة ومشى في الظلام ببطء ليرى ماهية هذا الضوء البعيد ويتأكد أنه ليس كميناً، «ربما سيارة عابرة» قال لنا ليهدئ من روعنا، طلب منّا الصمت التام، ازداد توتري، توتر أمي ازداد أيضاً وبدأت شفاهها تمتم بآيات من القرآن والأدعية، جميعنا صمتنا بانتظار ما سيحدث، عندما قطعنا الضوء شعرنا أنه أطفأ وأشعل مرتين، أسرع السائق من جديد، مشى بسرعة مجنونة حتى أصبح صوت موتور السيارة يئن تحت وطأة هذه السرعة، كنا عند كل حفرة كبيرة نقع فيها نقفز من مقاعدنا ثم نرتمي عليها، «كمين، كمين» قالها مرتعباً، كان يحاول أن يسرع وأنا لم أفهم بعد أين الكمين، على بعد كيلومتر واحد خرجت سيارة أخرى من الطرف الأيمن للطريق، أشعلت أضواءها الكاشفة بوجهنا فجأة، لم نعد نرى أمامنا سوى هذا الضوء، سمعنا بعدها أصوات رصاص ينهال علينا من الجانب الأيمن فتناثر علينا بلّور النوافذ وأصبح في أحضاننا.

وصلنا إلى بلدة الطيبة في درعا نهاية الأمر، وصلنا إلى الحدود الأردنية التي لا تبعد عنا سوى مسافة قليلة، ولم نصل إلى الأردن كما كنت أرغب وكما قلت لأمي، أحمل هذا الأسى للآن بأنني ورطت عائلتي بكل ذلك، لأنني لم أطق البقاء في تلك المدينة، والآن لا أطيق البقاء في هذه البلدة التي لا أستطيع مغادرتها، وجودي في هذا المكان يذكرني بكل شيء، حتى عندما أنام أرى أمي في منامي، وعندما أصحو أراها وكأنها أمامي، جالسة على طرف فراشي، تنظر نحوي بعيونها العسيلة التي أورثتني إياها وهي تتمتم آخر جملة أتذكر أنها قالتها: «اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر» قبل أن تصمت للأبد.

كنا جميعاً صامتين مشدوهين في تلك الليلة لا نعرف ماذا حدث، هي خمس دقائق كرمشة عين، لحظة واحدة في رحم جبال القلمون كانت كافية لتنهي كل شيء، لتقتل كل شيء تقتل أمي وحفيدتها وتقتل أحلامنا بالنجاة. واصل السائق قيادة السيارة رغم ذلك بسرعة جنونية مبتعداً عن الدورية التي ظهرت لنا من العدم وأطلقت باتجاهنا الرصاص، ضرب فرامل سيارته فجأة والتف نحو اليمين، أحسسنا بالسيارة تمشي على دولابين ثم انحنت مستوية لنجد أنفسنا في شق صغير بين جبلين، وكأنه شق لأجلنا حتى نقف هنا ونحتمي ونعرف ما الذي حصل.

رأس أمي كان غارقاً في الدماء، أمسكتها من كتفيها أهزها، لكنها رحلت، لم أبكي لحظتها، نظرت لأخي في الخلف، كان ينتحب هو الآخر ببكاء مكتوم وزوجته تصرخ بهستيرية لحظة توقفنا بين الجبلين، ابنتهم أيضاً كانت مصابة وتنزف بشدة، نزلت من السيارة وأنا أشد أمي لأخرجها منها، هذه المرة لم أحتج أن أخلع عنها رداءها، كانت

الإصابة في رأسها وكانت قد أسلمت روحها، نزل أخي حاملاً طفلته التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، حملتها عنه ووضعتها على الأرض، كانت الإصابة بيدها، خلعت قميصي لأشده على مكان الإصابة حتى أوقف النزيف، كنت أصرخ على أخي الذي لم يتوقف عن النحيب بأن يساعدني برفع يدها حتى أربط قميصي حول عضدها، رفع يدها وجدنا أن صدرها ينزف أيضاً، كانت الرصاصة قد اخترقت جسدها الغض بعد أن هشمت يدها، أمسكت أمي يد حفيدتها ورحلت بها إلى عالم آخر.

لحظات عصيبة فقدنا فيها رشدنا، لم أستطع خنق دموعي أكثر من ذلك، صرت أبكي انتحب وأصرخ أنا السبب، أنا السبب، سامحيني يا أمي، سامحيني!

كنت أظن أن هذا الفقد الرهيب، سيكون خاتمة آلامنا، التي ما فتئت تلاحقنا، لكن الفاجعة التي ستقسم ظهرنا إلى الأبد وستنكأ علينا جراحنا حتى يوم الدين لم تأت بعد ...

جلست هدى تناجي ابنتها تبكي وتضرب بيديها على وجهها، بقينا على حالنا هذا نندب موتانا لفترة لا نعلمها هل هي ثوان أو ساعات، لا نعرف ماذا نفعل بهذه الكارثة التي ألمت بنا، جلس أخي خالد بعيدا عنا عدة أمتار يبكي ويدخن، ثم قال بصوت مخنوق:

- الله يرحمن، لازم ندفنهم قبل ما يطلع الضو، لازم ندفنهم ما قدامنا حل تاني.

كيف ندفنهم هنا، وأين نحن أصلاً، لم أقو على فعل شيء، تحرك السائق وانحنى صوبي وأمسك يديّ وشدني نحوه ثم أمسك رأسي وهو

يترجاني أن أساعده، «يجب أن نفعل شيئاً وإلا سنقتل جميعاً» قال لي، لم يعد لدي خيار، نزلنا إلى الأرض وحاولنا أن نحفرها بأيدينا، لكنها كانت صخرية، كنا نغرس أظافرنا فيها ولا نستطيع أن نزيح عن هذه الأرض ولو حبة تراب واحدة، لم يكن معنا ما يساعد على ذلك، لم نكن مجهزين من أجل الموت، كانت خطتي هي أن ننجو فقط، أن ننجو جميعنا لا أن ندفن من نحب هنا، في هذه الأرض الجرداء القاسية.

جربنا كثيرا أن نحفر لكن لا فائدة، لن ننتهي لأيام طويلة، الأرض قاسية جداً، قاسية كالأيام التي نعيشها، ولا تريد أن تستقبل جثثاً حتى، قلت لخالد: يجب أن نجمع ما نستطيع من الحجارة الكبيرة، جمعنا الحجارة ورصفناها على الأرض بحجم الجثتين، أمي وابنة أخي اللتان أصبحتا جثتين، وضعناهما فوق الحجر، ثم بدأت بوضع أحجار فوقهما، قلت سأفعل ذلك الآن لأحميهم من حيوانات قد تكون مفترسة في هذا الليل، وفي الصباح سأعود إلى هنا لدفنهم في أرض أعرفها حتى أستطيع العودة إليهما، حتى أزور قبريهما واعتني بهما، السائق أوقفني قبل أن أتمم مهمتي، قال بأننا يجب أن نصلي عليهم أولاً، لم أكن أعرف من صلاة الجنازة سوى التكبيرات الأربعة ولا أعرف ما يجب أن نقول بينها، شعرت بأسى كبير، صرخت بأخي أن يؤدي بالصلاة معنا، كان منهاراً ويهذي، لم يقف، وقفت بجانب السائق الذي رفع يديه باتجاه أذنيه بادئاً التكبيرة الأولى: «الله أكبر».

سمعنا صوت محرك سيارة يهدر بين الجبال، قطعنا صلاة لم نكملها، وهربنا، عندما وصلنا إلى درعا اتخذنا قرارا ألا نغادر للأردن إلا بعد دفن أمي وابنة أخي كما يليق بهن، قررنا تحمل مخاطر الرحلة رغم المسافة

الكبيرة التي تفصلنا عنها، انتظرنا يومين وفي اليوم الذي قررنا فيه الانطلاق، سألنا السائق: هل تعرف مكان كومة الحجارة ...؟

ساد صمت لا تزال جبال القلمون تردد صداه إلى اليوم.

وكمـا أن الصدى هو انكسار صوتنا علـى عتبات الفراغ، كذلك فـإن انكسار الـروح عطب يصيـب ذاكرتنا ومـن شقوقها نرى انعكاسـ صورنـا في عدسـات مرايا منازلنا، للحـروب دمار لا كدمـار يخلفه ثـوران البراكين ولا كدمـار العواصف والزلازل، دمار يمزق داخلنا وتاريخا كاملا صنعناه لحياتنا قبل أن يمزق بيوتنا وقرانا ومدننا، تغدو عمليات اعمار النفوس أصعب كثيرا من اعمار البلاد، الأخيرة ننجزها بعقد أو عقدين، لكن الأولى تندسـ في جيناتنـا، نورّثها للمستقبل لتكـون جمرا تحت رماد الانتقـام إن لم يكـن ثمة مسامحـة والمسامحة إن لـم تتح لنا تفريغنـا غضبنا وقهرنـا من الأذى الذي تسببـوا لنا به ستكون استسـلام والاستسلام يعنـي انتقام قادم لا محالـة. للانتقام أشـكالٌ تختلـف بقـدر جرعـة القهر داخلنـا، سامـر عبر عنه بالنكران ففقأ عين روحه العليلة كي يبرر لنفسه كيف غاب قبر أمـه عن بصيرته، وقصي فتح أمام عين قناصته أبواب جهنمه ليـرد الصاع صاعين لمـن اقتلع عين أمه، لـم يكن يعنيه ذاك الحكيـم الـذي قال يومـا «إن العمل بمبدأ العيـن بالعين ينتهي

بجعـل العـالم كله أعمى»، وكان عمـره أصغر من أن يدرك مـاذا تعنــي الحكمــة القائلة بأنه «فــي سعيك للانتقــام أحفر قبرين أحدهما لنفسك»،

لكــن ذلك لا يعني أنــه لم يتسـاءل يوما فــي مربطه وهو يقنص العشــرات عــن طبيعة عــدوه: حقا من هــو هذا الــذي أترصده بقناصتي، هو بشر مثلي، حملَ فكراً غير فكري، وقف بصفٍّ غير صفــي، فغدا عدوي؟ هدفه المعلن من خوض غمار هذه الحرب واضــح، ولكن من يــدري قد يكون هدفه الخفــيُّ تماماً كهدفي، قــد يكون مستتراً كحالي بالأهــداف المعروفة ليواري بها هدفه الحقيقــي في الثــأرِ أو الانتقــام. كلنا نتذرع بالأهــداف الرنانة لنستتــر بها عــن أهدافنا الشخصية من الحــرب... ثم مـاذا لو انطفــأت نيران الحرب قبل أن ينطفئ بركان الثأر داخلي، ممن سأنتقم وقتهــا؟ هل سأكون قد انتصرت حقاً وقتها؟ كيف ذلك وأنا الذي سأعود إلى البيت دون أن أجد أمي، أي نصرٍ هذا؟ ما حاجتي لنصرٍ لا أرى فيه ضحكة أمي؟ ما حاجتي لفرحٍ لا أسمع فيه صوتها؟

مُقلَةُ عين

راما حاج علي

ككل يوم، عند السادسة صباحاً، تبدأ أشعة الشمس معركتها مع أهدابه، تحاول بعزمٍ اختراق جفنيه اللذين يربحان الجولة لشدة إطباقهما.

يتقلب إلى الطرف الآخر ليعطي أشعة الشمس ظهره، فيهتزُّ به سريره الحديدي مُصدراً بحركته أصواتاً حادةً ناتجةً عن احتكاك أجزائه الصدئة ببعضها.

يكمل نومه غير آبه بتلك السيمفونية التي اعتادها، فيباغته المنبه المنتصب كجنديٍّ على طاولةٍ خشبية ليست بأفضل حال من ذلك السرير القديم، تتبعثر عليها أغراضه؛ كأس ماءٍ نصفُ فارغٍ، سلسلة مفاتيح متخمة، علبة سجائر مجعلكة وإلى جانبها قداحة حمراء، رذاذ التبغ المحترق الذي تناثر أثناء إطفاء رمق السيجارة الأخير على الطاولة، كما اعتاد شاربها.

لزم قصي إطفاء السيجارة على الطاولة الخشبية لتحدث أثراً لحرقٍ فيها، كان عدد الحروق قليلاً، دلالةً على أنه -على ما يبدو- قد شرع بالتدخين منذ فترة وجيزة.

وإلى طرف الطاولة كانت هناك قلادة ذهبية، نقشت على هيئة اسم (مريم).

صوت المنبه المزعج ما زال يطرق باب دماغه بعنف، يمد يده نحو الطاولة ويضرب المنبه بباطن كفه ليسكته، تهتزُّ لضربته تلك الطاولة ذات الثلاثة أرجل ونصف، وباهتزازها تسقط القلادة.

يتابع شخيره مطمئناً أن رائحة خبزِ أمِّه سوف تنتشله من أحلامه، وإن فشلت فستنجح رائحة قهوة أبيه في ذلك دون أدنى شك، غير أنه لا أثر لرائحة الخبز ولا لرائحة القهوة!

يرن المنبه مجدداً، يستجمع قبضته هذه المرة وينزلها بقوة عليه، لم تحتمل الطاولة المتهالكة تلك الضربة، فخرَّت وهوى ما عليها أرضاً.

نهض من سريره على مضض وهو يتمتم: (اللعنة!).

لم يأبه لكل تلك الفوضى المتناثرة على الأرض، غير أنه انحنى ليلتقط من بينها قداحته وعلبة سجائره، التقت عيناه بالمنبه، فلوح بقدمه في الهواء ثم أنزلها عليه مخاطباً إياه: (يلعنك ويلعن هل الصباح...).

في أثناء ذلك انتبه إلى أن عقاربه تشير إلى الساعة السابعة إلا ربعاً، هرع ليلبس ثياب المدرسة دون أن يفكر حتى في تغسيل وجهه.

رفع بنطال المدرسة الكحلي ماشياً، ربط حزامه الجلدي حول وسطه، سار إلى المرآة المكسورة وهو يزرر أزرار قميصه السماوي بشكلٍ غير منتظم، رفع عينيه إليها وهو يهندم ثنية ياقة قميصه، التقت عيناه بمركز الكسر في المرآة، تماماً حيثُ موقع ارتداد الشظية التي اخترقت قحف أمِّه وخرجت من عينها، حينما كانت واقفة إلى المرآة تماماً كما هو الآن.

آثار دمائها لازالت على المرآة، أبى مسحها، على الرغم من مضي

أكثر من تسعة أشهر على الحادثة، كان ينظر إلى الكسر في المرآة، ويعاين الكسر الكبير في قلبه...

بعض الكسور لا تُجبر، لا تلتئم، لا يمكن إصلاحها، تبقى مؤلمة متصدعة ومتهشمة إلى الأبد.

كسر القلب موجع، وإن لم يُسمع له صوت، وأشد ما في كسر القلب أنه لا جبر له.

وقف برهة بلا حراكٍ نافذاً من حدقة عينه المنعكسة على المرآة ليسترجع خبايا القهر المكنونة في ذاك اليوم، يومٌ بدأ كباقي الأيام، لكنه لم ينته كذلك، يومٌ كان نقطة الانعطاف الحاد في حياة العائلة عامة، وحياة قصي خاصة، وتحديداً عند اللحظة التي كانت فيها مريم والداته تمسك فرشاة شعرها وتقف إلى المرآة تسرِّح شعرها الخرنوبي الذي اكتسبَ هذا اللون إثر آخر صبغة وضعتها، كانت تأتي بالمشط من منبت شعرها إلى آخره الواصل منتصف ظهرها، تسرِّحُ على مَهَل وهي تدندن: (مريم مريمتي... وعيني مرياما... والقلب مجروح بده مرهاما... يا عيني بده مرياما....).

وأمامها بعض مستحضرات التجميل التي أعدتها للجولة التالية، كانت مريم امرأة جميلة في أواسط الأربعين من عمرها، وعلى الرغم من كونها أمٌّ لثلاثة أطفال إلا أنها كانت تعتني بنفسها بشكلٍ مبالغٍ فيه، في حركةٍ منها لإرضاءِ زوجها الذي كان يهددها دوماً بالطلاق أو بالزواج عليها، لم تكن تفهم لمَ يعاملها بكلِّ هذه القسوة، وهي المرأة التي أحبته يافعةً، ووقفت معه وساندته ورعت أولاده شابةً، ووعدته أن تصونه عمراً.

كانت تتأمل في المرآة تتفقد تفاصيل وجهها، وتخفي عنه بعض التجاعيد التي بدأت تداهمها بشيء من الكريمات والمرطبات، أمسكت الكحل وانحنت بجذعها تقترب منها رويداً لتدخل الكحل في عينها بحذرٍ دونما تلويثٍ لما تفننت به من مكياجٍ وضعته، عند تلك اللحظة تماماً هبَّت عاصفة، فارَ تنّور، قامت القيامة، لا أحد يعرف ما الذي حدث فعلاً.

لفحة نارٍ ساخنة، وضوء ساطع، وغبار متطاير، وضغطُ انفجارٍ كبيرٍ دفع بقصي إلى صدرِ غرفةٍ أمِّه ليكون شاهداً ربما على موتها، عند تلك اللحظات كانت تنزل قلم الكحل من عينها التي انفتحت على اتساعها من هول ما حدث، همَّت لتركضَ بحثاً عن ابنتها الصغرى لتحميها وقلم الكحل لا يزال بين أصابعها، وقبل أن تتحرك خطوة عاجلتها شظية اخترقت عظم رأسها من الخلف ومضت كسكين تقطع أنسجة دماغها ثمَّ تخرج من محجرها بعد أن رمت بكرة عينها اليمنى أمامها لتصطدم بالمرآة ثمَّ ترتد عنها وتبتعد ما يزيد عن المترين، وكأنها كرة قدمٍ ارتدت عن شباكِ المرمى بعد تحقيق الهدف.

خرجت الشظية من المحجر لتلتقي المرآة عند نقطة التقاء كرة العين بها، فتكسرها دونما تهشيم، ودونما سقوط.

كان قصي يرقبُ المشهد، يسمعُ صوت تحطّم جمجمة أمه على الرغم من صخب الموقف، يرى بعينه انبجاسَ كرة العين، ثم يعاين تهاويها وتهاوي أمه وقلمِ الكحل من يدها.

همَّ بالصراخ لكنه لم يفلح، شعرَ وكأنَّ حباله الصوتية قد تقطَّعت كحبال غسيل بليت لطول ما بقيت منصوبة في مرمى سهام الشمس.

كان ينوي الصراخ لأمه التي لم يعتد أن يستنجد يوماً بغيرها، لتنقذه أو لتنقذ نفسها، غير أنه صار أبكم عاجزاً عن النطق، مشلولاً عاجزاً عن الحراك، متسمراً في مكانه غير قادر على اتخاذ أي قرار لما قد يفعله.

ثوانٍ أو دقائق أو ساعات أو أيام أو شهور أو سنين أو دهور، ليس يدري كم مضى إلى أن جاء أخوه ينادي، يبحث عنهم بلهفة وقلق، يطوف غرف المنزل صارخاً: وينكم؟ أمي... وينك؟

وصل الغرفة، مدَّ رأسه فوجد أخاه متكوِّراً على نفسه، مذهولاً، مشرئبَّ العنق، مبحلق العينين، يشير بإصبعٍ مرتجفة إلى جهة المرآة، نظر إليه، سأله: أنت منيح؟ فأومأ برأسه نعم، غير أنه بقّي على وضعيته المتهالكة تلك ويده لا زالت تشير إلى ذات الوجهة مرتعدة، عاينها، فوجد أمه ممددة على الأرض على تلكم الحال، هرع إليها، دنا منها، أدار وجهها، ففزع لما رأى، وقف، تراجع خطوتين، بدأ يتهاوى، أمسك رأسه وحاول أن يستعيد توازنه من جديد، كان يعرف تماماً أنَّ عليه أن يكون أصلب من هشاشته أمام مشهد وجه أمه، استجمع قواه، ودسَّ يديه تحت الجسد المسجى أرضاً، رفعه، أحسَّ بسخونة دم أمه النابع من محجرها الأيمن يسيل على كتفه الأيسر، سرت رعشة في جسده، هزَّته، تجاوزها، ثمَّ صرخ بقصي: الحقني!

كان قصي لا يزال على حاله المذعورة، غير أن مشهدَ أخيه حرَّك في نفسه شيئاً ما، لم يدرك كنهه، فدبت الحياة في عروق قدميه اللتين جفَّتا من هول ما رأى، أسرع نحو كرة العين، أمسكها، وراح يركض متتبعاً خطى

أخيه وقطرات دم أمه، يركض وكرة العين تتدحرج في يده كدحاحل كان يلعب بها قديماً مع أطفال حارته.

كرة العين، دحاحل، أطفال الحارة، نقيفة، ربطة شعر أخته، أخته!

بهذا التسلسل الفكري تذكر قصي أمر أخته الصغرى التي ذُهل عنها لِمَا رأى، ترك تتبع أخيه، وراح يطوف البيت بحثاً عن أخته، فلم يجدها، نادى هنا وصاتَ هناك، ولا مجيب، ركض إلى إحدى النوافذ المحطمة، مطَّ رأسه خارجها، فارداً يده الممسكة باللؤلؤة وماداًّ إياها نحو الوراء فاعلاً كل ما بوسعه لئلا تسقط منه، نظر لأسفل، فرآى أخته محاطة ببعضٍ من رجال الحي تهرول باكية بخطواتها الصغيرة نحو أبيها الذي لاح من بعيد هلعاً لاهثاً وكأنه خمَّن من مكان الدخان والغبار المتطاير أنَّ هدف الطائرة هذه المرة هو عشه الصغير.

فكَّر لبرهة، انتابه شيء من شعورِ اللاأهمية في الحياة، من شعور الخذلان للامبالاة أحدٍ به، أو السؤال عنه، كونه على ما يرامٍ أو عكس ذلك، فكَّر لماذا اهتمَّ بعض رجال الحي بأختي، وعَجِلَ أخي لإسعافِ أمي، ولم يكترث لحالي أحد؟ هل الجميع يتمنون موتي، أو يرقبونه، أو حتى لا يهتمون إن متُّ أو لا......

قطع تفكيره صوت الدراجة النارية التي جاءت من بعيد لتسعف الجرحى، فلا سيارات إسعافٍ قادرة على تغطيةِ كلِّ الضربات الجوية والأرضية وغيرها في بيئة محاصرة مخنوقة كبيئة غوطة دمشق.

رآى أخاه الممسك بأمه يركب وراء سائق الدراجة، فنزل مهرولاً محاولاً اللحاق بهما، وما إن وصل باب البناء حتى انطلقت الدراجة النارية

بأقصى سرعتها، راح يركضُ وراءها وكرة العين لا زالت تهتز في يده، يركض متجاوزاً أخته وأباه ورجال الحي وحطام البيت، وكأنهم ليسوا إلا خيالاتٍ لا يراهم ولا يعبِّرهم، تماماً كما هم لا يرونه ولا يعبِّرونه.

كان في سباقٍ مع الدراجة النارية التي أقسمت إلا الفوز، ينافسها صارخاً: استنوني، لا تاخذوا ماما من دون عينها، خذوا العين مني وكملوا.

إلا أن أحداً لم ينتبه إليه، يركض خلف الدراجة تماماً يرى شعرَ أمِّه المسرَّح -الذي لم يغطيه لها أحد من هول القيامة التي قامت- يتطاير مع الهواء، كما تتطاير قطرات الدم منها لترتطم بخديه ووجنتيه وأنفه وذقنه، ترتسم تماماً في أماكن تقبيل أمه له، لكن هذه القبلات من نوعٍ آخر، قبلات ليست كغيرها، هي قبلات الوداع الأخير.

كانت الدراجة تبتعد أكثر وأكثر، وأصوات لهاثه تعتلي أكثر وأكثر، بدأت خطاه ترتبك، وقف برهة، راح يتنفس بسرعة وبعمق، عاود الركض بسرعة أكبر، تعثَّر، تدحرجت الكرة من يده وابتعدت مسافة مترٍ ونيِّف، وقف، التقطها مجدداً، فبدأت المادة الهلامية داخلها تسيح على يده، حاول زمزمتها بيده الأخرى، ثمَ استأنف ركضه، وصل النقطة الطبية، فرآه الحراس على بابها أشعثَ الشَّعر، مدمَّى الوجه، مغبرَّ الثياب، فظنوه مصاباً، أدخلوه بسرعة، انتهز الفرصة وراح يطوف بين الأطباء يمدُّ إليهم بيده قائلاً: هي عين أمي، أمانة رجعوا لها ياها...

كان الأطباء مشغولون بالجرحى الممددين على أرضية النقطة الطبية الميدانية، يترك طبيباً ويأتي آخر وهو يترجاهم أن يعيدوا لها عينها، وصل

إلى الطبيب الواقف أمام أمِّه، كان يجسُّ نبضها، يتفقَّد تنفسها، يوجِّه ضوءه إلى عينها المتبقية، ثمَّ...

وقف ناكساً رأسه، نافضاً يديه، محوقلاً، اقترب منه قصي أكثر، ومدَّ له يده المحتفظة ببقايا العين، وقال له: حاولت الاحتفاظ بها جيداً، أرجوك اعتن بأمي، وأعد لها عينها.

رمقه الطبيب بألم، وضع يده على كتفه مخاطباً: لن تفيد إعادة العين إلى محجرها مالم تعد الروح إلى جسدها أولاً، أمك لم تعد بحاجة العين بعد الآن يا بني، هي الآن تراك، وستبقى تراك من الأعلى، كن صالحاً كي تسعد أمك دائماً برؤيتك..

⋈

خلع ثيابه المدرسية بقهر، واستبدلها ببذلة عسكرية يضيع جسده النحيل فيها لاتساعها، فليس ثمة بذلة عسكرية بمقاس طفلٍ هزيلٍ لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.

من يدري، لربما لم يفكر أحدٌ بأن ذلك اللباس المموه سيضطر لارتدائه في يومٍ ما طفلٌ لم يرتسم شاربه بعد!

عاود النظر إلى المرآة ليبحث في ثنايا الصورة المنعكسة عليها عن دليلٍ يقنعه بأن هذا الوجه الطفولي يليق به لباسُ المحارب.

رفع يديه إلى وجهه، وأخذ يتحسس بأطراف بنانه أثراً لتجاعيد خمَّن أنها ظهرت أعلى جبينه أو إلى جانبي عينيه لشدة أهوال ما رأى بهما، غير أنه لم يجد.

نزل قليلاً بأصابعه إلى أسفل ذقنه، يمررها جيئة وذهاباً عله يتلمَّسُ

أثراً لشعراتٍ صغيراتٍ نامياتٍ تثبت له أنه أصبح رجلاً، وبإمكانه تحملُ ما هو عليه الآن.

بعد عملية بحثٍ طويلة وجد ثلاث شعراتٍ سوداوات تفشي له سر هرمون التستسرون الذي بدأت مستوياته بالارتفاع داخل ذلك الجسد النحيل.

وقف على رؤوس أصابعه، ومطَّ رأسه قليلاً نحو أعلى، فبانت له تفاحة آدم التي بدأت بالنمو والنضج.

تنحنح محاولاً الكلام بصوتٍ أخشن من حقيقته: (إيييه... يبدو أنني كبرت!).

عاد نظره إلى مكان الكسر في المرآة، وإلى قطرات الدم المتناثرة حوله، برمَ شفته السفلى كطفلٍ رضيع، وباغته سيل جارفٌ من الدموع، راح يبكي وينشق قائلاً: (لا أريد أن أكبر، أريد ماما، أريد ماما...).

تهاوى بضعفٍ إلى الأرض التي بدأت تتبلل بدموعه المنهمرة، راح يثني سلامياتِ أصابعه، ويجمع قبضته بحرقة، ضارباً بها الأرضَ صارخاً: (ما بدي أكبر، بدي ماما ....).

أحسَّ بطيف أبيه الغائب البعيد، وشعر بكفه يربت فيها على كتفه، تماماً كذاتِ الموقف قبل شهر، عندما كان جاثياً باكياً كما الآن، أمام جثة أخيه الكبير الذي استشهد في إحدى المعارك على جبهات غوطة دمشق.

حينها وقف والده إلى جانبه، واضعاً يده على كتفه، محاولاً موارة دموعه، وخاطبه قائلاً: (لا تبكِ يا ابني، لا تبكِ، الرجال لا يبكون ...).

غير أن دموعه كذَّبته ونسفت كلامه، نشق ومسح دمعه، ثم استأنف: (رحيل أخيك يا ولدي قد ترك ثغرة، وعليك أن تسدَّها).

صمت عن بكائه مذهولاً غير فاهمٍ لمقصدِ والده الذي مدَّ إليه ببذلة عسكرية مهترئة متشبعة بنصال الشظايا، واضعاً إياها بين يديه قائلاً: (هذه بذلة أخيك، سترتديها، وستخرج للقتال بها نيابة عنه ابتداءً من اليوم.

تلك الثقوب والشظايا التي عليها ستذكرك بدمِه، وستدفعك للثأرِ له كلما شعرت بالانهزام أو الضعف).

نظر إلى الثقوب التي تملأ البذلة التي يرتديها الآن، ثم تحسس الثقب الأكبر فيها، ذلك الثقب المتوضع أيسر الصدر، والذي خلفته الشظية التي كانت كفيلة بإنهاء حياة أخيه.

مسح دمعه بطرف كمه، فامتلأ وجهه بآثار شحَّارٍ وبارودٍ كان عالقاً في الكمِّ من آثارِ معركة البارحة، لم يأبه لها، وقف بشموخ رافعاً صدره لأعلى قائلاً بكبرياء: (لقد كبرت وأصبحت رجلاً، والرجال لا يبكون، سأنتزع حقَّ أخي وأمي بيديَّ).

سارَ نحو باب الشقة، اعترضته حقيبته المدرسية في منتصفِ الممر، ركلها بقدمه، ثم توجه إلى قناصته الأطول منه، همَّ بحملها، فاختلَّ توازنه لثقلها، عاود استجماع قواه، حملها، مشى نحو الباب، زفر زفرة عميقة، رفع صدره، فتح الباب وخرج.

◆◆

على سطح أعلى بناءٍ في المنطقة، وخلف متراسِ الحرب وقف،

خلف تلٍّ من الركام والأسلاك والبراميل المتخمة بالأطلال، والأكياسِ المتراصة المرصوفة فوق بعضها البعض والمحشوة بالتراب.

وفي منتصفِ المتراسِ ثقب لا يسمح إلا للسان قناصته أن يمتدَّ، وفتحة أكبر قليلاً فوقه تسمح لعدسات منظاره بالتلصص والتجسس.

وقف خلف السواتر متخفياً حاله كحاله منذ شهورٍ ليست بالكثيرة، يحمل الآن قناصته تماماً كما كان يحمل نقيفته البدائية التي صنعها من عود خشبي ومطاطة شعرٍ سرقها من درج حليٍّ أخته الصغرى حلا التي كانت تُجنُّ لرؤية أداة زينتها قد آلت آلة حرب في يد أخيها، غير أنه سرعان ما يبرر لها فعلته قائلاً: يا بلهاء، صنعت سلاحي من أجلك، من أجل أن أحميك، من أجل أن أحارب به من يزعجك من أطفال الحارة الأشقياء.

فتردُّ عليه: جبان، أنت جبان، لو كنت شجاعاً أو بطلاً مغواراً كما تزعم لحاربتهم وجهاً لوجه، لقاتلتهم وضربتهم ولكمتهم ومزقت ثيابهم بأسنانك، لا أن تجلس متوارياً على بعد أمتار تقذف عليهم حجارتك أو دحاحلك الزجاجية -كما تفعل هذه الأيام- من فتحة صغيرة في جدار، تراهم فيها دون أن يرونك.

ارتعش لوقع قول أخته، واهتزت القناصة بين يديه، أعاد إمساكها بقوة أكبر هذه المرة وهو يحدث نفسه: حقاً أنا جبان، أعتلي أسطح المباني الشاهقة متمترساً خلف الحواجز محتمياً بأي شيٍ أجده أمامي، ثم أرمي بناري على شخص بعيد أراه ولا يراني، شخص اتخذته عدواً لي حتى دون أن أقابله، أن أعرفه، أن أميز تفاصيل وجهه، شخص حكمت عليه

بأنه ند لي لمجرد وقوفه على الجانب الآخر من هذه الجبهة، شخصٌ لربما لو قابلته في يومٍ لا كأيامنا هذه لكان أعزَّ صديق أو خير جار.

حقا من هو هذا الذي أترصده بقناصتي، هو بشر، بشر مثلي، حملَ فكراً غير فكري، وقف بصفٍّ غير صفي، فغدا عدوي.

هدفه المعلن من خوض غمار هذه الحرب واضح، ولكن من يدري قد يكون هدفه الخفيُّ تماماً كهدفي، قد يكون مستتراً كحالي بالأهداف المعروفة ليواري بها هدفه الحقيقي في الثأرِ أو الانتقام.

كلنا نتذرع بالأهداف الرنانة لنستتر بها عن أهدافنا الشخصية من الحرب. ولكن ماذا لو انتصرنا ووصلنا لهدف حربنا المعلن، دون أن أصل أنا إلى هدفي الشخصي من وقوفي هنا، هل سيعد ذلك بالنسبة لي نصراً أم هزيمة؟!

ماذا لو انطفأت نيران الحرب قبل أن ينطفئ بركان الثأر داخلي، ممن سأنتقم وقتها؟ وكيف سأبرر قتلي لأي شخص جديد بعدها وأنا الذي أقنص العشرات يومياً دون أن يحاسبني أحد؟

ثم ماذا لو مات شعور الانتقام في نفسي مع موت رصاصات الحرب وانطفاء فتيل المدافع وصمت أصوات القنابل، هل سأكون قد انتصرت حقاً وقتها؟ كيف ذلك وأنا الذي سأعود إلى البيت دون أن أجد أمي، أي نصرٍ هذا؟ ما حاجتي لنصرٍ لا أرى فيه ضحكة أمي؟ ما حاجتي لفرحٍ لا أسمع فيه صوتها؟

خاسر أنا ولو ربحنا الحرب، خاسرون نحن ولو ربحنا الحرب، خاسر كل من خاض هذه الحرب اللعينة...

ليس في أي من الحروب نصر تام، النصر في الحرب يعني خسارة أقل، والخسارة الأقل تتطلب أن نُلحق بالطرف الآخر خسارة أكبر، فنخسر بذلك إنسانيتنا.

ولكن، كيف لنا أن نعامل عدونا بإنسانية وهدفه الأول قتلنا، وهدفنا الأول قتله، بل وكلما قتلنا من عدونا أكثر استحققنا لقب البطولة بجدارة أكبر.

سأكون صريحاً مع نفسي هذه المرة وأسألها مالم أسألها إياه من قبل: هل ما أقوم به صحيحٌ أم لا؟، لم أفكر يوماً بدافعٍ للوقوف هنا غير الثأر، لم أفكر أبدا بإنسانية الآخر الواقف على الضفة الأخرى، لم أفكر بأن له أماً، أباً، زوجةً، ابناً، بنتاً ينتظرون عودته ذات هدنة.

لم أفكر في ذلك أبداً لربما لأنه لا يوجد هناك من ينتظر عودتي من عدمها، حين أرسلني أبي إلى الجبهة يوم استشهاد أخي كنت قلقاً جداً حيال أمر أختي الصغرى، غير أنني في ذات الوقت كنت مطمئناً بشكل أو بآخر، فهي وبالرغم من رقتها صلبة، وبالرغم من براءتها فطنة، وبالرغم من صغرها مسؤولة.

قوية هي كأنما ولدت بين قذيفتين، تخالها امرأة أربعينية صبت عليها هموم الحياة جام أصنافها وألزمت سنواتها الخمس بحملها.

أجد في عينيها عيني أمي، وفي مبسمها مبسم أمي، وفي حنانها حنان أمي.

تصغرني بعشر سنوات، وتكبرني باحتوائها عشرات الأضعاف.

يوم تزوج أبي بعد رحيل أمي بمدة لم تكن كافية بعد لجفاف دمها

المتناثر على المرآة، ركضت إلى حضنها أبكي، كنت أبكي لأجلها، أخاف أن تبطش بها زوجة أبي الجديدة، أن تستغل براءتها، أن تخدش رقتها، أن تعامل ليتنها بقسوة، غير أنها كانت تطبطب عليّ تماماً كما تطبطب على دميتها الممزعة التي خاطتها لها أمي يوماً، واتخذت من أزرار معطفها القديم عيوناً لها.

تمسحُ دمعي تارة، ودمعها أخرى، ثم تنتشق قائلة: ما تخاف، رح يكون كل شيء منيح.

بعد زواج أبي قررت ألا أعود مجدداً إلى البيت، لم أكن أحتملُ وجود امرأة أخرى فيه، وقبل فراري حملت دم أمي مع المرآة، واحتفظت به في غرفتي، إلى جانب صندوق مجوهراتٍ صغير كان فيما مضى المكان الذي تخبئ به قلادتها المنقوشة على اسمها، حفظت فيه ما تبقى في يدي من كرة عينها.

هجرت المنزل وبقيت مرابطاً على الجبهة لأيام لم يهدَّني فيها شيء أكثر من شوقي لأختي، كنت أفكر بحالها مع تلك المرأة، أتخيل سيناريوهات ظلمٍ تتعرض له في غيابي، أتألم، يأكلني اللوم، ثم أنفض رأسي لأبعد عني وساوسي مواسياً نفسي بأن أبي معها، وبأنه لن يحتمل حزنها، كيف وهي مدللته وابنته الوحيدة.

أبي!!!

أأبلهٌ أنا؟! أبي لم يعد أبي، أبي مات يوم ماتت أمي، فهمتُ الآن لمَ أرغمني على ترك دراستي والالتحاق بصفوف المقاتلين يوم استشهاد

أخي، لم يكن همه أن أسدَّ الثغرة كما قال، لو كان مهموماً حقاً لملء تلك الثغرة لكان التحق هو بهم، لم يكن ليرسلني وأنا الذي لم أكن أُقوى بعد على حمل سلاحٍ أكبر من النقيفة.

لقد كان جُلُّ همه إبعادي عن المنزل ليتزوج فيه ويعيد بدء حياته كعريس جديد. أحقّاً كان ينتظر موت أمي ليتزوج بأخرى، أيُّ وفاءٍ هذا وأي عهد.

عندما أكبر سأصبح رجلاً لا كأبي، وأتزوج امرأة تماماً كأمي.

تحسس وجهه وخشونة يديه فزع لحاله: يا إلهي! لكني كبرت، وأصبحت لا مسؤولا كأبي، تركت أختي وهربت بنفسي، وأنا الذي تعهدت بحمايتها والوقوف بظهرها ومساندتها على الدوام منذ اليوم الذي أخذت فيه ربطة شعرها لأصنع منها نقيفتي، أوليس فراري بنفسي وتركها تواجه تلك الأزمة لوحدها خيانة؟

لا، لن أكون كأبي، لن أترك أختي كما تركني أبي، لن أرجح راحتي على راحة أختي كما فعل أبي، لا أريد أن أكون أنانياً كأبي!!

انتفض من مكانه وكأن عفريتا تلبسه، استجمع نفسه تاركاً قناصته ومكان رباطه ليلاً، وركض كهاربٍ من رصاصة، تسابق قدماه الريح نحو المنزل، كان يريد أن يثبت لنفسه أولاً ولأخته ثانياً وللعالم ثالثاً أنه ليس كأبيه.

وصل المنزل يلهث، انحنى راكعاً واضعاً كفيه على ركبتيه، يحاول أن يرتب أنفاسه بطريقة لا تقلق أخته، بقي بضع دقائق على تلكم الحال، ثم وقف، أخذ نفساً أعمق، رفع صدره، وراح يرتب شعره بأصابعه،

وينفض عنه ما علق به من غبار المعارك التي شارك بها في الأيام الماضية، دون أن يسمح له تشرده بالاستحمام بين معركتين!

أخرج سلسلة مفاتيحه من جيبه الداخلي، اختار مفتاحاً اعتاد عليه منذ صغره أنه السبيل لفتح هذا الباب، حاول أن يديره في القفل فلم يدر، شكَّ في كونه قد أخطأ باختيار المفتاح، أو أن أيامه المعدودة الماضية التي قضاها بعيداً عن هذا البيت قد سمحت لخلايا دماغه بمسح كل ما يتعلق به، عدا أخته وأمه.

أخرج المفتاح من القفل، اختار ثانياً، فلم يفلح، وثالثا، فلم يفلح، ورابعا، فلم يكن ذا فائدة، وخامسا وسادسا وسابعا، كان معتوهاً منذ صغره، مهووساً بجمع المفاتيح دون جدوى، لربما يعود سبب ذلك إلى حوارٍ سمعه يوماً يدور بين أخيه الذي طلب من أمه الذهاب لخطبة ابنة جارهم أبو يزن التي لطالما أحبها، وعندما عادت أخبرته بأن أهلها اشترطوا لموافقتهم أن يكون مع المتقدم «خمسة مفاتيح»، هي عبارة كانت معروفة في مجتمعنا للدلالة على وجوب أن يكون الخاطب ثرياً بما يكفي ليكون في جيبه مفتاح منزل وسيارة ومكتب عملٍ ومزرعة وأخيراً مفتاح خزنة ممتلئة بالنقود والذهب!

يومها لم يفهم قصي المقصد من الكلام، غير أنه عاين تعابير وجه أخيه الذي كساه الحزن والقهر والعجز، فشعر أن في الأمر خطبٌ ما، وأنه كلما كثر عدد المفاتيح في جيبك زادت فرص قبولك في المجتمع الذي تعيش فيه، فراح يجمع المفاتيح الصدئة، التالفة، القديمة، يجوب أرجاء الطرقات داساً رأسه بالأرضِ كنعامة ليفتش هنا أو هناك عن مفتاحٍ ربما سقط سهواً من جيب أحدهم دون أن يشعر، استمرَّ على عادته

تلك، ومع كلِّ مفتاحٍ يظفر به كان ينتشي، تتسع حدقتا عينيه إلى آخر حدٍّ، يرقص طرباً، وهو يقول: سأجمع كل مفاتيح الأرض، ولن أسمح لمفتاحٍ أن يحول بيني وبين الفتاة التي سأحب، كان كلما حاز مفتاحاً جديداً قبَّله ثم دسه في سلسلة مفاتيحه التي غدت أثقل منه وزناً لكنه لم يتعب منها يوماً، لقد عرف جيدا كمَّ التعب النفسيِّ الذي كابده أخوه لعدم امتلاكه سوى مفتاحٍ أو مفتاحين.

غير أنه الآن أمام الباب، ناقم على كلِّ مفتاحٍ جمعه، لأن مفتاح البيت ضاع بينها، كان يتوسل كل مفتاحٍ يدسه في القفل أن يرحم لهفته للوصول إلى أخته، دون أن يستجب لمناشداته أيٌّ منها، بقي في السلسلة مفتاحان، لم يكن هناك داعٍ ليجربها، أحدهما مفتاح غرفته، والآخر مفتاح الصندوق الذي احتفظ بداخله ببقايا كرة عين أمه!

اتكئ بثقل همومه منكسراً كمن يتكئ على كتفٍ مخلوع، وراح يفكر: هل يعقل أن أبي قد استبدل القفل ليضمن عدم دخولي إلى المنزل إلا بعلمه، هل وصل به الأمر إلى هذا الحد؟

لماذا؟ ماذا فعلت له؟ أنا ابنه، أو من المفترض أن أكون كذلك...

هل زوجته الجديدة هي من طلبت منه ذلك؟ ومن هي تلك المعتوهة أساساً، من هي لتأمر بتغيير قفل بيتنا؟ أحقاً هي أكثر مني قيمة عند أبي؟ مهلاً، إذا كانت بهذا السوء فماذا عساها قد فعلت مع أختي حلا؟!

راح يصرخ بأقصى تواترٍ يمكن لحباله الصوتية أن تهتزَّ به، تهتز فيهتز معها سكون الليل، يصدح عالياً باسم أخته وهو يخبط على الباب تارة بيده، وتارة بقدمه، وأخرى بكتفه، إلى أن استيقظ كلُّ من في الحي،

وبدأ الظلام يولِّي مدبراً هاربا من أضواء القناديل والشموع المتسربة من الشبابيك التي أنارها الأهالي للتعرف على وجه ذلك المجنون.

مدَّ أحدُ الرجالِ رأسه من نافذة غرفة في الطابق الثاني من البناء المجاور، وهو يصرخ عليه: ليش عم تصرخ بأخرة هل الليل وتخبط ع بواب الناس، لك مانك شايف العالم نايمة ولا ضاربك العمى؟

– وين راحو.. وينهن ... أبي.. أختي ... وينهن؟؟

– هاد انت... قصي؟، ليش ما عرفت انو أختك وأبوك ومرته طلعوا من الغوطة من عشرة أيام.

– طلعوا؟ لوين؟ وكيف طلعوا من هل الحصار؟

– راحو ع الشام طلعوا من النفق يسعفوا اختك.

– أختي؟!

– أختك انصابت بشظايا بعد ما قصفت طائرة الميغ السوق الشعبي، كانت عندي بالدكان عم تشتري خضرة وقت سمعنا صوت الطائرة، قلتلها تضل شوي ليبعد الخطر بس ما رضيت، قالت انو مرت أبوك رح تغضب عليها إذا تأخَّرت، وهي أصلا قوية وما بتخاف من الميغ، بس المسكينة ما لحقت تمشي كام متر إلا ورجعها ضغط الصاروخ لنص الدكان لا من تمها ولا من كمها، حملتها ع البسكليت لأسعفها، بس كانت عم تنزف كتير، وتتمايل ع كتفي متل قطعة عجين طرية.

– شو يعني ماتت، ماتت أختي؟؟

– أنا كنت مفكر انها ماتت، بس قدروا بالمشفى يوقفوا النزيف،

لكن حالتها كانت خطيرة ودخلت بغيبوبة وعرفوا بعد الفحص انها فقدت الإحساس والحركة من طرفها السفلي، بعد إصابة نخاعها الشوكي بشظية صغيرة كانت السبب بشللها بس الأطباء أصروا انو في أمل لإنقاذها بالشام.

وعى الجار لحجم المصيبة التي ألقاها على كاهل الصبي، وانسحب بهدوء إلى الداخل ومثله فعل أهل الحي وهم يهمسون: الله يكون بعونه.

لم ينصت قصي لأي منهم، كان يهوي، يهوي في غياهب ألمه تماماً كما يهوي على الأرض ممسكاً رأسه، ودافناً إياه في المساحة بين صدره وركبتيه، بكى وانتحب، رثا نفسه، ثمَّ راح يوعِّي كرضيع.

بقي على هذه الحال حتى شقَّ الفجر، عندها سمع أصوات خطوات أقدام مسرعة وأنفاسٍ لاهثة تقترب منه قاب ذراعين أو أدنى، لم يثر ذلك فيه أي شعورٍ يضطره لرفع رأسه، فبقي متقوقعاً إلى أن شعر بكعب بارودة تلكز كتفه، وصوتٌ غاضب: قوم وقف ع حيلك ولا... لتكون مفكر حالك قائد كتيبة؟ كيف بتترك موقعك وسلاحك وبتهرب بدون ما تأخد إذن أو تطلب تبديلك بقناصٍ آخر؟ اتحرك قدامنا تحرك لتتحاسب ع عملتك السودا.

لفَّ جندي ذراعه من اليمين، وآخر من اليسار، وشحطوه دون أن يبدي أي مقاومة، أو أن يفكر بالفرار، كان مستسلماً ليأسه، مستسلماً لألمه، مستسلماً لخيباته، كان سعيدا بالأيدي التي تمسك بذراعيه، لا بل كان ممتناً لها لأنها تُسيِّره وهو غير القادر على الوقوف من جهة، ولأنه كان

بحاجة ماسة لأن يشعر بأن ثمة من يلمسه أو يحضنه على سبيل المواساة من جهة أخرى.

ما أن وصلوا به إلى غرفة القيادة حتى انهال عليه الرئيس تعنيفا وتوبيخا.. نعته باللامسؤول، ثم أحاله إلى المنفردة بحكم الفرار والتولي، لم ينطق قصي ببنت شفة، لم يعارض الحكم ولم يقره، بل بقي صامتا ينتظر من يلف ذراعيه ليسوقه إلى السجن الذي رأى فيه استراحةً له من خبرٍ مفجعٍ جديد، بقي فيه عشرة أيام أكلت فيها ثعابين التفكير دماغه، كان ناقماً، حاقداً، ساخطاً، غاضباً، ثائراً، ومستكيناً في الوقت ذاته.

كان يتبصَّرُ ليل نهار، يبكي ليل نهار، يصرخ ليل نهار، يضرب الحائط بقبضتيه مرة، وبرأسه ألف مرة، كان يستدعي الموت فلا يجيبه، يستحضره فلا يأتي، يسترضيه فلا يرضى، يتوسَّله مناشداً: بدي روح عند أمي...

صوت صلصلة مفاتيح تقترب من باب الحجرة، يقفز قلب قصي من مكانه، يخال ملك الموت أتاه من الباب، يفرح بقربِ لقيا أمه.

صرَّ الباب وهو يُفتح، فوشت خيوط النور المتسلسلة منه عن خيالِ جندي ليس بتلك الضخامة التي تخوله لقب سجان، جندي هزيل بطول قصي أو يقصره ببضع سنتيمترات، لفَّ رأسه بوشاح أسود فما بانت منه سوى عينين عسليتين ناعستين، لم ينطق، ولم يسمح لأي تماسٍ مباشر بين العينين، بل اكتفى برفع المسدس وتوجيهه إلى صدغ قصي، ثم هرب ببصره نحو الكلبشات يتأكد من شدة إحكامها، بعد تفقد حالها أمره قائلا: امشِ معي ولاك.

وشى صوته الرقيق عن صغر سنه، لم يستجب قصي للأمر، بل بقي متسمراً يحاول النبش في ذاكرته السمعية عن صاحب ذاك الصوت المألوف. استنكر السجان إحجام قصي وعدم إطاعته للأوامر، فتظاهر بتغليظ صوته وزيادة حدة الأمر قائلاً: أطرش؟ عم قولك امشِ معي.

نقل الصوت قصي إلى طفولته غير البعيدة، إلى زاوية الحارة، حيث حفرة صغيرة، ودحاحل ملونة وصبيان صغار كان أكبر همهم الفوز بدحاحل أقرانهم.

راح يحدق في العينين العسليتين، يبحث فيهما عن براءة ولطف ألفهما، استغرب السجان نظراتِ قصي، فبادله إياها، اتسعت العينان حتى ملأتا الثقب السامح بظهورهما تماماً، تلكأ السجان وهو ينطق: قصي؟

رد قصي: يزن؟

أنزل يزن المسدس عن صدغ صديق طفولته، وضمَّه ضمة كادت أضلعهما تتحد من شدتها، بكيا حالهما، ومسح كلٌّ منهما دمع الآخر.

مدَّ يزن يده إلى الجيب الداخلي لبذلته العسكرية وأخرج منها ثلاث دحاحل، اثنتان صغيرتان متساويتان في الحجم، وثالثة أكبر بحجم كرة عينٍ، بسط كفَّه وقال: خدهن هدول من حقك، ضلوا عندي أمانة بعد ما ربحتهم مني بأخر مرة لعبنا فيها سوا، والكبيرة هدية الك مني، لتبقى ذكرى بيننا، لإني...

- لأنك شو؟

- لإني ... ما بقدر خبرك وإلا بيقتلوني.

- شو صاير يا يزن خبرني.

قرب يزن فمه من أذن قصي هامساً: يمكن تكون آخر مرة بشوفك فيها يا قصي، رح أنشق عن هل الفصيل والتحق بفصيل تاني بأقرب فرصة.

- صرخ قصي: شو؟

قرصه يزن وهو يطحن الكلمات بين أسنانه من شدة كزه عليها: لك فضحتنا وطي صوتك.

- وليش أخدت هل القرار المجنون يا فطحل زمانك؟

- لأنو ... لأنو الرواتب بالفصيل التاني أعلى من راتبنا هون.

- لك حمار أنت ميشان شوية ليرات زيادة بدك تعرض حالك للموت، مفكرني أهبل لصدقك؟

- اهدى شوي واسمعني، ما عنا وقت... أنا أصلا انضميت لهل الفصيل لأني سمعت أنو هو الفصيل يلي احتجز أبي وسرق منو سيارته الفان واتهمه انو متعاون مع شبيحة الأسد.

- شبيحة الأسد؟؟

- والله التهمة باطلة يا قصي، باطلة لفقولو ياها، وكل يلي عمله أبي انو كان يوصّل بالفان للمناطق القريبة من سيطرة النظام وكان يتعامل مع أشخاصٍ بيهربوا الخبز والعدس والبرغل، ويجيبها للمحاصرين ليسكتوا عصافير بطونهم. بس عناصر الفصيل اعتقلوه واحتجزوا سيارته وصاروا يستخدموها بعملياتهم العسكرية. دورت كتير عليه هون سمعت أخبار انو صفوه من

زمان بتهمة التجسس والتعامل مع ضباط النظام وأخبار انو عند فصيل تاني، بس ما لقيت جواب شفى قلبي، أنا يا قصي وقت انتسبت لهل الفصيل أكدت عليهم انو ما بكون إلا سجان، كان بدي كون قريب من سجونهم لأعرف أخبار عن أبي، أنا ما بدي كل هل الشغلة أصلا ولا بدي شارك بمعارك ولا بدي حارب أي طرف، كل يلي كان بدي ياه إني مثل دور سجان اضرب كف لهاد وسب هداك، اتظاهر إني معهن، أتصنع القسوة، ودوس ع إنسانيتي كل ما دست ع رقبة سجين من ولاد حارتنا، بس خلص ما عاد أقدر اتحمل.

- شو صار ما عرفت تمثل، كشفوك يعني؟

- يئست إني لاقي أبي عندهم، ومن فترة هزتني حادثة يا قصي لليوم ماني قادر اخلص من العذاب يلي سببتلي ياه، هزتني من جوا.

- خير؟؟

- بتتذكر العم سمير.

- بتقصد الختيار؟

- أي جدو سمير متل ما كنا نسميه، الفلاح الطيب، البسيط، المثقف حكواتي الحارة، اعتقلوا فصيلنا، بتعرف وقتها شو طلب مني قائد فصيلنا، يلي كان أشقى ولاد حارتنا وما بيكبرنا إلا بكام سنة؟

- شو؟؟؟

- طلب مني عذبه، وأرفسه ومرمغ بكرامته الأرض بتهمة أنه عم ينقل أخبار تحركاتنا ونقاط تمركزنا للفصائل التانية، تظاهرت

بالقسوة عليه، لكمته ع وجه وأنا كتير خايف من الموقف يلي انحطيت فيه، بس سنين جدو سمير ما صمدت قدامها، ومات.

- شو؟ قتلته يا مجرم؟ كيف طاوعتك نفسك؟ نسيت طيبته، رقته، تعامله معك، نسيت كم حكاية حكالنا ياه وكام عبرة أخدناها منه نسيت طعم البندورة والخيار يلي كنت تسرقها من مزرعته، ووقت كان يشوفك عم تاكلهم كان يبتسملك ويقلك: بالصحة والعافية يا ناعس العينين، نسيت كيف ساعدك لتتخلص من خوفك من القطط، يلي ما اقدرت أنا اتخلص منه لليوم، نسيت؟

- ما نسيت يا قصي ما نسيت، بس الحرب، الحرب الملعونة وقت بتحط روحك وروح شخص تاني بالميزان ما رح تكون إلا أناني وتختار حياتك مقابل حياته، لا تستغرب يا قصي يمكن يجي يوم تكون فيه نهايتك ع ايدي.

- أكيد ما رح أستغرب يا يزن، متل إني ما استغربت إنك حطيت مسدسك براسي من كام دقيقة.

ارتسمت ابتسامة عفوية على وجه صديقيِّ الطفولة، ساد بعدها صمت ثقيل قطعه قصي بسؤال يزن: يعني بدك تترك هاد الفصيل مو ميشان كام ليرة زيادة عند الفصيل التاني؟

- كرمال أبي وكرمال كام ليرة زيادة، بدي دور عليه بكل سجون الفصائل، ما بيعنيني من هل الحرب اللعينة مع أي فصيل أنا، يلي بعنيني هو إني لاقي أبي وإقدر أمن مصاريف البيت بعد ما تزوجت أختي الكبيرة يلي كانت تساعدنا بالمصاريف من شغلها بالتدريس.

- أختك تزوجت، ودخلك زوج أختك بخمسة مفاتيح ولا أهلك رضيو بعدين بأقل من هيك؟

- ما فهمت عليك يزن شو قصدك بخمسة مفاتيح؟

- ما يهمك عم امزح، مات أخي الله يرحمه وتزوجت أختك الله يستر عليها، ما في داعي نخوض بقصة معفنة متل أيامنا.

قطع مرور جندي يتفقد أحوال السجناء، حوارهما، فتظاهر يزن بالقسوة على قصي، وقاده بفظاظة إلى غرفة قائد الفصيل.

أخبره القائد بأنه قد عفا عنه، وبأنه لم يجد بين مقاتليه قنَّاصاً بدقته وبراعته، لكنه اشترط عليه ألا يترك نقطته مجدداً خلال أوقات مناوبته العسكرية، وإلا أعدمه.

استعاد قصي قناصته ثم خرج من غرفة القيادة دون أن ينبس بحرف، وراح يفكر في حال القائد الذي كان أحد شباب حارته، كان يكبره بعقدٍ ونيِّف، وكان يجيد الشجار والعراك والمواجهة، غير أنه لم يكن يجيد استخدام النقيفة بذات الدقة التي كان يحترفها قصي.

حار في وجهته، إلى أين يذهب، إلى بيتٍ لم يعد له فيه إلا حيطانٌ ميتة تحييها بعض الذكريات، أم إلى متراسه الذي يحول بينه وبين شبح الموت؟

اختار موته واقفاً في جبهته على أن تتلقفه الذكريات مستلقياً على سريره في بيته فتميته.

استلم نوبته، ثبَّت قناصته وهو المتقلِّب، راح يحدق بعدسة القناصة، يجول ببصره هنا أو هناك، علَّه يلتقط فريسة فتعيد له ما بقي من نفسه،

مشَّط المكان برمَّته، لاحظ حركةً في إحدى زواياه، صبَّ جام تركيزه عليها، كانت قطَّة هزيلة، تكاد أضلاعها تخرج لشدة نحولها، كانت تنبش في ركام الجبهة بحثاً عن قطعة لحمٍ سقطت من جسد جنديٍّ دون أن يشعر.

لا تأنف قطط الحصارِ عن أكل لحمِ آدمي، كما لم يأنف آدمي الحصار عن أكل لحم القطط، لَدَدٌ متبادل، وجوعٌ يُعلي أحكام شريعة الغاب بأن البقاء للأقوى.

شيء ما داخل قصي جعله يشعر أن القطط في الطرف المقابل من الجبهة حالها كحال البشر هناك، عدوٌّ يجب قتله، وخصم يجب سحقه.

وجد في بعده عن القطة فرصة للانتقام من عدوٍّ طفولته التي شكلت له القطط فيها فوبيا جعلت منه عرضة لسخرية أطفال الحارة عليه، وجه قناصته تماماً نحو الهدف، ركَّز فيه، ثمَّ صوَّب الرَّصاصة التي استقرت بين الأضلاع البارزة، راحت القطة تنتفض، كان يراقبها، ومع كل انتفاضة لها تتسع حدقتا عينيه أكثر، إلى أن سكنت تماماً، عندها أغلق عينيه وصرَّهما بشدة، فاعتصرَ دموعه التي راحت تنساب على خديه، رجع خطوات إلى الوراء ثم بدأ بالعويل والصراخ.

انتفاضة جسد القطة استدعت من بين تلافيف دماغه ذكرى انتفاضة أجسادٍ كثيرة في حادثة مُرة جرت أحداثها المفجعة قبيل استشهاد أمه بعدة أيام.

كان ذلك في إحدى ليالي آب الحارة التي منعت نسماتها اللاهبة قصي من النوم، مما استدعاه للخروج إلى شرفة غرفته ليراقب الظلم والظلام،

راح ينقِّل بصره في السواد الكالح الذي لا يشوبه إلا ضوءُ سراجٍ خجولٍ متسلل من نافذة منزلٍ لم تستطع الأمُّ فيه بعد إقناع أطفالها بالنوم أو التحايل عليهم بقصص ما قبل النوم لإلهائهم عن سماع أصوات القصف تارة، وعن صوت قرقرة بطونهم الجائعة تارات أخرى.

ففي بقعة جغرافية محاصرة مخنوقة أصبحت المهمة الأصعب في يومِ كلِّ أمٍّ هي أن تقنع صغارها بعبارة: (نفذ الحليب بسبب الحصار، لا يوجد خبز نتيجة الحصار، ليس لدينا ما نأكل اليوم لأن شدة الحصار تزداد، لم يستطع والدكم تأمين مستلزمات الطبخ فالحصار خانق، وغيرها...)

كيف لطفلٍ صغيرٍ لم تتزن مخارج حروفه لينطق بشكلٍ سوي بكلمة (حصار) دون أن يلثغ بصادها أو أن يبدل برائها لاماً، أن يفهم معناها.

فهم مصطلح الحصار بالنسبة للأطفال أمر معقَّد، ولذويهم أكثر تعقيداً.

لم يكن حال قصي بأفضل من بقية الأطفال، غير أنه كثيراً ما كان يكابر بالنسبة لمسألة تحمل الجوع، وعليه ابتكر آلية تساعده على التَّصبر، فكان يربط حزامه الجلدي على بطنه ويشدّه إلى أقصى حد ليمنع عن نفسه شدة الجوع، علّه بهذه الحركة أن يوهم نفسه بالشبع فيتمكن من إيثار أخته الصغرى بلقيماته المعدودات.

واقفاً عند حافة الشرفة، عاطفاً جذعه، حانياً رأسه نحو الأمام، ضاغطاً بحافة سور الشرفة على بطنه، محدِّقاً في الخواء أسفله، هكذا اعتاد قصي أن يقضي لياليه يأنس بأصوات الموسيقا الصاخبة التي تعزفها آلات الموت كل يوم وكل ليلة، لتطرب أهالي الغوطة بسيمفونيات الهلاك.

لم يكن يهتزُّ له جفن عند سماعه لأي صاروخٍ أو مدفعية، شيء من حالة اعتيادٍ أو تأقلمٍ كانت قد هيمنت عليه، لم يكن يفكر حتى بالاختباء أو الاحتماء أو الهرب، بل كان يكتفي بالعد، عدِّ أصوات القذائف، المدفعيات، الانفجارات، بل وحتى أصوات الرصاصات في بعض الأحيان.

هي عادة اعتمدَها قصي ليواجه بها خوفه مذ بدأ النظام بمواجهة المظاهرات السلمية بالرصاص الحي إبان اندلاع الثورة السورية، كان يركض بأقصى سرعته ويجد لنفسه زاوية يحتمي بها، ثم يبدأ بعدَّ الرصاصات ليشغل نفسه عن التفكير بها بعدها.

قاربت الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وقصي لازال على هيئته الأولى، رفع رأسه قليلاً، فلفحته نسمة ساخنة من نسمات ليالي آب، أعقبها رشقة صواريخ استقرت بعيدا، راح يرقب انفجاراتها ليحصي عددها بدقة، غير أن جميعها لم ينفجر بذات الآلية التي عهدها وألفها سابقاً.

فرح لذلك، ظناً منه أنها قد تكون من فئة الصواريخ العتيقة التي وفرها الأسد الأب من حرب نكسة حزيران عام 1967 عندما كان وزيرا للدفاع كما أخبرهم جدو سمير - وقتها أمر حافظ ذاك انسحاب الجيش السوري وأعلن سقوط القنيطرة بيد إسرائيل حتى قبل أن تدخلها إسرائيل، إذا قد تكون تلك الصواريخ من تلك الحقبة التي ادخرها الأب وأورثها لابنه كي يحارب بها شعبه بدل أن يستعملها في صد العدوان الإسرائيلي الذي احتل الجولان آنذاك.

بعد رشقة الصواريخ الصدئة تلك ساد صمت مريب، صمت مهيب، صمت مخيف، صمت لا يشبه الصمت.

انتشل قصي من صدى الصمت ذاك صوت حركة متخبطة أسفل الشرفة، حدق باتجاه الصوت بحذر، لكنه لم يتمكن من تحديد السبب، دخل الغرفة على عجل، التقط شمعة أنارها وخرج بها، عاود التحديق بجهة الحركة مجدداً، فبانت له قطة تتلوى كأفعى، قطة مجنونة عاجزة عن المواء، تتحرك بشكل لا منطقي وغير مدروس، تتقلص عضلاتها بشكلٍ مرعب، رابه أمرها، لكنه خمن أنها تلعب ربما، أو أنها قد تصارع حتفها كأي كائن حي انتهت أنفاسه المقدرة له.

أعادت تلك الحركات له ذكرى قطة الجد سمير، التي كانت تشكل له عقدة لم يستطع الانفكاك منها، فكان يمقت وجودها محاولاً بكل ما يملك من وسيلة ألا يقابلها، يتذكر أنه في إحدى زياراته للمزرعة بحث عن جده في الأرجاء، ناداه كثيرا دون رد منه، فتوجه نحو مسطبة اعتاد الجد أن يزرع فيها الخضار في مواسم الصيف، اقترب منها أكثر، وهو ينادي: وينك يا جدو سمير وينك؟

سمع قصي حينها من إحدى الجهات صوت خشخشة صادرة عن تهشم أوراق يابسة تحت قدمين ضخمتين، ليستا كقدمي الجد التي اعتاد أصوات خطواتها، التفت فزعاً، ممرراً بصره من الأسفل إلى الأعلى ليمشط تفاصيل ذلك الشيء العملاق الذي يشبه كائناً فضائياً سقط سهواً إلى الأرض.

تيبست قدما قصي، غير أنه سرعان ما بدل خوفه أمناً عندما سمع صوت جده تصدر من داخل ذلك الزي الغريب. رفع الجد القناع ذا الخرطوم عن وجهه، وبدأ بخلع البذلة الواقية والحذاء الضخم الذي تسبب بإصدار صوت تهشم الأوراق ذاك.

سارع قصي بالسؤال: شو هل الزي الغريب يلي لابسه يا جدي؟

رد بابتسامة: كنت عم بخ المبيد الحشري لإنقاذ محصول الصيف هل السنة، لأنني إذا ما عملت هيك ما رح تترك الحشرات والديدان النا حبة بندورة وحدة.

همهم قصي برأسه، ثم راح يطلق بصره يمنة ويسرة ليتأكد أن القطة ليست في الأرجاء، استغرب لمنظرها وهي تخرج ثملةً من بين الشتلات المبخوخات بالمبيد حديثاً، تتمايل كالسكران، تراجع بدوره عدة خطوات قبل أن يهم بالركض هرباً، غير أن جدَّه صاح به: ناولني خرطوم المي بسرعة!

أمسك قصي بخرطوم الماء الذي كان موجهاً لسقاية المحاصيل وناوله للجد سمير الذي أدراه نحو القطة التي صار حالها وكأنها خرجت للتو من بركة سباحة.

استغرب قصي ما رآه من ردة فعل الجد الذي بدأ يشرح له قائلا: يبدو أن القطة تعرضت لجرعة عالية من المبيد، رح احكيلك يا قصي قصة ونحنا عم نشرب كاسة شاي عن شي بيشبه حال القطة، تعا معي لخبرك.

لطالما كان قصي يأنس بحكايا الجد سمير التي لم تكن كغيرها من حكايا الجن والعفاريت والأشباح، فثقافته الواسعة على الرغم من كونه فلاحاً وحكواتياً بسيطاً كانت نقطة قوة تحسب له، اهتمامه بالتاريخ وربط أحداثه بمتغيرات الواقع كان أكثر ما يشد قصي ورفاقه لأحاديث الجد.

كان يجد عنده توأمة الأحداث، ونسجاً لخيوط الماضي والحاضر

لتنتج حبكة معقدة متشابكة تساعد بشكل أو بآخر على فهم ما يدور حوله.

راح قصي يجمع شيئاً من الأغصان الصغيرة اليابسة لإعداد موقدٍ صغيرٍ استقرَّ عليه إبريق الشاي منتظرا بشوق سماع القصة التي وعده بها الجد سمير.

تحلق منصتاً لما سيقال، راقب الجد وهو يرتشف كأسه الساخن ببطءٍ قبل أن يبدأ كلامه قائلاً: بتعرف يا قصي انو في شي بيشبه يلي انت شفته اليوم، صار وسبب منعطف تاريخي بحياة البشر؟

- كيف؟

- شفت حال القطة؟ وكيف عم تتمايل وهي متأثرة بالمبيد؟

- شفت.

- بعام 1939 ومع مطلع الحرب العالمية الثانية طور عدد من العلماء الألمان مبيداتٍ حشرية في سبيل استخدامها للقضاء على آفة الخنافس السوداء يلي صابت البلاد وقتها، وقت رشوه لاحظوا انو حيوانات المنطقة تأثرت كمان، وصاروا يموتوا واحد ورا التاني، هاي الحادثة كانت سبب بتعريف العالم ع غاز الأعصاب، المشهور بالسارين.

- السارين؟؟ شو هاد السارين؟

- السارين هو غاز قاتل، متل غيره من الغازات السامة، لكن هو أشدّهم فتكاً، بصيب الجهاز العصبي للإنسان، وبسببلو الاختناق وصعوبة التنفس، وفوقها بخليه يختلج ويتشنج ويفقد بصره،

وغالباً ما بيتسبب بموته إذا كانت الجرعة يلي استنشقها أو لامست جلده كافية لتقتله.

هتلر سمع بخبر هل الغاز، وطبعا واحد متل هتلر أكيد ما رح يترك هيك خبر يمر مرور الكرام بلا ما يستفيد منو بخدمة إجرامه، لهيك أنشأ مصنع لهل الغاز السام ليستعمله كسلاح حربي ايمتا ما بدو.

– وهتلر هاد استخدم هل السلاح وقتها؟

– لا.

– وليش لا؟ وقفت ع السارين، أي ما ضل سلاح ما جربه ع البشر؟

– هاد الشي يلي حيرني وحير كتيرين يا قصي، في رواية من الروايات بتقول انو هتلر تعرض أثناء الحرب العالمية الأولى مع أصدقائه في الخندق لضربة من غاز الخردل السام، ففقدع أثرها بصره لفترة، وعانى بسببه من التسمم، لهيك كان عندو خوف من استخدام الغاز السام لإنو بيذكره بالموت يلي كان رح يجيه بسببه، طبعا ما حدا لليوم مقتنع بهل الرواية، بس يعني بتضلها قصة.

استمر النقاش بين قصي وجده إلى أن قطعه اقتراب القطة منهما، مما دفع قصي إلى ترك المجلس والفرار منها كعادته إلى بيته.

القطة الآن تتلوى تحت الشرفة، حالها تماماً كحال قطة الجد وهي خارجة من بين المزروعات المبخوخة، غير أنه ما من مزروعات وما من مبيد حشري في الأرجاء.

أثار الأمر ريبة قصي، وأثار الصمت المطبق الذي ساد بعد رشقة الصواريخ تلك ريبته

أكثر وأكثر، هدوء كهذا مخيف، وفي صوت القذائف أُنس له، لانَّ صمتها يعني حدوث فاجعة أكبر.

بدأ قصي يشعر بالصداع، وانتابته حالة من ضيق النفس، ظنَّ أنه يتوهم هذا، أو أن سهره لهذه الساعة المتأخرة هو السبب في اختلال توازنه، أو ربما تذكُّره لموقف جده والقطة والمبيد وهتلر هو ما جعله يعيش الحالة.

توجه نحو السرير بوهن، استلقى عليه، راح يجاهد نفسه لأخذ شهيق فلا يتمكن، يعصر رئتيه لإخراجِ زفير فلا يتمكن، ضاقت حدقتا عينيه، وراح ينتفض على سريره كما المحتضر، يختلج كما المصروع، تتقلص جميع عضلاته بذات اللحظة، تلوح يده في الهواء، تليها قدمه، يتقن رقصة غريبة لم يتعلمها قبل البتة، يتفاجأ من مهاراته البهلوانية تلك، يحاول النزول عن السرير غير أن عضلاته لم تعد تطاوعه، جسمه لم يعد تحت سلطته، فسلطة السارين كانت أشدَّ تأثيراً ونفوذاً على جهازه العصبي.

لم يكن وقتها على دراية بما حلَّ به، أو بما آل إليه مآل جسده، غير أنه كان يحاول الفهم، فهم المعطيات ليتوصل للنتائج تماماً كما تعلم من جدِّه.

أحسَّ بأخيه يقتحم عليه غرفته واضعاً قطعة قماشٍ على أنفه، يركض نحو سريره وهو يهمهم بكلماتٍ لم يفهمها ولم يستطع قراءتها من شفتيه المغطاتين، يحمله ويجري به، ينزل به الدرج، يودِعه شاحنة تعجُّ

بالأجسادِ الخالية من الأرواح أو تكاد، لم يكن يدري ماذا كان الناظر إليه يحسبه وضمنَ أي عِداد.

كانَ قصي يفترشُ أجساداً، وتعتليه أجساد، لم يكن يعلم في أي طابق من طوابق الأجساد المكدَّسة قد استقرَّ، رِجلٌ تركل خاصرته، وقبضة تلكم وجهه، وقدمٌ متكززة ترتكزُ على صدره، وحدقات دبوسية تبحلق في الخواء، لم يكن يلومُ أحداً على ما يوجه إليه من ركلات، ولم يكن بدوره ليعتذر ممن يوجه لهم لكماته، فلا أحد هنا يعي ما يفعل.

توقفت الشاحنة في إحدى الحارات المظلمة، وبدأ إنزال الأجساد تباعاً، منها من تنزل الروح معها، ومنها من تصعد.

كانت الحارة مرصوفة بالبشر عوض الحجر، تخال السماءَ أمطرت جثثاً أو نبعتها الأرض، كانَ قصي واحداً منهم، غير أنه لم يكن ميتاً، بل كان لا يزال يرقص رقصة الموت، لربما لم ينتبه لحاله أحد، فالجميع ذهول، أقبلَ أناسٌ يمسكونَ خراطيم مياه يركضون من بعيد، يحاولون توجيه المياه إلى الوجود والأجساد في محاولة لإنقاذِ من استطاعت روحه التشبث به حتى اللحظة، استبشر قصي بخرطومِ الحياة ذاك، علَّ مياهه تنقذه كما أنقذت قطة جده ذات يوم.

يقالُ إن للقطة سبعة أرواح، أمِلَ أن يكون له أيضاً مثلها، فينجو.

ودَّ لو يوصل للمسعفين رسالةً أنه لا يزال يقاوم، غير أن صوت حشرجة الموت كان أعلى من صوته، وحركته تنبئ عن رقصة الهلاك.

بقيت عيناه معلقتان بصاحب الخرطوم، يرى فيه جده، يرقب اقترابه ودفقه للماء على وجهه، ظلَّ يبحلق بهم إلى أن بدأ يشوب مرآةُ الغباش،

تذكَّر هتلر، وعماه المؤقت، فكَّر بهتلر دمشق طبيب العيون، وكيف أن الأول تنزه ربما عن استخدام السلاح الكيميائي لأنه ذاق عمى البصر وآلامه فيما الثاني طبيب البصر أعمى البصيرة.

فقد قصي قدرته على رؤية ازدحام الموت، على رؤية اختناق الحياة، على رؤية الهروب من الهواء.

كاد أن يستسلم لحتفه، لمصيره المحتوم المشابه لمصير المئات من حوله، غير أن دفقة جديدة من الماء أعادته لوعيه، وجعلته يتشبث ببقايا روحٍ ليست تدري كيف لها أن تصارع الهواء.

سيق إلى مكانٍ لا يدري أين هو، فالظلام الذي سيطر على مقلتيه جعله جاهلاً بكل ما يحدث حوله، والاختلاج الذي لا يزال يرجُّه شوش عليه كل الاشارات الخارجية.

ذاك المكان كان يضمُّ الأشخاص الذين غلب احتمال الحياة عندهم احتمال الموت، وصول قصي إلى مقامٍ كهذا يعني أنه ولد من جديد.

أيامٌ مكثَ دون نور، وهي نفسها الأيام التي مكثتها أسرته في ظلام البحث عنه بين النقاطِ الطبية والمشافي والمقابر. أسرته التي استطاعت الفرار من الهواء القاتل والنجاة بأرواحها بأقلِّ الخسائر الممكنة.

بقي قصي في صدمته تلك، إلى أن أفاقته منها صدمة استشهادِ والدته.

على الجبهة، وراء المتراس وبعد قنصه للقطة راح يختنق كما اختنق ليلة الكيماوي، شعر بضيقٍ كبير، ليس ضيق تنفسي هذه المرة، بل ضيق نفسي.

فكر أن حدة بصره التي خولته ليكون قناصاً والتي ساعدته ليصيب القطة بدقة متناهية قد فقدها لأيامٍ، تماماً كما حلَّ بهتلر.

شعر بأنه حاز من هتلر شيئاً من إجرامه، وإلا لماذا قتل القطة وهو الذي كان لا يطاوعه قلبه لقتل نملة سابقاً.

اجتاحته رغبة عارمة بالموت، بالانتقام من نفسه، بالهروب من واقعٍ لم يشأه، بالفرار من حياة لم يردها، كان يود أن يكون الآن في حضنِ أمه، أو في باحة مدرسته، أو حتى في حارته يمارس حربه بنقيفته لا بقناصته، ولكن شاءت الحرب غير ما تمنى.

انتظر انتهاء نوبته، ليعود إلى حيطان وذكريات كانت تسمى ذات يومٍ بيتاً، وقف أمام الباب الموصد، وجه قناصته إلى القفل تماماً، أطلق، كسر القفل ودخل.

خطى أولى خطواته في المنزل، شعر بهالة عظيمة، تدفعه تارة داخله وأخرى خارجه، يخطو خطواته مذهولاً، وعلائم الدهشة تعتريه وكأنه لم يعش يوماً في هذا المكان، وصل صوب المطبخ، وبدون وعيٍ نادى: ماما أنا أجيت، شو طابخة اليوم؟

رائحة اللاشيء التي كان يشتمها ذكَّرته بأن لا أمَّ هنا، كل ما بقي منها كرة عينٍ وبضعٌ من قطرات الدم المصطبغة على المرآة.

ركض باتجاه غرفته، استلَّ سلسلة مفاتيحه المثبتة بكمر بنطال بذلته العسكرية من الناحية اليسرى، اختار مفتاح غرفته دون أن يحتار فيه بين المفاتيح الأخرى، أدار المفتاح في القفل، دخل الغرفة بلهفة، ضمَّ المرآة بشوقٍ وكأنه يضمُّ أمه، احتضنها، ألصق خَدَّه مكان ارتطام عين أمه بها، فجُرح خدُّه بمكان الكسر فيها، سال دمه عليها، فالتقى بدمِ أمه، حنَّ الدمُ للدم، كما حنَّ الولد للأم، راح يبكي، ليس لألمِ الجرح، بل

لألم الروح، اختلط دمعه بدمه ودم أمه، أحسَّ بقربها، رأى في وصول دمعه إلى دمها فضفضة أو بثَّ شكوى، يعلم أنها بجانبه، روحها ملاصقة لروحه، كما دمها ممتزج بدمه.

لفَّ المرآة بكلتا يديه، وراح يلتهم الهواء بكلتا رئتيه، عله يجد ريح أمِّه، غير أنه ما اشتمَّ سوى رائحة نتنة تنبعث من مكانٍ ما في الغرفة، ترك المرآة متتبعاً مصدر الرائحة التي قادته إلى الخزانة، فتحها، ازداد زخم النتن، مدَّ يده نحو الصندوق في الرفِّ الأعلى، حيث عين أمه، انتشله من بين الغبار، حمله بحذر، وضعه أرضاً، أمسك المفتاح القديم ودار به، رفع غطاء الصندوق، لم يعد يحتمل الرائحة، سدَّ أنفه بيد وأكمل رفع الغطاءِ بأخرى، فبانت له كرة من الديدان التي التهمت كرة العين، بدا المنظر مريعاً شنيعاً، صرخ: أوغااااد، ليش أكلتوا عين أمي؟

راح ينفض الديدان يمنة ويسرة، يريد التحقق مما بقي من عينها، لا شيء، لا شيء تماماً سوى فضلاتِ الديدان.

ركل الصندوق بقدمه، فافترشت الديدان أرض الغرفة، وسال من الصندوق المقلوب سائل مائي لزج.

ترك تلك الفوضى وركض تتبعه دموعه، خرج من البيت لا يدري وجهته، ركض طويلاً إلى أن أوصلته قدماه إلى حارة صغيرة هجرها أهلها منذ سيطرة السلاح على الحياة، تاركين ذكرياتهم وخربشات ضحكاتهم على جدرانها، وإلى زاوية إحدى الحيطان حفرة صغيرة تسكن فيها قبضة كف مضمومة، عادة ما يحفرها صبيان الحارات لتكون هدفاً أثناء لعبهم بالدحاحل، تذكر تدحرج كرة عين أمه كما الدحاحل التي كان يلعب بها

صبياً، وتذكر صديق حارته المفضل يزن، صاحب لقب ملك الدُحل، تذكَّر لقاءه الأخير معه، عناقه الأخير، كلماته الأخيرة، حنَّ له وحقد عليه في ذات الآن، كيف له أن ينطق بكلامٍ قاسٍ كذاك، كيف له أن يُصيِّرَ صديقه عدوَّاً ليس بينه وبينه إلا حد السلاح؟

راح يفكر بطفولتهما التي لم تنته بعد، يعد لحظات الفرح بينهما، لحظاتِ الصداقة، لحظاتِ الصفاء، إلى أن قطع ذاك الصفاء صوت إشارات قادمة من اللاسلكي، تصدح بوجوب التوجه العاجل إلى الساحة الرئيسية للمدينة من أجل التصدي للهجوم المباغت الذي شنه العدو، فكر قصي بكلمة عدو، من هو العدو؟، هل من المعقول أن قوات الأسد اخترقت لب الغوطة بهذه السرعة؟ يستحيل ذلك، فقصي لم يمض على تركه لمكان نوبته سوى سويعات قلائل، ولم يكن الجو العام قبلها ينبئ بأي كارثة محتملة، بل على العكس تماماً لم يرَ حتى في نوبته كلها على الطرف الآخر سوى قطةً كانت هدفه فقضى عليها، حار في الأمر، باغتته أصواتُ رصاصاتٍ قريبة، تلتها رشاشات واشتباكات، ثمَّ إشارة واردة من اللاسلكي تنبأ بضرورة توجه القناصة قصي تحديداً إلى سطح مبنى بلدية المدينة، حيث النقطة الأعلى التي تكشف الساحة برمتها، إشارة لاسلكي أخرى التقطها، لم تكن بأصوات أو بأسماءِ قادة أو عناصر فصيله العسكري، بل هي عائدة إلى الفصيل الآخر، المناهض إن صح التعبير، والذي أراد يزن الانضمام إليه.

فهم من الإشارات التي التقطها أن المعركة التي يتم التأهب لها ستكون بين إخوة الدم والسلاح، ستكون بين الفصائل، تلك التي قاتلت يوماً صفاً بصفٍّ ضد العدو الحقيقي، حينما كانت الغاية أسمى، والهدف أنبل.

إشارة أخرى تطلب قصي إلى أرض المعركة، ليقود القناصة على سطح بناء البلدية، وإلا سوف يتم اعتباره خائناً منحازاً للعدو، وسيعامل معاملتهم، ولا سيما بعد أن اعتبرت الهيئة الشرعية لكل فصيل عناصر الفصيل الآخر أعداء، تستباح دماؤهم وتحل.

دقائق وقصي معتلي سطح بناء البلدية، كاشفاً الساحة برمتها، مراقباً تحركات عناصر الفريقين، كان مستغرباً من ضراوة المعركة وحدتها، من الأسلحة المستخدمة فيها التي لم تُرَ في معاركهم مع جيش الأسد، من الذخائر التي يتذرعون بقلتها عند كل هزيمة.

كان مذهولاً، مصدوماً، مشدوهاً أمام الفجيعة.

أمر من القائد لقصي بتتبع عناصر انسلوا من أحد الفصيلين باتجاه الآخر، وقنصهم لكونهم يسعون إلى التجسس، وأي تقاعس من قصي في أمر المهمة سيعتبر خيانة وتواطؤ، سيتوجب عليه حكمٌ لا يحمد عقباه.

خطر بباله كلام يزن، عندما قال له بأنه عندما توضع روحك في كفة وروح أي أحد في أخرى فستختار روحك لا محالة.

تذكَّر قصي الأيام العشرة التي قضاها وحيداً في الزنزانة المنفردة، تذكر البرد فيها والجوع، والعطش، والظلمة، والآهات. فكر: لقد عفى عني القائد عند تركي لمهمتي في المرة الأولى، ولكنه يستحيل أن يعفو عني إن كررت فعلتي، ولا سيما أن المعركة على أشدها.

نداء جديد بضرورة رصدِ المتسرِّبين وقنصهم، لا سيما أنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من مدخل بناء البلدية.

نصب قصي قناصته، آخذاً وضعية الاستعداد خلفها، ركز نظره

نحو الهدف، حدده بدقة متناهية، استجمع قواه ضاغطاً الزناد، انطلقت الرصاصة سريعة، سريعة جداً، تابع مراقبتها، كانت تقترب من الفريسة، وصلتها، اخترقت قحفها، مزقت نسيج دماغها، ثم خرجت من محجرها الأيمن بعد أن ركلت كرة العين منها لتصطدم بحائط مبنى البلدية، تماماً في مكان ارتطامِ كرة العين قبلاً.

كان قصي يرقبُ المشهد دونما دهشة، فسيناريو كهذا طبق أمام عينيه من قبل وكأنه الآن يعيد تمثيله ليس إلا، كان يسمعُ صوت تحطّم جمجمة فريسته على الرغم من صخب الموقف، يرى بعينه انبجاسَ كرة العين، ثم يعاين تهاويها وتهاوي الجندي.

نزل سلالم المبنى العشرة بلمحِ البصر، توجه مباشرة نحو مكان إستقرار كرة العين، حملها بنشوة، رفع يده عالياً بها، وراح يرقص فرحاً، هاتفاً: هذه بتلك، هي ذي بكرة عين أمي، هي ذي كرة عينٍ عوضاً عن كرة الدود.

توجه نحو فريسته المقتولة ليشكرها على هديتها المميزة، التي كانت كالدحاحل المهداة له من صديقه يزن، ركل الجثة المطبوبة بقدمه ليتسنى له شكرها فبانت له عين عسلية واحدة ناعسة، بان له وجه يزن.

كل هذا المطب والانكسار الذي تسببت به آلة قتل منظم شوهت أرواحنا، لم يشفع لملايين صرخوا «حرية للأبد غصب ال عنك يا أسد»، فرد عليهم دوسا بأن جعل «الحرية يلي بدكين ياها» تحت نعل البوط العسكري فـ«الأسد أو نحرق البلد» واختار ضمانا لمستقبله «الأسد ونحرق البلد» طمعا بأن يكون خالدا كأبيه ولو على مملكة من الجماجم، كأي طاغية عَبَرَ التاريخ وانتهى بقبر يأكله الدود.

هي حرب بدأت منذ عقود جرى التحضير لها في اللحظة التي صار فيها الوطن سجنا...

حياةٌ بلا سياسة تحول الوطن لحظيرة، حياة بلا ثقافة تحول الوطن لصحراء قاحلة، وعندما تصير الحياة باللون الرمادي سنصاب بعمى الألوان وستصطبغ خارطة الوطن باللون الأحمر. سيبني النظام نظاما بديلا دولة عميقة مرعبة عمادها السجون والأفرع الأمنية، سيسد الدين فراغ السياسة ليصير الشيخ دولار سيد موقف، سيضيّع الانتقام بوصلة ثورة لم تجد من يقودها لبر الأمان فيحفر قصي القناص قبرين واحدة لصديق طفولته وآخر لروحه.

الثور «الضحية» لا تثيره قطعة القماش الأحمر التي يلّوح بها المصارع «القاتل» أمامه، أبدا فهو مصاب بعمى الألوان يرى من الحياة الرمادي فقط، ما يثيره هو المصارع نفسه استفزازاته، حركاته، استثارته ليخرج منه أعنف ما فيه، عندها يصير المصارع ضحية والثور قاتل. عندما يثور الثور مشاركا المصارع استفزازاته، سيمنحه صك البراءة من دمه ليغرز سيفه عميقا في قلبه. وما كان عنف الثور إلا ردة فعل على عنف المصارع كحالنا.

وحده العقل يصنع الفارق، يضبط البوصلة إن كان أهلا لذلك، إن دربناه جيدا، ثقافة وفكرا متنورا، على التمييز بين الأنا لتحقيق خلاصنا الفردي والنحن لخلاصنا الجماعي، ولكن عقلنا كان مدجن لعقود وعقود في سجون صغيرة تكاثرت كبراز الخراف لتحول الوطن لسجن كبير، والمثقف قطعة قماش مهترئة لمسح القذارات التي تتراكم على جسد الطاغية ونظامه.

كان ربيع مثله مثل كثير من المثقفين. يرى النظام على أنه مثال للعلمانية، لا يكلّف هذا المثقف نفسه عناء النظر فيما حوله أو حتى لنفسه. ماذا قدم له النظام بعد كل هذه الإنجازات على صعيد الفن والشطرنج والتعليم؟ أين الأندية العلمية والرياضية والثقافية! أين دور المسارح والسينما التي أغلقت أبوابها مع بداية الثمانينات. بنى النظام الجوامع ودعم الحركات الدينية المشبوهة، ليخلق نظاما بديلا يرعب العالم إن فكر باستبداله يوما. بنى المخافر بدلاً من المستوصفات، بنى الصروح على شكل سجون وبنى السجون على شكل جحيم!

برجه العاجي

رافي ميناس

- 1 -

راح ربيع يمشي في شوارع مخيم اليرموك ومشاعر غريبة أخذت تمتزج وتختلط في قلبه الذي لم يعد يعمل مثل ذي قبل. بعد إصابته بتلك الأزمة القلبية في السنة الثالثة للحصار، بات ربيع رجلاً كبيراً في السن؛ وكأن تلك الأزمة الصحيّة دفعته على خط العمر عقداً كاملاً إلى الأمام. كانت المشاعر تمتزج بهدوء كما يمزج ألوانه على اللوحة الخشبية. شعور بالبطولة والنصر لبقائه في المخيم ولبقائه حيّاً بالتحديد. الجوع والعطش لم يكونا مصدر تهديد له، بل أولئك الذين حملوا السلاح وراحوا يقتلون أي شخص أمامهم «فقط» لإرضاء الغريزة الحيوانية الوحشية في داخلهم. كان يخشى أبو مصطفى الذي لم يعد يخشَ شيئاً. بيوته وأثاثها لم تعد تعنيه بشيء، كل ما كان يعنيه -هو وغيره- البقاء. غريزة البقاء والحياة أقوى من مخالب الموت. ولكي تقص تلك المخالب، عليك أن تتغير، تتأقلم، تتكيف على العيش بين الوحوش بدلاً من العيش في مدينة.

وصل ربيع إلى منطقة الجاعونة، دخل في الشارع الضيّق كعادته، محاولاً لململة تفاصيل المكان مع الحجارة المتناثرة لإعادة بناء الذاكرة

والصورة حول هذا الشارع. وكعادته أيضاً، كان ينظر إلى الشرفة الوحيدة المتبقية في ذلك البناء، في الطابق الثاني، تحديداً على أبو ناجي الذي اعتاد الجلوس هناك كالتمثال. يضع رجله اليمنى على اليسرى ويدع شحاطته تلوح في الفضاء كشرفة الطابق الأول التي قد تهوي في أي لحظة. يسند كوعه الحاد على فخذه اليمنى أو عظام فخذه، ويدخن سيجارته التي لا تنتهي متأملاً في عدم هذا الوجود.

لمرات عديدة ظنّ ربيع أن أبا ناجي مجرد خيال، أو أنه ميت ونسي أهله أن يدفنوه. يقف دقيقة أو أكثر يتأمل سكونه وصخب هذا السكون؛ «والله إن خلف هذه الصفنة حكاية كبيرة، كبيرة جداً» ... «لا حول ولا قوة إلّا بالله» كان ربيع يطلق مثل هذه العبارات قبل أن يطلق قدماه للغبار ويعود إلى شقّته.

للوصول إلى الشقّة، كان لابدّ من المرور في الشارع الفرعي ومصادفة اسكوبار المخيم وإلقاء التحية عليه «من قفا يده». كان أبو مصطفى أو الملقّب بـ«اسكوبار المخيم»، يجلس أمام بنائه المتهالك على كرسي بلاستيكي متهالك ويرمي بنكاته وضحكاته وكأنه من عالم آخر. قبل الحصار، كان أبو مصطفى، من يلدا، مشهوراً بعقاراته ومحلّاته وأمواله الكثيرة. كان من أولئك السوريين الفلسطينيين الذين لا يهتمون للسياسة ولا للقضية ولا لغيرها من الأمور التي تشغل أي فلسطيني منذ يوم النكبة. كل ما كان يهمّه هو الأرقام التي كانت تدخل وتخرج في خزينته ودفاتره. لم يعد اسكوبار شهيراً بكرشِهِ الكبير ولا بأموالِهِ التي أكلتها النار -حرفياً- بعد أن راهن نصف أهالي المخيم على انكسار اسكوبار أثناء الحصار، وقد خسروا الرهان جميعاً؛ فبعد الحصار لم يمت اسكوبار المخيم

كما حدث لاسكوبار تاجر المخدرات الكولومبي الشهير الذي مات أمام رجال النظام، بل الحكاية هنا كانت مختلفة.

رسم ربيع ابتسامة عفوية على وجهه عندما رأى مريم مع «الأم تيريزا الفلسطينية» تمشيان بسرعة -كعادتهما- التقى بهما وسط الشارع وأخبرتهُ الأم تيريزا بأنها ستقوم بزيارته، لكن عليها إنهاء بعض الزيارات المهمة لبعض المسنين في البداية.

لقّب أهل المخيم أم إبراهيم بالأم تيريزا الفلسطينية لكثرة أعمالها الخيرية، أو لمداومتها على فعلها دون كلل أو ملل؛ حتى صار الاهتمام بالمسنين والأطفال والنساء محور حياتها. خسرت عائلتها وبيتها في الحجر الأسود، لكنها ربحت قلوب الناس، ابتساماتهم اللاإرادية التي ترتسم على الوجوه بمجرد مرورها أمامهم بالمانطو العريض والحقيبة الكبيرة التي تحوي على الكنوز والعلاجات والمفاجآت.

انعطف ربيع يميناً وما إن خطى بضع خطوات حتى توقف ليتابع المسرحية القائمة وسط الحارة. على بعد بضعة أمتار رأى أطفالاً من عمر الحصار، لا تتجاوز أعمارهم الخمس أو الأربع سنوات، يركضون ويتقافزون فوق الأنقاض. مثلهم مثل الطيور التي ولدت في الأقفاص ولم تعرف معنى الطيران والحرّية. وقف ربيع يراقبهم ويراقب لعبتهم البريئة المشوّهة. انقسمت تلك المجموعة تلقائياً إلى مجموعتين. إحداهما كانت تحمل العصي أو أنابيب بلاستيكية رفيعة على أنها بنادق وآر بي جي متقمّصين دور الجيش. بينما المجموعة الثانية لفّت وجوهها الصغيرة بشالات وأغطية على أنهم عناصر من داعش. الملفت للانتباه هي تلك المجموعة الثالثة والتي كانت تضم الأطفال الأصغر سناً؛ سنتان أو ثلاث

كحد أقصى، تلك المجموعة التي لا تفهم شيئاً مما يدور حولها، لعبت دور السكان، الأسرى، الضحايا. عجز ربيع عن إطلاق تسمية مناسبة لهم، فسمّاهم «نحن». كان الأطفال يصدرون صوت إطلاق النار، وصوت المدفعية بأفواههم الصغيرة، فجاءت مضحكة أكثر من أن تكون مخيفة. تم تحرير الأسرى «النحن» والقضاء على الدواعش بنجاح!، لكن ربيع لايزال عالقا في برجه العاجي

راحت مشاعر الأسى والغضب تظهر على وجه ربيع على شكل خطوط مائلة نحو الأسفل تحيط بالعينين والجبين. أطرق رأسه في الأرض، ودخل الحارة الضيقة ليرى سيارة فان مكتوب عليها اسم قناة إخبارية معروفة، وسيارة كبيرة أخرى ركنت أمامها. صعد الأدراج بأنفاس مثقلة بفعل الأزمة القلبية والدخان اللعين. وصل إلى باب الشقة فوجده مفتوحاً وأصوات عالية تخرج من الداخل...

- ها.. هاد هو الأستاذ ربيع يلي حكيتلكن عنو.. فوت أستاذ فوت.. هدول التلفزيون عم يعملوا فيلم وثائقي عن الحصار. شفتن وأنا عم عبي مي. قلت مافي أحسن منك ليعملوا معه حوار.

- من قال لكَ أني أريد إجراء حوار! من سمح لكم بالدخول!

- عفواً، لكن الأخ حدّثنا عنك الكثير وأردنا ....

- لو سمحتم تفضلوا بالخروج من شقّتي..

اقتنع ربيع بإجراء الحوار انطلاقا من تشكل رغبة لديه أنضجها السجال لإبراز صورة مختلفة عن تلك الصورة النمطية السائدة حول أهالي المخيم. تم تثبيت الكاميرا وأعمدة الإضاءة التي كانت تعمل

بفضل مولدة كهربائية صغيرة كانت جالسة في الفان الكبير. تم تعديل إطار المشهد بوضع لوحات خلف ربيع، كان قد رسمها أثناء الحصار على كراتين الإغاثة. قطع مستطيلة ومربعة مجتزئة من الكراتين، وعليها خطوط مرسومة بالفحم أو قطع الخشب المحروقة. كانت أشبه بسكيتشات أو مشاريع لوحات أكثر من أن تكون لوحات كاملة.

اقترب الرجل من ربيع وهمس بضحكة ماكرة:

- احكيلهن عن الجماهير الخائنة يلي خانت سورية الي استقبلت الفلسطينيين وعاملتهم زي ولادها... احكيلن عن السبب الحقيقي لخروج الجماهير من المخيم... يلا يا بطل.

نظر إليه ربيع نظرة الذي اكتشف الفخ لكن بعد فوات الأوان.

جاهز أستاذ ربيع! 3 - 2 - 1 ... تصوير

- ربيع.. من سكّان مخيم اليرموك.. أربعون عاماً

- نزداد شباباً.. هههههه

- ستوب... عفواً يا أخي، بلشنا تصوير لشو هالحركات هي! منعيد.

3 - 2 - 1 ... تصوير

- أنا ربيع.. فلسطيني سوري، من سكّان مخيم اليرموك.. أربعين عاماً. خرّيج علم نفس ومُدرّس فلسفة لطلّاب المرحلة الثانوية لعدة سنوات. فنان تشكيلي، لديّ العديد من المعارض المشتركة، بالإضافة إلى مشاركتي في العديد من بطولات لعبة الشطرنج في سوريا والأقطار العربية. حائز على عدة جوائز من مصر والأردن والمغرب. عشت وقاومت الحصار مقابل البقاء في المخيم.

- رائع.. بتخبرنا شوي لو سمحت عن التحديات يلي واجهتك أثناء دخول داعش للمخيم كون حضرتك فنان وكيف خبيت اللوحات -يلي بمفهومن الهمجي أنها حرام- بتخبرنا شوي عن هي التفاصيل؟

- لم أفعل شيئاً ... بالأساس داعش لم تلحظ وجودي

- ستوب ... يا أستاذ ربيع، بدنا تحكيلنا شوي أنو خبيت اللوحات وعدّة الرسم بالسقيفة، وأنو حرموك من الرسم وحتى من لعبة الشطرنج. ع سيرة الشطرنج، ما بتطلع الرقعة بالكادر (يسأل المصور)؟

- عفواً يا أستاذ، لكن لم يحصل شيء من هذا!

- لك يا خيّا ... بدن تحكيلن أنو «قبل الأزمة» كنت ترسم وتلعب شطرنج وما أحلاك، وكان في مين يدعمك ويشجعك ويأمنلك لبن العصفور لتأبدع... وبس راح الأمن والأمان؛ إلتعن أخت الفهم...

- عفواً يا أخ ... مين أنت! هاد فيلم وثائقي احترافي، لو سمحت انتبه لملافظك

- لا تواخذنا... بس عم وضحلو للأستاذ ربيع شو بدك..

لم يقم المصور بوضع الرقعة ضمن كادر التصوير بعد أن استشفّ المعنى الرمزي لشكل الرقعة وخطورتها إن ظهرت للعلن. ففي أيام القصف والفوضى، انشقّت بعض البيادق عن الرقعة وقررت أن تضيع في هذا البيت الصغير، غير أن ربيع حاول استدراك الموقف «المشين» هذا

ووضع بدلاً من الوزير عقب سيجارته، وبدلاً من الملك الأسود؛ وضع بطارية ساعته الفارغة لتملأ مكان الملك الضائع، تلك البطارية التي لم يستطع شحنها رغم كل المحاولات، فبقيت في تلك الساحة، دون أي فعل يذكر، تسمع بين الحين والأخرى كلمة «كش» لكنها تعود وتقف دون حراك، فالمعركة مستمرة، والضحايا مستمرون والنازحون عن الرقعة في ازدياد، وتبقى سيادة الملك البطارية في انتظار من يضع الشاحن فيه كي يطيل أجله!

- عفواً يا أستاذ... ما اسمك؟ (سأل ربيع المُحاور)

- غسّان

- يا أستاذ غسّان، في أيام الحصار جلّ اهتمامنا كان إيجاد عشبة غير سامة لغليها وأكلها. قمنا بتشكيل مركز تعليمي بهمّة أم إبراهيم والآنسة مريم وغيرهنّ. أغلق المركز ليس بسبب دخول داعش وحسب، بل لأننا فقدنا قوتنا، الأطفال ماتوا، وأقصد ماتوا بالمعنى الحرفي للكلمة، ماتوا جوعاً. لم أخرج من المخيم، لأني أتوقع عودة الأمور إلى مجراها، وعودتي للتدريس وارتباطي من جديد بالهيئة التدريسية وإعادة فرزي إلى مدرسة جديدة.

- بس لهيك ما طلعت!

- لا أستطيع الخروج من المخيم. قد أذهب إلى دمشق من أجل استكمال بعض المعاملات والإجراءات والعودة إلى المخيم. لكن الخروج من المخيم، مستحيل!

- سمعنا أن الكثير خرج إلى أوروبا والآن حصل على إقامات دائمة. البعض أيضاً عاد إلى فلسطين عبر أنفاق. ما رأيك؟

- النفاق والكذب أكثر من الخبز... جارنا لفّ يده بضماد، وبفضل معارفهِ في مكتب السفارة. خلال ساعات انتقل من وسط المخيم إلى وسط فلسطين. الكل صار يؤلف حكايات وقصص بوليسية للخروج من المخيم والاستقرار في الخارج. الحق على القيادات والحق على الناس أيضاَ.

- يا غسّان... روح اعمل لقاء مع أم إبراهيم. هي أصلاً فيلم بحدّ ذاتو «الأم تيريزا الفلسطينية» والله جد... خلي العالم تشوف كيف المرأة في المخيم قوية زي الرجال. روح عند هاد اسكوبار المخيم أبو مصطفى، بتلاقيه براس الشارع، هاد قصتو لحالها فيلم. والله ما بيفرق شي عن اسكوبار تبع المخدرات، بس هاد غير، الرقابة بتمرقلك ياها. هداك حرق دولارتو ليدّفي أولاده، واسكوبارنا حرق شغلات أهم بكتير من دولارات الكولومبي يلي ما بتنتهي.

نظر المحاور إلى المصوّر الذي فهم بدوره ضرورة الخروج من هنا، فلا فائدة من إجراء أي مقابلة بوجود مثل هذا الشخص في هذا المكان. بدأ الفريق بتجميع أغراضه وتوضيبها للانصراف....

- امبارح حلمت حلم يا خيّا ممكن يفيدكم بالفيلم تبعكم ... بدكو تسمعو!

- تفضل (قالها بقرف).

- حلمت أنو جاكي شان بذات نفسو جايي يصور فيلم، قال جايي يأنقذ جالية صينية علقت بسوريا ومكان التصوير هو المخيم... قال حلو، فيو خراب كتير، خرج أفلام أكشن ... حلو..

- أي شو هالحلم هاد!

- حلم خرا! وفكرة أخرا ... هع...والله معكم كل شي بصير...

خرج فريق القناة غاضباً. توتر ربيع خوفاً من تقرير قد ترفعه القناة إلى الجهات الأمنية، لكن الكثير من أهالي المخيم تصرفوا نفس الشيء، بل أكثر قليلاً. ريبورتاجات أخباريه، أفلام وثائقية بدقة K4، أفلام درامية تُظهر الجيش بصورة البطل المنقذ السوبرمان أو كجنود المارينز في الأفلام الهوليوودية. طبعاً سكان المنطقة تتغرغر الدمعة في عيونهم لمجرد رؤية الممثل الشاب الوسيم، عفواً الجندي، وهو يتوجّه بخطواتٍ بطيئةٍ، بفعل السلوموشن، ليخلّصهم من حصارهم وموتهم المؤكد. أراد النظام عكس هذه الصورة الميلودرامية مستغلّاً مهرجيه، أو ممثلي البلاط، وطبعاً المكان الذي تعب على صنعه طوال السنوات الخمس السابقة. هذا الدمار كلّف ديوناً هائلة لروسيا وصواريخها «الذكية» فأقل الإيمان الاستفادة من هذا المشهد في تكوين تاريخ، صورة، أو حتى مادة تُعرض في مديريات الثقافة التي أصبحت أشبه بدكاكين قديمة عفنة.

بعد خروج فريق التصوير مع معدّاته، جلس ربيع إلى الطاولة، أشعل سيجارة وترك رأسه الكبير يهوي إلى راحته التي حملت الرأس وآلاف الأفكار المتشابكة فيه. نظر إلى الصندوق/ الكرتونة الموجودة على الطاولة وحولها جثث السجائر مبعثرة وفنجان القهوة قد ابتعد عن

صحنه ولطّخ الكتاب النائم على بطنهِ بفمٍ مفتوح. عرف ربيع أن ذاك الرجل قام بوضع الصندوق على الطاولة بطريقته العشوائية المعتادة.

- ما هذه الكرتونة؟ إغاثة.

- لا صندوق مجوهرات... أي إغاثة... يلعن شكلن كلاب، والله لقمة الإغاثة صارت مغمّسة بالذلّ.

- ما هي آخر الأخبار في الساحة؟

- هه، تحررت فَلَسطين يا خيّا! والله! طلاع وشوف هالقنوات الإعلامية وطريقة حديثن مع الناس، كأنن حرروا القدس. ليش لتطلع، من شوي كانوا عندك (أطلق ضحكة هيستيرية).

- حرروها من الدواعش ومن العصابات الهمجية.

- آه صحيح.. ومن ناسها كمان!

- المهم، هل تسببت بمشاكل اليوم أيضاً؟

- عالخفيف

- ابتعد عن المشاكل يا رجل ما ناقصنا... لسّاتا الطوابير طويلة والعالم عم تموت من أجل كرتونة!

- مش زي أيام زمان.. فاكر! فاكر أيام الكرتونة في بداية الحصار! يا ويلاه... لّما كنت اسمع أنو سيارة الأمم أجت ومعها كراتين أكل، تلاقيني أطير زي النسر، وأنت قاعد هون. كانت الناس تركض متل المجانين؛ كإنهن على جزيرة مهجورة وشافوا سفينة جايي من بعيد. قديش ناس ماتت بسبب كرتونة، قتل وقنص وغيرو...

- وكم من أشخاص ماتوا لأنهم رفضوا الخروج من أجل كرتونة. أبو مروان مثلاً، نفسه عزيزة جداً لدرجة أنه خجل من أن يراه أحد وهو يركض ويقف على الدور من أجل كرتونة.. ماتَ جوعاَ يا رجل!

- الكل كان بالحصار ميت حتى إشعارٍ آخر.

- الله يرحمو.

- أي أي الله يرحمو (يتجه نحو الكرتونة ويقوم بفحص وعدّ الأكياس والعلب الغذائية).

- هل ما زالوا يسرقون منها؟

- هيك شكلو... عرصات. ما في حدا بيستلم سلطة بهالبلد حتى ولو كان تافه إلّا وبيشفط وبياكول خرا..

- أيام الحصار فهمنا. أما الآن فلماذا!

- ما قلنالك! ... عرصات.

اتّجه ربيع إلى الشرفة وأشعل ناراً صغيرة في وعاء معدني غريب الشكل كان نائماً في زاوية الشرفة كقطٍ أليف. صنعه على ما يبدو بنفسه في أيام الحصار. وضع ابريق الشاي عليه، ثم أغلق الباب وعاد ليجلس وقد أشعل سيجارة جديدة، منصتاً إلى صوتٍ قادمٍ من الخارج. في الخارج كانت الأصوات مزعجة صاخبة. العائدون إلى بقايا بيوتهم، الجيش وشتائمه وصراخه الأزلي الذي يطال أي شخص. وكأن العائدون هم محتلون أو غرباء عن المخيم. علا الصراخ وأطلق أحد العناصر بعض العبارات المتتالية من بندقيته الروسية التي اعتاد السوريين على سماع لغتها.

-وخرااااا (صرخ الرجل بصوتٍ عالٍ وهو يفتح علبة الفول بمفك براغي)

- ها هي الأهالي عادت إلى بيوتها، لم أفهم لِمَ خرجوا من الأساس.

-لساتك عم تسأل وتلوم الناس أنها طلعت؟ نسيت شو صار حتى طلعت!

- لم أنسَ، لكن لو بقي الأهالي في المخيم لتكاتفنا سوية وساعدنا بعضنا البعض ولما عشنا الحصار بالشكل الذي عشناه. كنّا سنكون أقوى لو بقي الجميع. خرجوا يومها مثل الطوفان.

ما حدث اسمه رهط، وهذا الرهط برأيي بسبب انفصال الجماهير عن قياداتها، تماماً عندما يحدث تفجير في قطعة عسكرية ويبدأ الجنود بالركض والهروب عشوائياً دون أن يسمع أحدهم لتوجيهات القائد. رهط... الكل خرج وراح في اتجاه دون السماع إلى توجيهات القيادة، والسبب لأنها مفصولة عنها. وهذا الانفصال لم يبدأ في 2011. لا.. لا.. بل بدأ منذ بداية الألفينات. كنتُ أتوقع حدوث حرب أو كارثة، وها نحن ذا، شهدنا وعشنا وما نزال نعيش نتائج عدم التواصل ذاك.

-دخلك وهالشرموطة الميغ من نِتاج عدم التواصل! أذكرك ليش طلعت العالم! أذكرك بـ 16 كانون الأول؛ بالـ 2012، يوم طلعت الميغ ولعنت أخت المخيم. كانت عارفة وين تضرب. ضربت جامع عبد القادر الحسيني يلي كان جامع الناس إلي هربت من باقي المحافظات. ضربت مدرسة الكرمل ومشفى فايز حلاوة، كلها كان فيها نازحين وأطفال. قالو هالعالم، كس أخت هاالحكاية،

لا نقوم نطلع، نموت بشوارعنا وبيوتنا أحسن. هاد بتسميه رهط! القيادة نفسها عم تقول للعالم، وين ما رحتو بدي جيبكو؛ بدي إلعن أبو ألي نفضكو... رهطو... أكيد بدن يرهطو.

- أعتقد أن الشاي صار جاهزاً.

- بعدا حتى لو الجماهير انفصلت عن القيادة زي ما عم تقول؛ هاد مش لأنها غلطت، هاد ببساطة لأن الجماهير الكادحة ما ضلّت كادحة تكدح متل البهيمة يا خيّا. هالجماهير الكادحة صارت تفكر، أو بأضعف الإيمان صارت تحسّ أنو قياداتها خانتها، لهيك بعدت عنها..

- فقدت التواصل (قاطعه).

- فقدت دنب الجحش...

يدق الباب بنغمة معينة أشبه بكلمة السر (تك تك تك.. تك تك).

- اتفضل.. إجتك أم إبراهيم.

يفتح ربيع الباب لأم إبراهيم ويدعوها بكل لباقة للدخول. تدخل أم إبراهيم مرتدية مانطو بني كبير يغطي جسدها الذي خسر الكثير من وزنه؛ فالمانطو كفيلٌ ليخبرنا عن حجم أم إبراهيم قبل الحصار. تضع أم إبراهيم حقيبتها أرضاً وتجلس لاهثة من صعود وهبوط الأدراج.

- اسقيني دمعة مي يا ابني دخيل عينك.

تشرب الكأس دفعة واحدة، تسترد إيقاع أنفاسها.

- كيف حالك يا ربيع؟ كيفها أم ربيع، ما بدك تزورها بالشام!

- الحمد لله بتسلّم... إن شاء الله قريباً.

- الله يسلمك.

- كيف حال المسنين معكِ!

- عايشين! هلق من شوي كنت عند أم سعيد. بعدها ناطرة سعيد يرجع من المعتقل...

- صدّق يا ربيع بخاف يصرلي إشي قد ما تعودوا عليّ هالختايرة بالمخيم. ع قولة أبو نجيب «أنتي بس تعي وابتسمي وروحي ... مناخود روح بضحكتك وحكياتك».

- والله يا ابني، بعد يلي عشناه مافي شي مستاهل. كل النظريات والتحليلات طلعو علاك وحكي فاضي. الروح الحلوة، الكلمة الحلوة، والله بتكتب عمر جديد للبني آدم. يلي طلع من هالحصار وما بيضحكش وبفرحش، هاد ميت بيمشي وبس؟

- أمدّكِ الله بالقوّة يا أم إبراهيم ...

- (يقاطعه) ودخلك أم إبراهيم... لساتو أبو سليمان النس عم يغازلك؟

- ههههه أكيد.. ولو!

- هالختيار الملعون... إذا بتعطيه زر أزرق بفكرو فياغرا وبتقوم قيامتو.

- ششش.. ماذا دهاك يا رجل

- هههههه اتركو، معاه حق.. أيام الحصار خلصت الأدوية وخلصت مدة صلاحيتها. كُنت أعطيهم سيتامول على أنو حب للضغط والقلب، والله كانت تشتغل أحسن من حبة الضغط.

تُخرج من حقيبتها قطرميز من مربى المشمش، على ما يبدو أنه من إحدى كراتين الإغاثة.

- أيام الحصار كنت حطّها بشنتايتي، إذا حدا معو سكري ونزل السكر، أعطيه معلقة يمشي حالو. هلق صار في مربى وسكر منيح. جبتلك قطرميز يا ابني يا ربيع، بتحلي فيه الشاي أو بتاكلو عالفطور...

- آسف لم أسكب لكِ الشاي.

- أقعد ما بدي، جايي أفاتحك بموضوع وأمشي.

- قايم جبلك كاسة يا خالتي، هاد الأستاذ ربيع «المفصول المنفصل» ما بفهم بالذوق.

- لا حول الله... اتفضلي خالتي، ما هو الموضوع؟

- زي ما أنت عارف، عملت جمعية للمسنين وأمورها عال العال، وهسا عم فكر أرجع أفتح المركز التعليمي يلي سكرولنا إياه الدواعش الله لا يوفقهم. بقا قلت أسألك إذا بتحب تجي أتدرّس هالطلّاب فلسفة ورسم. ما فيش فلوس، بس موعودين بدعم للمشروع.. أيش رأيك!

- فكرة رائعة! دعيني أفكّر بالموضوع وسأعلمكِ بقراري خلال يومين.

- خود وقتك

- لك قوم اطلع من هالوكر يلي حابس حالك فيه يا رجل.

- (ينظر إليه، ثم يعود لأم إبراهيم) أعطيني يومين وسأخبركِ.

- بسيطة يا ابني... يالله بالإذن. (تبدأ بسرد جدولها وهي متجهة نحو الباب) أبو نسيم ناطرني آخدلو شوي مربى ودخان، وبعدها رايحة عند أم سليم، رح نفتح دورة خياطة مخرز للنسوان الأسبوع الجاي.

- يلا بوكرا بتجي الأمانة السورية وبتعملكن برامج «إعادة الإعمار» ومسرح وغناء ورقص وهززززي يا نواعم (يبدأ بالرقص والتصفيق).

تخرج أم إبراهيم، بينما يعود ربيع ممتعضاً دون تعابير معينة على وجهه الشاحب.

- شايف الناس يلي ما طلعت شو عم تعمل! هي الناس، زي أم إبراهيم، رب الانفصال عن القيادة. ولادها برا وزوجها بالمعتقل ألو سنين، شوف شو عم تعمل.

- أم إبراهيم حالة ... حالة استثنائية.

- دخيل ربّك يا استثنائي أنت.. رح قوم أعمل أكل.. شبعنا خطب وفلسفة..

- كُلّ بمفردك... سأخرج لشراء علبة تبغ وأمشي قليلاً؛ تعبت من صوتك وشتائمك.

- الله معك يا خيّا..

- حين عودتي لا أريد رؤية أحد في شقتي.

- خلص رح جبلك الإذاعة هالمرة... (يطلق ضحكته المجنونة مجدداً).

نزل ربيع درجات البناء التي فقدت الكثير من شكلها، وراح يمشي كعادته دون وجهة محددة، فقط الابتعاد عن ذلك الرجل ونقاشاته وأسئلته. أخذ يفكّر في أم إبراهيم وفي تلك العبارة التي أطلقها دون وعي «حالة استثنائية» هل هي فعلاً هكذا! كان يقف عاجزاً عن تصنيفها وزجّها في أحد الخنادق. فهي في بقائها و«صمودها» ومواجهتها لداعش وغيرهم من المتطرفين، فهي في خندق النظام. لكن في المقابل، اعتقال زوجها وخروج أبنائها، وحتى الكتابات اليومية الصباحية التي تكتبها على جدار صفحتها الفيسبوكية، ما هي إلّا أعلى علامات المعارضة والثورة. عجز ربيع عن تصنيف هذه المرأة. لماذا تبذل كل وقتها وطاقتها وروحها في خدمة المسنين والأطفال والنساء، على عكس الكثيرين، على عكسه هو المُنظّر المُحلل الذي لا يسمعه أحد ولا تغيّر تحليلاته شيئاً على أرض الواقع. على عكس أم إبراهيم، التي بقطرميز مربى واحد قد تنقذ حياة إنسان، أو مجرد لعبة صغيرة تافهة قد ترسم البسمة على وجه طفل، وبمنشور صباحي واحد، قد تحصد المئات من الإبهامات والقلوب من مختلف أنحاء العالم!

قطع شرود ربيع والحبال التي حملت كل هذه الأفكار والتساؤلات في ذهنه ظهور ناجي أمامه. لقد تغيّر شكله كثيراً عن آخر مرة رآه فيها ربيع. ظهر له شارب غامق وذقن متكاملة ملأت وجه ناجي الأبيض. كان يبدو أكبر من عمره، وهذا ما أدهش ربيع. كيف لتلميذه الصغير أن يصبح «رجلاً» خلال سنوات قليلة!

- ناجي! أنت هنا! كيف حالك؟

تجمّد ناجي لرؤية ربيع. نظر إليه لثوانٍ نظراتٍ لم تكن تشبه نظرة

الطالب لمعلّمه، بل نظرة الندّ لنده، نظرة لوم مليئة بالخيبة. مشى ناجي بخطواته الواسعة تاركاً سؤال ربيع يقع أرضاً ويضيع بين الركام...

كانت الشوارع التي يمشي فيها ربيع أشبه بغرف الأطفال المبعثرة المليئة بالفوضى والأشياء غير المتناسقة؛ حائط بأكمله ينام فوق سطح سيارة خفست من ثقل الحائط والأسرار التي حملها. بطانيات وألبسة عاشت في الطابق الثالث لسنوات، امتزجت اليوم مع قمصان من «ملبوسات العودة» التي خرجت إلى وسط الشارع من غير عودة. كانت الأزقّة أشبه بالطلاسم؛ بأنصاف البيوت. فالقصف الجوي والأرضي قاما بتعرية البيوت وكشفا ما بداخلها للعلن. حتى الجدران كانت تحمل النعوات القديمة لما قبل الحصار. حتى الموتى لم يتم تخليدهم بنعوة ملصقة على عامود كهرباء، أو بحجر الفاتحة، أو حتى بحفرة «آمنة» ليرقدوا فيها بسلام في مقبرة المخيم الشهيرة.

راح ربيع ينظر إلى تلك الأبنية التي فقدت جدرانها الخارجية. أخافه المشهد رغم تكراره اليومي. غير أنّه اليوم أدرك رمزية الدمار وسريالية المشهد. تخيّل أن الناس بعدها تسكن في هذه البيوت. يمشون، يأكلون، يستحمّون، يشاهدون التلفاز، يمارسون الجنس، يتخاصمون، الأطفال يكتبون الوظائف، الفتاة تمشّط شعر دميتها والأم تطبخ في مطبخها ومعها الجارات. كل هذا والجدران مفتوحة والكل يشاهد ويسمع. تعرية، تعرية حرفية بدأتها الميغ وأنهتها داعش.

عدل ربيع عن فكرة العودة إلى شقّته بعد أن رأى الرجل متجهاً نحو البيت، قرر الدخول في الشارع المعاكس؛ وما إن دخل الشارع حتى رأى

أبو مصطفى جالساً أمام المبنى المتهالك، النرجيلة تعزف أنغامها، وإبريق شاي كبير أسود جالس أمامه على تنكة أو شيء آخر غير معروف.

- أهلاااا بالأستاذ ربيع والله

ندم ربيع في سرّه لدخوله هذا الشارع، لكن الأوان قد فات وها هو ذا قد وقع في شباك أسكوبار المخيم:

- تحياتي أبو مصطفى. كيف الأحوال!

- حماتك بتحبّك... هلق مصطفى نزّل صحن الفول وابريق الشاي. اتفضل اقعد.

- شكراً.. شكراً.

- لك شو شكراَ... راحت أيام شوربة البهارات. اقعد كول فول وشاي مع سكر، سكر يا سكر إنتا يا أحلى أستاذ ربيع.

- حسناً. كيف حالها أم مصطفى، كيف الأولاد؟

- كلو منيح ... شفلي حبّات هالفول. من علب المعونة. كس أخت الحرب، حتى حبّة الفول تغيّر شكلها. وين فولات أيام زمان، كل خمس حبّات بعملولن كيلو.

- الحمد لله.

أخذ ربيع قطعة من رغيف الخبز اليابس، جمّع فيها حبيبات الفول والطماطم وأكل اللقمة بدون شهية. كان يكفيه النظر، مجرّد النظر إلى الصحن ليشبع ويتذكر كيف يكون شكل الطعام الطبيعي.

- بتعرف يا أستاذ.. أنا ممنون لهالحصار. والله من زمان كان لازم يصير.

- أف! ولماذا؟

- لك راح الكرش والكولسترول. شوف (يكشف عن بطنه المترهلة) راح الخرا. والله أم مصطفى مكيفة عليي. كل دكتور كان يتفزلك عليي ويقولي حمية ورياضة وهاد بصير تاكلو وهاد ما بيصيرش. بالأخير أجا هالحصار أحسن من مية دكتور وحمية... هههههه.

- جيد.. حافظ على صحتك إذن.

- لك حتى الدخان تركتو... بس شوفة عينك، رجعت.

- بسيطة...

- لك شو بسيطة! قبل الحصار بس كنت بدخن سجاير. هلق عم دخن سجاير وأركيلة هههههه...

- المهم أننا رجعنا نأكل أكل البشر (حاول ربيع إضافة أي تعليق)

- إيييه.. ألف المدللة. الله وكيلك يا أستاذ، كنت بقطف الصبّار، بقشرو، وبنشفو يومين. وبعدا بقليه لهالأولاد.. لحظة، عندي صورة لصحن البطاطا الكذابي (يخرج هاتفه القديم ويبحث عن الصورة محدّثاً الجهاز... وينِك... وينِك... يدير الشاشة نحو ربيع الذي حاول رسم ابتسامة على وجهه الشاحب بينما كان أبو مصطفى يضحك ويسعل فوق صحن الفول).

- ليك هي الصورة... (يفتح صورة أخرى لأولاده) شوف كيف كبرانين هالزعران. هي مصطفى الزعيم... سلام المدللة، وهي أمل، يلي خلقت أول الحصار، سميتها أمل ع أمل تكون حياتها أحسن.

- الحمد لله يا أستاذ ما نقصت عليهم أشي. كنت أشتري صندويشة الفلافل، أرجع أفرطها، نتغدى يلي بقلبها، ومن هالخبز أعمل العمايل لياكلوا هالأولاد... يحرق أخت هديك الأيام...

- العدس كان مثل الحصان في لعبة الشطرنج، تراه في كل مكان، صنعنا منه أطباق لم نكن نتخيلها قبل الحصار. صنعنا معكرونة بالعدس، حتى الفلافل صنعناها من العدس.

- أيييه.

- تعلّمنا قيمة الطعام وقيمة الماء والمسكن وقيمة الأشياء البسيطة.

- أيييه.

- صرنا نحبّ الحياة.

- أيييه ... كس أخت هالحياة بهالبلد.

أخذ ربيع رشفة من كأس الشاي محاولاً ابتلاع ريقه. سرح أبو مصطفى في الفراغ الذي أمامه، أو في الدمار، نظر إلى ربيع مبتسماً ابتسامة ساخرة:

- بتعرف يا أستاذ ربيع؛ بعد كل هالحصار يلي عشناه، ما عاد الأكل عندي مهم. طلع فعلاً «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان».

- طبعاً، التأقلم مهم...

- (قاطعه) شو يعني التأقلم! الإنسان إجباري عن راسو بدو يتأقلم أصلاً إلّي ما بتأقلم بينقرض. الأهم أنو يتغير يا أستاذ. يلي طلع من هالحصار متل ما كان قبل؛ هاد لازم يروح يقتل حالو.

- ....

- صدق ندمان يا أستاذ ربيع عالسنين يلي كنت أعبد فيها الفلوس، أستغفر الله... والله ضيعت أحلى السنين وأنا ألحق هالأملاك والمحلات. كنت نسيان عيلتي، نسيان أم مصطفى الي زي الورد، زي المرهم عالجرح. أبييه كس أخت الحرب ع أخت المصاري ع أخت داعش ليلحقو النظام...

أمام بوح أبو مصطفى، أمام مواجهته لذاته، وقف ربيع أمام نفسهُ عارياً، خجلاً، ضعيفاً. كل ما كان يفعله في سنوات الحصار، هو تجميع كراتين المعونة ليرسم عليها أشكالاً تافهة ينقصها الموهبة والدقة. كان نائماً في برجه العاجي. وفي ذلك البرج كان يكتفي بتوزيع شهادات الفهم وحسن السلوك على الناس في حدث جلل كهذه الحرب اللعينة وكأنهم طلاب في صف فلسفته، ولم يتكبد العناء في مواجهة نفسه، في مصارعتها، في نقدها ونقضها. حاول أبو مصطفى إعادة ربيع من شروده؛

- أنا حاكيلك كيف كنت أشبع أيام كنت طعمي أولادي ونام جوعان؟

- لا...

- وقت كان ما يطلعلي أكل، كنت نام جوعان، ولمّا بقلك نمت جوعان ما بقصدش أني كنت فطران ومتغدي بهداك اليوم، لا. كنت نام جوعان يعني ألي شي 24 ساعة أو أكثر بلا أكل.

- أصدّقك....

- يقترب من ربيع ويبدأ بسرد حلمه بطريقة درامية وكأنه يسرد القصة لابنته بيسان ذات الأعوام الستة.

- هاد يا سيدي، كنت أحلم أني بغرفة فيها طاولة كبيرة، عليها غطا أبيض زي التلج. وعلى هالطاولة في يلي بدك ياه. منسف لحمة، كل حبة هالقد، وعليه هالمكسرات... كاجو وصنوبر ولوز وهالسمن عليه عم يلمع زي الدهب. طبعاً جنب المنسف كان في محاشي، مشاوي، بطاطا مقلية، حمّص، مخلل، لبن... شو ما بدك.

- كنت أقعد آكول على أقل من مهلي. الله وكيلك يا أستاذ ربيع كنت أحس بكل لقمة. أحس بطعم الدسم والملح واللحم. أحس بريحة البصل والثوم والبندورة المشوية. بعدا كانت تنفخ بطني بشكل خيالي. ألاقي كاسة شاي كبيرة شفافة. هيك شاي خمير يلي بحبو قلبك. شاي مليان سكر. حلو زي العسل. أشعل سيجارة ودخنّها وايدي كلها زفر.

- والله العظيم والله العظيم ... كنت فيق شبعان كأني أكلت عنجد (يرمي بخرطوم الأركيلة منفعلاً ويقف جامداً منتظراً ردة فعل ربيع).

- عجيب بالفعل! دماغك كان يحاول إنقاذك من الجوع...

- لك شو دماغي... تكررت القصة معي أكتر من مرة، وبكل مرة أفيق شبعان ومبسووووط!

- الآن الأحلام صارت حقيقة.

- لا حقيقة ولا خرا... صحن الفول هاد سقفنا.

- حسناً أبو مصطفى، لا يملّ. عليّ الذهاب.

- لك قاعدين!

- لا شكراً... السلام عليكم.

- وعليكم السلام.. خلينا نشوفك أستاذ..

- انشاءالله.

تكاثفت الأفكار في رأس ربيع. «كيف لمثل هذا أن يدعو للحرّية والديموقراطية!» كان ربيع مؤمناً أنه لقيام ثورة ما، يجب أن يكون الشعب مثقفاً مهيئاً ومدرّباً على القيام بها. كيف لأمثال أبو مصطفى أن يقوموا ضد نظام هائل متماسك! كيف لسكان العشوائيات والأرياف أن يغزوا المدن ليعيدوا تشكيل خريطتها الحضارية بجهلهم، كيف «لهذا الشعب» من العمال الأميين، وصبي الحلاق، وأجير الميكانيكي والعتالين أن يطلقوا على أنفسهم اسم ثوّار وهم لا يعرفون جيفارا إلّا بالصور!

كان ربيع يعتبر الثورة خيانة. خيانة لكل ما قدّمته «الدولة» وبالأخصّ للفلسطينيين. كان يشعر بأنه مديون وممتن لهذه الدولة على فضائلها ومكارمها. فالتعليم مجاني، الطبابة مجانية، المواصلات شبه مجانية. الخبز بليرات والرواتب والوظائف متاحة لكل من هو كفؤ. كان يمجّد هذه الدولة التي دافعت عن القضية الفلسطينية طوال عقود، جعلته يمثّلها في مباريات الشطرنج والمعارض التشكيلية المشتركة مع الأقطار العربية الأخرى.

كان يغضب لرؤية الدمار، وبالأخص المحلات المحترقة. كان يعتبر هذه المشاهد من مسؤولية «الشعب» وأن الشعب شريك مع الدولة في الحفاظ على الأمن والأمان. هذا الأمن والأمان الذي لم يعرف الشعب السوري قيمته، بل راهن عليه بما أسماه الحرية والكرامة. ها نحن ذا،

خسرنا الأمن والأمان، وخسرنا الحرية والكرامة. ألم يكن الشعب السوري يعيش بكرامة، الفلسطيني بالتحديد كان مكرّماً في سوريا على عكس لبنان والأردن والعراق.

«بتستاهلو» أطلقها عندما رأى إشارة ضرب بالأسود على كلمة «حرّية» وقد كتب بجانبها عبارة «الله أكبر».

بتستاهلو... أطلقها بصوت عال... الجهل لا يصنع الحرية ولا يعطينا الكرامة يصنع التطرّف فقط. كان كل من يدعو لبديل عن هذا النظام العلماني المدني برأي الأستاذ ربيع، يستحق أن يُمسح بإشارة ضرب وباللون الأسود. حتى أنه صار يكرر كلمة «بيستاهلو» عندما كان يشاهد أو يسمع بأن النظام قصف بيوتاً ومدارس وقرى. كان يطلق تلك الكلمة على الأهالي الذين تواطؤا مع الإرهابيين، بل بصورة أدق، كان ربيع يعتقد أن النظام يقصف الإرهابيين وحسب، وينقذ الأهالي منهم. وبالتالي، الـ «بستاهلو» هي للإرهابيين. وحين كانت كلمته تلك تطال الشعب السوري، والفلسطيني بالأكثر، فذلك عندما كان يسمع بأن النظام قام بمداهمة حي أو سكن جامعي واعتقل كل الشباب والرجال، وحتى النساء في بعض الأحيان. وكان تبريره في كل مرّة لإطلاقه هذه العبارات؛ أن الدولة تقوم بـ «تنظيف» بيتها الداخلي من الخونة والعملاء.

لطالما كان يجادل أبا مصطفى وغيره بأن الشعب لو أوجد مجموعة مثقفة نخبوية تمثّله وتجلس مع «الدولة» على طاولة واحدة؛ تطرح المتطلبات بطريقة حضارية، لما خرب البلد ولكان النظام -بكل تأكيد- استمع لهذه المطالب وعمل بها. أليس هو الذي كان سبّاقاً لهذه الثورة

وشعاراتها بعشرين سنة حين قال «حركة الإصلاح والتغيير» ألم يكن يدعو للإصلاح ومحاربة الفساد! ألم يكن يدعو للتغيير! وما معنى تغيير؛ أليست هذه ثورة! ثورة حقيقية!!!

في الوقت نفسه، كان اسكوبار المخيم يبستم بهدوء لشكل ربيع المتشظي. كان أبا مصطفى سعيداً لا لهزيمة الأستاذ ربيع، بل على العكس، لانتصاره على أبي مصطفى نفسه. على نجاته بنفسه وبعائلته. أدرك أبو مصطفى قيمة العائلة مقابل قيمة المادة. قيمة الإنسان مقابل قيمة السلطة والجاه. كسب لقب «اسكوبار المخيم» بجدارة بعد أن أحرق أثاث بيوته، بعد أن أحرق أغلى مقتنياته أثاثات منزله ليشعل ناراً صغيرة يطبخ عليها حساءاً لأطفاله كي لا يناموا جياعاً يحلمون بمائدة وهمية. ناراً دافئة ترسم في ذاكرتهم صورة الأب الدافئ الحنون، لا صورة الأب النرجسي الأناني.

كان أبا مصطفى يجلس غير مبالٍ بأي شيء بعد الحصار، لأنه وصل لِما أراد أن يصل إليه، أن يخرج من الحصار، أن ينجو منه، وهو سليم الروح لا سليم الجسد فحسب. سليم الضمير، في حين باتت الضمائر منفصلة أو متصلة بفعل غائب واسم مجهول!

في طريق عودته ألقى نظرة على الشرفة الثانية ليرى أبا ناجي في مكانه، يجلس جلسته المعتادة، حتى سيجارته كانت على حالها. أخرج ربيع هاتفه «الأنتيكا» محاولاً التقاط صورة لأبي ناجي، فقد قفزت إلى رأسه فكرة بدت له جذّابة؛ أن يرسم أبا ناجي على إحدى كراتين الإغاثة.

مرّت الأيام والأسابيع بتواتر سريع على المخيم غير أن هذه الوتيرة خفّت وهمدت كأي نار متّقدة. فقد الأهالي بصيص الأمل الضئيل بعد فك الحصار وعودة الحياة مجدداً لهذا المنفى/ الوطن. لكن النظام هو هو، لا يستطيع خلق النظام وتطبيقه. بل راح المخيم يسبح في فضاء من الفوضى والانتظار والوعود التي اعتاد الأهالي على سماعها منذ عقود. أما ربيع، فقد كان مؤمناً بأن «الدولة» تعرف ما تفعله، وأنها تحتاج لوقت من أجل التخطيط لإعادة بناء البنى التحتية وإعادة المرافق العامة لوظيفتها. كان ربيع كالزوج الذي يدافع عن زوجته الكسول أمام إصرار الأم الصارمة الثائرة، لكن دون جدوى.

غير أنه في قرارة نفسه ملّ الأصوات والصخب اليومي على الطوابير والحواجز ومداخل الأبنية. قرر أن يعود إلى مركز التعليم الذي أنشأته أم إبراهيم ومريم وغيرهن من نساء المخيم. فعلى ما يبدو أن عودته إلى المدرسة الحكومية ليست بالقريبة أيضاً.

دخل ربيع المركز، الذي هو عبارة عن مركز طبي قديم لطبيب اغتيل في بداية الثورة، وهاجرت عائلته إلى ألمانيا معطية أم إبراهيم كامل الصلاحية في التصرّف في هذا المكان الكبير. صُدِمَ ربيع مجدداً لرؤية ناجي في هذا المكان. كان يتحدّث بشكل ناضج وجدي مع أم إبراهيم ومريم. نهضت أم إبراهيم مبتسمة لرؤية ربيع، وضعت فنجان القهوة على الطاولة ثم أنزلت يدها على كتف ناجي:

- شوفو مين هون! الأستاذ ربيع! والله كنت متوقعة تجي.

- السلام عليكم.

– أيش هالصدفة الحلوة يا جماعة. ناجي يلي كان تلميذو للأستاذ ربيع، ليكهم رح يصيروا زملاء. هذا ناجي الشاطر، ما عرفتوش يا أستاذ؟

– طبعاً عرفته!

يقف ناجي غاضباً ويحاول أن يصحح لأم إبراهيم بلباقة:

– بالإذن منك يا خالتي أم إبراهيم، لا طالب ولا زميل. إذا هل الإنسان رح يكون بهالمشروع، فاعذريني. ببقى بمشروع المسنين ويا دار ما دخلك شر.

– (ترد مريم مندهشة) خير ... خير يا جماعة! أيش صاير! بعدا عيب يا ناجي تحكي هيك!

– لا عيب ولا بلوط ... بالإذن.

حمل ناجي حقيبة اليد الصغيرة، وخرج دون النظر إلى ربيع الذي بقي جامداً مكسوراً.

سألته مريم وأم إبراهيم عن سبب هذه السلوك الغريب من ناجي. راح ربيع يسرد بداية الخلاف أو الاختلاف الذي نشب بينهما عندما كان يعطيه الدروس الخصوصية في مرحلة الثانوية.

⋈

لم يكن ربيع مجرد أستاذ خصوصي في نظر ناجي، بل كان مثله الأعلى. كان ناجي ينظر إلى ربيع على أنه ظاهرة، حالة، شخصية مميزة في المخيم، بل في كل الأحياء الفلسطينية. كان ينبهر بلمعان الكؤوس والميداليات التي حصدها في منافسات الشطرنج. كانت ألوان اللوحات

«العادية» تسحر ناجي وتجعله يحلم بأن يصبح مثل معلمه حين يكبر. غير أن كل شيء تغير وتبدّلت الصور الملونة إلى صور قاتمة، بل ومشوّهة.

مع بدايات الثورة، راح ناجي يشارك معلمه -كعادته- كل أفكاره ومشاعره التي كانت هائجة كقطيع أحصنة فتية. راح يعبّر له عن فرحه بالثورة والمظاهرات التي كان يشارك بها دون علم أهله. عن الحرية التي كان يشعر بها لأول مرة. غير أن ربيع خالفه، صدّه، عاتبه ووبخه على هذه الأفكار والترّهات. كانت حجج خرّيج علم النفس وأستاذ الفلسفة قاسية لا تقوَ على مجابهتها فرحة وشغف شاب لم يبلغ العشرين بعد.

كان ربيع يحلل ويشرح لناجي سبب عدم إيمانه بهذه «الثورة» لا.. هي ليست ثورة، إنها شغب، صخب، رهط، هي تخريب وتدمير للمجتمع. كانت هذه التحليلات في نظر ربيع، تحمي ناجي وتدفعه نحو شخصية أنضج، وتعزز صورة المعلم المثقف في داخله.

لكن في الواقع، حدث العكس تماماً! كانت تلك الجلسات بمنزلة الإزميل الذي راح يهدم ذاك التمثال الكبير لربيع. انهارت تلك الصورة في ذهن ناجي، وولد جرّاء هذا الانهيار جرح عظيم في روحه.

لقد خذله معلّمه المثقف، القارئ، المتنور؛ خانه، خان تلك الصورة المثالية التي رسمها له ناجي طوال السنين الفائتة. شعر ناجي بأنه كان يعيش وهماً، والأسوأ أن هذا الوهم كان هدفاً، حلماً، غاية يسعى ناجي للارتقاء لها.

بعد خروج ناجي من المركز، حاولت أم إبراهيم بلباقتها وفطرتها أن تحافظ على هيبة الأستاذ ربيع، فأخبرته بأن كرامته، رغم آرائه وأفكاره، محفوظة. لملمت أغراضها، واعتذرت عن البقاء بحجة أن إحدى النساء في المخيم على وشك الولادة، وعليها أن تكون بجانبها في هذه الأيام.

- آسفة يا ربيع ع يلي صار... ما كُنت بعرف أنو في هي الحساسية بين ناجي وبينك

- بسيطة يا مريم... قصة طويلة ولا أريد الحديث عنها الآن.

- مفيش مشكلة يا خيّا..

- التعليم والفن أكثر من مجرد مهنة وهواية. هي رسالة يا مريم... رسالة للأجيال القادمة، بأن يكون الفلسطيني قوي، وصاحب قضية، واحدة، واضحة. قضية حقيقية، وليست نزوات وهرمونات غير مضبوطة لشبّان طائشين. رسالتي كانت فلسطين وحلم العودة وفلسطيننا البديلة سوريا، وللأسف، ويا للأسف الشديد، أين هي! وها هو ناجي مثال واضح...

- ناجي زينة الشباب... يلي عاشوا مش قليل. يلي عشناه مش قليل يا ربيع. ورغم كل هاد، ليكنا عم نشتغل ونقدّم لأهالينا.

- نعمل لأهالينا! عملنا لهم، أفنينا حياتنا من أجلهم، ولكنهم وبكل بساطة تركونا وخرجوا.

- ليش عم تحكي هيك!

- هذا البلد ليس لعبة حتى نحرقه ونخربه إذا لم يسمعنا أحد. المخيم ليس خاناً نخرج ونعود إليه متى شئنا. علينا قراءة الأحداث

بمنظور مختلف، بمنظور دولي عالمي. في هذا الخروج خسرنا، خسرنا الكثير. أولاً فسخنا عقد الإيجار بيننا كفلسطينيين وبين الأمم المتحدة عندما خرجنا من سوريا. لم نعد نحمل هوية اللاجئ الفلسطيني. في الواقع فسخنا العقد مرتين، الأولى في خروجنا من المخيم والثانية في خروجنا من سوريا.

- بس يا ربيع العالم ما طلعت بكيفها... أصلاً مصطلح «طلعت» مش دقيق.

- وما هو المصطلح الدقيق؟

- تشتت! العالم تشتت مرة ثانية بعد الـ 47. الشتات التاني يلي فتحت أبوابه الميغ. يلي صار يا ربيع كان تكثيف للجريمة، تكثيف للعنف.

- أنت عارف أني كنت ممرضة بمشفى الشهدا يلي كان اسمو الباسل. لبست المريول الأبيض بعد شهرين من فستان العرس الأبيض وهاد يلي منعني من «الطلعة» خسرت بنتي يلي ماتت ببطني بسبب يلي شفتو.

- الآن لنعلّق كل مآسينا على الميغ! كانت هناك أخبار عن تسلّح النازحين، كان المخيم على وشك أن يتحوّل إلى مخيم صبرا وشاتيلا الخارج عن سلطة القوات اللبنانية.

- الأطفال والرضع والعجزة كانوا عم يخططوا ليعملوا جيش!؟

- لا... لكن يمكننا اعتبارهم خسائر جانبية!

- خسائر جانبية! لك يا ربيع أصحى بقا... الميغ مش طيارة إسرائيلية

طلعت قصفت فلسطين ورجعت. الفكرة بحد ذاتها مرعبة! طيّار سوري، والأحياء سورية والناس الي عم ينقصفوا سوريين!!!

-الميغ مسحت كل أشي. مسحت الملاذ الآمن الأخير للشعب الفلسطيني. والله إسرائيل ما عملتها، بعد ما اجتمعوا كل الفلسطينية بمكان واحد، طلعت وقصفتن! ألي صار بهداك اليوم، كتب فصل جديد بشتاتنا بمأساتنا. ليش بتلوم الناس أنها طلعت ع أوروبا، ليش لتطلع لهناك؟ ما هنن سكان التضامن والحجر الأسود ويلدا وغيرها... كلهم أجو والتجأو للمخيم، بس الميغ كان عندها رأي آخر، كان قرارها غير.

-الآن صار الميغ هو المشجب الذي سيعلّق الفلسطينيين عليه كل خسائرهم وأخطائهم. كان بإمكانهم البقاء مثلما بقينا. كان بإمكانهم الذهاب لمحافظات أخرى. ها هو أبو مصطفى غادر المخيم بعد فك الحصار، لكنه عاد بعد شهر. يا مريم... الناس خرجوا لأنهم أحبّوا الخروج، أحبّوا الحالة. أرادوا استبدال الواقع بواقع بديل. أحبّوا الشارع الأوروبي النظيف والأبنية الجميلة والمجتمع المتحرر. والأسوأ، أن الكلّ خرج بحجّة المخيم. خالتي التي من يوم يومها في الدويلعة، وبيتها لم يصبه رصاصة، بل كان ملجأً لأقربائها ومن بينها أمي. ها هي الآن في ألمانيا! ببساطة قالت إنها فلسطينية سورية من سكّان المخيم. كفى يا عمي كفى، راح العقد وراحت صفة اللاجئ الفلسطيني من على جباهنا.

- بس لا تنس أنو هدول العالم يلي حبّوا الشارع الأوروبي، كمان عملوا إنجازات حكت عنها أوروبا كلها. طلّاب تفوقوا بجامعاتهم. كم

فيلم «حقيقي» انعمل عن الشباب السوريين والفلسطينيين يلي حصدو جوايز. وصلنا للأوسكار يا خيّا. في ناس انكلتبلها عمر جديد بعد ما طلعت من تحت التعذيب، شوفها وين صارت؛ بالمحافل الدولية، دكاترة بأهم المستشفيات. وين كانوا هدول، ليش ما عملو هالشي هون؟

- (تتنهد، تحاول إعادة السيطرة على انفعالاتها) على كل الأحوال، فرحانة انو رح نبدى مشروع يستفيد منو أطفالنا لأنهن هنن مستقبلنا ومستقبل قضيتنا، بركي بتكون أيامهن أحسن من أيامنا بصراحة يا أستاذ ربيع كان في تخوف عنا أنو الجمعيات يلي عاملها النظام ليبيض صفحتو وأموالو تتحكم فينا متل ما صار بغير مدن وأحياء. بس شكلهم حتى بموضوع «التنمية» مش رايدين يقربوا علينا، بالناقص...

- بسيطة... بالإذن يا مريم. سأعود لاحقاً لمعرفة آخر التطورات في المشروع. بكل الأحوال أم ابراهيم؛ تزورني باستمرار حاملة معها الحكايا مع المربى والحبوب الوهمية.

يضحكان، ثم يخرج ربيع ويخرج من جيب قميصه سيجارة، يشعلها ويمشي في وجهة غير محددة.

نظرت مريم عبر النافذة المطلّة على الحارة المدمّرة.. تنهدت.. راحت تتحدث بصوت خافت مع الحارة، مع ربيع الذي راح يمشي في وسط الشارع، يديه في جيبه ونظراته تائهة يحاول أن يجمع شتاتها على وقع خطواته.

- هالحارة ما كانت بهل الشكل وقت كنُت صغيرة، ما بقيت هون لأكبر ويكبر أولادي هيك. إي الشارع الأوربي نظيف ومغري يا ربيع، ع الأقل الشارع يسكن فيه ناس بيحترموك وبيقبلو فيه رأيك ويلي ما بيحترمك وما بيحترم رأيك بعلمو القانون كيف بيكون الاحترام. بيقولو يا ربيع للطفل في بطن الأم حاسة سادسة، لهيك يلي بعزيني بموت بنتي جواتي أنو ما تخلق بهيك مكان مرعب، مكتوب علينا نضلنا مشتتين وكأننا نزلاء بفندق بهاد العالم، الناس يا ربيع لقيت بالشارع الأوروبي لقيت مكان بيتعاملوا فيه كمواطنين بالقانون مو لاجئين بيشحدوا عليهم الدول وبيتاجرو بقضيتهم، نحنا بدنا نكون مواطنين مو لاجئين يا ربيع.

في تلك الليلة، خرج ربيع مبتعداً عن البيت وعن ذلك الرجل القاعد على قلبه والذي نخر رأسه بمجادلاته التي تكشف هشاشة أفكاره وتناقضها مع الواقع المخيف. ذلك الرجل الذي لا اسم له وكنا صادفناه في أكثر من مناسبة في سجالات مع ربيع، كان دائما يسخر منه ويقول له: كفاك هراء يا أستاذ ربيع ما انتا لست إلا منجز من منجزات الحركة التصحيحية، وهذا النظام بيعرف منيح يركب ع أمثالك لإنو ماكر والجدبان متلك ما بيتعلموا من دروس غيرهم وما بشوفوا المصير يلي داقوه ع ايديه بعد ما تنتهي صلاحيتهم..

عرف هذا النظام بدهائه أو بغبائه كيف يشكّل تلك الهوّة السوداء العظيمة بين المثقف والمجتمع. قام بتغريبه، نعم جعله غريباً عن المكان والمجتمع الذي فيه، يتشرذم في المقاهي الرخيصة والخمّارات، يستمع

إلى الشيخ إمام أو زياد الرحباني الذي هو الآخر فضّل اللطميات على الشيوعية ومحاربة الرأسمالية في نزل السرور.

عمل النظام جاهداً على عزل المثقفين، سواءً بزجّهم في السجون أو إقصائهم عن الانخراط في مجال التعليم والثقافة والفن. أصبحوا مهزومين، خرجوا من السجون غير قادرين على استجماع بعضهم في جمعيات أو مجموعات. بل انتشروا في العالم وراحوا يحاربون فرادى. عزلهم هذا الثعلب الماكر بأن يقص الأجنحة ويطفئ الشعلات الحارقة. في الوقت الذي اشتدّ فيه عود المتشددين والمتطرفين واستجمعوا قواهم في الخارج وصار لديهم تمويل وكيان لا يستهان به، وحدهم من كان باستطاعته أن يكون النظام البديل لنظام ينهار وانتشله من لهم مصلحة به من قاع انهياره في اللحظة الأخيرة.

كان ربيع مثله مثل كثير من المثقفين، يرى النظام على أنه مثال للعلمانية، لا يكلّف هذا المثقف نفسه عناء النظر فيما حوله أو حتى لنفسه. ماذا قدم له النظام بعد كل هذه الإنجازات على صعيد الفن والشطرنج والتعليم؟ أين الأندية العلمية والرياضية والثقافية! أين دور المسارح والسينما التي أغلقت أبوابها مع بداية الثمانينات. بنى النظام الجوامع ودعم الحركات الدينية المشبوهة، ليخلق نظاما بديلا يرعب العالم إن فكر باستبداله يوما. بنى المخافر بدلاً من المستوصفات، بنى الصروح على شكل سجون وبنى السجون على شكل جحيم!

لم يلحظ ربيع بكل تحليلاته وفلسفته للواقع كيف انفصل عن أهالي المخيم الذي ولد وترعرع فيه. كان تارة يشير لهم بكلمة «أنتم» أو «النازحين، المحاصرين، اللاجئين، وحتى السوريين» يعيش المثقف

حالة فصل، عزلة عن العالم. تراه لا ينتمي إلى من حوله، بل يريد أن ينتمي إلى تلك السلطة التي لا تراه من الأساس، والتي إن رأته لن تنفك عن تهميشه وسحقه وهزمه أكثر.

رمى ربيع عقب سيجارته بعيداً بإصبعيه، رفع نظره ليرى اسكوبار المخيم ومريم وأم ابراهيم يركضون بوجوه شاحبة، ويدخلون المبنى الذي يسكنه أبو ناجي. نظر إلى الشرفة تلقائياً فلم يجد تمثاله الحيّ هناك. عرف ربيع أن مكروهاً قد حلّ بالرجل، فلحق بالمجموعة.

عاد أبو ناجي لوعيه بعد أن أخرجت أم إبراهيم من حقيبتها زجاجة عطر رخيصة، رشت في الهواء أمام وجهه لعدة مرات فأيقظته الرائحة الواخزة بالقوة. طلبت من ناجي إحضار كأس ماء. وضعت فيه القليل من المربى، حرّكت الماء بملعقة أخرجتها أيضاً من حقيبتها؛ وطلبت من أبو ناجي أن يشرب الكوب مع حبة الدواء. ابتسم اسكوبار حين رأى الحبة لأنه شكّ بأنها حبّة دواء من الأساس.

بعد أن دخل أبو ناجي إلى غرفته لينام، نظر ربيع إلى ناجي مصعوقاً. لم يكن يعلم بأن ذاك التمثال الحي -أبو ناجي- هو والد ناجي.

وقعت عينا ناجي على الأستاذ ربيع الذي بات يعتبره واحدا من أسباب هزيمة الثورة، رمى بوجه أستاذه هاتفه الخلوي وقال له: تفضل شاهد المجزرة التي كان والدي أحد ضحاياها. أراد ناجي أن يوجه للأستاذ ربيع صعقة قوية، علّ الفولطات العالية من الحكاية التي سيسردها ناجي تحرّض بعض الخلايا النائمة في ضمير ربيع، تحرّك الأعصاب الساكنة الميتة.

لم تكن فولطات عالية، لم يكن دلو ماء، لم يكن كابل رباعي، لم تكن أدوات تعذيب فريدة في طريقها وآلامها. بل كانت حكاية أبو ناجي هي من جعلت من ربيع ينزل إلى الشارع وهو بهذا الشكل. كانت الصدمة على وجهه مرعبة.

هل كان هذا حقيقياً؟ حصل هنا، في هذه البلاد؟ بل هنا بالقرب مني؟!!

راح ربيع يسأل نفسه والخوف يلامس قلبه للمرة الأولى بهذا الشكل. لم يخف من داعش والتنظيمات الأخرى، لم يخف من الجوع والقصف، لكن الليلة اكتشف أن الأب الحنون الذي كان يحبه ويحترمه ويهابه ويبرر له جرائمه حتى، لم يكن سوى رجلاً غريباً، سفّاح، احتال على العائلة وأقنعهم بأنه الأب الحقيقي!

سمع أصوات أطفال من بعيد، كانت نفس تلك المجموعة التي رآها يلعبون لعبة المعركة. لكن لعبتهم لهذه الليلة مختلفة. كانت حناجرهم الصغيرة الناعمة تطلق عبارة: «لا إله إلّا الله والشهيد حبيب الله... لا إله إلّا الله والشهيد حبيب الله».

كان الأطفال مجتمعين ككلتلة واحدة متراّصة، يلعبون لعبة الشهيد، حاملين طفلاً صغيراً، ملفوف بقماش أبيض وعليه بعض الورود التي صنعوها من العلب المرمية في القمامة وأوراقها الملونة الاصطناعية ولعبة صغيرة مربوطة بشكل مضحك حول الطفل/ الشهيد. كان الطفل يضحك حيناً، يخاف أحياناً من السقوط. يغمض عينيه خوفاً أو إتقاناً للمشهد. باقي الأطفال يهتفون من قاع حناجرهم بكل صدق وقوة.

البعض تقمّص الدور وراح يبكي. مستحضرا هيبة شهدائه أمام عفوية اللعبة.

ذاكرة... جيل ... مستقبل كامل يمشي أمام ربيع ينبأه بأن الحاضر ليس سعيداً وأن المستقبل ليس بالمشرق. وأن ما فعله النظام لم يشوّه ناجي وأبا ناجي وحسب، بل شوّه مجتمعاً بأكمله.

وقف ربيع إجلالاً واحتراماً لروح الشهيد. احتراماً لأرواح هذه الأطفال المكسورة. وقف وكأنه أمام شهيد حقيقي... وقف أمام نفسه، وللمرة الأولى، نظر إلى وجه الطفل الذي راح يعصر عينيه. رأى وجهه، رأى وجه ربيع مغمض العينين، ودمعة تسيل على خدّه.

مرّت الجنازة عبر ربيع وكأنه غير مرئي، واختفت في الظلام بينما الهتاف ما زال مسموعاً وعالياً بما يكفي لأن يخبر الناس النائمة في البيوت، بأن هناك شهيداً جديداً...

صوتاً مسموعاً يصل إلى الغرف المحفورة في أعماق الأرض... صوتاً عالياً يصل إلى البرج العاجي ويطنّ في أذن ساكنه، يصحيّه، يمنعه من النوم، ويجعله ينزل من هناك إلى الشارع، فينهار برجه كعمود ملح.

الحروب ...

تخرج من الإنسان أفضل ما فيه وأسوء ما فيه أيضاً... هي كأي كارثـة تحل بنا، ألا تخرج الزلازل من رحم دمارها ثروات كانت لتظل دفينة؟ ومن رماد البراكين ألا يولد أخصب التراب...

كذلك هي الحروب...

منهـا خرجـت الأم تيريـزا الفلسطينيـة وإسكوبـار المخيـم، والراعـي الصالـح مـازن، منها خرج نضـال لينا فـي حروبها الصغيـرة لتحقق ذاتها في مجتمع سحق تطلعاتها، ومنها أيضاً خـرج أبو ناجي بذاكرته المتعبة التـي أورثها لابنه اليافع ناجي الـذي بدأ حياتـه الواعية كثير مـن أبنائنا، لا علـى تعلم فنون الحياة والعيش، بل على فنون الهروب من الموت..

جـل ما كان يخيف ناجـي وأبيه الذي حولته الحـرب إلى تمثال وأعـادت له صـور المجزرة تفاصيـل المشهد اللعينـة ألا تكون تلـك المجزرة هي ذاتها التي نجا منهـا لأنها إن لم تكن كذلك فسنمضي عمرنا لا في انتظـار حلمنا بالحرية والكرامة، وإنما

في البحث عن المجرمين بيننا... سنمضي عمرنا ونحن نخفف وطئنــا على هذه الأرض، فتحت أقدامنا مقابر جماعية التهمت أهلنا وأحبابنا وما أكثر من التهمتهم.

الناجي الأخير

هدى الجوادي

لم يتوقع ناجي وهو يقلب حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي نهاية شهر نيسان عام 2022، أن يرى ما سيضعه بمواجهة مع الماضي، أن يفتح له بابا أغلقه منذ سنين، عنوة أو طوعاً. كان ما قرأه ورآه يومها ليبدو عاديّا لنا -نحن الذين لم تتوفر لهم خيارات للحياة، بل طرق متنوعة للموت- لكنه لم يكن كذلك.

رويدا رويدا يستحضر ناجي تفاصيل المشهد الذي أرق حياة عائلتهم وقلبها رأسا على عقب، يستحضره بمزيج من الخوف مما يرى وغصة مما لم يقال، يعيد مرارا مشاهد فيديو المجزرة، يتابع كيف يتفنن ضابط من مخابرات النظام مع شبيّحته في قتل المدنيين البسطاء ويرمونهم في حفرة، يتساءل في قرارة نفسه عن السبب الذي دفعنا لتسميته بـ «النظام» ورغم أن كل ما ينشره هو الفوضى والقتل، السجن، والخطف، والإخفاء القسري، والدمار.

عاصفة من الأفكار تجتاحه مع كل صدمة يتلقاه في تفاصيل ما يشاهده، بحثا عن إجابة لسؤال أرعبه: هل هي ذاتها المجزرة التي نجى منها أبي، أرجو ذلك، لأنه إن لم يكن كذلك فثمة مجازر شبيهة كثيرة مروعة وقعت مثلها وربما أكثر بشاعة، ولكنها دفنت مع ناسها البسطاء،

وتنتظر من يكشف عنها. أخشى ألا تكون تلك المجزرة هي ذاتها التي نجى منها والدي، لأنها إن لم تكن كذلك فسنمضي عمرنا لا في انتظار حلمنا بالحرية والكرامة وإنما في البحث عن المجرمين بيننا - سنمضي عمرنا ونحن نخفف وطئنا على هذه الأرض، فتحت أقدامنا مقابر جماعية التهمت أهلنا وأحبابنا وما أكثر من التهمتهم.

ناجي ابن الأربعة والعشرين ربيعا، لم يعش ربيعه إلا خريفا قاس. في سنة المجزرة كان عمره خمسة عشر ومنذ نجاة والده وخروجه من المعتقل حينها، لم يعرفه إلا كثير الشرود، يسكنه ألم دفين، مداوم على الجلوس أمام النافذة أو في البرندا كالتمثال، علاقته كانت فقط مع سيجارته التي يزفر دخانها كأنما يحاول أن ينفض معه كل ما يعشعش فيه من خوف وصدمات قلبت حياته كوابيس في الليل وشرودا وحسرات في النهار.

يحمل ناجي هاتف الخلوي ويتوجه إلى أبيه:

- يابا، شفت شو ناشرين اليوم بالجرايد.

- ليش هما بينشروا غير المصايب يلي عم تلاحقنا وين ما رحنا، والله يابا صرنا نشتهي خبر يفرحنا.

- تفرج يابا تفرج، انت هاد يلي كنت تحكي عنو.

ما أن وقعت عين أبي على الفيديو، حتى بدأ العرق يتصبب منه، يرتعش خوفا، ينتفض كدجاجة ذبحت للتو وترقص من الألم، يسحب الشهيق بصعوبة كمن يسحب غريقا من قاع البحر، وبصوت خافت راح يهذي: أنا عم شوف يا ناس تعو قلعوا عيوني، تعوا قلعوا عيوني كرمال الله، انهار والدي ببكاء تقطعت له أنفاسه حتى أغمى عليه.

رميت الموبايل من يدي، ورحت أصرخ: سامحني يابا، ما كان لازم أشوفك ياها، سامحني يابا.

في تلك اللحظات استعدت كل ما كان يرويه لنا والدي وكنا نحسبه هذيانات ما بعد الصدمة، كيف كان يصرخ في منتصف الليل مذعورا من هول مجزرة عرفها العالم من خلال اعترافات سفاحها اليوم، ولكن لا أحد يعرف حتى الآن أن الناجي الأخير يعيش هنا، زرعه الخوف بيننا وهو لا يزال واقفا حتى اليوم على حافة الجورة ينتظر دور إعدامه.

لو أن الصحيفة التي كشفت الجريمة أجرت مقابلة معي، كنت سأخبرها بتفاصيل ما أودى بنا إلى مشهد المجزرة، كنت سأخبرها بما لا تعلمه عن حالنا نحن الذين كُتب علينا العيش في الشتات وعندما اختاروا لنا وطنا كان مقبرة.

✕✕

واجهت خلال حياتي تهما تعددت بتعدد هوياتي، أولها بأني فلسطيني الجذر، حفيد لأناس وقفوا في وجه الاحتلال الاسرائيلي لقرية السعدية من قضاء حيفا عام 1948، لكنهم واجهوا مصيرا داميا مثل كثيرين، ودفعوا حياتهم ثمنا لهذه المواجهة. أما تهمتي الثانية فهي أنني سوري المنشأ، ولدت في حي التضامن الدمشقي، لأسرة متوسطة الحال لم يختلف مصيرها كثيرا عن مصير أسلافها، لكن العدو مختلف، عدو من جلدتنا، يدعي أنه معنا وأنه يحمي قضيتنا العادلة، لم يعجبه أن ننادي بحياة أكثر كرامة وعدلا وحرية، فقلب حياتنا رأسا على عقب كانقلاب سيارة على طريق زراعي بسرعة 220 قتيلا في الساعة.

حيّنا، التضامن، هو حي من أحياء جنوب مدينة دمشق كمخيم اليرموك وببيلا ويلدا وسيدي مقداد إلى الحجر الأسود ونهر عيشة ودف الشوك وغيرها، أحياء تشبهه ببساطتها وقلة الخدمات العمرانية فيها والتهميش الذي عانت منه، لكن القاسم المشترك الأكبر بين هذه الأحياء هو سكانها.

أولئك الناس البسطاء المهجّرون من مناطقهم الذين عانوا من قسوة الحياة وعدم الاستقرار في عالم ضاق عليهم كحبل مشنقة وكان مخلخلا ككرسي الإعدام. سوريون وفلسطينيون من كافة سنين الهزائم- الأربعينيات، والخمسينيات، والستينيات، والسبعينيات.. هؤلاء السكان يمتلكون روابطا عائلية ومجتمعية قوية تتحدى الفصل وتمتد عبر وخلال المناطق السابقة عبر حدودها القاسية وأنا منهم.

نشأ حي التضامن حول شارع فلسطين توسعا من مخيم اليرموك، شارع واصل فاصل، نمت العلاقات الاجتماعية فوقه، وكأنها لبلابة نسجت أوراقها لتخفي التلوث والضجيج الحاصل عن مرور المركبات بسرعة وصخب فيه، كان عريضا وواسعا أكثر من أحلامنا. الحد الغربي للحي تحول إلى جزيرة مثلثة بسبب الأجسام الطرقية المحيطة به، شمالا يوجد شارع ابن بطوطة، وشارع فوزي القاوقجي، وشرقا شارع الدعبول. جزيرة مليئة ببيوت لم تخطط أو تنظم جيدا، بل امتدت أفقيا بشكل واسع. لكن منذ مولدي في منتصف تسعينيات القرن الماضي، بدأت العديد من الأبنية الطابقية العالية بالظهور في محاولة لتجديد المنطقة. مناطقنا هذه تحمل طابع النشوء العرَضي، أو كما يسميه البعض التكاثر العشوائي، هي في الأساس، نبتت في الستينات القرن المنصرم

على ظهور بساتين الغوطة كأجسام غريبة كانت عبارة عن منازل غير مرخصة سمحت ببنائها هيئة اللاجئين التي شكلتها في الخمسينيات وزارة الشؤون الاجتماعية، على أراضي خاصة استأجرتها ودفعت أثمانها منظمة الأونروا.

لم تكن التحولات التي شهدتها أحيائنا والتي تحولت لاحقا من عشوائيتها إلى مقابر جماعية في العقد الأخير، بأقل من تلك التحولات التي مزقتنا بعشوائيتها ودمارها لاحقا. وحده النظام بقي اسمه النظام، رغم أنه، ومنذ نشأته، لم يقدنا إلا من خراب إلى خراب.

كان حينا، مسقط رأسنا، بسيطا ومكانا للتضامن فعلا، مكان استقبلنا والكثيرين من أمثالنا ممن ضاقت بهم الأرض. حي يعرف فيه البعض بعضهم الآخر. يتعاونون، ويتشاركون الهموم والحياة البسيطة. حي يشبه أي حي شعبي آخر، بجمالياته وسيئاته.

حرص والدي على تكرار قصة نشوء الحي حتى لا ننسَ حينا، كان يقول لنا دائما: إذا نسيتو الأرض يلي احتضنكم وطعمتكم من خيراتها ما بضللكم جذور بهل الحياة، حبوا أرضكم أكتر من كرهكم عدوكم، لإنو العدو رايح رايح وأرضكم باقية.

نعلم تماما ما كان يقصده والدي كان أسوة بوالديه اللذين أخبراه عن السعدية وحيفا وفلسطين، يرينا دائما مفتاح بيتنا هناك لنقدّره ونحمله معنا أينما أخذتنا الأيام إلى جانب مفتاح بيت أجدادنا، الأثر الوحيد المتبقي من ممتلكاتهم.

نشأتُ في خبايا «الطبب»، الاسم المحلي الذي كنا نطلقه على البيوت القديمة ذات المواد البسيطة. كنت ألعب أنا وأصدقائي في حواريها الضيقة بالدحل. تتوسط ذلك التجمع أرض زراعية لمحصول الذرة البيضاء صيفاً. كان صاحبها يرعاها كما يرعى أولاده، وكنا نتسابق أنا وأصدقائي لنختلس بعض العرانيس فنشويها. لم يكن سعيدا بالطبع، لكنه لم يستطع اللحاق بنا. ما زلت أسمع حفيف شحّاطتي على الأرض وأنا أهرب وبيدي العرنوس.

كانت الشوارع الفرعية كشارع نسرين المجاور ملاعبنا. ملأت وأصدقائي أرجاءه بصياحنا كلما ركلنا الكرة وأضعنا الهدف أو سجلناه، أولاد الشارع كانوا ينضمون إلينا من شدة حماسنا، كنا نتبع مبارياتنا بمكافأة أنفسنا من خلال شراء الحلويات من مخبز الضياء القريب.

درست الابتدائية في مدرسة أحمد حمدان التي تبتعد مسافة خمس دقائق عن الفرن الآلي الموجود قرب شارع فلسطين، شاركت فيها مقاعد الدراسة مع العديد من صبيان الحي، الكثيرين منهم سكنوا شارع نسرين.

حديقة الزبير كان لها مكان في قلوبنا، فقد كانت مقرنا أنا والأصدقاء، كان لا يليق بنا عندما غادرنا طفولتنا التواجد في الشوارع، لذلك اتخذنا من أحد أركان الحديقة مكانا دائما لنا نلعب فيه الشدة والبرجيس إلى جانب أحاديث كانت تطول كمساءاتنا التي كنا نكملها على أسطح البيوت التي كانت تتكئ على بعضها مثلنا، نتكلم عن آخر إصدارات البرامج، والألعاب الإلكترونية والاختصاصات التي نود دخولها بعد البكالوريا أو ما نوع الأعمال التي نريد الانخراط بها. تكلمنا عن جمال

إحدى الفتيات أو الممثلات العالميات من هنا وهناك أو جمال أجسادهن أيضاً، لا أخفيكم هذا. لكن هذه الأحاديث تحولت منذ عام 2011 إلى اجتماعات دورية سرية نحيك فيها أحلامنا التي ستتحقق بمكان يسعنا جميعا، بفضاء مثالي جدا، رومانسي ينتفي فيه الظلم، ويسوده العدل والرخاء كما كنا نقرأ في القصص. مكان نخطط فيه تفاصيل إشعال المظاهرات، وتحديد الأدوار، من مشعلاتي، إلى مخلصاتي، إلى المكبر والهتيف. نحلم فيه بأن الحرّاس سيقفون معنا وسيشاركوننا الهتاف في وجه الديكتاتور وظلمه. لكننا عندما أصبحنا في خضم هذا الفيضان الجارف لم نجد سفننا تحملنا ولا أشرعة تقودنا ولا حتى رياح تدفعنا.

صداقاتي تحولت مذاك الوقت إلى أخوّة حقيقة، أصبحنا جميعا رفقاء الدرب الثوري، كما يحلو لنا تسميته. شاركنا في العديد من مظاهرات حينا والأحياء المجاورة، كانت مسائية، طيارة، ومظاهرات لتشييع إخوتنا، أو للتضامن مع غيرنا من البلدات والمدن السورية.

لا أستطيع أن أصف مشاعري عندما كنا نخرج للتظاهر، كنت أسمع وأنا أردد هتافاتها دقات قلبي السريعة وكأنها طبول انتصارنا على صمتنا الذي ظننا أنه سيكون مؤبدا. في ليلة كانونية من عام 2011 أذكر أنني قررت أنا وبعض أصدقاء شلتنا الانضمام لمظاهرة ليلية انطلقت من شارع الدعبول، لم تتجاوز أعدادنا الثلاثين، لكن مشاعر الرهبة التي غمرتنا تفوق الوصف، لا أدري، كنا على جهوزية تامة لفقد أرواحنا في سبيل الثورة، فقد كانت كما كانت تعلن حناجرنا: «هي لله هي لله.. لا للسلطة ولا للجاه»، «قولوا الله وعلوا الصوت.. السوري ما يهاب الموت»، ما زلت أذكر كيف كنا نحتمي بالعتم حتى لا تظهر وجوهنا بمقاطع الفيديو

المتداولة آنذاك. كانت مظاهرة عفوية، نحاول فيها رفع منسوب الكرامة بداخلنا، لنحيي ما فقدناه وأهلنا في عهد حكم الأسدين.

لحظات الفرح لم تدم كما هي العادة، ربما لم نكن نفهم مدى البطش وعدم اللامبالاة والطاعة العمياء التي يتمتع بها عناصر الأسد، فجاء رد النظام عاتيا، بدأ الرصاص الكثيف يغزو مظاهراتنا وتدفقت دماء المتظاهرين كالسيل على أراضي التضامن وفلسطين والدعبول وكل بقعة سورية.

⋈

كانت أجواء مدينة دمشق مشحونة لا زالت ترن في مسمعي أصوات مكابح سيارات قوات الأمن التي بدأت حملات الاعتقال سريعا منذ اليوم الأول، وهدير طائرات الهليكوبتر والميغ التي زلزلت الأحياء السكنية.

لم أستطع تصديق ما حدث، كنت أظن أن القصف الكثيف الذي بدأه سيكون بعيد عنا، وعن حيينا، وأنه لن يصيبنا، لكنني أخطأت الظن بمناسيب العنف التي كانت تملأ مستنقعات القتل في كهوفه المظلمة، كانت الخطوط الحمراء بعرفه هي الدم، لقتل حلم الحرية فينا.

الشرارة التي أشعلت فتيل هذا القصف وموجة الاعتقالات هذه ربما انطلقت بعد صدور بيان قدمه مجموعة من شباب الحي معلنة انتمائها للجيش الحر، تحدوا فيه النظام من شارع الدعبول لكشف زيف ادعاءاته، لكن الرد كان حربا لا رحمة فيها، تسارعت وتيرة الأحداث إلى نقطة اللاعودة، وبدأ قصف شارع الدعبول بالمدفعية والطائرات.

عندما كنت أشاهد إعلان تلك البيانات والفيديوهات الحماسية، كنت ابتسم لا شعوريا، أردد أغاني الساروت.. كانت المفضلة لدي تلك التي تقول: جنة جنة جنة.. جنة يا وطنّا، رغم أننا كنا نعيش في الجحيم. راحت ابتسامتي تنحسر كالمغيب مع بدء دوامة النزوح المتكرر وآثار القصف على حياتنا اليومية.

اقتحمت قوات النظام الحي في إحدى ليالي شهر تموز بالمدرعات الثقيلة من جهة جامع الزبير الذي دمرته وقتلت إمامه شر قتلة باعثة الرعب في قلوب الناس، اعتقلت الكثير من الشباب ثم قصفت الحي، أحياء أخرى لم تكن خارج المشهد: حي القدم، ونهر عيشة والحجر الأسود. لم تتوقف هذه الحملة إلا عندما أنهى النظام مهمته بنشر اللانظام، تدمير الحي وتهجير أهله.

مع بدء الثورة ظهر تقسيم جديد في حينا، رسم فيه شارع نسرين حدود الدم، كان الفاصل بيننا وبينهم، بين الثائرين وبين الشبيحة والمؤيدين. الكثير من القصف كان قد انطلق من هذا الشارع، هو ذاته شارع مباريات كرة قدم طفولتنا، واليوم نحن فيه الهدف.

بيتنا ذو الغرف الأربع كان بعيدا عن الشارع خمسمئة متر فقط، القصف كان شديدا لدرجة أن حركتنا شلت، أذكر في أحد المرات تلاصقي وأهلي الشديد والرعب يغمر قلوبنا، تسمّرنا في أماكننا لعدة ساعات، من حدة الأصوات واهتزاز أرجاء البيت. لازلت أحس ببرودة بلاط الشقة على خدي لأنني لم أكن أستطيع رفع رأسي خوفا من أعين القناص الذي كان يلعب دور إله عديم الرحمة، لا يفرق في طلقاته بين طفل أو امرأة، عجوز أم شاب، أسمر أو أشقر، كان قد استقر في

البناء ذي الطوابق العالية المقابل للبيت. كنت وقتها في الرابعة عشر من العمر. كم هو صعب أن تبدأ حياتك الواعية في ظروف أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها تتأسس لا على تعلم فنون الحياة والعيش، بل على فنون الهروب من الموت. كنا نحن الجيل الذي ورث صدمات أجيال سبقته وعاش بعينه صدمة القرن!

بقدرة قادر، استطاعت عائلتي الخروج إلى مكان مجاور لنا يدعى الجاعونة، في حي مخيم اليرموك، كان مثل معظم بقية الشوارع في المنطقة، مجموعة من الأبنية البسيطة التي بنيت على طرف حارة ضيقة تحمل اسما أطلقه سكانها القادمون من قرية الجاعونة الفلسطينية، الواقعة على بعد عشرة كيلومترات شرقي مدينة صفد، في محاولة لاستذكار ماضيهم ومكان ولادتهم.

استأجر والدي بيتا صغيرا متهالكا هناك قرابة الشهر نأوي إليه حتى تهدأ الحال.

✕✕

في أحد الأيام التي تلت ظهور علامات البلوغ على وجهي، نظرت في المرآة الصغيرة التي تعلو المغسلة المتهالكة في الحمام الضيق، كنت مذهولا، لم أتعرف على الشاب الصغير الذي رأيته، كان يافعا لكنه كان كبيرا في السن أيضاً، يعلو محياه الإعياء، لون أصفر يغطي وجهه، هالات سوداء تدور حول عينيه «كأنها ثقب أسود يريد ابتلاعي»، أمعنت النظر وسألته:

- له له، ليش هيك حالتك، شو صاير معك؟

- والله يا ناجي كنت رح روح فيها. مبارح كنت طالع من البيت اللي استأجرناه بالجاعونة، عم اشتري لوازم السحور، وأنا بالطريق نزلتك قذيفة على بناية كنت ماشي جنبها، عند بن باكير. يا زلمة ما بعرف شو قلك، تقول قامت القيامة.. لك ماعاد سمعت شي غير صوت صفير، قلت لحالي إجت ساعتي، وخلص اتوفيت.. يازلمة طرتلي مترين بالهوا من عزم الضربة، واتعبيت غبرة بس ضليت عم اسمع الصفير.. العالم اجت وتجمعت حوالين البناية، عم تحاول تساعد وتشوف شو ممكن تساوي، ولبين ما صحصحت وقمت صلبت طولي، ولادين الحرام بينزلوا قذيفة تانية على الناس يلي كانت متجمعة حوالين المبنى، أنا كنت بعيد نسبيا، بس من بعد الضربة التانية ما عاد وعيت ع شي، ضليتلّي ساعة وشوي فاقد الوعي ووقت فقت.. كنت مفكر حالي منصاب، لأني معبى دم وقطع أواعي وشقف اللحم معبية وشي وجسمي، لبين ما عرفت أنو أنا ما بني شي وهدول شقف من العالم حوالي، وطعمة الحديد يلي بتمي هي من دمهن، كنت مهستر وعم صرخ حوالي، إنو ليش.. ليش ياربي!

اطلع حوالي وقول شو ذنبهن هالعالم، يالله يالله... والله لا ليلي ليل ولا نهاري نهار... ما بعرف كل يوم بفيق بالليل وأنا عم صرخ وشايف وجوه الناس اللي استشهدت... لك قتلوا ولاد اختي الصغار... لك أطفال يالله.. قتلوا إمام جامع الزبير يلي كنا نصلي وراه... قتلوا بياع الخضرا يلي ركض يساعد الناس بأول قذيفة... ما عم صدق... الله لا يوفقهن!

فاضت الدموع من عيون ناجي، مسح زجاج المرآة أمامه، وهز رأسه منتبها لشروده «هادا يلي ناقص خيا.. ولادين الحرام خلوك تحاكي حالك»! مسح دموعه ومخاطه الذي خالط شاربه الخفيف وتنفس بعمق وأخبر المرآة أن كل شيء سيكون على ما يرام، لكن هذا لم يكن!

كل ما حدث لم يكن سوى مقدمات لحفلة الدم التي لم تعرف لا الحدود الدينية ولا الأخلاقية ولا الإنسانية طريقا لكبحها. كان قصف السوق في منتصف شهر رمضان، الجميع يتجهزون للتحلق حول موائدهم منتظرين مرور الدقائق الأخيرة التي تفصلهم عن الفطور، ولكن ما ضرب حينها لم يكن مدفع رمضان شهر التسامح والمحبة، بل مدفع النظام الذي كان يحمل كل معاني الكراهية والدمار.

مر شهر الجاعونة بصعوبة، لكن الأحوال هدأت قليلا، وعدنا إلى بيتنا في حي التضامن، مثل كثيرين، بدأنا بإصلاح بيوتنا آملين بأن تعود الحياة إلى طبيعتها، تلك البيوت التي كانت تعاني ثقوب ودمار كبير في جدرانها وفي ذاكرتنا.

عادت اللعبة من جديد، استمر الهدوء حتى تشكيل كتيبة أخرى للجيش الحر، بسبب ما يفعله النظام مع الأهالي واعتدائه المستمر على النساء والأطفال واعتقال الرجال، بدأت الكتيبة بعمليات ضد النظام، اشتد وطيسها كثيرا، أحد أشد الاشتباكات استمر ليومين، كان مهولا لدرجة أن معظم سكان الحي قد تركوا بيوتهم، وعائلتنا كانت معهم أيضاً. عدنا لبيت الجاعونة الصغير المستأجر نفسه، لأكثر من شهرين، استمرت الحال حتى فقدت كتيبة الجيش الحر قدرتها على الاستمرار بالاشتباكات، ولم يتبق لديها من العتاد إلا القليل. في تلك الأشهر تناوب

الطرفان السيطرة على الحي، ولكن عندما كان الجيش الحر مسيطرا، لم يكن أمام جيش النظام أي طريقة لاستعادة السيطرة إلا بقصفه وتدميره.

خرج الجيش الحر من المنطقة ملتجئا إلى يلدا، مما عنى بإن المنطقة صارت حلالا زلالا على جيش النظام، وقتها أخبر الجيش الأهالي بأن المنطقة آمنة وأن بإمكانهم العودة إلى بيوتهم مرة أخرى. كم سمعنا هذه الجملة، وكم مللنا سماعها!

عاد البعض وعاد أملهم بعودة الحياة وبإصلاح بيوتهم، لكن والدي قرر عدم العودة، أراد الانتظار قليلا، كان هذا الخيار صائبا، لأن كتيبة الجيش الحر أرادت العودة إلى منطقتها وإعادة السيطرة عليها، عادت الاشتباكات بينهما، أضراها دامت لمدة خمسة أيام. خمسة أيام من الخوف والتعب والتوتر والرعب عشناها بترقب، متوقعين بأن تحسم الأمور، السؤال الوحيد الذي شغلنا يومها هل سنبقى أحياء أو سنرحل عن وجه هذه الأرض وندفن تحت الانقاض. كنا لا نزال في بيت الجاعونة ومع إنه بعيد نسبيا إلا أنه قريب بما يكفي لأن تحس بأن زلزال القيامة قائم في بيتك.

أصبحت أكثر ضيقا وأقل تحملا، ابيضّت الكثير من شعيرات رأسي ونحل جسدي. وبسبب شدة الاشتباكات واقترابها، استأجر والدي بيتا صغير نسبيا في أحد شوارع مخيم اليرموك المركزية اضطررنا فيه إلى مشاركته مع عدة عوائل أخرى لعدة أشهر. عدة أشهر تقاسمت أنا وعائلتي المكونة من ستة أفراد غرفة واحدة ذات شباك واحد، في بيت بني بشكل مؤقت في الخمسينيات، بدون الاكتراث إلى العديد من المعايير المعيشية الملائمة، عدة أشهر ونحن نتقاسم النظر من شباك واحد، مطل

على حبال كهربائية وجدار بيتوني مقابل. عدة أشهر ونحن نتناوب على النوم ثلاثا على السرير الوحيد في الغرفة، والباقون يلتحفون الأرض. عدة أشهر من الانتظار في طابور للدخول إلى الحمام، طبعا حمام بالاسم فقط، لأنك ستكون محظوظا عندما يحين دورك إن وجدت ماءا، ولك أن تتخيل رائحته وقذارته التي لم يكن يشببها شيء إلا الأيام التي نعيشها.

استمرت الحال هكذا حتى تعب الطرفان وأُعلن أن الحي لا يتبع لأي من الجهتين.

⋈

لشدة ما كنا نمر به من ظلم وخوف وقلق وانتظار، أردت الانضمام إلى الجيش الحر، وقتها نشأت مجموعة حديثة فيه اتخذت من جبهة النصرة اسما لها ومن منطقة يلدا المجاورة مركزا. حاولت كثيرا الانضمام لصفوفها، كنت أود أن أفعل أي شيء، أن أدافع، أن أنتقم، أن أحمي، أي شيء سوى الانتظار، لكن والدايّ وإخوتي منعوني، أخبروني بأنني صغير على أن أحمل سلاحا وأقاتل، صغير على أن أتحمل شقاء فوق الشقاء الذي أحمله، أن أحمل دماء على كفي، دماء مهما غسلتها، يابا، عن يديك ستبقى آثارها على روحك، هكذا كان والدي يقول لي.

الجبهة أيضاً لم تر في طفل هزيل ذي شارب متناثر أي ند أو أي إضافة لصفوفهم، بالطبع رفضوا، حزنت وقتها كثيرا وتضايقت جدا، لكنني أحمد الله على أنني لم أنتسب، لأن ما آل إليه شباب الجيش الحر أو تلك المجموعة بعد عدة سنوات والشنائع التي ارتكبوها، لا يرضي أحدا وخاصة من سبقنا إلى الله، لا بل كانت عارا ارتكب باسم ثورتنا أيضاً.

سيطرت جبهة النصرة على منطقة يلدا، وأدارت كافة الأمور هناك، وخاصة بعد ازدياد أعداد عناصرها، الذين تجاوزوا الستة آلاف مقاتل، لأنها امتلكت دعما كبيرا من الدول المجاورة التي لها مصالح فيها ستؤول إليه الأمور، وهذا سهل لها وصولا وامتلاكا مريحا للأسلحة الثقيلة. جيش النظام وأمام النمو المتزايد لهذه المجموعة الناشئة بدأ بقصف يلدا، كان رد النصرة حاسما وثقيلا، بالكم والكيف، استعملت فيه عناصرها أسلحة ثقيلة سمحت لهم باحتلال حيّنا، كان اشتباكا خاطفا حسمت نتيجته سريعا، أرعبت جيش النظام لبعض من الوقت.

✕

إدراك الوقت حينها كان غريبا، رتم الحياة أصبح سريعا، أصبح صوت القذائف القريب واهتزاز الجدران وغياب الخدمات، أمر شبه طبيعي، وكأن حياتنا من قبله اختفت. توقفت عن الذهاب إلى المدرسة، واختفت أحلامي بالدراسة والسفر والانطلاق للحياة. صارت جل أحلامي أن أجد رغيف الخبز، وجوه الناس أمام الفرن كانت كئيبة كحال الأرصفة والأبنية، متعبة منهكة، متداعية ومحطمة، لكن الغضب والقهر كان يغلي في صدورهم، فمات الكثيرون قهرا، حزنا، وصبرا.

سيطرة جبهة النصرة على الحي، جلبت معها معاناة للمنطقة بأسرها، حيث أعاد الجيش استخدام أسلوب التدمير نفسه الذي اتبعه في يلدا. هذا كان حله دائما، قصف وبث للخوف ونشر للدمار. اشتد القصف والحصار علينا، أحسسنا كأننا عالقين في زجاجة.

من خبرتي في قصف الجاعونة، أخبرت عائلتي بأن علينا الخروج بسرعة، لأن كل قذيفة تأتي مع أخت أو اثنتين لها في كل مكان تسقط

عليه، لكنهم كانوا خائفين. ما حسم الأمر ودفعنا للركض هاربين بسرعة أن إحدى القذائف سقطت على بيتنا، هادمة إحدى الغرف، فجرينا بملابس النوم إلى بيت جدي القريب، احتمينا فيه، لا أذكر إحساسي وقتها، أذكر فقط أن أبي كان يشدني بقوة ويخاطبني قائلا: «يلا يلا.. لك شبك ما عم تتحرك متل المصطيجة».

عائلتي ذات الأفراد الست، وعائلة جدي المكونة من أربعة أفراد تكورت على بعضها في إحدى طوابق المنزل والخوف يعتصر قلب الجميع، عيون محمرة تعلو وجوههم، رجالا ونساء بلا استثناء. ربما كنت الوحيد الذي يشعر بأنه لا يشعر، كنا متكورين خوفا وكأننا قطعة لحم واحدة، ما هي إلا دقائق حتى شتتنا قذيفة سقطت على بيت جدي أيضاً، لم يبق أمامنا خيار إلا أن نهرب وسط القصف، الحمد لله بعد ساعتين ونصف، تعب الطرفان وقررا وضع هدنة لمدة ربع ساعة، أخلى فيها من استطاع سبيلا المنطقة، وكنا نحن العشرة منهم.

بعض الأهالي ظلوا هناك، محتمين بسقوفهم، وملتجئين إلى الله ليبعد عنهم شر القذائف. بعضهم نجا، وكثيرون غيرهم لم ينجوا، فقد استمر القصف على المنطقة يوميا لمدة شهر كامل. وعاد معظم الحي على الأرض كما بدأ. ربما كانت أرض التضامن أرضا خصبة يوما ما، لكنها الآن أرض ركام وجثث ودماء.

✕

انتقلنا إلى مخيم اليرموك، واستطاع أبي العثور على منزل تركته عائلة بعد سفرها، بمبلغ ضئيل مقابل أن نرعاه لها ليأوينا. كنا أنا ووالدي

نتردد على منزلنا في حي التضامن عندما يسمح النظام للأهالي بالعودة وأخذ بعض أغراضهم. ذهبت مرة مع والدي وأخذنا ملابس لنا ولأمي وأختي، بعض صور العائلة، وبعض من أدوات المطبخ، ومفتاح بيت فلسطين الذي وجدناه بعد بحث شديد تخلله يأس مطبق من العثور عليه، بالطبع لم يكن هناك فائدة من اصطحاب الأدوات الكهربائية، لأن الكهرباء كانت شبه معدومة.

رحلاتنا إلى حي التضامن كانت أشبه بلعبة سوبر ماريو المليئة بالمخاطر وبالألغام، لكنها كانت في حالتنا مليئة بالحواجز والقناصة، نسميها لعبة الصراع مع الموت ولدينا منها نسخة لا مثيل لها من لحم ودم لا مجرد خوارزميات غبية تنقل إحساسا غبيا للاعبين. الحاجز هو لغم يمكنه أن ينفجر لأي ضغط كان، لأي حركة، عليه يمكن أن تجري محكمة نهايتك السريعة جدا، يمكن أن يقرروا سجنك كما حصل معي، أو قتلك تصبح وكأنك لم تكن، أو تختفي كأنه لم يكن لك وجود، يخفونك وراء الشمس بغمضة عين، يدفنونك في حفرة بين الأنقاض كأنك علبة سردين فارغة، كاد أبي ليكون كذلك ضمن ضحايا مجزرة حفرة التضامن لولا لطف الله.

على الحاجز، يمارسون ساديتهم عليك، يسبون سلالة عائلتك كلها، يهينون أمك، ثم أمك، ثم أمك. فتشوني كثيرا، أدخلوني إلى غرف داخلية جردوني عدة مرات من ملابسي ومن إنسانيتي أيضا، كنت أراهم يتغامزون بعيون ملؤها الخبث وأيديهم بها تمسكه تتعمد اختراق ثقوب الجسد والروح فيك لكسرك وجعلك بلا قيمة.

في السجن ضربوني كثيرا، أخبروني بأنه كان على أجدادي أن يفنوا

كي ينتفي أي سبب لوجودي بينهم ومشاركتهم العيش، وكأن هذا البلد لهم بموجب وعد إلهي، ولديهم هم أيضاً «عهد الرب» بامتلاكه وأن القوة التي أعطيت لهم والجبروت تعطيهم الحق لسحقك، استخدموا خلال حفلاتهم السادية كل محتويات زنازينهم وغرف تحقيقهم، كرسي، برميل، قضيب من الحديد، بوط عسكري، شحاطة، حزام، كابل كهرباء... خرجت بأقل الأضرار الجسدية وبإرث كبير من العطب الروحي، صرت أكره قوس قزح لأنه يذكرني بانتشاره على جسدي لأيام وأيام بعد حفلات تعذيبهم لنا.

يفتح عليك السجن بوابات الذكريات لتصنع مسرحيات وأفلام تسليك أو تقضي عليك، لذلك عليك أن تعرف متى تسدل الستار عليها وتغلقها كي لا تأخذك إلى أماكن لا عودة منها، في أي لحظة يمكن أن تتحول الذكريات إلى ثقب أسود يلتهمك ا إلى الأبد. عادت بي الذكريات إلى زمن اللعب بكرة القدم في شارع نسرين، إلى فريقنا الذي كان يضم العديد من أولاده، أتذكر كيف كان الحي يصيح معنا عند تسجيلنا هدفا، أو يصيح علينا بسبب ضجيجنا الذي أيقظ الأهالي من قيلولتهم، أستعين بخيالي وذكرياتي لاستعادة ذلك الزمن لأني لم أستطع تصديق أن بعض أولئك الأولاد ومنهم أصدقاء طفولة وإخوة كبار لهم، هم من اقتادوني إلى سجني، وأصبحوا اليوم أصحاب السعادة والسلطة في تلك البقعة من العالم.

كيف يستطيع شخص لم يتجاوز الخامسة عشر أن يمسك بندقية ويضعها في وجه صديق له، ربما لست بصديق، لكن بأحد معارفه، بزميل مدرسة، زميل رياضة، زميل شارع، إنسان.. إنسان ولست حيوان،

آه ما أقسى تلك العبارة التي تردد صداها في جهات الأرض الأربع: «أنا إنسان ماني حيوان» كم حملت في داخلها من القهر والانكسار، أراد صاحبها أن يخبر العالم أننا نرفض أن نكون قطيع أغنام في حظيرة، كم حملت من ألم كنا نعيشه وهم يحاولون تدجيننا في مزرعتهم لنتخلى عن إنسانيتنا ونصبح قطيعهم الساكن سكون الموت.. كيف يستطيع ذلك الذي تربيت ولعبت ودرست معه أن يتظاهر وكأن وجودك لا يعني شيئا، كيف تحولت لمجرد انتهاء طائفي، لعدو تلقائي وكل ما فعلته هو مطالبتي بحياة أفضل لنا جميعا، بحرية وكرامة لي ولهم، هل هذه جريمة تحولنا إلى نحن وهم، أو هم والآخرون الخارجون عن القيم، الجرائيم المندسة بين طيات المجتمع المتجانس الذي يلبس أقنعة السعادة والرضى.

في المرات التي لم يحتجزوني بها، هددوني بالموت إن لم أنصع لأوامرهم. مرات لا تحصى قرأت فيها سورة الفاتحة على حواجزهم اللعينة وأنا أحس ببرودة فوهة البارودة على جبهتي، هي سخرية الأقدار، لأنني في تلك اللحظة كنت أتذكر البارودة التشيكية التي درسنا مميزاتها «الفنية والتعبوية» في دروس العسكرية، وتدربنا في آخر سنة لنا بالمدرسة على رمايتها في معسكر الضمير، علمونا أننا دروع الوطن وحماته ضد عدو لم نره إلا في أدبيات حزبهم ومناهجهم الدراسية. لم أكن أظن يوما أنه سينتهي بي المطاف لأن أكون أنا الدريئة وعدوهم المقصود أيضاً!

كنت أشعر أن طلقتها قادمة لا محالة، في تلك اللحظة كانت الأفكار تتسارع في رأسي أحاول أن أحسب مقدار الألم الذي ستسببه لي إن ضغط العسكري على الزناد، هل سيطلق النار عليّ رشا أم دراكا؟ أين ستسقر الرصاصة في رأسي، في الفص القفوي؟ هل سأفقد السيطرة على

أعضائي أولا أم على حواسي؟، أفكر في والدتي، بكم الألم والدموع الذي ستشعر به إن قتلوني. أفكر في أنني لن أرى أصدقائي، بعد الآن، أفكر في مستقبل ضائع، في ابنة العم فرح كم هي جميلة بعينيها الملونة، إطلالتها كانت تنشر الفرح وتجلي كآبة أيامي. سحب العسكري الفوهة الباردة اللعينة عن مقدمة رأسي، بعدما توسل والدي للعناصر وتعهد لهم بأنني لن أعيد الكرة، وأننا سنجلب لهم في الرحلة القادمة علب الدخان، عادت لي الروح رويدا رويدا وبدأ الحياة تدب في أعضاء جسدي التي شلها الخوف.

بالطبع إن استطعت النجاة من السجن ومن الحاجز المهين، سيكون عليك اجتياز المستوى الأصعب من تلك المخاطر والألغام في لعبة موتنا اليومي، وهو مستوى القناص الذي يتفنن في انتقاء فرائسه وانتقاء مكان اصطيادها، يمارس لعبة الآلهة وينصب نفسه عزرائيلا وبإصبع واحد فقط يقرر نهاية حياتك، لا أذكر كم عدد الأشخاص الذين ركضوا أمامي وهم يحاولون الوصول إلى خط النهاية، يحاولون الالتجاء إلى الزوايا الميتة التي لا يراها القناص، الزوايا الميتة التي تقع خارج نطاق صلاحياته كحاصد لأرواح الأبرياء، لكنني أذكر تماما عدد الطلقات التي أخطأتني واستقرت في ظلي، وأذكر عدد الذين تشظت رؤوسهم أو تفتتت صدروهم أمامي، أذكر تلك المرأة التي كانت تمشي قبلي وهي تحمل حاجياتها المبعثرة لأطفالها، فتبعثر رأسها وحاجيات أطفالها في كل مكان، أذكر ذلك الطفل الذي رافق أمه لصغر سنه وهو متشبث بثوبها من خوفه، رحلت أحشاء جسده الغض عنه وبقيت يداه على ثوب أمه كي لا يفقد شعور الأمان والطمأنينة بجانبها، أذكر ذلك

الرجل السبعيني الذي يحمل على رأسه أوزار الدنيا بأكملها، وكيف حمل أيضاً رصاصة القناص فسقط لثقل أحماله. تستقر صورهم في رأسي كما استقرت الرصاصات في أجسادهم على بعد أمتار مني ومن والدي، أراد القناص اللعين أن نفهم بأن حياتنا نحن المندسين الجراثيم لن تبقى كما أرادوا.. بأن حياتنا في يده كرة في لعبة الروليت الروسية وهو من سيقرر في أي حفرة ستقع. كل هذه المشاهد حفرت حفرا وصلت لمركز الألم في رأسي واستقرت فيه، كما الحفرة التي كانت ستكون قبر أبي المجهول.

في إحدى الصباحات الباكرة من أواخر شهر تشرين الأول وكنا حينها في أحد منازلنا نزوحنا في مخيم اليرموك، تلقى والدي اتصالا على هاتفه المحمول، لم أسمع منه شيئا، لكني رأيت آثاره على وجهه، تسرب القلق والعبوس إلى عينيه وجبهته، وبدأ العرق يتصبب منه، حاول الانشغال بترتيب أشياءه قبل أن يجري اتصالا آخر، كانت عيناي مثبتة عليه تتجول معه بقلق في أنحاء البيت. بعد أن أجرى مكالمته بعيدا عني، جذبني من عضدي وشد على كتفي، عاملني والدي في تلك اللحظة كند له، كوريث للعائلة اعترافا منه برجوليتي وببلوغي مرحلة متقدمة من المسؤولية، لكنني أحسست بثقل ما شاركني به، أحسست بأني دخلت مركز الإعصار لم نخرج منه أصلا.

كان الاتصال من أحد معارفه أخبره فيه أن عليه العودة للتضامن بسرعة لأن عناصر النظام طلبوا من أهالي الحي بالعودة الفورية إلى مساكنهم، ومكوثهم هناك، وإن لم نعد هددونا بأن يقوم الجيش بتخريب البيوت وتعفيش ممتلكاتها. نظر والدي بجدية في عيني وهو يشد على

جانبيّ، أخبرني بأنه ذاهب إلى هناك وأنه لن يصطحبني معه، قال لي: «ليك يابا.. بدهن يانا نرجع اليوم ونقعد بالبيت، وإلا رح يتهدم البيت متل ما شبيحة نسرين فخخوا بنايات الدعبول». لم أتمالك نفسي من مقاطعة والدي، أخبرته أنني أريد الذهاب مكانه، «رح نروح أنا وعمك أبو ياسين، طلعوا داقينلوا كمان، وكان عم يحضر حالوا للروحة، اتفقنا مر عليه نروح سوا، إنشالله بتطلع سليمة.. رح ناخد معنا كم كروز دخان لنعطيهن ياها، لنشوف شو بيطلع منها».

ابتسم أبي لي ابتسامة خفيفة تخفي قلقا هائلا وشدّ يده على كتفي: «بشوفك ع العشا انشالله يابا». تبسمت لحنان والدي المتدفق، كان نادرا ما يظهر لنا، ولكننا نعلم بوجوده.

قمت بمساعدة والدتي بتحضير الفطور.. جلسنا وأنا أحملق في بخار إبريق الشاي المغلي بانتظار العم أبو ياسين وأنا أفكر في مدى قلق والدي، وأسباب عدم اطمئنانه هذه المرة من الذهاب للتضامن وقد فعلناها كثيرا سابقا.

⋈

أبو ياسين ابن عم والدي، رجل في الخمسينات، كان حفيدا لإمام قضاء حيفا، ورثت عائلته وهو عنها لباقة ودماثة في الكلام ومكانة في أي مجلس يحضرونه، كان ذا حضور عارم، بنظرات ثاقبة، تجعلك تذعن له، أكتافه عريضة، متوسط القامة، وله شوارب يستطيع عقاب أن يستقر عليها.

جاء أبو ياسين بسيارته ليصطحب والدي وتوجها وحالة من عدم

الاطمئنان يعلن عنها دخان سجائرهم الذي يخرج متقطعا مرتبكا من رئتيهما.

ما حدث في آخر يوم من سنة 2013 الكبيسة، كان يفوق خيال أعتى المجرمين، فيلم رعب بكل ما في الكلمة معنى، لم أستطع تصديقه عندما كان والدي يروي تفاصيله لنا على مدى السنوات التي تلتها، كنت أعتبره يهذي لفقده ابن عمه في تلك الرحلة، بكل الأحوال أبي الذي عاد إلينا بعدها لم يكن هو ذاته الذي كان قبلها.

عند وصل والدي وأبو ياسين إلى التضامن، كانت حواجز النظام تتحلقها من جميع الجهات لضبط الحركة ومنع المساعدات. غالبيتهم كانوا تحت مسؤولية مجموعات الشبيحة التي انتظمت فيما يسمى باللجان الشعبية، والتي ارتبطت بالطبع بشارع نسرين، وسكانه ذوي الأغلبية العلوية، الذين نزحوا في الستينات من هضبة الجولان المحتل. البعض الآخر منها كانت إما لمجموعات تعمل مع الجبهة الشعبية وأحمد جبريل، أو مجموعات فتح الانتفاضة الموجودة غرب التضامن عند شارع فلسطين، أما القسم الأخير فهي الحواجز الجنوبية والتي ترتبط بفرع فلسطين (التابع للمخابرات العسكرية).

حواجز اللجان الشعبية اللعينة أو ما عرف لاحقا بعناصر الدفاع «الوطني» كانت عديدة، أولها بالطبع حاجز البركة، بجانب مطعم البركة في شارع نسرين، الذي تولى مهمة حركة الدخول والخروج من الحي. هناك حاجز الفرن الآلي القريب من شارع فلسطين، وحاجز أنشأ في منتصف الشارع والكثير غيرها، بالإضافة إلى حاجز ساحة الريجة الواقع في القسم الشمالي من المخيم، وحاجز السليخة الواقع في ببيلا شرقي شارع

الدعبول، الذي لعب دورا هاما في هدم الأبنية على رؤوس أصحابها. امتلك الشبيحة واللجان الشعبية سلطة وصلاحيات لا حدود لها وهم أيضاً لم يقصروا بتجاوز اللامحدود، عاثوا فسادا هائلا لا أستطيع إلى اليوم تحديد ما إذا كان ممنهجا من النظام أم أنه تمت هندستهم جينيا لإطلاق وحشيتهم كيفما اتفق، مطمئنين من أنه مهما بلغت قذارة قراراتهم الفردية فلن يعاقبهم عليها أحد.

أوقف العم أبو ياسين سيارته في أحد الشوارع القريبة من ساحة البطيخة، وحمل هو ووالدي كروزات الدخان، مثل كل مرة ومشيا حتى حاجز البركة للولوج منه إلى حي التضامن. عندما وصلا إلى الحاجز، قام أحد العناصر بمباغتتهم وخطف الكروزات منهم، وجاء آخران من الخلف، موجهان كعب سلاحهما إلى أرجلهم، أربعة عناصر آخرين أحاطوا بهم من الجانبين وانهلوا عليهما رشتما وركلا بالبوط العسكري: «عم تشترونا بحق كروز دخان يا ولاد القحبة، خود إنتا وياه، والله لنربي العالم فيكم». سقط والدي وأبو ياسين على الأرض صارخين من الألم، كان ألم المفاجأة كبير لكن ألما أكبر بكثير كان ينتظرهم، جروهما على الأرض لعدة أمتار وكلما حاولا رد الركلات عن أنفسهما، زادت شدتها.

يصف والدي اللحظات التي كان يغيب فيها عن الوعي بطنين بدأ في أذنيه، وتشوش غلب على رؤيته، وطعم حديد مالح راح يملأ فمه، انفصلت روحه عن جسده كأنها صعدت لتراقب كيف سيكون عليه حاله وحال أبو ياسين وهما يتساقطان تحت الضربات المتتالية، كان آخر ما وقعت عليه عينيه هو رأس أبو ياسين المدمى، وعيناه نصف المفتوحتين اللتين انتفختا من ركلات مقدمة الأحذية العسكرية.

في تلك اللحظات لا قيمة للزمن لأنك لن تعلم متى سيعود إليك وعيك متى ستفتح عينيك لكن إيقاع الآلام التي تملأ جسدك ستتكفل بإيقاظك، أكثرها قوة كانت تلك التي في مؤخرة الرأس فهو مكان يستقبل الكثير من الركلات عادة ويتعمد أولاد القحبة استهداف رأسك وكأنهم يرفسوك ليخرجوا ما فيه، حاول والدي تحسس رأسه، لكنه كان يشعر بمقاومة شديدة وأن يديه لا تستجيبا لأوامر عقله، أدرك لاحقا أنهما مقيدتان. بعد عودة قدرة دماغه على ترجمة الواقع عرف أنه في غرفة خلفية وراء حاجز الفرن الآلي المتواجد في شارع فلسطين، كان العم أبو ياسين مستلقيا على يمينه والدماء تغطي جسده، معصوب العينين واليدين، كان واضحا أن ما يفعلون ليس بهدف سجنهما وإنما إخفائهما خلف الشمس، كان الموت هو المصير الوحيد الذي ينتظرهم.

لا يزال هذا اليوم يرخي بظلاله الثقيلة على حياة والدي، يود لو أنه تخلص من عبئ حِملها الثقيل وتفاصيلها العصيبة. طالما شده هذا الصندوق إلى أسفل وشدنا معه، نراه دائما شارد الذهن خائف أثقلت حالته كاهلي وتركت غصة في صدري، عندما شاهدنا مقاطع مجزرة التضامن المرعبة، تصبب عرقا وغرق في نحيبه، صوت أنفاسه كانت أشبه بصوت منشار يحفر طريقه في الخشب، أعضاء جسده راحت تنتفض كمن ينتظر دوره في الإعدام.

صرخ والدي: صدقتوا انو ما ني مجنون، وانو يلي خبرتكم عنو صار، الله يرحمك يا أبو ياسين، رحمة ونور عليك.

ندمت لأني كنت أحسبه كل السنوات يهلوس بأحداث سببتها له الصدمات المتتابعة، كنت ألومه لأنه فقد حكمته، لكن مشاهد المجزرة

التي وثقها القاتل اللعين تفوق كل خيال، وما كانت لتحدث لو وقف معنا العالم الذي يشاهده اليوم، ما كنا لنموت وحيدين في هذه الحرب التي لم يبق لنا منها سوى كوابيسها المرعبة تطاردنا. هل يكفي البوح بها وإخراجها للعلن كي يرتاح جسدنا المتعب هل يكفي إخراج كل هذه الذكريات التي تحولت إلى سموم وقيح تنكأ جراحنا لنتعافى؟

كان والدي الناجي الأخير من مجزرة مروعة هي واحدة من عشرات لا بل مئات المجازر التي حدثت لأناس ربما لن يعلم أهلهم بمصيرهم، لنساء حرقت بعد اغتصابها وهي مقيدة بسريرها، لجثث قتلت ورميت بعد حرقها وسجلت على قيد مجهول، لجرائم قتل متسلسل مازال مرتكبوها طلقاء، يعيثون فسادا في البلاد والعباد، ويعيشون حياة طبيعية بين أهلهم وأولادهم وكأنهم لم يفعلوا شيئا.

راح أبي يدمدم بكلمات غير مفهومه، توسلت إليه أن ينطق أن يفضفض عن صدره المتعب، بدأت أسمع كلماته:

عندما عاد إلي الوعي، تلفت حولي، لم أجد أحدا في مرمى رؤيتي، حاولت الوقوف، لربما استطعت الهرب، لكني عوجلت بضربة أفقدتني القدرة على الأنين حتى. تنقلت بعيني في أرجاء المكان فوجدت أنني وأبو ياسين لسنا الوحيدين في المكان، فهناك اثنان وعشرون شخصا آخر في الغرفة.. لا يقتصر جنسهم على الرجال، وإنما كان هناك نساء أيضاً! يا إلهي! الرجال تغطيهم الكدمات والغبار والدماء، أما النساء فوجوههن وأعينهن محمرة من البكاء والصفعات. ملابس الجميع بحال جيدة، متوسطة الحال تدل على أنهم اختيروا عشوائيا من الناس البسطاء الذين حاولوا المرور على أحد الحواجز في نفس اليوم أو اليوم السابق.

اقتادونا جميعا إلى شارع خلفي، ونحن غير مدركين لما سيؤول إليه مصيرنا، سرنا لحوالي الخمس دقائق على شكل رتل مؤلف من شخصين، وأنا بالكاد أجر أقدامي، كنت في نفس الوقت أسند العم أبو ياسين. لا أعلم ما حدث له تماما، فقد فقَدَ قدرته على الكلام وكانت قدماه تخونناه كل عدة خطوات، كنت أسارع بحمله ضاغطا على آلامي، لكي لا ننال ضربات من حيث لا ندري. وصلنا إلى شارع مألوف، لكني لم أتبينه تماما بسبب دمار معظم أبنيته، توقفنا بالقرب من أبنية مدمرة، ولم نر ما كنا بقربه، لم نعلم أننا وصلنا إلى حفرة أسست لبناء، كان يريد أصحابه تزويج أولادهم واسكانهم فيه، كل منهم في طابق، كما هي عادة أهل المنطقة! لكنها صارت حفرة إعدامنا.

راحت دموع والدي تنهمر بشدة وتحفر على خدوده طريقها بسكاكين ألمه، وبدأ يهمس، أنا عايش ماني ميت، أنا عايش ماني ميت، أأأخ يا يابا يا ناجي أنا ميت من زمان، أنا بيناتهم لهل المساكين لساتني واقف بتم الجورة ناطر رفسة من هل ابن الحرام ورصاصة براسي، الله لا يوفقهم كسروني ليوم الدين.

يتذكر أبي تفاصيل الحفرة التي وصل إليها فهي لا تزال محفورة فيه أيضاً، كان عمقها حوالي ستة أو سبعة أمتار تقريبا. ليست مستوية، بسبب وقوع عدة قذائف فيها، مليئة بالأحجار والأعمدة المكسرة وأسياخ الحديد المتناثرة منها، ربما كان فيها جثث لضحايا سابقين، استخدموا الحفرة كقبر جماعي لنا جميعا، حفرة إعدام. آخ يا يابا يا ناجي شو بدي خبرك.. كان ترتيبا أنا وعمك أبو ياسين بالرتل هو الثامن رقمه 15 وأنا رقمي 16، وبعد دقائق بدأت عمليات الإعدام. بدأوا بأول شخصين،

سحبوا الأول متل دبيحة العيد والعناصر يضحكون ويسبون مسبات لم أسمع بها من قبل حتى وصلوا إلى حافة الحفرة، رفسه أحدهم والأخر تولى طخه برشاشه! كنت أتمنى لو أن أحدا اكتشف أني أرى ويعمي عيوني، لكنهم كانوا مشغولين بحفلة الدم.

خمسة من العناصر العشرة الذي توزعوا حولنا تسلموا مهمة القتل، بعضهم من الشبيحة وبعضهم من الجيش، استطعت تمييز بعض من الشبيحة الذين كنت أراهم في شارع نسرين.. بدأت أتنفس بشكل مفرط وضربات قلبي تتسارع، دعوت الله بأن يكسر أيديهم، سألته أين أنت! هل تركتنا؟ هل ستكون هنا نهاية حياتي. يقاطع مناجاتي أصوات العناصر يصرخون «أيواا.. كلاب وفطست»!

وصل الدور إلى الصف الثامن، إلى صفي وصف عمك أبو ياسين. استمريت بتلاوة آيات من القرآن الكريم والكثير من الأدعية التي استطعت استحضارها، لكن مشهد مقتل عمك أبو ياسين حطمني، طلقات مزقت جسده المدمى وهو يهوي في الحفرة المشؤومة.

حان دوري الآن أقف على حافتها انظر إلى الأسفل والدموع تنهمر على وجهي، وجسدي يخونني أرى جثث من سبقوني وهي تتمدد هامدة، بعضها تحطم رأسه على أسياخ الحديد بعضها تعلق بها عموديا. هذه الصور محفورة في رأسي إلى أبد الآبدين. أمسك العنصر بذراعي ليتبعني بالعم أبي ياسين، لكن الله استجاب لدعائي، وأنزل ملاكا ابتعثه من السماء لينتشلني من براثن الموت.

قتل أمام والدي خمسة عشر شخصا، ساقوهم كالأغنام قالوا إن حملة القتل المسعورة هذه كانت فصلا من فصول الانتقام الذي قام به

شبيحة شارع نسرين على مقتل أحدهم في اشتباكات مع الجيش الحر، قاموا بحملات اعتقال عشوائية من الحاجز أو من الطرقات في حي التضامن والأحياء المجاورة وخاصة على مداخل حي اليرموك، ورفعوا لها شعارا «كل واحد بمية» أي أن كل نسريني، يقابله مئة من أبناء وبنات الحي البسطاء الذين يجب تصفيتهم.

إطلاق نار كثيف اشتعل بالمنطقة التي كنا فيها، شغلت سرية الإعدام الميداني تلك عنا، عرفت بعدين أنو وقت كنت أنا وعمك أبو ياسين الله يرحمه عند الحاجز، قدرت مجموعة من شباب الجيش الحر تتسلل عبر نفق مار تحت شارع الدعبول إلى كتلة من الأبنية العديد منها مهدم كانت تعرف باسم أبنية الدعبول، وبدأت بمناوشات مع إحدى ميليشيات نسرين حتى اقتربت من مكاننا. عناصر الأمن والشبيحة انشغلوا بهم.

نجى أبي والستة الآخرين من الموت. حاولوا الهرب لكن عناصر من الجيش استطاعت منعهم وابقائهم حتى انتهاء الاشتباك مع مقاتلي الجيش الحر.

عندما توقف الاشتباك، بدأ العناصر يستعرضون قوتهم في المنطقة، وتغير سلوكهم فجأة معنا. عرفنا السبب عندما ظهرت قناة فرنسية كانت تغطي الحرب الدائرة بين الطرفين إلى المنطقة مدججة بمرافقة أمنية هائلة، قام فريق القناة بتصوير المكان والدمار، كانت في الحقيقة تنقل صورة عن الواقع وليس الواقع نفسه. كلنا يعلم كيف تسيّر الأمور في سوريا، وكيف أن الأمن متمرس في قلب الحقائق. وقتها قام عناصر النظام بإلباس والدي ومن بقي حيا ثياب مقاتلين وحملوهم أسلحة خالية من الطلقات طبعا، وقاموا بضربهم مجددا والدعس عليهم وتركهم ممددين على

الأرض. عندما جاء مراسل القناة، الذي يتحدث العربية وهو سوري بطبيعة الحال، ليتحدث مع أحد أفراد مجموعتنا «الإرهابية»، منعه عنصر نسريني قائلا له: «وين رايح، بدك تحكي مع إرهابي، هدول إرهابيين، عملاء الصهاينة والأميركان ومن والاهم، عم يفبركوا مظاهرات ع أساس سلمية شوف شو لابسين وشوف الأسلحة يلي كانوا مخبينها تحت تيابهم عباياتهم وماسكينها ليهاجمونا، لا تقرب منهن لانو ما منضمن سلامتك».

لن تتوقف مسرحيتهم هنا، لأن عرض آخر لقناة أخرى وصلت كان بانتظارهم، وكان لعرضهم الجديد أزياء جديدة ودور مختلف، ألبسوهم هذه المرة ثيابا رثة وغيروا أدوارهم، كانوا هذه المرة رهائن للجيش الحر وقد قام الجيش السوري الباسل وفصائله الوطنية بتحريرها من قبضة الجيش الحر «الغاشم».

بعد ابتعاد كاميرات التصوير والمراسلين، بدأ فصل آخر من فصول الرعب في بقعة الجحيم هذه.

✕

قام الشبيحة بضرب والدي ومن معه بعنف وبقدرة رب العالمين زجوهم بشاحنة ونقلوهم إلى سجن فلسطين، صحيح أنه في السجن السوري يمكن أن تختفي أو تقتل لكن يظل احتمال بقاءك حيا إلى أن يعتاد أهلك على موتك تدريجيا قائما. أشهر الفروع الأمنية لنظام الأسد هو الفرع الذي يوحي بأنه المسؤول عن أمن قضيتنا الأسمى، فرع فلسطين أو ما يسمى بالفرع 237 التابع للمخابرات العسكرية. هذا الفرع يوضح تماما المعنى الحقيقي للقضية الفلسطينية لدى هكذا نظام،

أسمى قضايانا كما يقال، اختصروها بسجن، ذاق فيه السوريين الويلات لدرجة أن اسم فلسطين ارتبط في لاوعيهم بسجن.

زرت فرع فلسطين مرة واحدة فقط من قبل، كان على كل فرد في سوريا، سمح له حمل وثائق، أن يذهب إلى الفرع ليبدأ معاملة الهوية، وأنا كسوري فلسطيني، استوجب أن أذهب إلى هناك، ليضربوا لي فيشة ويتأكدوا من خلوه من أي شائبة حتى أستطيع أن أحصل على وثيقة رسمية تحميني ذل الأفرع وحياة البدون الصعبة.

عندما زرته قبل بداية الثورة بقليل، أحسست برعشة في قلبي، أحسست بخوف يطغى عليّ، لم يكن مكانا مريحا، كنت أسابق فيه الريح لأخرج منه. مبنى جاف وقاسي، مليء بدهاليز طويلة موحشة، لا يشببها إلا عناصره وضباطه بنظراتهم التي يملؤها الخبث واللؤم والشك بكل شيء حتى بالذباب الحائم على رائحة الدم التي تفوح من جدرانه وأقبيته التي تشبه المسالخ البشرية والمقابر.

هذا هو المكان الذي دخل إليه والدي ومن معه. ورأى فيه نجاته.

أشعل والدي سيجارته وسحب نفسا عميقا، صنع زفيره مع صوت صفير رئته المتعبة رنين وجع وضباب شغل حيزا كبير من الغرفة وهو يقول بصوت يقاطعه انطلاق دخان السيجارة:

دخلنا نحن ا الستة من أحد الدهاليز الطويلة، يقع أحدنا فيتدحرج الآخرين من فوقه، فيزيد الألم ألما. هناك فرقة تشريفات تنتظرنا من الجانبين تستقبلنا بالهراوات، إن أخطأتنا هراوة اليمين فستصيبنا هراوة الشمال. نزلنا العديد من الأدراج وزادت رائحة الرطوبة واختفى بصيص الضوء

الذي كان يصلني من تحت القماشة تدريجيا، إلى أن اختفى تماما، وملأت أنفي رائحة رطوبة مع قذارة المفرزات الجسدية، قيء ودم، وعرق وبول وبراز. رائحة نبهت معدتي بشدة لكي تخرج محتويات الصباح وتبقيها على ملابسي. ملابسي التي جردوني منها لاحقا وأبقوني ومن معي باللباس الداخلي فقط. أدخلونا زنزانة كانت تحوي الكثيرين، تخيل يا ولدي أننا عندما عددنا أنفسنا كنا خمسة وسبعين فردا في زنزانة ارتفاعها متران ونصف وطولها ثلاثة أمتار وعرضها متران. كان بيننا الشيخ السبعيني، والولد ابن السنوات العشرة والشباب والرجال ذوي الثلاثين والأربعين والخمسين عاما، كل أجيال سوريا يتكدسون في سجن صغير الآن كما كانوا في السجن الكبير. عذبونا بأشنع وسائل التعذيب، كانوا ينادوننا بأرقام لقنونا إياها بدلا من أسمائنا، حصلت على الرقم اثنين وعشرون، أخذته بدلا عن رجل أربعيني عانى من آثار تعذيب وحشي، وفقد عقله ولم يلبث عدة دقائق حتى ارتعش وخرج الزبد من فمه، شاركت بنقل جثته من الزنزانة إلى الممر أنا ومن معي فور وصولنا، كان لا بد أن يخرج الموتى من بيننا فورا ليس احتراما للموت، بل لأنه ليس ثمة فراغ يسع الأحياء في الزنزانة الصغيرة أصلا وإمكانية انتقال المرض عند تفسخ الجثة تصبح شديدة.

الاعتقال صعب لا بل عذاب طويل الأمد، فإمكانية موتك أو اختفائك بدون أن يعلم أهلك أي شيء عنك كبيرة جدا وغالبا ما تكون مرجحة. جل اهتمامي وتفكيري كان بكم وبأمكم، مشاعر الخوف والقلق والاشتياق لكم هي المشاعر التي عذبتني، لكنها هي من أبقتني عاقلا، عشت على أمل أن أراكم مرة أخرى.

مع مرور الوقت صارت عائلتي الجديدة المؤلفة من خمسة وسبعين فردا عزّائي أيضاً مثلكم، تقاسمت معهم الأرض والطعام وشربة الماء. رجال وشباب أتعبتهم آثار التعذيب التي حفرت ندوبها على أجسادهم وأرواحهم، كان القيح يتسرب من جراحها والدماء تعلو انتفاخات أرجلهم ووجوههم. لكل منا في الأمتار المربعة الستة تلك بلاطة عزيزة غالية ذات خمسة وعشرين سنتيمترا، وكما جميع العائلات، تحدث الكثير من المناوشات على بضع سنتيمترات إضافية من هنا وهناك، ولم يكن أحد منا مستعدا عن التخلي عن ميليمتر واحد من بلاطته العزيزة.

نادوني بعد وصولي بقليل للاستجواب، كنت على وضعية القعود على الأرض ورأسي مطأطأ كي لا أرى أحدا، نلت حصة لا بأس بها من الضرب، ثم جروني إلى غرفة المحقق.

عندما دخلت إلى الغرفة، لم تكن غرفة، بل كانت فراغا في الزمان والمكان لا معالم له يستعمل كمسلخ، بعض الأشرطة والأسلاك، بطارية كهرباء، كرسي ذو أصفاد تعلوه، وخمسة جلادين، ثلاثة منهم بلباس مدني، فانيلا بيضاء ملوثة ببقع دماء جافة، وبنطال قماش شمرت نهايته إلى منتصف الساق. وآخران كان من الواضح أنهما أعلى رتبة لأنهما يصدران الأوامر، اتضح لي بعد أن مررّت نظراتي في أرجاء الغرفة أن الشخص الذي يدخن في آخر الغرفة هو صاحب السلطة العليا هنا.

بدأوا التحقيق معي بسؤالي عن تاريخ انتسابي للجيش الحر، وما الأسلحة التي امتلكناها، ومن هم رفقاء السلاح، أخبرتهم مرارا وتكرارا أنه لا علاقة لي بكل هذا. لم يصدقوني، وبدؤوا بتعذيبي، ضربوني

وركلوني في كل أنحاء جسدي، أجلسوني على الكرسي، وربطوا أسلاك الكهرباء في رأسي وطرفي العلوي، ثم صعقوني بالكهرباء، كلما ازداد غضبهم من جوابي الصادق، زادت شدة التيار الكهربائي الذي مروره في جسدي، سكب أحدهم الماء علي ليزيد من جرعة عذابي. الاهتزازات التي أحسست بها تعادل اهتزازات عشرة قنابل من قنبلة رمضان الفائت التي كادت أن تصيبك يا ولدي. أماكن الأسلاك على رأسي وصدري، فتحت ثقوبا في جلدي بدأ الدم والقيح بالنز منها. لقد تعذبت كثيرا، لا أعلم كيف ظللت على قيد الحياة. فقدت الوعي بسبب شدة الآلام، لكنهم أيقظوني وهم يربطون يدي ويقومون بشدها إلى أعلى. شبحوني في الغرفة ساعات أيام سنوات لا أعرف لم أعد أشعر لا بالزمان ولا بأطرافي، بدأت بالهذيان، كنت أتمنى الموت في كل دقيقة، وابكي، أتساءل لماذا يالله، لما حلت عليّ اللعنة هكذا، لماذا كتب علينا أن تكون الأمور صعبة علينا دائما! لم نحن منبوذين في هذه الرقعة من الأرض؟ كنت أفكر كثيرا، وأعبث بعقلي كي يذكرني بحادث جميل مر في حياتي يصبرني على ما أنا عليه، كنت أتناوب بين هاتين الحالتين، سائلا نفسي هل أنا حي، هل أنا حي، إلى أن أغمي عليّ نهائيا.

بعد الشبْح الذي عانيت منه، أنزلوني، لم أستطع استخدام أطرافي، لم أستطع تحريكها أبدا، ظننت أنها بداية النهاية، كانوا كلما أغمي علي، أيقظوني بضربات كابلات الكهرباء على ظهري، كانوا خبراء في جعلك على قيد الحياة وأنت على قيد الموت عمليا، خبراء في تحريك أقصى درجات الألم فيك لدرجة أنك تشعر وكأنك تلامس نار جهنم، صعقات الكهرباء وضربات الكابلات أحدثت ندبات عميقة لم

يزل أثرها إلى الآن. أيقظوني لأنه لا يحق لي أن يغمى علي، فهذا حق لا أمتلكه. تفقد إحساسك بخصوصيتك، إحساسك بآدميتك في هذا المكان، تعود إلى احتياجاتك الأولية، ماء، طعام، نوم، لكن حتى هذه الأمور كان صعبا الحصول عليها. لأنها أصلا جزء من بروتكول التعذيب المعتمد هناك، عانينا كثيرا من الجروح والآلام، كان كل منا يعود إلى الزنزانة محمولا ومن ثم مرميا، متفسخ الجروح، جائعا، هاذيا، عطشا. المياه المتوفرة للشرب ملوثة، الطعام قليل، الحمامات هي فراغ متصل بالزنزانة رائحته تزيد من سوء الأمور. تلوث المياه والتصاق جراحنا ببعضها وتلوث المكان وضيق وفساد الهواء سببوا انتشار الكثير من الأمراض بيننا فأصبنا بالجرب والربو، ولم نكن نستطيع تفادي هذا الواقع الصعب.

العديد ممن دخلوا قبلي أو معي توفوا، لم يستطيعوا احتمال العذاب، الكثيرون لا يودون التحدث عما حدث لهم، الكثير من الانتهاكات الجنسية وقعت هددونا باغتصاب زوجاتنا وبناتنا وأولادنا، هذا التعذيب والتهديدات سببت لكثير منا صدمات لم يستطيعوا الاستفاقة منها، كنا نقول: فَصَل.. فَصَل.. ومن ثم نتبعها الله يرحمه، ندق على الباب لنخبر العناصر بضرورة إخراجه صادف الأسبوع الثاني من دخولي بدء شهر رمضان، كنا نعلم بهذه التفاصيل من المعتقلين الجدد الذين يأتون بهم ويزجونهم في الزنزانة في رحلة مشابهة لرحلاتنا. رغم أوجاعي وتعبي ومرضي، والأضرار الشديدة في أقدامي ورأسي وظهري، قمت بصيام شهر رمضان، نذرت لله أنني إذا خرجت سأحافظ على صلاتي وتقديم الزكاة بشكل دائم.

كنت أدعو كل فطور وسحور بأن يستجيب الله لي وأن أخرج أنا والجميع من قبور الجحيم هذه، لا بد أن الله استجاب لدعائي، ففي أيام العشر الأخير من شهر رمضان، دخلت إلى التحقيق لآخر مرة، ضربوني قليلا، لكنهم قرروا تحويلي إلى المحكمة كي تبت بأمري فهم لم يجدوا أي دليل على تورطي. لأول مرة منذ شهر، رأيت نور الشمس، أعطوني ملابسي التي ما زالت تحتفظ بقطع ورائحة القيء عليها، لبستها وتوجهوا بنا إلى المحكمة العسكرية الموجودة في المزة، انتظرت دوري عدة ساعات حتى استطعت المثول أمام القاضي. عندما نظر إليّ القاضي، طلب من هول منظري فك الأصفاد عني. سألني عن التهم، فأخبرته أنني بريء ولا أعلم شيئا وشرعت بالبكاء، أفرجوا عني وصدر حكم ببرأتي وإطلاق سبيلي. لم أعرف كيف كان منظري وقتها، لكنني أحسست بأني فزاعة لأني أخفت كل من صادفته في طريقي.

مشيت من المزة حتى شارع النصر، بصعوبة بالغة، فقد كنت مصابا بالجرب، محروق الرأس وحليقه، محروق اليدين والصدر، تعلوني كثير من الصدمات، كعب قدمي اليمنى وأربعة من عظام قفصي الصدري كانت مكسورة، لكنك في المعتقل ستتعلم إن لم تفقد عقلك أو حياتك العيش مع الألم، رغم ذلك كنت سعيدا بالحرية.. كنت سعيدا بأشعة الشمس التي تلفح وجهي، بنسمة الهواء وإن كانت ملوثة بدخان السيارات، بعد ثلاثين يوم من العزلة، من الاختفاء القسري، من التعب والتعذيب والإهانة...

أتذكر جيدا يوم وصل أبي المنزل وفتحت له والدتي التي بدت متعبة وحزينة الباب: نظرت إليه مطولا، لم تتعرف عليه في بادئ الأمر، وأنا

وقفت متسمرا أراقب المشهد، أريد أن أخبرها بأنه والدي لكن هول المنظر أخرسني، فتحت والدتي عينيها وفمها من هول الصدمة واحتضننا والدي وانفجرنا جميعا بالبكاء... تعالم... يا ولاد تعالم... حبيب قلبي عايش... أبوكم هون... الله أكرمني بهالشهر الفضيل... دخيلك يا الله... الحمد لله... لك تعالم شوفوه، الله بعد كل هالتعب والزعل اطلع بوشنا.

لا أدري إن كان والدي قد خرج من سجنه أو أنه نجى حقيقة من حفرة إعدامه، لأنه في ليال كثيرة يستيقظ فزعا ويشعر بأن كهرباء تصعق رأسه، وهو يصرخ: أنا عم شوف، أنا عم شوف... هو لا يزال عالقا هناك على حافة الحفرة ونحن أيضاً عالقون معه.

وكما كانت تفاصيل صور الماضي في مشهد حياتنا تتقافز في ذهن ناجي وأبيه، تقافزت أيضاً إلى ذهن قصي كرصاصات قناصته عندما يخطئ الهدف، وإلى ذهن خولة كلقطات توثقها عدسة كاميرا.

لروحنا أيضاً عدستها التي تلتقط المشهد، ومن تفاصيل المشاهد الكثيرة التي مررنا بها في حياتنا نصنع مشهدنا الخاص مشهدنا الذي سيشكل شخصيتنا وقناعتنا، قد نلتقط منها لحظات الفرح والانتصار فنستعين بفيلم النصر الذي صنعناه منها ليكون سندا نستمد منه القوة لحظة الضعف.

لحظات الانهزام والانكسار لها فيلمها أيضاً لكنها لن تكون سندا لنا في هذه الحالة، لن تكون إلا ضعفا يلقي بكامل ثقله على لحظات ضعفنا ذاتها، انكسار المرآة ترك أثره على روح قصي فكسره، الثقب الأسود في رأس أبي ناجي لرصاصة أخطأت الرأس وأصابت الروح لا يزال يحاول جذبه إلى الهاوية، لكن لمازن وهلوساته في صحرائه مع قطيعه وعنزته الحبيبة زينة، كما لخولة رواية أخرى. عدسة روحها صنعت

مـا عجـزت عن توثيقه كل لحظـات القتل والدمـار التي وثقتها عدسات التلفـزات وصفحات الجرائد والمجـلات، صنعت لها فيلمهـا الـذي استعانت فيـه على لحظات الضعـف لتصمد في حـرب لم يكن يعنـي صنّاعها إلا تحويل الـدم لوقود صراع، في تجارة هي الأكثر ربحا بين تجارات العالم على مر تاريخ البشر.

للمشهـد تفاصيـل كطلقات مسدسـ، عندما نستعيـده ينقبض القلب ألما أو يطير كالحمام فرحا..

في المركز الذي كانت تعمل به خولة، أتت امرأة بصحبة ابنتها، تسألها عن قصص للأطفال تحكي عن الآباء، تريد ابنتها على ما يبدو أن ترسم صورة جميلة لأبيها المعتقل، تقتبسها من هنا وهناك، ثمّ تشرع في رسم صورة متخيّلة وخاصّة له.

لن يبقى من الحـرب إلّا صور تذكّر العالم، بين الحين والآخر، بجانـبٍ من جوانب مأساتنا... لكن الصورة القاتلة في الذاكرة وليست في الألبوم ... كما الصورة التي تبعثنا من جديد كطائر الفينيق من جمر بؤسنا..

عدسة الروح

فوز الفارس

العدسات يوماً عن التقاط تفاصيل القهر الذي يتراكم منذ سنوات ويتكاثف في طبقاتٍ تزيد من سماكة الجدار الذي بات يفصل بين السوريين. تتمعّن في الصور التي يجود بها مصوّرون تورّطوا في إشباع نهم عالمٍ مسعور لمزيدٍ من الضحايا. كان حلم زوجها فيما مضى أن يدخل عالم الإعلام، ولذلك التحق بإحدى أكاديميّاته في منطقة المزّة بدمشق. لم تمهله الأحداث المتسارعة، التي تحوّلت بين ليلةٍ وضحاها إلى ما يشبه كرة ثلج تكبر وتكتسح كلّ ما يعترض طريقها، أن يشارك بحضور حفلة تخرّجه واستلام شهادته، التي حملها زملاؤه في الكليّة إليها، مع دموعٍ يغالبونها فتغلبهم، وعباراتٍ حشدوا الأمل في ثناياها بأن غيابه لن يطول، وسيعود إليهم ليكمل معهم مسيرتهم على درب الحريّة والكرامة.

لم تكن بحاجةٍ أن يقول لها أحدهم ذلك في محاولةٍ منه لمواساتها وشدّ أزرها، فكّرت أن تقول لهم إنّه لم يغب يوماً عنها، وإنّه يعيش معها ومع أولادها تفاصيل يومهم كلّه، لا تنفكّ عن كتابة الرسائل له تخبره فيها بكلّ شيءٍ، ما يعتريها من مشاعر متناقضة تتراوح بين حفنةٍ من البهجة تختلسها من صوره ومن ذاكرتها السعيدة معه وعنه، وتجاهد في القبض عليها لتزيح بها أكواماً من القهر والحزن افترشت حياتها من بعده.

بين تلك البهجة التي تصطنعها والحزن المتربّص بها، مشاعر وأفكار وأحاسيس لا ماهيّة لها تطحنها، تعجز عن تسميتها، تسأله فيما تكتبه له أن يفسّر لها تلك المشاعر وأن يسعفها في تحديدها، إن كان جيّداً ما تشعر به أو أنّه غير ذلك؛ لكنّها تتراجع عن ذلك، لا ترغب أن تقحم أيّ شخص كان فيما تفكّر به، تريد أن تخبّئ وجوده عن العالم بأسره، حتّى وإن كان على هيئة حلم اصطنعته مخيّلتها لتستطيع أن تكمل فصلاً غائماً ومشوّشاً من حياتها بانتظار عودته إليها.

لطالما التقط لها في الماضي صوراً عديدة بعدسة كاميرته على غفلةٍ منها، ثمّ يجلس وإيّاها محاولاً استنطاق ملامحها في الصورة ليخبرها بمَ تفكّر والشعور الذي كان يعتريها في تلك اللحظة، كم أدهشتها تفسيراته وقراءاته الذكية لملامحها، وحين كانت تسأله عن سرّ تلك القدرة التي يملكها، كان يبتسم تلك الابتسامة الوارفة التي يظلّلها بها دوماً كغيمة، ويقول: «بعرفك متل ما بعرف حالي! إنت مرايتي!».

يطغى طيف زوجها على تلك الصور التي تبزغ تباعاً على المحطّات والمواقع لبقايا أحياءٍ وبشر نجو بأعجوبة من الموت. تهمهمُ في سرّها بقائمةٍ طويلة من الأدعية التي حفظتها عن ظهر قلب منذ نعومة أظفارها. كانت قد عايشت حالة من الترقّب والانتظار المرّ حين سرّب قيصر صوره المفجعة التي كشفت واحدة من طلاسم الموت الكثيرة المتربصة بالسوريين، كانت في لحظات استعراضها لتلك الصور، التي أقضّت مضجع العالم وجعلته يقف على رجل واحدة، تظنّ أنها ستتكفّل بسوق المجرم وطغمته الفاسدة التي تفوقه إجراماً إلى محكمة دوليةٍ عادلةٍ تضع حدا لتلك الروح الشريرة التي أحاقت بالسوريين كما اللعنة. لم تستطع

أن تكمل بحثها فيها، أرادت أن تؤجل رؤية صورة زوجها بين تلك الصور -لا سمح الله-. بعد مدة قصيرة أدركت، كما أدرك السوريون بمعظمهم، أنّها مجرّد صورٍ ستُضاف إلى أرشيف المآسي المصوّرة.

تقفز صورته وهو عائد إلى البيت وتطغى على روحها، لدرجة جعلتها تظنّ أن كلّ شيء قد انتهى، وأن النظام المجرم الذي لا ينفكّ المتظاهرون في الشوارع والساحات عن المناداة برحيله، قد رحل فعلاً، ضاعت في مشهد حشود البشر الذين تتنقّل عدسات الكاميرات بينهم، وترصد ترقّبهم والأمل الباهت الذي يبزغ على استحياء على وجوهٍ أنهكها الانتظار منذ زمنٍ بعيد، لتستحضر طيف زوجها الذي انضمّ في مخيلتها إلى جموع المترقبين، يستدعيها على عجل، ثمّ يبادر بحركة سريعة وخاطفة إلى حقيبته، ليخرج منها كاميرا سوداء برّاقة، يرى ارتباكها، ويلتقط تساؤلاتها، فهو قادرٌ على قراءة أفكارها واستبطان مشاعرها دون أن تتكلم، لقد قال لها ذلك مراراً، وهي خبرت قدرته تلك في مواقف عديدة:

- «إيه! متل مانك شايفة، كاميرا، ضلّيت ورا صاحبها لحتّى قبل يبيعني إياها! بدّي وثّق بعدستها كل شي عم يصير حوالينا! العالم بصدّقنا وقت بشوف بعينه اللي عمّ يصير! مو بس يسمع عن اللي عم يصير، هاي شغلة نقل فلان عن شاهد عيان، ووردنا من مصادر موثوقة كلّه حكي فاضي، اللي بشوف مو متل اللي بيسمع!».

تعددت الزوايا التي اقتنصت منها عدسته الصور، حدّثها فيما مضى عن ضرورة ضبط العدسة، واختيار اللقطة المناسبة في المكان والزمان

المناسبين، إضافةً إلى القدرة على التقاط صور تفيض مأسوية وألماً، فكلّما استطاع المصوّر الحصول على منسوبٍ عالٍ من الألم في صوره، يخلع قلب الناظر إليها من محله، ويبكيه ويزلزل كيانه، ستزداد فرصتها في التأثير وقد تسهم في تكوين رأي عام عالميّ يضع حدّاً للمأساة السوريّة. ستكتشف فيما بعد وفي هذه اللحظة تحديداً أنّ تأثير أيّة صورة يكمن في قدرتها على أن تتحوّل إلى تريند لمدّة يومين أو ثلاثة، ثم يبهت تأثيرها ويتلاشى كبالونٍ مسّه دبّوس فانفجر. إنّ ذاكرة العالم بأسره تغدو ذاكرة انتقائيّة لطفلٍ مزاجيّ؛ ليس لديه أدنى رغبة في تخزين المشاهد والصور المؤلمة، لذلك يعمد إلى إزاحتها بعيداً لصالح صورٍ تمنحه البهجة.

تنقضّ تلك الأفكار في رأس خولة، كقطيعٍ ذئاب، تتناوب على نهشها، وهي ما تزال تحدق في وجوه قليل من المعتقلين أفرج عنهم النظام مؤخراً، زحف نصف سكان دمشق إلى جسر الرئيس وتمترسوا تحته وفوقه وفي كل مكان، ليمارسوا التحديق في وجوه من لفظتهم سجون الأسد وزنازينه بعد سنوات. تنتقل العدسات من زاوية لأخرى على وجوه أنهكها التعذيب، من يعلم؟ ربما صدفة ما قد تلعب دورها وتتيح لصاحب صورة ما أن يفوز بجائزة ما باعتبارها أكثر الصور تأثيراً في عصرٍ أصبح «عصر الصورة» بامتياز! تتساءل ما الذي يعنيه منظمو هذه الجوائز بأعمق الصور تأثيراً؟ فيمن تؤثر هذه الصورة أو تلك؟ هل أسهمت ملايين الصور الملتقطة للوجع السوريّ بإيقافه؟ أو التخفيف منه؟ أو أن يتّفق العالم على تحديد الجاني والضحيّة على الأقلّ؟

حتّى تلك اللحظة التي كان فيها آلاف البشر حول العالم يشاهدون من خلف شاشاتهم، خروج من كانوا في عداد الأموات إلى الحياة مجدداً،

تستطيع أن تقرأ سفراً سميكاً لوجع يفيض من عيونهم وأجسادهم، ومع هذا لا يلوح في الأفق أيّ بادرة لتحرّك ما قد يضع حداً لهذا الإجرام الذي لا يخفي نفسه، تجد بصمته في كلّ زاوية تمهر حياة السوريين، بالدم والدمع والغياب، لا تكاد تمر صورة لأيّ مأساة سورية دون توقيعه.

تسأل نفسها في محاولةٍ منها لإيقاف سيل أفكارها الذي تدفّق بغزارةٍ ولم تعد تقوى على مواجهة منسوب الألم الذي فاضت عيونه:

- «ماذا فعلت صور بؤسنا التي أوشكت أن تغرق العالم طوال السنوات الماضية؟ لا شيء فعلياً! في البداية هي نفسها كانت تتوقّف عند الصور المؤلمة لتبكي طويلاً، ثم باتت تلك الصور تستفزّها وتثير مكامن الأوجاع لديها ـ في الوقت الذي كانت فيه بأمسّ الحاجة إلى الأمل والتفاؤل لتمضي في دروب الحياة التي تشتدّ وعورتها يوماً بعد يوم، بمرور الوقت أصبحت تزيح تلك الصور بلمحة إصبع، ثمّ تغمض عينيها لئلّا يعلق أيّ أثر لتلك الصورة بها. تقرّر أن تفعل الشيء نفسه في مواجهة هذا الكمّ الهائل من الصور الذي يقتحم فضاء الرؤية لديها، وأن تطفئ الألم دفعة واحدةً ومن جذوره، تلتقط الريموت كونترول لتطفئ الشاشة، يطلّ عليها وجه مقدّم نشرة الأخبار، تلتقط ملامحه كما يلتقط مغناطيس بجاذبيّة عالية المعادن الموجودة في مجاله، تندّ عنها صرخة ربّما سمعها أهل الحيّ جميعاً:

- «جهاد! دخيلك يا ربيّ! معقول؟».

ألبوم للسعادة:

تظلّ خولة مشدودة إلى الشاشة لفترة طويلة تحاول أن تقبض على الحقيقة وتزيل الشكّ الذي اعتراها منذ اللحظة الأولى التي ظهر فيها وجه المذيع في هذه الأمسية الغريبة التي يتداخل فيها الزمان والمكان وتختلط الوجوه وتزدحم أمامها على الشاشة وفي ذاكرتها، تنتزع نفسها من بحر الأفكار المتشابكة الذي وجدت نفسها تغوص في لجّته، إصرارها على استحضار صورة جهاد في كلّ زمان ومكان وفي كل تفصيل من تفاصيل حياتها، طغى وسيطر عليها إلى درجة جعلها ترى وجهه في كل الوجوه، وتسمع صوته الذي حفظت إيقاعاته جيدا من التسجيلات التي كان يقوم بها أثناء عمله في الدبلجة لصالح إحدى القنوات، حتّى في ذلك الاختبار الذي خضع له كمذيع وكان على شكل مشروع تخرّج. لا تريد لصوته أن يخفت في داخلها أو أن تنسى نبراته ونغماته. تستعيد الكثير من عباراته المغمّسة بالغزل في أوقاتٍ مستقطعةٍ من رحلة الشقاء التي بدأت بغيابه لتوقظ في روحها تلك المشاعر الدافئة التي لطالما كانت متقّدة في حضوره، وتريدها أن تبقى كذلك في غيابه، لم تنطفئ ذكراه يوماً ولا صورته ولا صوته.

تنهض إلى ألبومٍ ضخمٍ من الصور التقطه زوجها بعدسة كاميرته التي كانت محور طموحاته وسبب مأساته، في هذا الألبوم حياة جميلة عاشتها معه، وكانت تعلم وتدرك أن تلك الحياة جميلة في حينها، لكنّها الآن تدرك أكثر من أيّ وقتٍ مضى أن تلك الحياة الجميلة قد اختُطفت وانتُزعت منها، بانتزاع زوجها منها واعتقاله، وبالرّغم من ذلك كلّه تؤمن كلّ الإيمان أن تلك الحياة ستعود مجدداً، وأنّ كلّ ما عليها فعله

أن تبقى صامدةً وقادرة على متابعة حياتها ورعاية أولادها ريثما يعود من ذلك المكان.

في الدرج الكبير من خزانة الثياب الوحيدة التي يمتلكونها تضع ألبوم صورهم ودفترين سميكين لابنتها ولاء، في الأوّل عدّة رسائل كانت قد بدأت بكتابتها عقب اعتقال زوجها، ثمّ توقّفت عن الكتابة بعد أن طحنتها رحى الحياة وعركتها في الغربة، لم تعد تجد الوقت الكافي لتستمرّ في كتابة الرسائل لزوجها الحبيب، فيما بعد اقترحت على ابنتها أن تكتب رسائل لأبيها تخبره فيها عن حياتهم وتفاصيلها في غيابه، اقتراحها أتى بناء على نصيحة الطبيبة النفسية التي تولّت متابعة حالة ابنتها هنا في لبنان.

ظهرت حالة الصدمة بشكل واضح على ابنتها التي شهدت اعتقال أبيها، وتفاقمت عندما بدأ النظام يُدخل السيارات المفخّخة إلى مركز المدينة، ويتبعها بقصف المعضميّة بطائرات الميغ، ثم اقتحامها في شهر رمضان من عام 2012، ليرتكب فيها مجزرتين من أفظع المجازر، ذبح فيها الناس بالسكاكين. جاهدت خولة على البقاء في بيتها، لكن خوفها على أولادها أجبرها على مغادرة البلد، حفاظا على حياتهم وعلى صحّتهم النفسيّة والعقلية، فيما ظل هاجس الخوف من ألا يعود زوجها بكامل قواه العقلية، ينهش أعماقها، لقد زرعت امرأة -كانت التقتها بالصدفة-، في أعماقها بذور الشك والخوف على سلامة زوجها وذاكرته، لكنّها سرعان ما نفضت بذور تلك الهواجس من تربة أعماقها ولفظتها بعيداً، لا تريد لأيّ شكّ أو يأس أن يتسرّب إلى يقينها بعودته. تريد أن تمسح من ذاكرتها تفاصيل تلك اللحظة التي تركته فيها مع أمّه وأخاه في

الصالون وذهبت إلى المطبخ لتعدّ القهوة، تريد أن تقنع نفسها أنه ما زال هناك في الصالون، ينتظرها ريثما تنتهي من إعداد القهوة.

الصورة الأولى في الألبوم:

للوهلة الأولى، يداهمها حزن عميق على عِقد العائلة الذي انفرط، إلّا أنّها لا تستسلم لذلك الشعور، إنّها ليست بحاجة إلى الحزن في هذه اللحظة، وإنّما لجرعةٍ من الأمل والتفاؤل مهما كانت صغيرة تشكّل خلفيّة لطيفة لصورة زوجها جهاد الذي تشعر في هذه اللحظة بشوقٍ عارمٍ لوجهه وصوته وضحكته.

يوم الجمعة! يوم عائليّ بامتياز، تجتمع العائلة كلّها على مائدة واحدة، كذلك يفعلون في شهر رمضان والأعياد، تترقّب مع بقيّة نسوة العائلة عودة المصلّين من المساجد قبل أن تفضي بهم المساجد إلى الشوارع والساحات لتهتف حناجرهم مطالبة بالحريّة، تحاول النساء ضبط درجة حرارة الطعام على موعد عودة رجال العائلة من الصلاة، تحدّق في وجوه أطفالها ووجوه أبناء أعمامهم وعمّاتهم في صور أخرى، هذه الوجوه التي انبثقت كحديقة من الورود بين جنبات المعضميّة في بيوت متقاربة أراد أصحابها أن يكونوا إخوةً متجاورين، تفرّقوا اليوم في مشارق الأرض ومغاربها. كان ضجيج الصغار وعراكهم، يلامس مسامعها في هذه اللحظة التي تحدّق فيها إلى صور تجمّدت فيها سعادة عارمة تطلّ من العيون والأسارير المتهلّلة المنفرجة للجميع من دون استثناء، تتشبّث بتلك اللحظة وتنقلها من مرمى نظرها إلى مضمار قلبها وخيالها.

تنطلق الملامح والأصوات المتجمّدة في داخل الصور من عقالها،

تتذكّر أحاديثاً دارت في أوقات كهذه، ومواقف حصلت بين أفراد العائلة ونقاشات وضحكات على بعض النكات التي تكون رصينة في حضور الكبار والأطفال الصّغار، ثمّ لا تلبث أن تخلع عنها رداء الرصانة وتتحوّل إلى نكاتٍ يغادرها الحياء والحشمة قليلاً في خلسة من الكبار والصغار، بين إخوة اثنين أو سلفتين، أو بين امرأة وزوجها، ترى نفسها تغرق في موجة من الضحك المختلط بالدموع ما إن يفرغ زوجها من حديثٍ هامسٍ أسرّ لها به خلسةٍ من الآخرين، فقط لينتزع من بين شفتيها ضحكة تخصّه وحده وسط الزحام.

تنتقل من الوجوه إلى الطعام والأطباق في الصور، تلمح طيوفاً خفيّة يلتقطها القلب لأكداس الحبّ والألفة والبركة التي لطالما شعرت في الماضي أنّها تظلّل طعاماً طبخته قلوبٍ محبّة قبل أن تطبخه الأيادي، تتذكّر حماتها حين كانت تستطرد في حديثها عن ماض تترحم على انقضائه، وكأنّها تسرد تفاصيل ملحمة لا ترغب بالانتهاء من سردها، يبدو أن الوسيلة الوحيدة أمامهم جميعاً لإنقاذ تلك الذكريات عندما تتعثّر الذاكرة في أذهانهم وقد تحوّلوا إلى أفرادٍ تائهين في زحمة مجتمعات جديدة، هي تثبيتها كتابةً كسرد، ابنتها تعافت، بهذه الحيلة الجميلة، من الكوابيس التي كانت تدفعها إلى الاستيقاظ ليلاً وهي غارقة بنوباتٍ من صراخ وبكاء يقطّعان نياط قلبها.

✕

صورةٌ أخرى لزوجها الآن بين يديها، تجمعها وإيّاه وحدهما في مقهى النوفرة، فاجأها قبيل اعتقاله بفترة قصيرة بقوله:

- «خولة! في مشوارين من زمان مشتهي آخدك عليهن».

لم يكن قد ذكر لها أيّ شيءٍ بخصوص ذلك فيما مضى، تدرك في هذه اللحظة التي تتأمّل فيها صورتها معه، أنّه أراد أن يترك لها ما بوسعه من ذكرياتٍ جميلة، هل كان يميل إلى الظنّ بأنّ غيابه سيطول إلى هذا الحد؟ وأنّها بحاجة إلى الكثير من التفاصيل الجميلة لتتدثّر بها في صقيع غيابه؟

في ذلك اليوم، الذي سارا فيه من البرامكة إلى النوفرة مشياً على الأقدام، لم تنتبه كثيراً إلى تفاصيل المكان الساحرة. ورغم أنّه كان يروي لها ذكرياته مع أصدقائه فيه، لم تكن معنيّة بتفاصيل شاركه فيها آخرين، فتحت أذنيها وحواسّها جميعها لتمتلئ بنبرات صوته المشبعة بالدفء ونظراته التي تمطرها حبّاً وذراعيه وأصابعه التي يتولد عنها بين الحين والآخر لمسات ناعمة لم تكن مقصودة، لكنّها كانت تتحسّسها وتتلقّاها وكأنّها عطر مركّز لم يخلط بقطرة كحولٍ صغيرة تخفف من كثافة حضورها.

تنتبه إلى تفاصيل في المكان تبدو ساحرة في الصور لم تنتبه إليها في زيارتها الأولى معه، كانت قد انصرفت يومها بكلّ حواسها إلى الامتلاء بوجوده قربها، إلى تخزين نسخ كثيرة عن نظرته وحديثه وصوته وتعابير وجهه وجسده، كانت مثله تتوقّع الفقد وتخشاه، وفي نفس الوقت لا تحبّ الحديث عن فراقٍ متوقّع قد يحيق بسعادتهما في أيّة لحظة، لعلّه كان يفكّر بنفس الطريقة، أنّ الفراق قادم، لذا عليهما أن يطيلا لحظات اللقاء ما أمكنهما ذلك.

الأيام التي سبقت اعتقال زوجها كانت حافلة، تسارعت الأحداث في منطقة المعضميّة، وكأنّ عفريتاً يمتلك قوى خارقة قد تولّى المنطقة

بيديه، يرصّها، يشبكها، ويركلها بقدمه في سرعة خاطفة لا تدع لأهالي المدينة فرصة لالتقاط أنفاسهم ومحاولة فهم ما يحدث، فضلًا عن إيجاد طريقة مناسبة وآمنة للتعامل مع ما يحدث، كلّ ما يحصل مفاجئ وعصي على الفهم والاستيعاب، قلوب الناس وأفئدتهم مشدودة ومخطوفة، وأيديهم مربوطة والحيرة سيدّة الموقف بأسره.

يشعل أحد عناصر النظام فتيل الأحداث في المنطقة حين يزهق برصاصاتٍ ثلاث روح أحد أبناء المدينة، كان عامل بناء بسيط، لم يكن له في الأحداث الدائرة في المنطقة أيّ يد، يسعى خلف رزقه في كلّ صباح ويضطرّ للمرور بحواجز النظام التي انتشرت بكثافة على أطراف المعضميّة وهي تمور كمرجل، تترقب ما يحصل في المدن المجاورة وتشهد تطوّراتٍ كثيرة تتزامن مع ما يجري في دول عربيّة أخرى.

قبيل مقتل العامل، كانت المعضمية تشبه مسرح ظلّ يمسك صاحبه بخيوط الدمى كلّها، ويتحكّم بحركاتها وأقوالها ليبقى الاتّزان والحذر سيّد الموقف. حين أطلق ذاك العنصر رصاصاته الثلاث على العامل، كان كمن يطلق الرصاص على تلك الخيوط المشدودة إلى أيدٍ تحاول الحفاظ على التوازن وتقبض على الخيوط بأقصى درجات الحذر الممكنة، حتّى الجمهورِ المتواجد في مسرح الأحداث أدرك أنّ عليه أن يضبط نفسه حيال ما يراه ويسمعه، نعم! تقطعت الخيوط كلّها مع تلك الرصاصات التي فجرت صدر عامل بسيط، ليفجّر موته المنطقة كلها.

تحوّلت الساحة الصغيرة أمام بيتهم في البداية إلى ساحة عزاء، توافد جميع أهالي المدينة ليشاركوا أهل الشهيد حزنهم، كانت خولة ترى كلّ ما يحدث في الساحة من خلال شبّاك شرفتها المطلّة عليها، انبرى زوجها

جهاد إلى المشاركة في العزاء، في ذلك اليوم المحفوف بالحزن والفزع والترقّب، ألقى خطبة متّزنة وواعية ختمها بقوله: «أنّهم لا يحبّون الظلم، ولا يرضون بالظلم لأيّ أحد».

لم يكد عزاء ذاك الشاب ينتهي، حتى قام رئيس فرع المخابرات الجويّة «جميل الحسن» باستدعاء زوجها إلى الفرع، روى لها تفاصيل لقائه به بحذافيرها، لم يُغفل شيئاً، لفته كما قال لها الحفاوة التي تلقّاها من رئيس الفرع والتي كانت تخفي في ثناياها كماً من الوعيد المبطن.

لم يُمنح زوجها كثيراً من الوقت ليلتقط أنفاسه ويفكّر بالطريقة التي يمكنه من خلالها التعامل مع الموقف الذي سِيق إليه. لزوجها مكانته بين أهالي المدينة، ليس بوسعه أن يغضّ الطرف عمّا يحصل لهم وهم الذين يستشيرونه في كلّ شاردة وواردة ويصغون لنصائحه ويمتثلون لها، ربّما مكانته المعروفة لدى الناس هي التي دفعت رئيس فرع المخابرات الجويّة لاستدعائه، أو ربما قصد من دعوته تلك استباق الأمور لتحذيره من تبعة أيّ نشاط يقدم عليه بعد الخطبة التي ألقاها في عزاء الشاب، أو ربما محاولة منهم للاستفادة من موقع بيتهم الكائن في منتصف المدينة والمطلّ على ساحة كبيرة يحتشد الناس فيها أيام الجمع بعد خروجهم من كلّ صلاةٍ للتظاهر والمطالبة بإسقاط النظام، أطلق أهل المدينة على تلك الساحة بعد عدّة مظاهرات «ساحة الحريّة».

يمرّ شهر رمضان كئيباً في ذلك العام، إنّها المرّة الأولى التي يغيب فيها زوجها عن مائدة الإفطار منذ زواجهما، لم يتخلّف يوماً عن الإفطار معها ومع أولادها وأهله، لم يكن يقبل أيّة دعوة للإفطار في الخارج من أيّ شخص، يعرف الجميع تلك الحقيقة عنه، لذلك لم يعد أحدٌ يدعوه

للإفطار لديه، تبحث في الألبوم الضخم عن صورة بعينها تمثل الآن في ذاكرتها، صورةٌ التُقطت لإفطارٍ يضمّ العائلة كلّها حين كان جهاد موجوداً بينهم، وبينما كانت على وشك الغرق في تفاصيل غيابه عنهم في ذلك الشهر الكريم الذي كان آخر عهده بالحريّة، زاحمت صورةٌ أخرى لم تكن بالحسبان الصورة التي بين يديها، وجدت نفسها من دون أيّ قصدٍ منها أو تخطيط أمام صورة تلك المرأة التي التقت بها ذات مرّة في استديو متواضع في منطقة سعد نايل التي أصبحت وجهتها وملاذها بعد أن خرجت من سوريا فراراً من حربٍ أتت على حياتهم كلّها وكفّنتها بحزنٍ ما يزال مقيماً بدأ باللحظة الأولى لاعتقال زوجها، وما يزال حتّى هذه اللحظة التي تتسمّر فيها أمام شاشة تنتظر مزيداً من الأخبار عمّن أُطلق سراحهم اليوم.

وكأنّ الوجع الكامن في صورك وحياتك لا يكتفي بالمساحة التي أفردتها له في أعماقك، فيطالبك بالمزيد، وحين يظفر بغايته ويضمن تنازلك عن بقعةٍ أخرى له، يستدعي أتباعه وأشياعه ليحطّوا رحالهم في تلك البقعة التي منحتها إياهم هشاشتك أمام الألم.

في ذلك اليوم الذي كانت تقلّب فيه نظرها في الألبومات الفارغة المعروضة خلف زجاجٍ أغبش لا يعينها على الاختيار، كانت هناك امرأة في الداخل التقطت سوريّتها من الكلمات الأولى التي نطقت بها، كانت تجادل صاحب الاستديو أو تعاتبه بالأحرى - التقطت العتب واللوم في نبرتها وأصاخت السمع من دون وعيٍ منها لتسمع ما يدور بينها وصاحب الاستديو:

- «أخي! ما كان فيك تعملنا صورة أفضل من هاي؟».

- «يا خالتي؛ إنتي عطيتيني صورة قديمة كتير ودقّتها منخفضة، يعني شو بتتوقعي تكون النتيجة؟ صورة قديمة بالأبيض والأسود ومأخوذة من دفتر عيلة!».

- «هاي الصورة الوحيدة اللي بنملكها لزوجي! قالولي العلم تطوّر والكاميرات صارت دقّتها عالية، روحي لعند مصوّر بكبّرلك الصورة وبوضّحها».

- «هاي ياخالتي في حال الكاميرا اللي تصور فيها زوجك كانت دقتها عالية، هاي كاميرا عمرها عشرين سنة! وأنا قلتلك من الأوّل، حتى لو كبّرتها النتيجة وحدة، والله أنا ما غشيتك يا خالتي! وإذا بدّك المصاري اللي دفعتيلي إياها تفضلي خديها، مسامحك من قلبي!».

- «لا يا ابني أنا ما جيت مشان هيك! وهاي المصاري حقّك!».

الدموع التي فاضت من عيون تلك السيّدة كانت بمنزلة الحبل السريّ الذي يجذبها إلى رحم الحزن الذي ما تزال تجاهد في الخروج منه، غلبتها هشاشتها أمام الألم هذه المرّة أيضاً، وجدت نفسها تتبع السيّدة التي همّت بمغادرة المكان، هناك دوماً حبلٌ من الشجن يمتد بين السوريّين وإن لم يروه، يجذبهم لحديث عابرٍ تظلّله الرغبة بالمواساة وتخفيف الألم عمّن يكابده بطريقة لا ملامح لها سوى الرغبة بمشاركته آلامه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا:

- «خير إن شاء الله يا خالتي، ليه عم تبكي؟ فيني أساعدك بشي؟».

- «الله يسلمك يا بنتي ويحفظ لك الغوالي وكل حدا بتحبيه! ما في

شي، المصوّر هوي الوحيد اللي كان ممكن يساعدني، لكن متل ما شفتي ما قدر يخدمني بشي، الله المستعان!».

- «زوجك متوفّي؟».

- «زوجي معتقل!».

تلك الكلمة! لم تعد تستطيع أن ترى في حروفها سوى حبل غليظ يلتفّ كمشنقةٍ حول رقبتها، ولا تعلم متى ستأتي تلك اللحظة التي ينحلّ فيها عن رقبتها بإعلان نجاة من تنتظره، أو بشدّه على رقبتها حتى انتزاعِ آخر نفسٍ منها بخبرٍ لا تتمنّى يوماً أن تسمعه.

- «الله يفرّج عنّه وعنكم ويفكّ أسره، وأسر كلّ المعتقلين!».

- «اللهمّ آمين! بس لو ربنا هداني أطلّع صورة وحدة إله قبل ما نطلع من بيتنا! كيف الله عمى على قلبي وما فطنت أطالع صورة وحدة إله، لك مو بس الولاد نسوا ملامح أبوهم ووجهه، حتّى أنا قرّبت أنسى شكله!».

تنهمر دموع المرأة التي كانت محبوسة في محجريها، وكأنّها كانت تنتظر أحداً يسألها عن زوجها، لتطلق العنان لقلبها ليبوح، ولعينيها لتؤازر قلبها بدموع تخفف أساه.

- «بسيطة يا خالتي! كلّ العالم هيك، طلعوا بتيابهم اللي عليهم بس، فكّروا ينقذوا أرواحهم وأرواح أطفالهم، كانوا مفكرين إنّه كلّها كام يوم وبيرجعوا لبيوتهم!».

- «إيه والله يا خالتي! هيك كنت مفكرة! وإنتي كمان صار معك هيك؟ ما قدرتي تطلعي الصور؟».

كانت على وشك أن تقول لها أن لديها أرشيفاً ضخماً من الصور لزوجها؛ لكنّها تراجعت في اللحظة الأخيرة وقرّرت أن تواسيها، لم تُرد أن تؤلمها بإعلان ملكيّتها لشيء تتحرّق المرأة الواقفة أمامها إلى امتلاك ولو جزء صغير منه.

الصورة القاتلة في الذاكرة وليست في الألبوم.

يا ليلة العيد آنستينا وجدّدتِ الأمل فينا يا ليلة العيد!

تنبعث تلك الأغنية بصوتٍ خفيضٍ من هاتفها بينما تقوم بإعداد القهوة في مطبخ سلفها، بعد غياب زوجها عن البيت لمدّة شهرٍ كامل لم يروه فيه مرّة واحدة، اكتفى باتّصالاتٍ متباعدة من أرقام مختلفة ليطمئن على أحوالهم، فاجأهم بزيارته تلك في وقتٍ متأخّر من الليلة الأخيرة في شهر رمضان، لم تكد تمضي دقائق على ذلك اللقاء المرتقب الذي طال انتظارها له حتّى شقّ صمت الليل طرق عنيف على الباب، ماتزال «ركوة» القهوة بيدها لم تضعها على النار، آثرت أن تعدّها له بنفسها بعد أن استأذنت سلفتها بذلك، قالت لنفسها إنّ زوجها قد اشتاق حتماً لقهوتها، حين خرجت مسرعة إلى الصالون حيث يجتمع أفراد العائلة كان وجه سلفها المتجهمّ يشي بالمصيبة التي تنتظرهم في الخارج:

- «الأمن ع الباب يا جهاد!».

لم يستطع أيّ من الموجودين أن ينبس ببنت شفة في حضرة مصيبة يتوقّعها الجميع؛ لكنّهم لم يتوقّعوا أبداً أن تكون خارقة في سرعتها إلى الحدّ الذي لا يمهلهم حتّى أن يشربوا رشفة واحدة من فناجين قهوتهم مع ذلك الغائب الذي طال انتظاره.

حين اطمأنت خولة إلى تواري زوجها عن الأنظار وفراره عبر الممرّ المشترك بين الشقّتين تمالكت نفسها وحرصت أن تبدو رابطة الجأش لتدير حواراً مع ضابطٍ تتبعه مجموعة من العناصر ملأت البيت وشرعت بتفتيشه:

- «بدنا جهاد! وينه جهاد؟».

لم ينتظر منها الإجابة، بدأ جولته في المكان، لا يبدو أنّ العناصر يبحثون عن جهاد فقط، إنّهم يبحثون في أماكن ضيّقة يستحيل أن تتّسع لاختباء طفل فيها، يبادرها أحد العناصر بإشارته إلى باب الممرّ المشترك بين الشّقتين ويطلب منها أن تتقدّمه وتفتح بنفسها الباب:

- «هذا باب ع المنور!».

لم يجرؤ على خطو خطوةٍ واحدة في الممرّ المعتم الذي بدا له موحشاً ومهجوراً، إلّا أن صوتاً أتاهم من الجهة الأخرى منح العنصر المرتجف قدراً من الأمان مع ظهور زميله من قلب العتمة.

حالة الأمان التي هبطت على عنصر الأمن الخائف بقربها قابلها رعبٌ هائلٌ انبثق في قلب خولة، هل نجح زوجها بالفرار؟ أم أنّه وقع في قبضتهم؟

عبر الضابط وقسم من عناصره إلى شقّتها، تبعتهم من دون وعي، لم تجرؤ على تجاوز الضابط الذي يتبختر بسلاحه في الممرّ المعتم، ودّت لو أنّها كانت في المقدّمة ليطمئن قلبها الذي لا يمتلك في لحظة العبور الحاسمة تلك سوى الإخلاص في الدعاء والإلحاح أن يكون الله قد مَنّ على زوجها بطريقة ما للفرار.

مشهد أطفالها الخائفين المتسمّرين على سرير واحد وقد احتضنوا بعضهم، جزء من الصورة الراسخة في ذاكرتها، تراها أمام عينها الآن بأدقّ تفاصيلها وكأنّ كاميرا احترافية قد التقطتها ووثّقت تفاصيل اللحظة، ذاكرتها في هذه اللحظة بالتحديد تفوق في دقّتها أحدث الكاميرات، إنّها تستطيع الآن استعادة كتلة الخوف الذي تكاثفت طبقاته في غرفة أطفالها، تستطيع أن تسمع دقّات قلب زوجها الخائفة وقد توارى خلف خزانة الأولاد، وتستطيع تقدير منسوب التماسك الذي احتاجته في تلك اللحظة المصيرية لتدير حواراً مفتعلاً مع الضابط المسؤول تشغله به عن النظر هناك! وراء الخزانة، لكن مقياس زاوية الانحراف التي يحتاجها الضابط ليكتشف مخبأ زوجها لم يكن كافيا لتنجح تقديراتها، يطلب منه بكل برود أن يخرج من مخبئه.

- «لا تقربي أكترّ! نص ساعة ومن رجعلك ياه لا تخافي!».

لم تستجب لأوامر الضابط الصارمة، لم تستطع أن تتوقّف، وكأنّ قوّة خارجة عن إرادتها قد أطلقت العنان لقدميها لتتبع زوجها، لوّح الضابط بسلاحه مهدداً لكنّها لم تتوقّف أيضاً، فقط صرخة وحيدة وغاضبة قد انطلقت من حنجرة زوجها للمرّة الأولى في تلك الليلة أعادتها إلى وعيها، ومنحتها التوازن والطمأنينة، وصلها صوت زوجها متماسكاً قوياً:

- «خولة ارجعي ع البيت!».

XK

تتوقّف التغطية الإخبارية لخبر إطلاق سراح المعتقلين، ينهي المذيع التغطية بقوله:

- «سنوافيكم بكلّ جديد فيما يتعلّق بنبأ الإفراج عن معتقلين سوريين حال وروده...».

تخفض الصوت وتغادر مكانها نحو النافذة المطلّة على الساحة في المعضميّة، تجلس مباشرة على الأريكة المحاذية لتلك النافذة، لا تزال تنتظر أن تنقضي الـ «نصف ساعة» التي أخبرها الضابط عنها، للإجابة على بعض الأسئلة، ما هو هذا السؤال الذي احتاج إلى تسع سنواتٍ مستقطعةٍ من شريط حياتهم للإجابة عليه؟

من ذا الذي أعطاهم الحقّ أن يتسرّبوا إلى حياتهم الهانئة، ليسمّموها؟ بأيّ حقّ يصادروا حياة إنسانٍ ويلقونه في غياهب زنازينهم وقيعان معتقلاتهم المتوحّشة؟

حين جلست عقب اعتقال زوجها قرب النافذة تنتظر عودته وكلّها أملٌ أن تشفع تلك ليلة رمضان المباركة لزوجها، لم تتوقّف لحظة واحدة عن الدعاء والابتهال لله أن يكون الضابط ابن حلال وصادقاً في كلامه فيطلق سراح زوجها بعد أن يفرغ من أسئلته، استطاعت في تلك اللحظات المشحونة بالقلق والترقّب والرجاء والخوف أن ترى عناصر النظام وجنوده وهم ينتشرون كالعقارب في الحارة، كما اعتادوا أن يفعلوا في أيّام الجمع عقب خروج المصلّين من الجوامع، كانت خولة ترى جزءاً من تلك الاشتباكات من نافذة الانتظار ذاتها، كانت ترى «ساحة الحريّة» وهي تتحوّل إلى ميدانٍ لمواجهاتٍ عنيفة وسلسلة من صور تحتلّ الدماء الحيّز الأكبر فيها.

حاولت عائلتها وعائلة زوجها إقناعها بالخروج، لم تشأ مغادرة بيتها بالرّغم من المخاطر الكثيرة، رشقات رصاص تنهال بالقرب منهم تطال

النوافذ وتهشّم زجاجها مرّة تلو الأخرى، لكنّ ذلك كلّه لم يزحزحها عن التشبّث ببيتها ريثما يعود جهاد، سيّما وأنّ كثرٌ يُطلق سراحهم يحملون إليها رسائل منه يخبرها فيها أنّه بخير!

تصعيد النظام في المنطقة وخوفها على أبنائها وحماتها أجبرها على الخروج في النهاية، فالحملة التي أطلقها كانت همجية، بغية تطويع المنطقة، راحت فيها طائرات الميغ تزرع الموت في سماء المعضميّة، وتلقي بحمولتها من القذائف على البساتين المحيطة، لتجبر الجيش الحرّ ومن تبقّى من المدنيين في مركز المدينة على الاستسلام والخروج.

تتمعّن في الصّورة الأخيرة لها في بيتها مع أطفالها، كانت تلك الصورة مهمة بالنسبة إليها، أصرّت على التقاطها في جوٍّ مشحون بخوف وخراب يميل الإنسان السويّ عادة إلى تبديده من ذاكرته، هل يوجد إنسان عاقل يلتقط صورة يوثّق فيها هزيمته ورعبه؟ هي فعلت!

كانت تريد أن تقول لزوجها حين يعود إليهم أنّها أبت مغادرة المكان الذي يضمّ روحه التي ما انفكّت تطوف حولهم حتّى اللحظة الأخيرة، حتى اللحظة التي خافت فيها أن تفقد روحاً أخرى من عائلتها التي أخذت على عاتقها أن تذود عنهم وتحميهم لأنّهم أمانة في عنقها.

تقف صورٌ كثيرةٌ وخفيّة خلف صورة وداع بيتهم، صورٌ ترغب بتبديدها وطمس ملامحها من ذاكرتها للأبد، صورة ابنتها التي باتت تصرخ وتستيقظ مرّاتٍ كثيرة في الليل وهي ترتجف، ابنها الذي ينام في سريرها وحين يبدأ الطيران طلعاته المشؤومة ينسلّ تحت الغطاء ويغوص في الفراش حتّى يصبح عند قدميها وهو يصرخ:

- «ماما أنا خايف!».

تكرّر الموقف مرّات عدّة، فكّرت أيضاً في حماتها المسنّة، هل ستستطيع هذه المرأة التي هدّها اعتقال اثنين من أبنائها، أن تفرّ وتنجو، لو اضطروا لذلك؟

كانت صورة اللحظات الأخيرة في بيتها، قاتلة، تظهر فيها تلك النافذة التي جلست أمامها ساعاتٍ طويلة تنتظر عودة زوجها وخلفها صورة لغيابٍ أكبر، كانت ترى الحيّ يخلو من أهله الذين أجبرهم الخوف على مغادرة بيوتهم، شهدت كيف كانت الحياة تذوي رويداً رويداً وتبهت ملامحها من حولها، ليتفشّى الغياب ويلقي بوحشته وظلاله الثقيلة في المكان ويجبرها على الاستسلام والرّضوخ للواقع المرّ الذي لم تعد لديها طاقة لمواجهته.

***

استقرت خولة في بيت على أطراف المدينة لا يبعد كثيراً عن بيت أهلها، ومنه قررت الانطلاق في رحلة البحث عن زوجها في سجون النظام. لم يكن بوسعها فعل الكثير، تنتقل من فرعٍ لآخر بصحبة أبيها الذي رفض دخولها إلى أماكن كهذه بمفردها، أماكن ازداد صيتها سوءاً في خضمّ الأحداث الجارية، سُرّبت بعض المقاطع القاسية لنساء تعرّضن للاعتقال والإذلال لإجبار أفراد من عوائلهنّ على تسليم أنفسهم للجهات المختصّة، يعود والدها في كلّ مرّة خالي الوفاض، لا خبر عن جهاد يجعلها تقرّ وتهدأ قليلاً. في البداية كان سلفها يصحبها لزيارة أشخاص من المعضميّة أطلق النظام سراحهم، وكانت في كلّ زيارة تعود

بالرواية ذاتها؛ «جهاد بخير، يسلّم عليكم كثيراً ويطلب منكم أن تدعوا له!»، وحين تسألهم فيما إذا كان يتعرّض للتعذيب، ينفون ذلك، ثمّ ينسون أنفسهم ويسترسلون ليصفوا تفاصيل اعتقالهم التي كان جلّادو النظام يسومونهم خلالها صنوف العذاب والذّل، يحاولون انتزاع اعترافات محددة منهم، لم تكن قد انتبهت لتلك النقطة في البداية، كان يكفيها معرفة أنّ جهاداً بخير، وأن يداً لم تمتدّ إليه بسوء، لكنّها في الزيارة الثالثة لأحد المفرج عنهم أدركت أنّه ليس بخير، ومن المستحيل ألّا يتعرّض زوجها في هذا الجحيم لما تعرّض له هؤلاء، وإلّا فلم يُطلق سراحهم ويبقى زوجها معتقلاً لديهم، وحين حاصرت بظنونها تلك سلفتها واستحلفتها أن تخبرها الحقيقة، أتاها الجواب الذي توقّعته: «عملنا هيك حفاظاً على مشاعرك! ما كان بدنا إياكي تزعلي أكتر!».

- «لازم أعرف الحقيقة! مستحيل يكون جهاد بخير وهوي بين إيدين هالوحوش».

حين علمت بوجوده في سجن عدرا تنفّست الصعداء، يُقال إن السجناء الذين ينقلون إلى ذلك المكان سيُطلق سراحهم خلال فترة قصيرة، معتقلون كثر خرجوا من هناك، إلّا أنّها علمت فيما بعد أنّه قد نُقل إلى سجن صيدنايا، وقع الخبر على رأسها كما تقع الصاعقة! لماذا؟ ما الجرم الذي اقترفه زوجها حتى ينتهي المطاف به في صيدنايا؟

بعد رحلةٍ بحث شاقّة بين الأفرع والمعتقلات، تلقّوا تحذيراً من ضابط يعرفه والدها اتفقوا على لقائه في أحد المقاهي المغمورة البعيدة عن أعين الرقباء، رفض والدها اصطحابها إلى اللقاء في البداية، لكنّها أصرّت على الذهاب، هذه المرّة فقط. للوهلة الأولى تخيّلت أنّها ستلقى

رجلاً ضخماً، متجهّم الوجه، يبعث الخوف في نفوس سامعيه، درّبت نفسها جيّداً على الموقف الذي توقّعت أن تواجهه، تخيّلت المشهد مراراً، إلّا أنّها تفاجأت بشابٍّ دمث تفوح الطيبة من قسمات وجهه، فكرتها المسبقة عنه كانت بسبب معرفتها بانتمائه الطائفيّ المختلف، كانت تظنّ أنّ دافعه إلى مساعدتهم هو المال وحده، لذلك تصرّفت بشكلٍ منعزلٍ عن والدها لأنّها لم تكن تريد أن ترهقه بمزيدٍ من الأعباء الماليّة، قبل أيام من ذلك الموعد ذهبت إلى صائغ قريب وباعت بعض الحلى الذهبية لتؤمن مبلغاً من المال قدره مائة ألف ليرة سورية، كانت قد سمعت من زوجات معتقلين وذويهم قصصاً كثيرة على هذه الشاكلة، ينشط ضباط وعناصر كثر في تقديم خدماتهم وتوفير معلومات عن أماكن المعتقلين وتأمين طرق تواصل أو زيارات في بعض الأحيان وكل شيء بثمنه.

في إحدى المرّات التي كانت فيها تنتظر والدها أمام القضاء العسكريّ التقت بتلك المرأة التي خلّفت في داخلها خوفاً لم يدر في خلدها من قبل؛ في كلّ مكان تذهب إليه تجد نفسها في مهبّ الوجع، بادرتها تلك المرأة بسؤالٍ يحمل في طيّاته الإجابة:

- «إنت كمان عمّ تدوري على زوجك؟».

- «إيه! شو عرّفك؟».

- «يعني! هيك توقّعت! كلّ النسوان اللي بيجوا لهون بكونوا عم يسألوا عن زواجهم أو أولادهم، وإنتي صغيرة بالعمر، أكيد عم تدوري على زوجك!».

- «صحيح! وإنتي؟ قدرتي تاخدي خبر عن زوجك؟ عرفتي هوي وين؟».

- «شفته لزوجي من كام شهر! ويا ريتني ما شفته!».

- «جد! شفتيه؟ نيّالك، كيف قدرتي تشوفيه؟ قوليلي...احكيلي عن الطريقة الله يخليكي!».

- «فيه بحارتنا شبّ معاهم! للجماعة... الجماعة... فهمانة عليّ ما هيك؟ قلّي بخليكي تشوفي زوجك، بس بدّي خمسين ألف!».

- «وبعدين؟ مين هوي؟ وكيف؟ يا ترى بيقدر يعمل الشي نفسه معانا؟ بيقدر يتدّخل ويخليني شوف زوجي؟».

- «والله يا أختي ما بعرف! على حسب التهمة والمكان، ما بعرف! ممكن أسأله وخبرك».

- «وين شفتي زوجك أختي؟ وشو كانت تهمته؟».

- «بسجن صيدنايا! شفته خمس دقايق ويا ريتني ما شفته بهالحالة! شوفته حرقت قلبي، ومن بعدها كل ما بسأل عنه بقولولي تبخّر زوجك! ما عاد عنّا».

- «أختي احكيلي كيف قدرتي تشوفيه وهوي بسجن صيدنايا؟ شو تهمة زوجك؟ زوجي هنيك كمان بصيدنايا...».

- «الله وكيلك ما بعرف شو تهمته! حكولي إنّه كان يأمن لقاء بين الشباب وزوجاتهم! فهمتي قصدي ما هيك، والله ماني مصدقة لحد هاي اللحظة كيف وإيمتى كان يعمل هالشي! يمكن كذب! ويمكن صحيح! ذاتاً ما عاد نستغرب شي بعد اللي شفناه

وسمعناه، ووقت قلتلهم هالحكي مستحيل! زوجي من شغله لبيته ومن بيته لشغله قعدوا يضحكوا عليّ، يقولولي إنتو بتعملو السبعة وذمّتها وبعدين بتعملو حالكم ما لكم خبر بشي! لك فيه واحد وسخ هون بالقضاء العسكري قعد ياخد ويعطي معي وأنا سايره بلكي بيتجاوب وبساعدني، بتعرفي شو قلّي؟ قلّي مليح زوجك كان عم يجمع بين الروس بالحلال، غيره ما بيهناله يجمّع الروس إلا بالحرام، وقعّد يحكيلي عن شو؟ قال جهاد النكاح وما بعرف شو، وبعدين صار يتواقح ويلمّحلي إنّه كيف نحنا صابرات بغياب زواجنا؟ وإنّه نحنا كمان بشر وعنّا عاطفة، أقسم بالله ما عدت شفت طريقي، كان بدّي بس إطلع من عنده وما بقى بدّي أعرف شي عن زوجي».

- «أستغفر الله العظيم! حسبي الله ونعم الوكيل فيهم!».

- «آه! الله وكيلك هاد اللي صار! تبهدلت وتمرمطت ودفعت آخر قرش معي بس لشوفه! وبالآخر شفته خمس دقايق! يعني الدقيقة بعشرة آلاف، تخيّلي ما تذكّر اسم بنته! كان وزنه فوق المية كيلو المسكين صفيان على نصّه! تقولي منبوش من قبر، كل شي قالهم جملتين! ضل يرددهم طول الوقت: أنا محكوم إعدام! أنا محكوم إعدام! وأنا الله وكيلك ما قدرت أحكي كلمتين! ما قدرت قلّه شي أو خفّف عنه! ما قدرت أبكي! لبين بس ما حاولت أتماسك قدام الصدمة وإهدا وإحبس دمعتي سحبه العنصر اللي معه وقلّي انتهت الزيارة!».

- «أنا ما كنت متخيلة حدا بصيدنايا يقدروا أهله يشوفوه! الله

يخليكي يا أختي وصليني بالشخص اللّي أمنلك الزيارة! بلكي بساعدنا وبقدر وصّل لزوجي واطّمن عليه!».

- «تكرمي يا أختي! ممكن كمان أعطيكي رقم وحدة؛ وحدة مش ولا بدّ! بتشتغل بملهى ليلي؛ رقّاصة يعني، قالوا بيطلع بإيدها وما بتاخد منك قرش ليصير زوجك عندك! مانك خسرانة شي! جربي تتواصلي معها! أنا تواصلت معها! بس شكله كان فايت الأوان! وكانت رايحة على زوجي، كتير عالم حكت إنّها بتفك المشنوق من حبل المشنقة!».

- «الله وإيدك يا أختي! والله بتعملي معي معروف ما بنسالك إياه كلّ عمري، ورح ادعيلك بكل وقت، وبكل صلاة!».

- «الله يفكّ أسره! ويرجعلكم بأقرب وقت، ونحنا إلنا الله!».

لقاؤها بتلك المرأة التي زوّدتها بالأرقام المطلوبة مع قصصٍ أخرى كثيرة مشابهة سمعتها في وقتٍ سابق من خلال زيارة المُفرج عنهم من سجون النظام، عزّزت لديها القناعة بضرورة أن يكون المال حاضراً.

تتلمّس المبلغ في حقيبتها وتتأكّد من وجوده ستخرجه بمجرّد أن ينتهي اللقاء، لكنّها محتارة لمن تعطيه، هل تناوله للضابط الشابّ مباشرة، أم تناوله لأبيها فيتولّى المهمّة عنها؟

لم يكن اللقاء بحجم توقّعاتها وآمالها التي بنتها عليه، بالرغم من التعاطف الكبير الذي أبداه الضابط الشاب معهم ومع زوجها، خاب أملها أكثر حين نصحهم بالتوقّف عن البحث والسؤال، لأنهم قد

يؤذون جهاداً من حيث لا يعلمون، أخبرهم أن هناك إصرار من قبل جهة بعينها، على إخفاء ملفّ زوجها وضمان عدم وصوله إلى القاضي، وإلحاحهم في السؤال قد يجبر تلك الجهة على التصرّف بطريقة ما..

تسأله وقد طغى الرعب على صوتها وملامحها:

- «شو ممكن يعملوا؟ ممكن يقتـ... الله لا يقدر!».

- «ممكن جداًّ! حتّى لو كان الاحتمال ضعيف، بهيك حالات ومتل وضع زوجك، الأفضل يوقّف الأهل عن السؤال حتّى يضمنوا إنّه انتسى، فيه تركيز كبير على زوجك، نصيحتي إلكم تنسوا الموضوع شويّ!».

تبادر إلى ذهنها مباشرة موقف روته أخت شاب معتقل أفرج عنه منذ وقتٍ قريب، أخبرتها أنّ الشخص الذي تولّى أمر أخيها وتكفّل بمساعدتهم هوّل الأمر كثيراً في البداية، تظاهر بأنّه مجرد وسيط وفاعل خير وأن الشخص الذي سيعمل على إطلاق سراحه قد رفع المبلغ نظراً لهول التهمة الموجّهة لأخيها والتي ستودي به إلى الموت حتماً، وليرفع من منسوب فزعهم ويجبرهم على دفع المبلغ المطلوب تماماً؛ اختلق رسالةً شفهيّة على لسان أخيها يقول فيها:

- «دخيلكم! بيعوا اللي فوقكم وتحتكم وفكّوني! مشان الله لا تتركوني!».

تفكّر بينها وبين نفسها ويدها تمسك بالمبلغ في حقيبتها:

- «ربّما هذه الطيبة التي تبدو على ملامحه وذلك التعاطف الكبير الذي يظهر في حديثه مجرّد قناع يختفي خلفه، كلهم متل بعض،

وإلّا كيف فيه يضل بهيك مكان ويشتغل مع هل الوحوش وما يكون متلهم!».

تخرج المغلّف السميك وتضعه أمام الضابط في حركة باغتت والدها والضابط معاً:

- «دخيلك يا أخي! اعمل شي، ساعدنا لنوصل لجهاد.. إذا هذا المبلغ ما بكفّي.. نحنا جاهزين ندفع اللي بتطلبه.. مشان الله ساعدنا!».

تعلو قسمات الضابط مسحة ظاهرة من الضيق والانزعاج، يعيد الظرف الموجود أمامه بحركة سريعة إليها، يقول لها بنبرةٍ امتزج فيها الأسف والعتب والضيق:

- «الله يسامحك يا أختي! أنا عم ساعدكم لوجه الله ولأنه أبوك كان صديق الوالد وغالي عليه كتير، وبمجرّد ما سمع الخبر طلب منّي أعمل المستحيل لساعدكم!».

تحاول أن تلملم الموقف وتبدّد موجة الضيق والعتب التي اكتنفت المكان ويدها تدفع الظرف مجدداً أمام الضابط، ما يزال في أعماقها خاطر يجعلها تميل إلى الظنّ بأنّ ما قام به الضابط الشّاب مجرّد تمثيليّة يحاول من خلالها أن يقنعهم بطيبته وإنسانيّته:

- «مو إلك! فكرت ممكن يكون حدا من اللي عم يساعدك بالسؤال عن جهاد يطلب منك شي، أو يحتاج شغلة، خليهم معك إذا انطلب منك شي...».

- «لا تكملي! اعتبريني قبلتهم! وهذول مني للولاد، شيليهم بقى ورجعيهم على جزدانك، لا بقى تخليهم بوجهي!».

بعد تلك الحادثة بفترة قصيرة، أجبرتهم الأحداث المتلاحقة على الخروج من المعضميّة باتّجاه مزارع خان الشيح، بدأت خولة تفكّر جديّاً بالخروج من البلد والتوجّه إلى لبنان، بعد أن أبدى أقارب زوجها، من جهة أمّه، استعدادهم لاستقبالهم هي وسلفتها وحماتها وعوائلهما، ريثما تهدأ الأمور قليلاً في البلد، ويهيّأ الله لهم عودة كريمة وآمنة إلى بيوتهم.

⋈

إنّها المرّة الأولى التي تخرج فيها خولة من البلد، المرّة الأولى التي تجد نفسها فيها منتزعةً من جذورها ومن حياةٍ مطمئنة لم يكن دورها فيها يتعدّى رعاية أطفالها وتدبير شؤون منزلها، هنا في هذه البقعة، تتضاءل صورة الحياة وتُختصر أبعادها في مسارٍ ضيّق ومحدّد، ينقضي اليوم ويتبدّد بين جدران الغرفة (القبو) وبين مشاويرٍ قليلةٍ متباعدة إلى بعض المحالّ لتأمين مستلزمات البيت والحاجات الضروريّة. لم يكن الأمر سهلاً في البداية، فهذه الأعمال على بساطتها تقوم بها خولة وسلفتها نسرين للمرّة الأولى. وبعد عناء وبحث طويل استطاعت أن تجد عملاً لها.

لم تتوقّع أن تحبّ عملها الجديد إلى هذا الحدّ! كان عملاً من النوع الذي يستهويها، وجدت نفسها مسؤولةً عن إعارة الكتب في مركز يعنى بمساعدة اللاجئين السوريين، بالإضافة إلى تنظيم جلسات قراءة للفتيات مع أمهاتهنّ في كلّ أسبوع، وجدت نفسها مجدداً على تخوم الوجع السوريّ وعلى تماسّ مباشر ويوميّ معه، إن لم تسرد النساء على مسامعها لمحةً عن وجعهنّ متى ما لاحت لهنّ الفرصة لذلك؛ ستستشفّ هي آلاماً مرصوفةً في ثنايا الوجوه المتغضّنة تطلّ على شكل وجعٍ لا مرئيّ تلتقطه عدسة خفيّة لروحها قد ضُبطت على الألم منذ بدأت سيرة الوجع

السوريّ، عدسة لها رادارها الخاصّ الذي ينفذ إلى بؤر الألم الخفيّة مهما دقّت أبعادها وصغر حجمها.

غرقت خولة في عملها الجديد لكنها ظلت تستعين بصورة جهاد لتنير بها العتمة التي باتت تتكاثف في غيابه، توقد له كل مساء أبهى الصور وأكثرها بريقاً، تمدّ جسراً لحديث بينهما، تطمئن فتمتد أيادي التعب لتخطفها وتسلمها لسلطان النوم، في هذه الدوامة التي اختُصرت فيها تفاصيل حياتها الجديدة، وجدت نفسها أمام عبء آخر يُلقى على كاهلها الذي لم يعد يحتمل مزيداً من الأعباء، اشتدّت وطأة الألم الذي كانت تعانيه نسرين سلفتها، وتطوّر إلى الحدّ الذي جعلها بحاجة ماسّة لتدخّل جراحيّ.

الوضع الصحيّ المتدهور لنسرين يؤلم خولة كثيرا، إنّها الإنسانة التي ارتبط مصيرها معها بعقدة الألم المشترك، اعتقال زوجيهما. كانتا ومنذ ذلك اليوم المشؤوم تتشاركان في النهار بعض التفاصيل المتعلّقة بزوجيهما، وفي الليل تمضي كلّ واحدة منهما خلف خيالاتها بمعزلٍ عن الأخرى، وعندما يجافيهنّ النوم وينزعهنّ الأرق من فراشهنّ، كانتا تلتقيان على تلك الأريكة المجاورة للنافذة المطلّة على ساحة الحرية، في البداية يكون الصمت وتأمّل الخارج المعتم المُنار ببعض الأضواء الخافتة الهاربة من شبابيك ساهرة داهم أصحابها الأرق أيضاً على مصير أحبابهم، سيّدا الموقف، ثمّ تشرعان في حديثٍ طويلٍ ممتد توقده صورةٌ ما انبثقت من ذاكرة إحداهن ورغبت في استحضارها والحديث عنها، خصوصاً إذا كانت مشتركة بينهن وعاشتا تفاصيلها معاً.

تتنقّل خولة بين المركز الذي تعمل فيه وبين المشفى أثناء النهار، وفي

المساء تعود إلى البيت لتحتضن أولاد سلفتها، تحزن لحال الصغيرة التي تسألها عن أمّها وتطلب منها أن تصحبها لزيارتها، تسألها الصغيرة:

- «مرت عمو معقول تموت الماما وماعاد نشوفها؟ وما يضلّ عنّا لا أب ولا أمّ؟».

يقطّع سؤال الصغيرة ذاك نياط قلبها، تحضنها قائلةً:

- «بعيد الشرّ! لا تحكي هيك! الماما ما فيها شي، كلّها كام يوم وبترجعلنا أحسن من الأول، إنتو بس ادعولها».

تجرّ الأحضان بعضها بعضاً، احتضان من فقدوا عزيزاً، وفي حياة خولة كثير من الفقد ما بين أبنائها وأبناء عمّهم في غياب أمّهم القصير، إلى أبناء أخيها الكبير الذي قضى دون تمهيد أو سابق إنذار، تجد نفسها مُستنزفةً ما بين فقدٍ قديم كامنٍ في أعماقها كورمٍ خبيث، وخوفٍ من فقد شريكتها في وجع تعينان بعضهما بعضاً في مهبّه، ووجعٍ جديد غير متوقّع يتجلّى في فقدانها أخاً، نقلته الحرب من خانة الأخ إلى خانة الأب الذي يتولّى رعاية من بقي في البلد، وتمتدّ رعايته إلى من أصبحوا خارج البلد وهي منهم، احتاجت إلى وقتٍ طويل لتتجاوز الصدمة التي خلّفها نبأ استشهاده، لم تستطع الذهاب مباشرةً إليهم، أرادت أن تتماسك، أن تبني صورة لها وكياناً تستطيع به أن تواجه حقيقة موته، تستطيع من خلاله أن تقف بين أبنائه وأفراد عائلتها كجذعٍ صلب يستطيعون أن يستندوا إليه قليلاً، قد لا يملك الملوّع بالغياب زمناً حيلةً أمام من يصطلي بالغياب أوّل مرّة، لكنّ ما احتطبه من صبرٍ قد يجدي، وقد يبعث قبساً من الصبر والرضى في قلوب تختبر الفقد أوّل مرة.

في المعضميّة التي يبعث منظرها الأسى ويدمي الخراب المنتشر في كل مكان قلباً ألف الحياة فيها قبل أن تحطّ أسراب الغربان على جنباتها لتنعب مؤذنة بالخراب، أوشكت خولة أن تفقد تماسكها الذي ربّته زمناً في الغربة كما يُربى الطفل الصغير، تقتحم صور الخراب بصرها، تمدّ يده الخفيّة لتعيث فساداً ببنيان روحها التي رأبت صدعها بشقّ الأنفس، تغمض عينيها لتمنع زحف الخراب إلى أعماقها، تمرّ بالقرب من بيتها، لا تقوى على نزع نظراتها من الساحة التي أطلق عليها أهل المدينة «ساحة الحريّة» فيما مضى، بدت لها الحرية امرأةً سيقت إلى سوق النخاسة لُتباع بأبخس الأثمان وقد أدار أهلها ظهرهم لها وانتحوا إلى مكانٍ منعزلٍ يبكون عجزهم وقلّة حيلتهم، ماذا سيقول لها بيتها فيما لو تلاقت نظراتها واكتشف وجودها على مقربةٍ منه تختلس النظر إليه؟ ربّما سينظر إليها نظرة ذاك الطفل الصغير الذي تخلّت عنه أمّه ورمته في حضن اليُتم وحيدا، لم تشأ أن تتلكأ في المكان، تريد أن تمضي بعيداً عنه قبل أن يُكتشف وجودها، تسأل السائق أن يزيد من سرعته، أو أن يسلك طرقاً أقلّ خراباً، لكنّه يجيبها بصوت يائس حزين:

- «الخراب بكلّ مكان يا بنتي! ما في مكان سلم من هالشي...!».

تشعر أنّها تغوص في قعر بحر الخراب وتوشك على الغرق، طوق النجاة الوحيد الذي يستطيع انتشالها من براثن الصمت والخراب هو حبل الكلام الممتدّ بينها وبين السائق، لكنّها تتراجع عمّا فكّرت به، حتماً الناس هنا تغيّروا، سمعت قصص كثيرة عن أقارب وجيران لها أودت بهم مواقف كهذه إلى الاعتقال، في هذا البلد قد تودي بك كلمة

واحدة لم تحسب لها حساباً إلى بيت خالتك في أقلّ تقدير، وقد تودي بك الكلمة نفسها ما وراء الشمس، يتوقّف ذلك على كمّ الشرّ والحقد الذي يملكه الطرف الآخر، لا يحتاج الأمر إلى براعة في الكيد أو امتلاك خبرة في الوشاية، الاعتقال فخّ يتربّص بالجميع، شبيهٌ بحقلٍ مزروعٍ بالألغام أضاع أصحابها خارطتها عمداً، الصمت هو الحلّ الأمثل في مواقف كهذه، الصمت منجاة السوريين الوحيدة.

يتسيّد الصمت والخراب ما تبقّى من الطريق، أمّا زيارتها لبيت أخيها فقد تجاذبتها فيه مشاعر وأحاسيس مختلطة، لتعود من زيارتها تلك بمشاعر وصورٍ مشوشّة تعكّر لفترة طويلة ذلك الهدوء الذي جاهدت طويلاً في مدّ رواقه على حياتها التي تعصف بها ريح الغياب والاغتراب.

في المركز الذي تعمل فيه، تجمعها الأقدار مرّة أخرى بالمرأة التي صادفتها في الاستديو تبحث عن ملامح زوجها، التي راح الزمن يمحي ما تبقى من صورتها على مهل. أتت بصحبة ابنتها وكان اسمها حنين، تسألها عن قصص للأطفال تحكي عن الآباء، تريد ابنتها على ما يبدو أن ترسم صورة لأبيها، تقتبسها من هنا وهناك.

عندما لا تظفر بصورة حقيقية لشخصٍ يعني لك كثيراً، يمكنك اللجوء إلى خيالك لتنحت صورة افتراضية ومتخيّلة له تصنعها على قدّ حبك وافتقادك له! أيّة قسوةٍ تجبر أطفالاً لم تتح لهم الفرصة لإشباع ذاكرتهم الطريّة بوجودٍ كافٍ لآبائهم؟ كيف لهم أن يقاوموا قبضة النسيان القابضة على زمن طويل للغياب من أن تعبث بصورهم تلك؟ عبثا يحاولون القبض على أبعاد صور غيّابهم التي تستقرّ في وجدانهم

لتترسّخ وتكبر معهم يوماً بعد يوم كما رسموها، ليلذوا إليها حين تداهمهم موجات الهشاشة في ظلّ الفقد.

تشعر خولة في أعماقها بالامتنان للقدر الذي وهبها كمّاً من الحضور وثّقته كاميرا زوجها قبل أن يمضي في غيابه، ولعدسة روحها التي تمسّكت بحضوره واستجرّت صوراً كثيرة له من الذاكرة إلى حيّز الوجود من خلال إصرارها على سرد تفاصيل حياته الماضية بينهم، ثمّ سرد تفاصيل متخيّلة له كما لو كان بينهم، تفاصيل تسبقها دوماً كلمة لو! لو كان بيننا! لو كان معنا! لفعل كذا وكذا، حياة كان يمكن لها أن تستمرّ وأن تكون حقيقة، وبالرّغم من ذلك كلّه ما تزال ممتنّة للتفاصيل الجميلة التي ظلّ زوجها حريصاً عليها حتّى آخر لحظة من وجوده بينهم، فقد ترك لها ولأطفالها ولعائلته ولأهل الحيّ ذكراه الطيّبة التي ما تزال حتّى هذه اللحظة بمنزلة النسغ الذي يهب حياتهم لوناً، تولّت هي أمر المحافظة على ذلك اللون وخلعه على الحاضر الشقيّ الذي يخفّف من وطأته أملهم بعودة الغائب ليشغل بوجوده الحقيقيّ مكانه بينهم، عندها فقط تستطيع أن تودع الصور كلّها في أرشيف ذاكرتها وتنشغل بحياة حقيقيّة لا تشعر بحاجتها إلى توثيقها، بل إلى أن تحياها بكلّ تفاصيلها وحتّى الرمق الأخير منها.

لم تستغرب لجوء تلك الفتاة في المركز إلى القراءة لتشيّد صورةً مفترضةً في خيالها لأبٍ لا ملامح واضحة له في ذاكرتها، ابنتها ولاء التي تعرف أباها جيداً حذت حذو أمّها في الحفاظ على صورة أبيها ووجوده بينهم، لم تتوقّف يوماً عن الكتابة له، لكنّها تُسقط لو من حديثها إلى أبيها، تشاركه تفاصيل حياتهم وتستشيره في بعض القرارات والأمور

التي تتعلّق بها وحدها، حين تجاوزت امتحان الشهادة الثانويّة بتفوّقٍ منقطع النظير وصفت له الهديّة التي ترغب بالحصول عليها، كانت ترغب بالحصول على حاسوبٍ تتمكّن من الكتابة عليه، تريد أن تجمع رسائلها في كتاب وتقوم بحفظها، أخبرته أنّها تفكّر بنشرها متى ما سنحت لها الفرصة المناسبة، ترجوه أن يأتي لتحصل على الهدية التي تحلم بها، ترجوه ألّا يتأخّر أكثر لأنها لا ترغب بأن تكون رسائلها في جزأين فيما لو فكّرت بطباعتها على شكل كتاب.

سنواتٌ تمرّ وما يزال المشهد المنتظر ناقصاً. يكبرُ الأولاد، تخشى خولة أن تنهي ابنتها ولاء دراستها الجامعيّة في غياب والدها، أيعقل أن يغيب أكثر؟ ألّا تضمّهم صورة واحدة في حفل تخرّج ابنتها؟ عليه ألّا يفوّت حضور مناسبة كهذه! هل ستمتلك القدرة على أن تربّي الأمل أكثر وتحفظ نسغ وجوده في حياتهم أكثر؟ هل ستقوى على مواجهة غيابه بالصّور القديمة؟ متى سيعود ليشغل الحيّز الناقص من الصورة؟ هل عليها أن تقرّ بغيابه وتلوذ بملامحه التي انتقلت إلى وجوه أبنائها ونضجت إلى حدّ يجعل كلّ من يتأمّل ملامحهم يؤكّد بأنّهم نسخة طبق الأصل عن والدهم الغائب، يردّد جميع من حولها على مسمعيها تلك العبارة، أبناؤها نسخة مصغّرة عن والدهم في الملامح والطّباع أيضاً، لطالما ودّت ذلك حين كان الأمر مجرّد تخميناتٍ من قِبلها وقِبل العائلة، تحقّقت أمنيتها في أفضل صورة ممكنة، لتنعم بصورة حقيقية لزوجها على أرض الواقع دون اللجوء إلى الصور التي اختزنتها له في عقلها وقلبها، لكنّها الآن تخشى أن تركن إلى ملامح بديلة وتفقد الملامح الأصلية المحببة لقلبها وروحها، ملامح كرّست عمرها للحفاظ عليها ومنع يد الزمن أن تمتدّ إليها

بالنسيان. شمس الدين الآن في السنة الأخيرة من دراسته الثانوية، أمّا ابنتها ولاء فهي الآن تتابع دراستها الجامعيّة وبدأت منذ أشهر قليلة بنشر مقالاتٍ لها عن المعتقلين في سجون النظام، أخبرت أمّها أنّها ستبحث عن جهة تتبنّى نشر كتابها «رسائل إلى والدي المعتقل» لطالما قلّبت مع أمّها في ألبوم الصور الخاص بأبيها، وتناقشتا في الصور التي يمكن أن ترفقها بكتابها، فكّرت في أن تكون صورة شهادة التكريم التي مُنحت في حفل تخرج أكاديمية الإعلام التي درس فيها والدها وغيّبه الاعتقال عن الحضور، صورة الغلاف لرسائلها تلك، اقترحت خولة صورة مركبة تجمع بين ولاء وأبيها، كانت على وشك أن تقترح على ابنتها اللجوء إلى الفوتوشوب وإمكانية أن يظهر أباها بالثياب التي يرتديها الطلّاب في حفل التخرّج لكنّها أمسكت عن اقتراحها ذاك ورأته سابقاً لأوانه، وكأنّها حين تفعل ذلك ستنسف أملها الأخير بخروجه وأن يكون حاضراً بالفعل في حفل تخرّج ابنته، لا بدّ أن تجدّد يقينها بخروجه! لذلك عليها أن تبقي مكانه في الصورة شاغراً ريثما يعود ليشغل المكان الذي ينتظره.

تنهض خولة من مقعدها عند النافذة المطلة على الحيّ لتأتي برسائل ابنتها، لكنّ عودة المذيع لبثّ خبرٍ عاجلٍ يتعلّق بالإفراج عن معتقلين سوريين في سجون النظام يسمّرها أمام الشاشة مجدداً، تتأمّل في وجهه ملياً، لا تعلم ما هو السبب الذي جعلها تخلط بين وجهه ووجه زوجها، يبدو أنّ صورته قد التفّت حول عصب الرؤية لديها إلى الحدّ الذي يجعلها ترى وجهه في كلّ الوجوه التي تلوح في مرمى بصرها...

تتمعّن في الوجوه المتعبة التي تلتقطها عدسات المصورين وعيون الناس المحتشدين فوق الجسر وتحته وحواليه وكأنّه يوم الحشر..

لا بد أن نصنع أسطورتنا لنقاوم النسيان، سنحتاج إلى لغة لا تسعفها لغتنا العادية لنؤرخ لألمنا، نحتاج إلى إعادة ضبط حبالنا الصوتية، نشد أوتارها لتستطيع حملنا إلى حرية استباحها الغرباء.

لا شيء يصنع المهابة كأحداث يوم القيامة بكل معاني الخلاص الذي تحمله، وقيامتنا/ خلاصنا لن تتحقق وعزرائيل رابض يبني السجون والمقابر على أجسادنا، لكل من أبطالنا الذين جمعتهم المأساة السورية وفرّقتهم نيران الحرب، قصة مع فقيد أو معتقل.

حملت خولة صورة زوجها، التي نسيتها بين الركام، كما التقطتها في عدسة روحها أملا بعودته، وكي لا تنساه في سجون النظام الأشبه بالقبور، قررت أن تنضم للحشد المهيب تحت الجسر بحثا عنه. علقت لينا حروبها الصغيرة على كتفها، وصورة ابنها مؤيد على قلبها، وانضمت إلى خولة لتعرف مصير أخيها. كسر قصي مقلة عين قناصته، حاملا عين أمه في روحه، فأمه لم تعد بحاجة إليها بعد الآن، هي الآن تراه من الأعلى، أراد أن يكون صالحاً كي تسعد برؤيته دائماً، قرر الانضمام للحشد علّه يرى مصير والد صديقه المعتقل يزن. حمل مازن نعجته زينة باحثا عن حرية كانت محصورة فقط في «وحدة ... حرّية ... اشتراكية» كنّا نرددها كالروبوتات كل صباح على مدار عقود، فيما الحرية الحقيقة مسجونة في كتب أخرى، مسجونة مع مؤلفيها تحت الأرض، مع أخيه ناصر! ربيع المثقف حمل هو الأخر خيباته وهزائمه وعمود الملح المنهار على أفكاره، وجعل من كتفه متكأ لأبي ناجي، العازم على مواجهة قاتله الذي تسلل كالشيطان بين جموع المحتشدين..

هم وغيرهم ... نزلوا كالطوفان إلى قلب دمشق.

كان لا بد أن يلتقي الجميع هناك بما يليق بمهابة ذكرى أحبابنا الغائبين/ الحاضرين أبدا ليكونوا عصيين على النسيان، ليكونوا جديرين بخلاصهم وخلاصنا ولو بعد حين...

اعتــاد السوريـون أن يصنعـوا مــن أحلامهــم فــي الخلاص أسطـورة، كذلــك فعلوا مــع تموز حبيســ الأرضــ، وفعلوا مع المسيــح حبيســ الكهف، وفعلــوا مع أحبائهــم حبيسي سجون النظــام وعلـى رأسهــا صيدنايا، صيدنايــا تلــك القرية التي قدسهــا السوريــون لسنيــن طويلــة فحولها رأس هــذا النظام لسجــن، كذلك فعل بتدمر درة الصحــراء والتاريخ، نقلها من عرشها الحاضر في التاريــخ بأعمدتها الساحرة لتكون سجنا بقضبــان حديــد صدئــة كقلبــه.

لا تحسبــوا أن حكايــات معتقلينــا مجرد حكايــات، هي ذاكرة تحفــر آثارها الموغلة بنا يد المــوت تارة ويد الأمل تارة أخرى، ذاكرة سترهقنا طويلا، سنحاول جاهدين ألا نتذكرها، سنشعر بوطئهــا الثقيــل فــي سرديــات الأبناء عــن آبائهــم الغائبين/ الحاضرين في ذاكرتهم الغضة.

لا شــيء يصنــع المهابــة كأحداث يــوم القيامــة، لا شيء صنع المهابــة إلا كيوم حضور ثلاثة أجيال تحت جسر الرئيس هناك

حيث حشد الأمل جمهوره دون عناء ... كلهم كانوا ينظرون شمالاً. يبحثون عن عربة عسكرية مغلقة تحمل في لُجَتِها زهور الربيع..

ثلاثة أجيال تحت جسر الرئيس

جابر بكر

الزمن صفر

تتلمسُ أقدام النسوة رطوبة الفجر الصحراوي في مخيم الزعتري. يسقين ورودهن المنتشرة بمحيط بيوتهن المؤقتة «الكرفان». يكلمونها، يخبرونها كل شيء، حصاد أخبار اليوم السابق، آخر الطِفلات اللاتي تزوجن بالأمس، إشاعات إزالة المخيم، أو تحويله إلى مدينة، تطورات الموقف السياسي المتعلق بالمسألة السورية، كوابيسها التي تقتحم أدمغتهن كل ليلة. إحداهن تمسد أوراق «قلب عبد الوهاب»، وردتها الأثيرة، وبنظرة تملؤها الدموع تهمس لها الوردة: «لا ينجو أحد من الحنين يا صغيرتي. فالشوق كالماء لا نحيا دونه، ذات يوم كنت معه نمسح طرقات الشام القديمة. نترك لمساتنا فوق بيوتها المتهالكة، وأنفاسنا العاشقة في فضائها العتيق. نظر في عيوني عميقاً كعادته، وأمسك بيدي اليمنى، التي تمسح جبينك، بخجل تأهب للبوح، مرة، مرتين، تردد كثيراً ثم قال: «علمتني أمي أن الحب ولد فوق هذه الأرض، نبت في تربتها وعلى ضفاف نهرها المحطم. لذا فنحن أمة تدرك بوح القلب، فهل تسمعين بوح قلبي؟». بعض الكلمات يا صغيرتي تدق كناقوس في هيكل روحنا، تنحت رجفة في قلوبنا تهزنا كلما تذكرناها».

تلملم تلك المرأة دلوها البلاستيكي وعلبة الحلاوة الفارغة بعد أن نضب ماء سقاية الورد لليوم. تبدأ نهارها الاعتيادي بالأخبار بحثا عن جديد يبدد غبار اليأس الذي تحياه وأهل المخيم منذ أكثر من ثمانية سنوات بعد أن زجوا بهم في الصحراء وأدخلوهم علبة النسيان، كأنهم لم يكونوا يوماً. الصحراء تتقن الإهمال، ولذا اختاروا لهم هذه الجغرافيا، على أقل تقدير هذه قناعتها وصديقاتها الثائرات. تفتح هاتفها النقال، تقلب صفحات منصات التواصل الاجتماعي، باعتيادية ورتابة. تطالعها الاغتيالات هنا وهناك، اعتقال ناشط، ترحيل آخر، غرق مركب في البحر محمل ببعض السوريين، والبعض هنا للكثرة لا للقلة. ثم ينفجر المقطع المصور بوجهها. رجل يطير فوق بركة من الجثث قبل أن يصير بينهم برصاصة ضابط يتسلى بالتسديد عليه، تنهي محاولاته لقطع الربطة البلاستيكية التي تقيد يديه، رصاصة توقف نزف المِعصَمين الغاضبين من العجز. تعتريها رجفة من إصبع قدمها الصغير وحتى شعر رأسها الذي غزاه الشيب. تعجز عن إبعاد الهاتف عن يدها، تتابع بعجز، عشرون دقيقة والموت المصور مستمر برتابة وبلادة تسحب الدماء من وجهها. كل مؤسسات التلفزة في العالم تتحدث عن القصة الدامية، الصحف، المواقع الإلكتروني، الكوكب يثور، لكنها تدرك بأنها فورة صغيرة لن تخرج الحليب من قدره النحاسي.

تحاول ترك الكرفان للخروج قليلا إلى الطرقات الضيقة للمخيم، بحثا عن شيء يسليها وينسيها. تسير كالممسوسة قاصدة بيوت صديقاتها، رفيقات درب الانتظار الطويل على أمل عودة الأحباب. قبل أن تصلهن تجدهن كحالها، يحملنا هواتفهن ويقصدنها. تتجمع النسوة في ساحة

المخيم بأنفاس حارقة تقطع صمت الصباح المطبق. يرتدين جلابيبهن الرمادية، فهن لا فرحات ولا حزينات. انتظار الأحباب يدفنك في منزلة بين المنزلتين، لا ابتسامة ولا دمعة. ترمي بكلماتها الثقيلة فوق رؤوسهن: «ألسنا حفيدات عشتار التي ملئت الأرض حباً؟ ألسنا سنديان الغابات، وكمأة البادية؟ أزواجنا أليسوا جبال هذه الأرض وأعمدتها؟». لم يتأخر عليها الجواب، فولدت النعم عالية صادحة موقظة نيام المخيم عن بكرة أبيهم.

بعيداً جداً عن الزعتري والنسوة الغاضبات. يحاول شاب صغير الخروج من قاع بحر إيجة، الفاصل بين تركيا واليونان. يغادر أرضه التي عمّر فيها خلال سنواته السبع بيتاً من المرجان يكفي ليافعٍ بالكاد اسودّ وبر شاربيه. يهاجر البيت في وداع مهيب، والأسماك من حوله يحملنه إلى السطح. تتلقفه أيدي فرق الغواصين لتنقله إلى مركب خفر السواحل. يمزقون الكيس البلاستيكي الذي غلف جسده الطري طيلة هذه السنوات، ليتركه طازجا وبارداً بآن. يصل الصغير إلى البر الذي فر منه أملا ببر لم يصله، ومن هناك يبحثون عن أهله. يراجع الضابط النزق مئات البلاغات عن سوريين مفقودين، لكن دون فائدة، وقبل أن يمسكه اليأس يجد ورقة مهملة، ممزقة الحواف تحمل صورة شاب بذات الصفات واسمه مؤيد. يتابع الضابط اتصالاته إلى أن يصل إلى العم الذي سيتسلم الجسد العائد من غربة بحرية طويلة، يمشط له شعره الخرنوبي الطويل، بمشط الخشب الذي ورثه عن جده، ينظف له يديه، قبل أن يُلبسه ثيابه القديمة التي جلبها معه من حقيبته التي تركتها أملا بشحنها ورائه يومَ يصل البر المقابل. يدفع به بمساعدة الممرضين داخل

سلة خشبية بسيطة لكنها أنيقة تليق بشاب احتمل مشقة السفر في الماء لسبع سنوات دون تعب.

تقطع السلة المغطاة بقطع الثلج الكبيرة الطريق الطويلة من مقبرة البحر إلى المقبرة السورية. يرفض حرس الحدود ذوي الرايات الخضراء إدخال الجثمان الذي لا يملك شهادة ميلاد تثبت نسبه السوري. «لا يُدفن الغرباء في هذه الأرض»، هكذا كان رد الضابط الذي تابع انهماكه بتقليب فيديوهات المجزرة التي ضج بها العالم كله. تجمّع الناس حول العربة التي تقل الجثمان، يقرأون له الفاتحة. حاول بعضهم تلين رأي الضابط الذي تمسك بموقفه مشهراً في وجه المتحدثين صور الموتى في التضامن. «دعونا ندفن موتانا أولاً، أولئك الذين رفضوا ترك هذه الأرض والهرب». ما أن عاد الهواء إلى فم الضابط بعد الكلمة الأولى حتى صدح الرجال والأطفال على ضفتي الحدود بالتكبير الغاضب.

«الله أكبر».

هناك في المخيم، كانت التكبيرة حزينة مكسورة، تلاها انهيار وصمت مدوي، حاول ناجي دفع والده للكلام أو الصراخ إن استطاع. غرق في ندمه لأنه فتح في رأس والده صندوق هذه الذكريات المرة. لكنه لم يستطع أن يرى المجزرة التي سمع منه عنها ولا أن يخبره بأنها فُضِحَت وباتت على كل لسان. مرت ساعة كاملة بكل ثوانيها قبل أن يستعيد أبو ناجي قدرته على الهمس. «هذا عمك... هذا عمك»، قالها الرجل الستيني وشفتاه ترتجفان كأنه يتلو بيانه الأخير. دقق الصغير في الصورة البعيدة، بالفعل هذا الرجل يحمل صفات عمه، وذات الثياب

التي كان يرتديها يوم اختفائه. «لن أسامح نفسي إن لم أفعل شيئاً هذه المرة يا ناجي»، تابع الوالد كلامه بحزم.

حمل أبو ناجي جسده النحيل فوق قدمين متينتين قاصدا غرفته التي تحتل زاوية البيت المتهالك. باشر بجمع كل ما لديه هناك، ألبوم صور متوسط الحجم، بعض الثياب، مصحف صغير، صورة عائلية مركونة على طاولة تضمه وزوجته في حفل زفافهما. دفتر مذكرات مهترئ، وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين، وبطاقة إقامة موغلة في القدم. حمل الحقيبة، التي تشبه الصندوق وانطلق، قبل أن يلحق به ناجي الذي باشر اتصالاته بباقي أفراد العائلة.

الزمن الأول

تتجلى الشجاعة في أقصى اليأس.

«تقول الأسطورة يا صغيري، بأن إله الحرب وخلال إحدى معاركه الطاحنة، اصطدم بإلهة الحب فوق سماء الشام. انصهرت مسامات جسديهما. فولد توأم، حُمل الأول على البرق، وزُف بالرعد والعواصف. هطل الثاني مطراً غزيراً بارداً. فكان الأول إله الخوف، وصار الثاني إله الأمل».

تحت جسر الرئيس، تتربع الجدة فوق الرصيف الموازي للنهر الراحل، بردى. تثبت عجيزتها فوق الأرض الصلبة كأنها تخشى رحيلها. تمسح وجه حفيدها اليافع بكفيها، كمن يبذر قمحاً عند قمة البركان. متنهدة، تتابع حكايتها: «لذا يا صغيري كلما اشتد وهج البرق وعلا صوت الرعد فاض المطر أغزر. يوم أمطرت بعد صدام الحب والحرب

في فضاء الشام، ولدت أشجار الحور باسقة فروعها مداعبة كبد السماء. هكذا بدأ الخلق هنا يا صغيري».

تتثاقل الأنفاس فوق جلد الجدة الأسمر، تمد يمينها فإذ بشابة تجلس قربها. فتاة بالكاد أَورَقَ جسدها قبل حين. تُلقي الأخيرة بأذنيها عند فم الجدة مترصدة مفردات الحكاية. ما هي إلا دقائق قليلة حتى تحلق حولهم شيوخ، عجائز، شابات وشبان. يحشد الأمل جمهوره دون عناء. تتأمل الجدة بعيونها البنية المُبيَضَة، غبار الزمن الممتد فوق وجوه الصغار قبل الكبار. تعرفهم، فكلهم ينظرون شمالاً. يبحثون عن عربة عسكرية مغلقة تحمل في جُتِها زهور الربيع. بالطبع عرفتهم، أفلا تدرك أهل الغيَّاب؟

تهمس الشابة الصغيرة، وكان اسمها حنين، في أذن الجدة أن تتابع حكايتها، فالحكايات تُسلّي الزمن، تداعب ساعاته الطويلة، تريح دقائقه من قسوة الوقوف، تهدئ روع ثوانيه الهادرة. الحكايات تُسَيِّلُ الوقت، ليروي عطش اليائسين. يهمهم الكبار قبل الصغار تأكيدا على قول الفتاة. تنظر الجدة في عيني حفيدها كأنها تستأذنه. يرخي أهدابه فوق عيونه العسلية، ويدور برأسه متأملاً الوجوه المترقبة. تتملكه رعشة خوف، يشتد دفق الحزن في قلبه. يرمي بيديه فوق راحتي جدته، بحثاً عن ملجأ. تمسكهما وتستعد للكلام مطرقة برأسها نحو الأفق.

«الحرب يا صغاري، قصيدة مديح طويلة في الغراب الذي علمنا طقوس الدفن. أما حرب الأهل، فليست إلا مراهقاً يقضم لحم أمه بسكين أبيه». تصمت كعادة الجدات لتلتقط أنفاس الحكاية، قبل أن تتابع: «دعونا يا صغاري نعيد ترتيب جلوس الغائبين فوق مقاعد

الصبر. وهل للصبر حديقة أبهى من فضاء الحكايات. هيا أخبروني قصصهم».

ترمي الجدة بعينيها نحو الوجوه المزهرة في فضاء الجسر، شبان بالكاد كحل سواد لحاهم سمرة وجوههم، كهول تحفر التجاعيد عقوداً من وهم السنين تحت عيونهم الذابلة، وفوق جباههم المنكسة. شيوخ وعجائز كصغار الحشود يتأملون الفراغ، وينتظرون المجهول داعكين أصابعهم في بطون أيديهم بملل. التفوا جميعا حول مجلس الجدة الحكواتية، محشورين في الفراغ الذي يشكله الجسر تحت الطريق الذاهب إلى البرامكة، احتلوا جغرافيا مستودع الكتب القديمة، التي أحرقت بحثا عن دفئ يطفئ لهيب الحرب.

تظهر عربة عسكرية مصفحة، فتتأهب الأعناق فوق الأجساد الهزيلة. ولدت من خاصرة المدينة الشمالية «سيارة لحمة»، كما اعتاد السوريون تسميتها. «فلتبقي هنا يا جدتي ... أنا سأذهب». تجاوز الحافلات، تسلل بين الأجساد المتلاصقة. عندما أطل على العربة العسكرية أيقن أنه لا يدرك صورة والده أبداً. أخذ ينادي «أبي، أبي، هذا أنا، هذا أنا...»، كرر النداء ثانية «أبي هذا أنا... أنا يوسف يا أبي». لا رد يأتي من برودة العربة الكاكي. يترجل عسكري يعتمر قبعة حمراء على رأسه. يتأمل الوجوه المعفّرة بالانتظار، ثم ينفجر موبخاً شاتماً قاذفا سمومه في سماء المدينة وقلوب سكانها. صوت الجبان يسقط قبل أن يعلو، فما سمعه الحشد. تابعت الأجساد ذوبانها في دوامة العربة. تُمسك أيدي اللاحقين بأكتاف السباقين. تمسح العيون الدرجات المعدنية الصدئة للعربة الوحش، أملا برؤية أحبابهم يترجلون منها. عدسات التلفزة ترصد الدمع المتناثرة. تسجل

حوارات سريعة لتُلَمِّع تاج الطاغية صاحب العفو والمغفرة، فإذ بها تتعثر بعبارات تجرح نصل مقصلته العاملة في رقاب السوريين منذ خمسين سنة.

«ألم يأت يعقوبك يا صغيري؟». سألت الجدة حفيدها الذي عاد محملاً بالأسى. دفن رأسه في صدرها مُغرقا ثوبها الريفي بالدموع. صمت عن البكاء، مصغياً لبوح حنين، الشابة الجالسة بجوار جدته تحكي للحشد ألمها: «وُلِدَ موسى، أبي، في الأول من تموز عام 1977، وولدت في ذات اليوم بعده بثلاثين عاماً. بالكاد عددت سنوات عمري على يدي اليسرى، قبل أن يقتحم الخوف بيتنا. فشلت محاولات والدي إلهائي بالحكايات والألعاب. عرفت الموت باكراً، عرفته صوتاً قبل أن تمسكني صوره في كل مكان.

يرتجف جسد الشابة خوفاً، تحمر عينيها من حبس الدموع الساخنة. تتلفت ذات اليمين وذات الشمال، والخوف باسط ذراعيه وسط الحشود: «كنت في حضن أبي، وأمي ترضع أصغر إخوتي، خالي يضم وسادة صغيرة، وعمي يحضن أخي الأوسط. عواء خطوات الجنود في شارعنا تصم الآذان، يقتحمون البيوت دون تأخير. يرن هاتفنا الأرضي، والكل ينظر في عيون الكل دون حراك، يلتقط خالي السماعة التي فاضت بأخبار الموت. القتلى في الشوارع، ثم قائمة طويلة من أسماء الراحلين. يغلق الهاتف دون رد. صمت الانتظار أخذنا في نومٌ قلق تقطعه رشقات الرصاص. فضاء المدينة يعج بالدخان، والأنين. أتى فجر اليوم التالي الفجر مثقلا برائحة الموت.

تكبر دائرة الآذان حول فم الفتاة، كأن الحكاية حجر صغير سقط في بركة راكدة، فرسم دوائر من وجوه. تشد الجدة من أزرها، ماسحة

بيدها على شعرها الأسود المسترسل، لتكمل: «ابتلعنا بضع لقيمات، قبل أن يطرق الجند بابنا. خرجت لهم أمي، أبعدوها مقتحمين البيت. أخذوا الرجال إلى الشارع، ثم أعادوهم. استغربنا، لم يقتلوهم، هل نفذت رصاصات بنادقهم؟ فتشوا البيوت المجاورة، غضبوا وشتموا وهددوا ثم رحلوا. أطلت أمي عبر نافذة المطبخ على الشارع لتراقب نهاية الحدث. فإذ بشاب صغير، من أبناء البلدة، يكشف لهم موقع المشفى الميداني المدفون تحت حواجز ترابية في قبو بيتنا. عادوا والغضب يتطاير شررا من عيونهم. قيدوا والدي وعمي وخالي، وأعموا عيونهم بلباسهم العلوي. قفزت أمي كلبوة تدافع عنهم، متضرعة حينا وباكية أحياناً. أخرسها الضابط بعبارة مرة: «تصمتين أم نقتلهم؟»».

ثَقُلَ الزمن، ترنحت المدينة تحت وطأة الدم. فتح الأهالي الأقبية لنقل الجثامين. تفقدوا الأبنية الحديثة وتلك المهجورة بحثا عن أبنائهم. فتشت أمي عن أجساد أبي وعمي وخالي في البيوت المجاورة، فلم تجدهم.

جدي وباقي أعمامي وأخوالي لم يصلوا إلى منزلنا إلا عند نهايات الليل.

من قال إن الموت أقسى من السجن في بلادي؟

سبعة أيام انشغل فيها الأحياء بدفن موتاهم، سبعمائة روح رحلت إلى السماء.

أُغلق القبر الأخير في الأول من تموز. تجاور القتلى كالأخوة في حفرة واحدة. لا عزاء ولا دموع. كانت جدتي تقول: إن لم يبكِ الأحياء على موتاهم يختنقون بكرب الذكريات، ويبقون أحياء في قلوبهم وعقولهم.

أُغلقت أبواب المدينة أمام الخارجين، وفتحت لعدسات التلفزة الحكومية التي نقلت الأنفاس الأخيرة للقتلى. سجلت شاشاتهم زفرة أمٍ تبحث عن ابنتها بين الجثث قبل أن تقع فوقها ميتة. شيخ يبصق الدم في وجه العالم ثم يرحل متكأ على كتف زوجته في عربتهم المحطمة المحترقة. طفلة تلتهم ثدي أمها القتيلة ولا تدرك أن حليبه قد اختلط ببارود القناص».

نظرت الشابة في عيون الجدة كأنها تبلغها رسالة. «خلافا للأسطورة يا جدة، استقبل أهل داريا إله الخصب، تموز، بسبعة أيام من الموت. غرسوا بذورهم، أبناءهم، في التربة المحترقة. طوى جدي قدميه إلى صدره كأنه جنين في السبعين من عمره. سال دمعه فوق وجنتيه، صلى في عيونه، أخبرنا أنهم كانوا يفعلون ذلك في سجن تدمر. التف الأهالي من حوله يصلون بعيونهم، وسيقانهم مطوية إلى صدورهم. أيهرب تموز يا جدة؟ هل غَدَرت به عشتار وتركته في العالم السفلي إلى الأبد؟».

أسكت الدمع الشابة الصغيرة. ضمتها الجدة وقبلتها على جبينها.

غرقت عيون المتحلقين بالدمع فالتمعت كأنها نجوم. تَسلقَ شيخٌ رصيف الجدة ليشدَّ قامته واقفاً. مسح عينه بكفي يديه المتشققين من عراك الأرض. صحح عقاله الأسودَ وحطته البيضاء المصفرة. طلب من بائع الشاي أكوابا للجميع، وقطعة هريسة من طحين العدس لابنة تموز الباكية. دعك التبغ في علبته الستانلس ستيل، مدد تبغه البلدي فوق ورقة الهاشمية الرقيق، ثم برم السيجارة بخفة المعتاد، تأمل بعيونه السوداء الصغيرة بيوت حي المُهَاجرين المتسلقة جبل المدينة، رصد الطريق القادم من ساحة الأمويين علّه يأتي محملا بعربات الغائبين، مسح تقاطع

الطرقات مع الجسر، فكلها تفضي إلى فروع أمنية زرعت أقبيتها بأجساد الغياب. علمته التجربة أن سيارة إخلاء السبيل هي عربة اعتقال تعيد الرحلة عكسا. ترجع بالمعتقلين من صيدنايا إلى الفروع التي أرسلتهم، ومنها إلى الفروع الأم لترمي بهم إلى الشارع.

خفف البائع خمير الشاي بماء مغلي في كؤوس بلاستيكية انتشلها من دلو ماء مدفون في قلب العربة.

تمالكت الفتاة نفسها مع الشاي وقطعة الهريسة السوداء، لتتابع حكايتها: «بقينا في بيتنا لأكثر من شهرين. خفنا أن نترك دارنا، فيعود أبي ولا يجدنا. خرج عمي وخالي، للدقة خرج ما تبقى منهما في عفو رئاسي صدر في العيد الكبير على عادة الطاغية في إضفاء لمسة إنسانية على الوحش القابع داخله، لكن أبي لم يخرج، عرفنا أنهم كانوا في مطار المزة العسكري، هناك يخسر السجناء نصف أجسادهم، وكل أرواحهم. بالكاد غسلا قمل البطانيات عن جسديهما حتى عُجِنَتِ الأرضُ بصواريخ وقنابل تطوي رماد القذائف التي سبقتها ليلاً. هربنا من المدينة إلى المزارع القريبة، بعد هروبنا من بيتنا إلى بيت جدي.

يومَ يَكثر الرحيل، ستخسر ذاكرتك في زوايا المنازل التي تعبرها، وكلما تراكمت حقائب الرحيل ستفقد البيوت سُكناها. ظننا أن في الهروب خلاصنا، فإذ به معركة تبدأ بخسارة وتقفل بهزيمة. الهروب خنجر مسموم تغرسه يمين عقلك في زاوية قلبك.

تركنا ورائنا، يا أبي، مدينة بسقوف نائمة تحتضن بيوت أصحابها. صنع الموتى من حطام الحرب وسائد لنومهم العميق، كما يضم المعتقلون

أحذيتهم تحت رؤوسهم كتذكار ثمين. تركنا بلدة تخيط سمائها الطائرات الحربية فرحاً بالموت. لم نخنكم يا أبي، حاربت أرواحنا العتمة بشموع ذائبة. نصبنا من أقمشة فرحنا المهترئة خيمة لمستقبلنا البعيد. أخفيت عنك يا أبي أن خيول عربة الشتات رحلت بنا بعيدا خارج سوريا. عدت اليوم لانتظرك هنا كزمن توقف تحت سقف دهرنا».

قطار النوم

تسللت عتمة المساء وابتلعت سحبها أصوات المحتشدين. فالتفت الشابة حنين والحفيد حول الجدة استعدادا لاستقبال الليلة الأولى تحت الجسر. تفرق الجمع، بعضهم استلقى تحت أعمدة قريبة، وآخرون رحلوا إلى الحدائق المجاورة. دقائق ودفنت المدينة في الظلمة. أنارت نوافذ الفندق المجاور للجسر بعضاً من ليل المنتظر. سألت الجدة الشابة إذا ما أخبرهم عمها أو خالها أي شيء عن مصير والدها. حركت رأسها بإشارة النفي ثم أعقبت: «حكوا لنا عن عزلتهم في السجن. حيث يغيب الوقت كلياً ويشعر المعتقلون أن جلاديهم يتحكمون بحياتهم داخله وخارجه. حشروهم، عشرون معتقلاً في زنزانة حملت الرقم ثلاثة عشر، طولها ثلاثة أمتار وعرضها مترين. تقاسموا فيض المساحات بالبلاطة، لكل واحد منهم بلاطة، ثلاثين سنتمترا بثلاثين. تناوبوا على صناعة أحلامهم، ثلاث مجموعات، الأولى واقفة، والثانية جالسة بوضعية القرفصاء، والثالثة بقطار النوم. أتعرفين قطار النوم يا جدة؟».

لا تنتظر الفتاة رداً من الجدة، وتتابع وصف السجن كما حفظت: «يجلس أحدهم بظهر مشدود إلى جدار الزنزانة ويبعد بين ساقيه ليجلس

رجل آخر بينهما مبعداً بين ساقيه كسابقه وهكذا دواليك ليلتحم القطار. يسند الرجال رؤوسهم على صدور بعضهم بعضاً وينامون». يقاطعها الحفيد بارتباك ممزوج باستغراب بريء: «وينامون!». ترمق الفتاة سماء دمشق المزينة بالنجوم وتكمل: «ينامون ملء جفونهم. أخبرني خالي أنهم كانوا ينتظرون لحظات التبديل وكأنها نداء إخلاء سبيل. ففي السجن تتقزم الأحلام. ساعة نوم مريحة، جلسة تعذيب أقل عنفاً، رغيف خبز طازج، كأس من الشاي المحلى، شربة ماء باردة. أعظم أمانيهم حمام ساخن يغسل عنهم جلودهم الميتة. كانوا يخرجونهم إلى التواليت كل يوم، في رحلة تعبر بهم السجن من أقصاه إلى أقصاه. يركضون والسياط تضربهم ذهابا وإياباً. يعطيهم السجانة أقل من دقيقة ليتبولوا فقط.

العذاب لم يكن أسوء ما في السجن إنما الازدحام. وصلت أعدادهم في ذات الزنزانة إلى أكثر من ستة وعشرين معتقلاً، معظمهم عراة إلا من لباس داخلي. تتنافس الأنوف والأفواه على التقاط حبات الهواء المنحسرة. يرمون بوجوههم عند عتبة الباب بالتناوب ليتنفسوا. قبل أن يفتح السجان الباب، يأمرهم بالتراجع ثلاث بلاطات إلى الداخل. ما أن يسمعوا نقرته الصغيرة على باب الزنزانة حتى يصطفوا بوجوه مطوية وأعناق مكسورة باتجاه الجدار. يلتصقون ببعضهم ليفسحوا المجال أمام الباب، تنغرس أصابع الأقدام اللاحقة في كعاب السابقة. يحنون الأعناق بين الأكتاف، وينتظرون نداء الاسم أو الرقم المطلوب. ألم أخبركم أن السجناء يصيرون أرقاماً في مستودعات الموت. يرفع صاحب الرقم يمينه دون رأسه، ثم يستجيب لأوامر السجان بالاستدارة وتسليم يديه

للقيد قبل أن يخرجه من الزنزانة. ما إن يغلق الباب عليهم ثانية حتى يعتريهم شعور بامتلاك العالم».

قوائم المنسيين

يقطع حبل سرد الشابة تثاقل أنفاس الفتى الذي غط في نومه مسنداً رأسه إلى كتف جدته. تنظر الشابة في عيون الجدة التي تشير لها بأن تكمل ما بدأت. «أخبريني عن حياتهم أكثر يا صغيرتي»، «يا جدة، بات النوم بعيدا المنال عنهم، يقفون لساعات طوال قبل أن ينالوا فرصة مد أجسادهم فوق أرض غرفة التحقق، حيث تأكل الكابلات لحم ظهرهم وعجيزاتهم وأفخاذهم. تمنوا الخروج للعذاب ليرتاحوا من الوقوف. أغلقت عقول بعضهم أبواب وعيها، فأخذوا يتصرفون كالممسوسين. عمي كان أحد الفاصلين، كما يسمونهم في السجن، يوم غاب في عالمه الخاص أخذ يحدث جدي، عقد اتفاقات لمواعيد العمل في ورشة نجارتهم، أيّ مفروشات سوف تسلم ولمن، عقد صفقات بيع لعشرات الزبائن ذاكراً أسمائهم الكاملة، ثم أقفل استرساله غضبٌ مجهول المصدر، فأخذ يطرق باب الزنزانة بعنف، قبل أن ينقض عليه أبي ويدفنه تحته وبين الأقدام الدامية. عندما يفصل السجين أمامه خياران: إما يسكته السجان قتلا، أو أن يضربه رئيس المهجع حتى يغيب عن الوعي، كذلك فعل أبي مع عمي/ أخيه. للدقة لا ينام الفاصل ألماما من ضرب الجسد، بل من فرط إرهاق الروح. تتأرجح حياة السجن ما بين مرّين يا جدة». مسحت الجدة وجه الفتاة برفق، وسألتها عن أمها وكيف كانت تداوي الأيام في انتظار والدها.

«أمي، وردة جوري ذبلت قبل أن تورق. عقب سماعها حكايات خالي وعمي، وحياتهما في الفرع. زارت مطار المزة للسؤال عن أبي إن كان على قيد الحياة أو إن كان ما يزال هناك. رفيقاه أقسما أنهما تركاه حياً. لم يعترف الحرس أن أبي في المطار، أحالوها إلى مقر إدارة المخابرات الجوية في ساحة التحرير. تابعت طريقها عابرة دمشق من طوقها الغربي إلى قلبها القديم. تحرش بها الحرس، عرضوا عليها معرفة مصيره إن فعلت ما يطلبون. هربت منهم والدمع يتطاير غاسلاً حجابها الأبيض. بحثت في الشرطة العسكرية، بالقابون، نعم لقد وصلت البوابة الشرقية للمدينة ولا جواب. عند بوابة سجن المطار سألها أحد الحرس عن اسمه، فأبلغته، فتش سجلا كبيرا مرميا أمام طاولته، فوجده بين قوائم «المنسيين»، أتعرفين ما هي هذه القوائم يا جدة؟ ... هي لمن تركوهم في سجون سرية ليموتوا دون محاكمة. أبي بينهم، إلا أن الحارس أكد لها أنه قد يخرج بأي وقت، فلا يعني كونه بين المنسيين أنه ميت. رسم لها على ورقة صغيرة ثلاثة أرقام متشابهة (٥٥٥)، لم تفهمها إلى اليوم».

«إنه الفوج ثلاث خمسات دفاع جوي، التابع للفرقة الرابعة قوات خاصة، في منطقة السومرية غرب دمشق». جاءها صوت هامس من عتمة الركن البعيد تحت الجسر. فزعت وتلفتت راصدة ملامح المتكلم إلا أن الظلمة منعتها. تقدم الشاب ذو العقود الأربعة نحوهم ببطء متابعاً كلامه: «كنت سجيناً هناك، ونجوت. بقيت هناك عاماً إلا خمسة أيام. كانت....». تقطع الفتاة كلامه: «في أي عام، أتذكر من كان معك؟». «كنت هناك في العام 2013 في المهجع جيم، وهو واحد من أربعة غرف كبيرة إحداها للنساء»، أجاب الشاب دون ارتباك وتابع:

«أذكر الجميع. نُقلنا من فروع المخابرات الجوية إلى هناك. هل لك أن تصفي لي والدك؟».

أغمضت الشابة عينيها كأنها تستعيد صورته، وقبل أن تنطق بكلمة سألها إن كانت تملك صورة له؟ فأشارت برأسها نفياً: «يوم خرجنا من بيتنا إلى بيت جدي، توقعنا أننا سنعود بعد يوم أو يومين، إلا أن إقامتنا طالت، وانقطع الطريق إلى بيتنا. خرجنا بعدها إلى المزارع وغاب البيت تحت رماد القذائف. لا نملك إلا دفتر العائلة، مع أمي، وفيه صورة صغيرة قديمة غابت عنها ملامح والدي. طويل أكثر من 180 سنتمتراً، عيونه عسلية فاتحة وشعره بني قاتم. لحيته قصيرة لطيفة، أسنانه ضاحكة كروحه». أشار لها الشاب أن تتمهل بالوصف مقاطعاً: «السجن يعيد عجن الإنسان فيصيره رماداً، ثم صلصالاً، ليحرقه في خلق جديد يبقي على روحه فقط. كان معنا الكثير من أهالي داريا، بينهم واحد اسمه موسى، ويكنى بأبي هارون». ما إن أطبق الشاب فمه حتى اختنقت الفتاة بموجة بكاء كادت تقتلها. أيقظت النيام من حولها، جاءها أحدهم بشربة ماء. بالكاد تمالكت نفسها، وهي تنصت لكلمات الشاب يروي لها يوميات والدها في ذلك السجن السري.

«مهجعنا، ليس إلا بلوكوساً عسكرياً أُعدّ ليحتوي أجهزة رادار ترصد طائرات العدو. كانت مسارات التجهيزات، وسكك الرادار العسكري ما تزال مغروسة في الأرض الاسمنتية المسلحة. تُقسم الغرفة بالبطانية العسكرية، ومهجعنا كان اثنتي عشرة بطانية، كل واحدة تضم بين ثمانية وعشرة معتقلين. التواليت في زاوية الغرفة، وهو ليس إلا حفرة فنية ومغسلة لا تمنعهما عن باقي المكان أي ستائر أو جدران.

هناك كنا نتبول ونتغوط ونغتسل أمام بعضنا بعضاً». قاطعته الفتاة لاهثة «أبي خجول جدا، فكيف تدبر أمره؟». يوم القيامة يا صغيرتي تشخص الوجوه إلى السماء بحثا عن خلاصها. قضيت شهوري هناك ولم انتبه كغيري لتلك الزاوية.

«أخبرني عن أبي، أرجوك». تتضرع الفتاة للشاب الذي انتقل بكليته للجلوس بينها وبين الجدة التي استقامت بجلستها لتتابع التفاصيل عن كثب: «كنت في السجن يوم نقل والدك مع عدد كبير من رجال داريا إلى الفوج ثلاث خمسات. استقبلهم السجانة كالعادة، بحفل مهيب أبقاهم ممددين لأسبوع دون حراك. استعاد والدك قوته بسرعة، ليصير فدائياً عن المرضى والمسنين، يوم تشتد ليال العذاب، إذ كان الحرس ودون سابق إنذار، ينزلون إلى القبو حيث مهاجعنا، سكارى، تفوح منهم رائحة اليانسون. من سماكة الجدران لا ندرك وصولهم إلا عندما يرمون «القارص» أمام باب المهجع، والقارص هو أداة التعذيب الأكثر امتاعا للسجانين، عندما يحضر يعني أن جلسة التعذيب ستنتهي بموت. بعضنا كان يبول على نفسه من شدة الخوف، فقضيب المعدن الطويل الثقيل، يعني ليلة عامرة بالعذاب القاتل. والدك كان يتحضر بالدعاء. يفتحون الباب ويطلبون من رئيس المهجع، وهو تحت الضرب، بأن يخرج لهم عشرة معاقبين. عادة يخرج لهم الشبان الأشداء ووالدك كان من بينهم هؤلاء الشبان. بعد نصف ساعة أو ساعة يعيدونهم والدماء تنزف من كل بقعة في أجسادهم.

أثقلت الذكريات كتفي الشاب، فلاذ بصمت يستجمع فيه قواه قبل أن يتابع: «قسمنا أنفسنا إلى مجموعات في كل واحدة عشرة معتقلين.

كل مجموعة لها رقمها الخاص، بحيث تخرج المجموعات بالتتالي. استثنينا الشيوخ والمرضى، ولكن مع استمرار العذاب اليومي، قررنا صراحة أننا جميعا تحت الكابل سواء. فجلود الظهر تفتحت من الضرب، كما أن التعذيب بالهراوات وعصي الكهرباء صار أمراً اعتيادياً ويومياً ... لتعلمي يا صغيرتي أن الحياة لا قيمة لها في السجن. إذا أخرجونا إلى الحلاقة كانوا يقضون على عدد منا تحت الضربات. نخرج أربعة إلى الحلاقة، واحدة يقص شعره بكل قسوة وعنف، والثلاثة البقية تحت جلدات الكابلات، وهكذا إلى أن يعودوا جميعا إلى المهجع. كانت الحلاقة تستمر ليومين أو ثلاثة، نفقد خلالها بعضنا. إذا توفي اثنين أو ثلاثة فقط، نعتبر أنفسنا من الناجين». تقاطعه الفتاة باكية: «أمات أبي في الحلاقة؟ كان يحب تصفيف شعره الكثيف وتشذيب لحيته كل صباح». تسكتها الدموع والصور المتراكمة في مرمى الذاكرة. ينطلق الشاب مستعجلاً البوح: «والدك بعد أقل من شهر صار والدك رئيسا لمهجعنا، ورغم شجاعته ومواجهته للموت المحمول على العذاب إلا أنه لم يقضِ من الضرب أو صعقات الكهرباء. ذات يوم جلبوا إلينا طعاما مكونا من حبات البطاطا المسلوقة على عجل، وبعض البرغل المسلوق، وقف أحد الشيوخ طالبا منا ألا نأكل، فالطعام فاسد، إلا أنه وصل متأخراً. من شدة الجوع ولهيب الخوف يغيب تذوقنا ووعينا بما نأكل. وما هي إلا ساعات قليلة حتى وقف الجميع أمام التواليت، يحاولون إفراغ أمعائهم، شدة الإسهال دفعت البعض للتغوط في قصعات الطعام، فلا وقت لقطع خمسة أمتار بين طرفي المهجع والوقوف لساعة أو أكثر أمام التواليت. كانت هذه «ديزنطارية» انتهت عند البعض بعد يومين، إلا أن

البعض أصيبوا بنزيف حاد تطلب نقلهم من سجن الـ 555 إلى المشفى العسكري».

«والدي كان منهم...؟».

خيم الصمت على ليل الجسر المثقل بأخبار الغياب.

الزمن الثاني

يدين الرجال لله بالروح وللنساء بالحياة.

سيدة تطوي عقدها الخامس، تباشر حديثها مع حنين التي أنهت لتوها رحلة سنين طويلة في بحثها عن والدها بكلمة واحدة تحت الجسر، تتابع تلك السيدة دعك الطين الذي تسويه بين يديها برفق: «اقتربي يا صغيرتي، وانظري»، رفعت قماشة بيضاء تغطي صندوقها الخشبي الكبير، في قاعه تزدحم تماثيل طينية مختلفة الأحجام. تقدمت الفتاة، التي صرفت سحاب ليلها بالبكاء في حضن الجدة من الصندوق، فإذ بتماثيل طينية معجونة بأسلاك معدنية، تلك التي يستخدمها البناؤون في ربط الحديد بالحديد، تماثيل تخلقها تلك الفنانة لتعبر عن رأيها في السلطة والحياة والرغبة والحرية، المعدن العابر للطين هو الرغبة أو السلطة، وطين الجسد هو الحياة أو الحرية، كانت جميع المنحوتات ترسم ملامح كراسٍ مختلفة الأحجام تمسك بأجساد المنحوتات البشرية، تارة من الأعناق، وأخرى من القلب، وأحيانا تعبر كامل الجسد.

هزتها الملامح المتألمة للتماثيل الصغيرة. اعتراها رعب أرجف قلبها، فقفزت بفزع مبتعدة، إلا أن السيدة أمسكت يدها برفق، وباشرتها الكلام: «يا صغيرة، لخلاص السوريين، كغيرهم من البشر، سبع بوابات

لسبعة أنبياء: الثائرون كرمال صحارينا، الصابرون كجذوع زيتون إدلب، المخالفون كماء العاصي، النحيلون كحور غوطتنا، الفرحون بحلوانا الملونة، الهادئون كأسماك الأبيض المتوسط، الصامتون كالحجارة المرصوصة في جدران قلاعنا.

بوابات الأنبياء في الشام لم تقفل بعد يا صغيرتي».

ثارت أصوات الناس عالياً وتحركت الأقدام راكضة نحو عربة اللحمة العسكرية. «ابقي هنا يا جدة» كرر الفتى يوسف عبارته قبل أن يلتحق بالراكضين. أقدام عارية تدوس الدرجات المعدنية، يتحركون وراء العسكري الذي فتح باب العربة. جلودهم بيضاء شفيفة تظهر حركة الدماء من تحتها. شعر رأسهم ممزق، منتوف، محلوق، طويل مكسر، أو محروق، وكذلك لحاهم. تزين حمرة الدماء المسودة بعض ملامحهم. تمسك جباههم بأكتاف سابقيهم كما اعتادوا في السجن. تسرق عيونهم نظرة إلى السماء الزرقاء. أصابعهم المرتجفة تمسك أثواب رفاقهم بالتتالي. «أبي أنا يوسف يا أبي...» يصرخ الصغير مراراً، ولا جواب. يُخرج العسكري ذو القبعة الحمراء بطاقات الهوية من جيبه. ينادي عليهم بالكنية، يتقدمون بانتظام ليلتقطوا «أماناتهم» كما أسماها الرقيب الأول، الذي تكلف عناء النزول من كرسي العربة الأمامي، لإبلاغهم بأنهم أحرار بعفو من الرئيس «المفدى».

اندفع أحد المحررين قافزاً فوق قدميه العاريتين بين الحشود. أمسك بيد الرجل المسن ذو الحطة البيضاء والعقال الأسود، وقبّلها صارخاً ببكاء مرّ: «أبي، أبي، أنا نضال يا أبي...». لم تسقط كلمات الشاب أرضا إلا وكان والده منهاراً معها، ذابت أقدامه قبل قلبه من الفرح. جلسا

وجها لوجه، الابن يطبع القبل على يدي والده، والأخير يمسح رأسه ذو الشعر المهترئ، والبكاء يقطع لحن كلماته: «عشت وشفتك بخير يا ابني... يا ريحة الغيّاب يا نضال.. عشت وشفتك بخير». التحم الحشد من حولهم، بدوران خفيف، كأنهم في صلاة صوفية طويلة. سالت الدموع دون سبب، ورحل بقية المعتقلين عبر الشوارع الجانبية وحيدين صامتين.

جلب بائع الشاي، لنضال، كوباً زجاجياً من شاي ثقيل القوام، يُحلّق لهيب دفئه عاليا عند حوافه. مسحت الجدة كتفي الشاب المستسلم لشمس الصيف، فالتفت إليها عندما سألته: «أين رفاقك يا صغيري؟». رشف الشاي بعد لقمة الهريسة السوداء. خرجت كلماته مثقلة بالدموع: «لا رفاق يا أمي، من كانوا معي في عربة اللحمة اعتقلوا منذ فترات قصيرة، أعطوهم ثياب القدامى كحالي، أو ثياب الراحلين. نُقل بعض معتقلي صيدنايا إلى الفروع قبل يومين، بعد أن ضج السِجن فجأة ودون سابق إنذار بخبر العفو». أخرسته هجمة خوف، فالتفت ذات اليمين وذات الشمال، عندما التمس الطمأنينة في عيون والده تابع: «لا يعني الانتقال من صيدنايا إلى الفروع أن الخلاص قريب. ربما يكون نقلاً بلا عودة، حيث يودع السجناء في أماكن مجهولة». نظر في عيون والده مشتت الأفكار قبل أن يتابع: «في ذاك العالم السفلي يا أبي لا وجود للآلهة، عالم يحكمه المسوخ، حولتهم العتمة لجرذان يعتاشون على اللحم البشري. مساعد السجن يُحيك أو يُميتك، يُخلي سبيلك أو يدرج اسمك على قوائم الإعدام. عالم منزوع النياشين، لا نسور أو نجوم تزين أكتافهم يا أبي».

اكتست وجوه المتحلقين باليأس بعد كلمات نضال ليستدرك: «لكن وكما خرجت أنا قد يخرج آخرون ... كيف هي أمي؟ كنت أغني لها في السجن، هل كانت تسمعني؟». سُحبت الابتسامة عن وجه والده الذي اشغل نفسه بترتب حطته وعقاله. «أمك بخير يا ابني، بخير، لكنها لم تقدر على المجيء معي، الطريق من دير الزور إلى الشام متعب وثقيل على جسدها المريض».

تقدمت النحاتة من الحشد واضعة بين يدي الشاب تمثالاً طينيا، امرأة تحملها شباك الكرسي لها أياد كثيرة ترفعها للأعلى وهي ممسكة بعشرات الجرار الصغيرة كأنها تزرع السماء بالنجوم.

اجتازته وهي تركز نظرها في وجه الفتاة المتسمرة أمامه كأنها تتلمس آثار ما علق عليه من عبق والدها: من قال إن الموت خروج من الحياة؟ من قال إن الولادة بوابة الحياة اليتيمة؟

أدمعت عينا المعتقل المحرر قبل أن يفتح كفيه ليتلو الفاتحة على روح والدته، وضع والده يده على كتف نضال: «دفنت كما أرادت في قبر أبيض تزينه الرياحين في قريتنا التي رفضت الخروج منها. أثقل قلبها انتظارك حتى جفف رحيقها ورحلت».

تحولت الساحة تحت الجسر إلى مأتم، كلٌّ يبكي أحبته وأصحابه على طريقته. مع تعامد الشمس على أرض دمشق، عاد الحشد ليلتئم حول الجدة الحكواتية. المغيّبون في بلاد الشمس كثر، والمنتظرون أكثر.

سيف القاتل

تسحب النحاتة من صندوقها تمثالا لجندي تخترقه أطراف الكرسي الأربعة، لتحيله عربة يمتطيها قائد غاضب: «الحرية، هي ألا تكون أياً منهما، لا القائد ولا الجندي...». قاطعها رجل، ببذة عسكرية دامية، رياضي الجسد، وقد طوى عقده الخامس منذ حين: «من لا يَقتل، يُقتل».

انتشر الخوف في صفوف الحشد: «أهذا هو؟... لقد أعلنوا موته، فكيف هو بيننا الآن؟». تسلل البعيدون، تاركين طوق الحكاية. تسمر أولئك المشمولون بحقل عينيه الناريتين. قصير القامة خلافا لجميع الصور المرسومة له بالأذهان. متواضع الطلة والشكل والحضور. بارد الوجه، جاف الملامح، كأنه صخرة مقطوعة من جبال الجحيم. «أخفتكم أليس كذلك؟ أعلم جيدا ذلك فعملي الذي كلفتني به السيد الرئيس الذي لجأتم لجسره هو إطفاء أرواحكم المتقدة، وإطفاء أي أمل قد تتشبثون به في رحلة خلاصكم»، هكذا ودون تمهيد باشر القاتل كلامه. انتصب على منصة حجرية، تلفت حول ذاته... بين الحشد انطلق أحد ضحاياه لم يتوقع القاتل أنه سيصادف قتيله، ظهر أبو ناجي واقفا كالنخلة محدقاً في عينه كنسر يمسح تراب البادية.

مد يده في جيبه باحثا فيها عما يمسح به عرق صدمته، وكي يخفي فزعه، أراد كعادة القتلة إرهاب الجموع، ليخفي خوفه، فأخرج بعض أثار ضحاياه من جيبيه ورفعها عاليا وهو يزعق بالحشود: «هذا اللعين ترك بعضا من شعر حاجبيه في جيبي، وذاك رمشاً مخضبا بالدموع، أما تلك الصغيرة فتركت كلمة «عمو لا تقتلني» كالرعد يدوي بين جدران جمجمتي ... جنوبي دمشق، هناك بين أدغال البيوت المتضامنة، بدأت

المعارك وتصاعد دخان الخوف سريعاً، صمد نداء حريتكم، فولدت الرصاصة.

سأخبركم سراً أبوح به للمرة الأولى، أنا لا أحب حرب القذائف. تلك المعارك ذات الصوت العالي والأثر الضعيف لا تشفي غليلي. يوم قتل أخي، كانت رصاصة مجهولة هي من أخذته بعيداً. لم يجرأ القاتل على النظر في عيونه عميقاً، لم يكلمه، لم يداعبه. أما أنا ففعلت، كلمتهم، ضحكنا، أدمعت عيونهم من شدة الفرح. مللت المناوشات بين ضفتي الحي الذي انقسم إلى شرق وغرب، نرميهم بالقذائف يردون بالهتافات للحرية، أو رشق رصاصات هزيلة، نرمي عليهم براميل نار، يسحبون جرحاهم وقتلاهم، ليدفنوهم بأعراس تغمرها الأهازيج.

يتململ أبو ناجي المولود من رحم المجزرة بوقفته، يمور الغضب في قلبه، صرخ في وجه قاتله: من لا يعرف الموت لا يتقن الحياة. تولد الأحلام تحت شواهد قبورنا، وتولد كوابيس طغيانك من لعنة دمائنا التي ستلاحقك أبد الدهر..

تشتد النغمة القاسية في كلمات الجلاد، بات كمن يقذفها في سماء الجسر لتسقط على الحشود فتقتلهم. يعطي ظهره لأبي ناجي، ويعاود صراخه: «كم مرة حشرناهم في بيوتهم، فدَفنوا، كصغار الأرانب، رؤوسهم تحت بطون أمهاتهم. دخلت قذائفنا عليهم من الأبواب والنوافذ. حطمنا كل شيء كي لا يعودوا إلى الحياة. مزقنا الأرض والسماء، فكانت ولادتهم سريعة. جاء حُرهم ليحاربنا، فأنزلنا على المدنيين حمم السماء، براميل، صواريخ، قذائف هاون، لعبنا بلا قوانين أو نظم».

العائلات كالأشجار

مع اشتداد العتمة، زحف الحشد ليحتمي من كلمات القاتل، تحت اسمنت الجسر. صارت الساحة الكبيرة فارغة إلا من مركبات لا وقود لها، ومن أبو ناجي الواقف كرمح أمام القاتل، يحدق به حتى صارت عينيه نافذة يرى منها الجلاد شريط مجازره، يفقد عقله ويزأر فتخرج تفاصيل بعضها من قاع جمجمته:

«أنا من حفرت فيه الحرب عميقا لتُخرج من الإنسان الوحش القابع داخله، لتُخرج أبشع ما فيه، فصار الموت شاهد قبر على جبهتي أدفنكم فيه... للحرب شياطينها، تلك الشياطين التي تُعوّدك على رائحة الدماء، تعطّرها في أنفك، تعوّدك على ملمس الجثث الثلجي، تحشو مسدسك بالرصاص كلما فرغ من أعماله اليومية. الحرب، أمٌّ تكره أولادهاً. لم أدرك نفسي إلا وأنا أوسع حفر من قتلتهم في أزقة التضامن والمخيم تحت أساسات الأبنية، لقد جعلت منازلهم قبورهم».

دار حول نفسه، ضاحكاً بجنون: «كانت لعبة مدهشة، تراهم يهربون من الموت فلا يدركون إلا الموت. باشرناهم بالتتالي أخبرهم أننا سنطلق سراحهم إذا ما سارعوا بالركض بعيداً. تدفعهم الأماني بالحياة، ربما شوقهم لذويهم، أظنه الخوف، لا! أظنه الفرح بالخلاص. أعطيتهم ما تمنوا، الخلاص. ألم أفعل؟ أردت لهم الموت فرحين، متأملين، حالمين. أظنكم رأيتموهم كم كانوا سعداء بركضهم لمترين أو ثلاثة قبل أن يسقطوا فوق بعضهم بعضاً، ألم تفعلوا؟ حقُّ الموتى علينا أن نشهد غيابهم».

ظهرت سيارة «اللحمة» من بعيد فعاد الحشد إلى مواقعه، وتحت أقدام الأمل بلقاء الغيّاب ضاع نعيق الجلاد وتشظى تحت أقدامه. أحرقت النحاتة بخورا ثقيلا، حيث كان القاتل واقفاً. أشعلت جارتها رُبع شمعة قبل أن تخرج من جيب جلباها الطويل مصحفا صغيراً، وتباشر تلاوتها الصامتة. مسحت الجدة وجهها ببعض الماء، وتحضرت لليلتها الثانية تحت الجسر. عاد الحفيد برفقة الشابة التي رفضت تركهم رغم يقينها بأن والدها كان مع الراحلين. نضال ووالده طويا الطريق من الجسر إلى ساحة يوسف العظمة، بحثا عن طبيب أسنان يعيد له بعضاً مما فقد. توسد الصغير حضن جدته التي باشرت شعره بمسحة حانية.

تغلق صاحبة الشمعة مصحفها الصغير، وتقطع، بخطوات واسعة، الأمتار القليلة التي تفصلها عن الجدة. «أمي، يا أمي، كيف لهم أن يتركوني دون جواب كل هذه السنوات؟ كيف لهم أن يقنعوني بموته؟ أتموت صخور هذه الأرض يا أمي؟». تخنق دموعها، وهي تعانق الجدة. «العائلاتُ كالأشجار، الرجال جذوعها والنساء رحيقها. إذا ما سقط الجذع ينزف الرحيق بقية حياته. هذا حالي يا أمي مذ ضرب الفأس الأعمى جذع أسرتنا. سبع سنوات وأنا ممزقة بين مطار المزة، والشرطة العسكرية في القابون، والجواب لا أحد هنا بهذا الاسم. كيف لهم أن يجدوه في سجلاتهم، والسجون حولتهم لأرقام؟».

تصمت كأنها تستعيد ذكرياتها بصعوبة: «اعتقلوا زوجي في الثامن عشر من شهر شباط بعد انتصاف اليوم بثلاثين دقيقة قبل تسع سنوات. جئت دمشق بحثا عنه، باشرتها من الغرب، حيث مطار المزة، كانوا قد أخبروني أن الحاجز الذي اعتقله يتبع المخابرات الجوية. طردني الحرس

قبل أن أكمل طلبي، ما إن عرف أنني من حوران حتى صرخ بوجهي كأني أغتصب بيته. خرجت لتحملني قدمي إلى وسط المدينة في ساحة التحرير، لساحاتنا أسماء جميلة لكنهم اعتقلوها بفروعهم الأمنية، وقفت عند باب إدارة المخابرات الجوية، ولكن لا فائدة يا جدة، كلهم يجأرون بالصراخ كأننا نريد سلبهم ممتلكاتهم. تابعت شرقا إلى القابون، دخلت مقر الشرطة العسكرية هناك، فأعلموني أنهم لا يملكون أي معلومات وإذا ما أردت شيء كهذا فعلي مراجعة المخابرات العسكرية. حملت حقيبة الثياب التي جهزتها لزوجي، وعدت إلى منطقة كفرسوسة حيث مقار المخابرات العسكرية، حارس فرع المنطقة أرسلني إلى فرع فلسطين الذي يخيم بظله الثقيل على متحلق المدينة الجنوبي. بقيت على هذا الحال من فرع إلى آخر، ومن إدارة إلى ثانية حتى عبرت شوارع المدينة كلها، من حدودها الشرقية إلى الغربية ومن الغربية إلى الجنوبية فالشمالية ولا فائدة. كلهم يكررون ذات العبارة، لا وجود له في سجلاتنا».

«ألم تبحثي عنه في درعا يا صغيرة؟» تسألها الجدة التي تمسك بيدها بلطف كأنها تصلياً تحت سماء المدينة التي غرقت في نومها منذ الأزل. «بالطبع يا جدة ذهبت سألت عنه في مفرزة الجوية في درعا، يومها طلب مني الحارس أن أدخل إلى ساحة المفرزة لأرى ما إذا كانت سيارته في الداخل، فوجودها هناك يعني أنه في سجنهم. لحظة مشيت خطوة داخل البوابة الكبيرة أطلق عليّ الحرس النار بين أقدامي لإخافتي. أظنني يا جدة فقدت القدرة على الإنجاب من يومها. تركت الجوية وقصدت فرع الأمن العسكري، إلا أن حجتهم كانت حقيقية وصادقة هذه المرة، فهم كانوا لا يعرفون أسماء الذين ألقوا القبض عليهم خلال تلك الفترة.

كدّسوهم تحت الأرض وتركوهم لصغار الضباط يحيلون أسمائهم إلى أرقام، لنفقدهم بعدها. قصدت كل الفروع والسجون في تلك المدينة الصغيرة، أمن الدولة، الأمن السياسي، والسجن المركزي، ثم الشرطة العسكرية هناك أخبروني بأنه كان في عهدتهم ورحل إلى دمشق، بلادنا سجن كبير يا جدة.

يصدح آذان الفجر مغرقا المدينة. تطفو فوقها سحابة مثقلة بريح ورود قديمة. تختلط أنفاس النيام تحت الجسر. تمسح الجدة يد الزوجة المكلومة ورأس صغيرها في صلاة مشتركة، تجمّع ثلاثة أجيال في نقطة منسية تحت جسر غيروا اسمه ليذكر العالم بزعيم عائلة أحالت بلاداً برمتها إلى مزرعة باسمها.

تَفِرّ دمعة ساخنة من عين الجدة تغلبها وتسقط أرضاً. تتبخر الدمعة قبل أن تغط الجدة في نوم هادئ وعميق لا يفسده تسلل المرأة من جانبها قاصدة النحاتة. يستحيل البوح علاجاً. أفواه تتكلم وأذان تصغي، فالعزاء ليس إلا حفل بوح يخفف يقين الموت، يحيله وهماً، أملاً، انتظاراً، مسامحة، حباً، أو كراهية تخرج قبل أن تقتلنا. كم ميتها تريد هذه البلاد قبل أن تشفى من ويلاتها؟ رفع شواهد القبور لا يذكر بالموتى إنما يتركهم في درج النسيان بسلام. غياب الشواهد يُبقي الموتى في غرف نومنا، قلوبنا، عقولنا، وأرواحنا.

«أعَيش وحيدة في قبو بيت مهمل مع أولادي. تركت والدهم بعيداً عن حياتنا، إلا أنه يأتي إليهم في أحلامهم. أخاف عليهم من الجنون، والدهم حاضر في غيابه، أراه بينهم، يلعب معهم كعادته وقت الظهيرة. يوقظهم صباحا للحاق بمدارسهم، يساعدهم في كتابة واجباتهم عندما

يعودون. هو بينهم على طاولة الإفطار الرمضانية، رسمه طفلي الصغير بيننا يشرب عرق السوس ويضحك. أبكي حد الغياب، قبل أن أغسل وجهه وأشاركهم طعام الغداء. أريدهم أن ينسوا ما نحن فيه». تقاطعها النحاتة، بلطف كأنها تمسح علامات الدمع عنه وجنتيها. «يا أختي، لا تحاولي منع حضوره، فالأرواح لا تحجبها الجدران، ولا الأماني. الأرواح كشواطئ البحار تغسلها الأمواج ليل نهار دون ملل».

تخرج النحاتة من صندوقها الخشبي الكبير تمثالاً لراقص مولوية معلق بحبال كأنها تهبط من السماء:»حب الله لعبده يثبته في قلوب عباده ... ألا تؤمن بذلك يا شهاب الدين؟» توجه النحاتة كلامها لرجل يجلس في ركن الجسر العميق، وراء الحشود ويمسك دفتراً صغيرا بين يديه يدون فيه بقلم رصاص. يرفع شهاب رأسه متأملاً السماء، فاتحاً عيونه الواسعة، عسلية اللون، لحيته الطويلة غارقة بالشيب: «إذا أحب الله عبده جذبه إليه».

الزمن الثالث

الجنون يقين العقلانية.

أنا شهاب الدين، يعرفني الحشد، بمجنون الجسر. أدون لكم ما تقرأون اليوم، بقلم رصاص ورثته عن أخر وراقي الشام، هنا كبرت الهموم فهرمت الحياة. أعذروني لكنكم لن تقدروا على فهم ما يجري إلا إذا استنشقتم زفير أطفال يكبرون على الأرصفة وفي الحدائق. لا يدرك الذلّ إلا من يحيا تحت وطأة دعساته. قررت الجنون فاعتكفت هنا لأوثق ألمكم. الجنون كالجوع رحلة طويلة من الحرمان. الجوع لا يعني ألا تأكل

أو تشرب ليوم أو يومين. الجوع هو أن تحلم بوجبة لذيذة من طعامك المعتادة، ثم تأكل وتشبع، قبل أن تدخن سيجارتك وتشرب كأس شاي محلاً بسكر حقيقي، لتستيقظ في اليوم التالي يقتلك الشبع.

الجوع هو أن تنام لتحلم فتشبع لا أكثر، أما الجنون، فهو سقف الانتظار على مقعد معدني قرب بوابة البلاد. انتظارك لغُيّابكَ، ذاك الذي تغسل مياه المتوسط جبينه دون ملل، وآخر ابتلعه الغول تاركا صدى أناته في رأسك، وتلك التي تلد من اغتصابها مرات ومرات. الجنون حربك دون سلاح ضد الموت، إنجاب أطفال تطلق عليهم أجمل الأسماء ليموتوا بين يديك مختنقين بغاز السارين. هو ضحكة علقت على شفتيك يوم تذكرت حبيبتك مصادفة. هو حجاب أمك الذي تربطه على خصرك مذ ماتت عطشاً لدواء لا قيمة له.

الجنون لا يعني غياب العقل، إنما حضور كثيف لكل التفاصيل.. نظرة الخوف بعيون والدك وأنت مقيد بالسلاسل ومجرور إلى سجن قد لا تخرج منه. صفير البراميل عند اقترابها من البيوت والشوارع. عنّة الهاون، وهدير الميغ، تَقطّعُ الهواء بين شفرات المروحية. عمامات سوداء صارت خناجراً تذبح الأعناق البريئة مع تكبيرات العيد. الجنون هو الذكريات.

ولأنني مجنون أحفظ لكم ذاكرة هذه البلاد التي أغلَقت أبوابها على من فيها ومن خارجها. ظننتم بأنكم ناجين منها، إلا أنها بلاد سائلة تتسرب من شقوق الجدران، ومن قضبان السجن وشِبَاك عربات اللحمة ومراكب الهروب وبيوت اللجوء...

انفجرت شائعة أن مكان الانتظار للمعتقلين المحررين قد تغير. الخطة الآن أنهم سيطلقون سراحهم من السجن المركزي، عدرا، عند البوابة الشرقية لدمشق. ثم تعدلت الشائعة قليلا، وصار إطلاق سراح المحررين من مقر الشرطة العسكرية في القابون بذات الاتجاه الشرقي، ولكن أقرب إلى مركز المدينة. بقيت الشائعة تتعدل جغرافيّا، حتى وصلت إلى مقر إدارة المخابرات العامة في كفرسوسة، لتنسحب ثانية إلى مقر إدارة المخابرات العسكرية قرب المنطقة الحرة قبل المزة بقليل. خلافا للمعتاد بقي الحشد مستقرا تحت الجسر، قلة فقط من تبعوا الشائعات، قبل أن يقفلوا عائدين قبيل انتصاف اليوم الثالث من الانتظار.

لم تبرد الشائعات حتى وصلت وفود من الصحافيين، وكاميرات التلفزة. ارتاب الحشد، ما الذي يجري؟ ماذا هناك؟ هل اقترب موعد خروج المعتقلين، فأعطيت الأوامر إلى الصحافة لتنتظر هذه اللحظة التاريخية من عفو القائد على شعبه العاق؟

كما في السجن، أخذ الحشد يحلل الهمسات ويبني عليها جبالا من الأمل. ربما هذا يقينا ما سيجرى، وسيكون خروج المعتقلين قاب قوسين أو أدنى! سرت قصة أكثر تفاؤلاً بأن العفو شمل الجميع، ولن يبقى في السجن إلا الهواء. استعادوا استخدام الكلمة القديمة التي عرفها السوريون فترة الانقلابات «تبيّض سجون»، كان الرئيس الكريم عندما يقرر تبيّض سجون البلاد من المظلومين يعتقد أنه سيفتح صفحة جديدة مع شعبه والتاريخ.

لو تأخرت أسئلة الصحافيين قليلا لحمل الحشد صور القائد وهتفوا باسمه من شدة وهم الحكايات التي انتشرت، وربما فعلوها خوفاً على

أنفسهم وأحبابهم، فالخوف ذاك السائل الشفاف الذي رضعناه مع حليب أمهاتنا استقر في نسيج عقولنا وإن كرهنا.

شبان يحيطون بنساء مسنات، وشابات يحشرن أنفسهن بين الرؤوس، مع أطفال بالكاد عرفوا المشي يتقدمون للكلام. الجميع يبوح بما في خاطره، تلك تبكي أمام الكاميرا وآخر يكاد ينفجر غضبه قبل أن يبتلعه. تسجل الكاميرات الكثير من الحكايات ولا تبث شيئاً، تحفظ آلات التسجيل عشرات القصص دون إعلانها.

بيت الحب

«لماذا جاءوا إذا يا جدتي؟» يسأل الحفيد مستغرباً. «أنا سأخبرك لماذا جاءوا يا صغيري». تتقدم منه سيدة بالكاد تركت عقدها الرابع، إلا أنها تبدو في الستين من عمرها. تحضن معطفاً رجالياً من الصوف الناعم، تمسح عليه وهي تكمل كلامها: «ذات يوم يا صغيري، قررت الزواج ثانية، بعد انتظاري لزوجي المفقود أكثر من خمس سنوات. في اليوم التالي وقع طفلي الأصغر مغشياً عليه، نقلته إلى المستشفى، فحصه الأطباء بعناية، أجروا له عشرات التحاليل وجميعها جاء بنتائج اعتيادية. حرارته ترتفع جسده يهذي من شدة العذاب، ولكن لا مرض معلن لنعالجه». تتنهد عميقاً قبل أن تتابع وعيونها معلقة في السماء. «جاءني طبيب مسن إلى غرفة الانتظار، وسألني دون مواربة إذا ما كنت قد تسببت بحزن لهذا الطفل. قال إنها أعراض الكمد، وهذا لا مسبب له إلا الشعور بالأسى.

عندها هَمستُ في أذن صغيري أنني رفضت الزواج وأني سأبقى معهم أبد الدهر، أشرقت عيناه وعدنا إلى البيت وصغيري يركض أمامي».

«إنها زراعة الوهم يا صغيري». تباشر الجدة حبل الكلام، قبل أن تعيده إلى السيدة، فمن يبوح ببعض مما فيه يريد البوح بكل شيء. «أين هو زوجك اليوم يا ابنتي؟» تسألها.

«ذهب وراء الشمس بقدميه في ربيع العام 2013. يومها أرسل الأمن العسكري بطلبه، توقع أن القصة مجرد تشابه أسماء ولذا قرر الذهاب دون خوف. طلبوا منه العودة للمراجعة في اليوم التالي فعاد، كذلك فعل في اليوم الثالث، ظن أن المسألة تافهة لا قيمة لها، راجعهم في اليوم الرابع ولم يخرج». تمسح وجهها كأنها تبعد الذكريات قليلا لتقدر على البوح، وتتابع: «قبل أن يذهب إليهم اتصل بأحد رجال الدين المعروف بقربه من السلطة واستشاره بالوضع، فأخبره الشيخ أن القصة لا قيمة لها ولا خوف منهم أبدا. ذهب لمواجهة القصة التافهة ولم يعد إلى اليوم».

«يوم اعتقل توقعت أنه سيخرج بعد يومين أو ثلاثة، أو أنهم سينقلونه إلى سجن مدني حيث يمكنني زيارته. توقعت، كما أوهمنا الشيخ، بأن القصة بسيطة. عرفت لاحقا أن تهمة زوجي باختصار هي إدارة بيت للحب». لم تمنع ابتسامة ارتسمت على وجهها، فأشرقت وجوه الحشد بضحكة صغيرة. هَمهَم الجميع بشيء من الاستفسار عن بيت الحب، فهذه قصة لا تشبه غيرها. «أحال زوجي بيتنا القديم المطل على سجن صيدنايا العسكري إلى فسحة للقاء الأحباب. هناك عند نوافذه المطلة على تل السجن الكريه، وقف مقاتلون من الجيش الحر وزوجاتهم يتأملون الغروب. صارت غرفة نومنا سريراً يجمع المتفرقين على ضفتي خطوط النار. يَسّرَ زوجي انتقال النساء إلى رجالهن، وساعدهن في عبور

الحواجز إلى منطقتنا المحررة. يبقون هناك ليوم أو يومين ثم يعيدهم إلى بيوتهم في مناطق النظام».

لمعت عيون الحشد بسحر الحكاية، فأكملت السيدة بوحها الدافئ: «أيكتمل الحب دون غناء؟ زوجي كان يحب الغناء، ويحفظ عن ظهر قلب عشرات الموشحات الأندلسية، والقدود الحلبية. يوم لا يكون هناك لقاء للأحبة في بيتنا يحيله إلى مسرح يملئ قلوب المقاتلين بالفرح. كان يعاملهم كأطفاله، يغني لهم حتى يغفوا من التعب. إلا أن أحدهم خانه، لم يكن أهلا للحب أو الصداقة أو الخبز والملح». تفرّ دمعة حارقة من عينها، تمسحها بطرف المعطف الصوفي الذي تحتضنه ثم تنظر في عيون الجدة لتسألها: «أهذا جزاء المحب؟».

«لا يا صغيرتي، هذا قَدَر المحبين، يعطون قلوبهم وإن صيرها الآخرون جرابا لكراهيتهم». تصمت الجدة قليلا ثم تسألها استكمال الحكاية. «بعد سنتين من اعتقاله، دفعت الكثير من الرشاوي لأعرف أنه في صيدنايا. ذات السجن الذي سَخِر منه لسنوات صار فيه سجيناً. تدبرتُ أمر زيارة إلى تلك القلعة الحمراء، ووصلتها صباحاً محملة بالأطعمة والثياب. استدنت من أهله وأهلي المال لأتمكن من زيارته، فما وجدت هناك إلا نصفه. لا أقصد أنه فقد ثلثي وزنه فقط، لا! فقد روحه المرحة، صوته تغير، صار أنينا يأتي من بعيد. خمس دقائق من وراء شبكين يفصل بينهما هواء يملئه جندي ثقيل الحضور. كتفاه محنية كأنه شاخ خمسين عاماً، عيونه مطفأة، وذاكرته غائبة. نسي أسماء أطفاله، بكى كثيراً دون صوت. دموعه تسيل دون وعي منه. وقبل أن أتركه بثواني قليلة أبلغني ألا أتي ثانية. عندما استفسرت منه أشار بيده إلى عنقه كأنه

يقطعها، «أنا محكوم إعدام». ثم أوصاني بنفسي وأولاده خيراً. رفضت قراراه الانهزامي، وطلبت زيارة ثانية بعد شهرين. عند وصولي إلى بوابة السجن الكبيرة وقبل أن يسمحوا لنا بركوب العربة التي تنقلنا إلى البناء الداخلي. جاءني سجان ليبلغني بأني زوجي «بح، تبخر». لم أفهم ما يقول، ظننتها إحدى شتائمهم التي ترافقنا طيلة الطريق. لكنه أكد لي بأن زوجي تبخر من السجن».

تركضُ الأجساد الممزقة بنصال الجوع والانتظار بحثا عن زهور الربيع. توقفت عربة لحمة ثالثة، عند بوابة الساحة المدفونة تحت الجسر. نزل منها عشرون معتقلاً، نالهم ما نال السابقين، تلاوة أسماء ثم إعلان العفو الكريم. صورت الكاميرات الحدث التاريخي العظيم، وحاولت اللقاء ببعضهم إلا أن نظرة من عناصر الأمن المحيطين بالساحة أبعدتهم. تأمل الحفيد، يوسف، وجوه المفرج عنهم. بينهم رجل قليل شعر الرأس، هادئ الملامح، يتحرك ببطء الحالمين. عرفه بروحه، فركض إليه صارخاً: «أبي أنا يوسف يا أبي...». نظر الرجل في عيون الصغير طويلاً قبل أن يفتر وجهه عن ابتسامة واسعة. نزل إليه طاويا جسده النحيل، تأمل ملامحه بعناية...

ضاع الحشد في تفاصيل المشهد المهيب...

فريق كتابة الرواية

جابر بكر

- روائي وباحث، سجين سياسي سابق، وناشط حقوقي.
- يعمل كباحث أول ومسؤول ملف سوريا في مركز الحريات الإعلامية والثقافية - عيون سمير قصير (سكايز).
- أنتج عدة روايات سياسية باللغة العربية، منها 601 المحاكمات الإلهية (2017)، وباب الفراديس - الرسائل المفقودة لغيلان الدمشقي (2020). هو أيضاً أحد مؤلفي الغولاك السوري: سجون الأسد 1970 - 2020، الذي صدر باللغة الهولندية عام (2022).
- كتب وأعد عددًا من الأفلام الوثائقية والمسلسلات الصوتية.
- أسس بودكاست «البحث عن المعنى» و«الكاتبة» و«الخشبة المستحيلة».

جورج كدر

- إعلامي وكاتب سوري/هولندي ولد في مدينة حمص 1978.
- استشاري في التاريخ الشفوي لدى منظمة دولتي.
- مدير ومنسق ومحرر مشروع الرواية الجماعية ضمن مشروع التاريخ الشفوي لدولتي.
- له العديد من المؤلفات:
- كتاب جذور النكتة الحمصية، معجم آلهة العرب قبل الإسلام، مشروع مكتبة الجنس في حياة العرب صدر منه 7 كتب حتى الآن، هندسة الفتن، معجم لغة الطفولة: اللهو مع تاريخ الكلمات.
- وفي الأدب صدر له: قصص على حائط الفيس بوك، وكتاب بعنوان الرحم.

- ترجمت بعض قصائده إلى اللغة الإسبانية نشرت في مواقع متخصصة تمهيدا لصدورها في ديوان.

رافي ميناس

- مسرحي وكاتب وقاصّ سوري.
- عضو في رابطة الكتّاب السوريين. عضو في نقابة العمّال الاجتماعيين في ألبيرتا/كندا.
- دبلوم في العمل الاجتماعي من كلية بوفالي - كندا.
- يعمل في مجال المسرح ككاتب وممثل ومدرب مسرح تفاعلي منذ عام 2006.
- من أعماله كمؤلف: مسرحية «حلم» 2012 - عروض «أنا وهو» 2013 - The Suitcase 2018 - «كلام موزون» عروض مسرح خيال الظل 2020.
- أصدر مؤخرًا كتابه الأول «ورقة التين» قصص قصيرة.

راما الحاج علي

- روائية وكاتبة سورية.
- من مواليد دمشق عام 1998.
- ابتدأت دراستها في تخصصي الطب البشري، والأطراف الصناعية والأجهزة التقويمية عام 2016.
- طالبة طب بشري بجامعة مرسين التركية.
- مهتمة بقضية المعتقلين والمغيبين قسراً.
- صدر لها أول عمل روائي عام 2021، بعنوان (يرحلون ونبقى، حتى عنوان انتصاري هزيمة!).

فوز الفارس

- روائية وباحثة اجتماعية.
- مواليد حماه /سوريا/1981.
- ماجستير لغة عربية
- صدر لها رواية بعنوان: أبناء الوحشة 2019 عن دار موزاييك في إسطنبول.
- مجموعة قصصية بعنوان: سورياليّات (أمّهات المنفى) 2022 عن دار فضاءات في الأردن.
- مدونة في الموقع الإلكتروني لتلفزيون سوريا.

ملاذ الزعبي

- ولد في أواسط الثمانينيات لأبوين سوريين، ولكم أن تتخيلوا التداعيات.
- عضو سابق في منظمة طلائع البعث واتحاد شبيبة الثورة.
- نصير في حزب البعث العربي الاشتراكي رغم عدم دفعه رسوم الاشتراك منذ ضمّه قسرياً للحزب.
- حاز على كأس التميز خلال مسابقة للمعلومات العامة على مستوى مدارس المنطقة، وفقد الكأس الذي صادره المدير ووضعه في خزانة المدرسة.
- خاض تجربة الولادة من الخاصرة بعد نيله الجنسية البريطانية مؤخراً.

هدى الجوادي

- صحافية إذاعية سورية جزائرية مستقلة.
- حائزة على درجة الماجستير في التنمية الحضرية من جامعة UCL في بريطانيا.
- حائزة على الماجستير المزدوج في التنمية الحضرية المستدامة من جامعة دمشق وباريس الشرقية في فرنسا.

وائل ريحاني

- صحفي سوري وكاتب مستقل من مواليد مدينة حمص.
- محرر الجزء الإخباري العربي في برنامج جو شو.
- مؤسس ومدير مهرجان حمص السينمائي 2016، الذي أقيم خلال حصار حي الوعر.

صورة الغلاف الخارجي

ديمة نشاوي

- فنانة بصرية ومهرجة وحكواتية، تركز على توثيق حكايا السوريين/ات ومناصرة قضايا المرأة والمعتقلين/ات. حاصلة على درجة الماجستير في الفنون والإدارة الثقافية من جامعة King's College – لندن وشهادة البكالوريوس في علم الاجتماع من جامعة دمشق. تم إدراجها في عام 2018 ضمن قائمة الـ BBC 100 Women وهي قائمة تسلط الضوء على بعض النساء الأكثر تأثيرًا من مختلف أنحاء العالم.

«أرشيف التاريخ الشفوي السوري»

مبادرة عملت عليها دولتي منذ عام 2016 تقوم على إنشاء أرشيف التاريخ الشفوي السوري والذي يتضمن شهادات سوريين وسوريات عن تجاربهم الفردية والجماعية خلال الانتفاضة السورية عام 2011 والصراع السوري بعد ذلك.

يهدف إنشاء هذا الأرشيف إلى المساهمة في بناء سردية جامعة حول ما حصل في سوريا خلال هذه الحقبة من الزمن. ومنذ نشأته شكل هذا الأرشيف آلية من شأنها تمكين المجتمعات السورية والفئات المهمشة من سرد قصصهم والتأثير على السرد السائد حول الصراع وتشكيل الأجندة حول العدالة، إذ يمكن لمشاريع التاريخ الشفوي القائمة على المجتمع والتي تراعي الفوارق بين الجنسين وتتمحور حول الضحايا أن توفر وسيلة لتحقيق العدالة والتمكين.

وفي نزاع يتم فيه تجاهل أصوات النساء وأصوات الفئات المهمشة الأخرى أو إسكاتها، يمكن للتاريخ الشفوي إعادة التركيز على هذه التجارب والأصوات، وتقديم منظور جديد حول الصراع وسبل الحل.

حتى الآن تم جمع أكثر من 400 شهادة صوتية، قسم منها سيكون متاحاً للجمهور من خلال منصة إلكترونية، مع مستويات مختلفة من التصاريح والوصول.

بينما تغيرت منهجية دولتي على مدى السنوات الماضية، مع تطور الظروف والتعلم لدينا، كان هناك العديد من المبادئ التوجيهية التي أسست عملنا ونهجنا، وكان منها تحديد الفئات المهمشة وغير الممثلة، والعمل مع المجتمعات، والسعي إلى سد فجوة التمثيل التي يتم فيها جمع آراء واحتياجات الأشخاص عبر خطوط النزاع.

تم جمع الشهادات في سبع مناطق مختلفة في سوريا، وبينما تم جمع معظم القصص باللغة العربية، تم سرد بعض القصص التي تم جمعها في شمال شرق سوريا باللغة الكردية.

الأرشيف لا يمثل بأي حال من الأحوال التجارب المتنوعة للسوريين والسوريات، حتى بين السكان المستهدفين، لأنه ليس كاملاً. نستمر في تحديد الطرق التي يمكن من خلالها العمل مع المجتمعات في جميع أنحاء سوريا، بحيث لا نخلق أنماطاً جديدة من الإقصاء في جهودنا للتوافق مع سرد جديد.

الفهرس

كلمة دولتي 5

مقدمة لحرب ليست أهلية – **جورج كدر** 9

حروب صغيرة – **فوز الفارس** 19

راعي المَعز – **رايڤ ميناس** 57

الشيخ دولار – **ملاذ الزعبي** 95

صلاة لم تكتمل – **وائل ريحاني** 137

مُقلَةُ عين – **راما حاج علي** 197

برجه العاجي – **رايڤ ميناس** 239

الناجي الأخير – **هدى الجوادي** 279

عدسة الروح – **فوز الفارس** 319

ثلاثة أجيال تحت جسر الرئيس – **جابر بكر** 359

فريق كتابة الرواية 394

أرشيف التاريخ الشفوي السوري 398

كتّاب الرواية:

- فوز الفارس
- رافي ميناس
- ملاذ الزعبي
- وائل ريحاني
- راما الحاج علي
- هدى الجوادي
- جابر بكر

ثلاثة أجيال تحت جسر الرئيس

هذه رواية تشبه حياتنا، مبنية على شهادات حقيقة، فيها واقعٌ يفوق الخيال، وخيال يضمحل أكثر فأكثر أمام واقع فَاقَهُ. أبطالها قد نصادفهم في طريقنا، في مخيم لجوئنا، على حدود النزوح، على أطلال بيوتنا المهدمة، في بلاد ضاقت عن احتمال وجودنا، نروي لهم في صدفة اللقاء، بطولاتنا في النجاة من حرب أكلت الأخضر واليابس، ويروون لنا بطولتهم.

يقدم هذا العمل تجربة مختلفة في كتابة الرواية حيث يشترك ٨ كتاب في كتابة عمل روائي جماعي مبني على شهادات حقيقية مصدرها مشروع التاريخ الشفوي السوري.

ISBN 978-9953-0-6030-9

9 789953 060309

دولتي
www.dawlaty.org